

الْمُكَلَّفُ

بِسْمِهِ

حَمْدُكَ رَبِّي عَلَى

الْجُزْءِ الْأَوَّلِ

أَصْحَافُ الْبَيْتَافِ

المذكورة  
لهم لا ان

رقم الايداع  
٤٧٨٠

محمد كرد علي

# المذكرات

## الجزء الأول

تصفو الحياة لجاهل أو غافل      عما مضى منها وما يتوقع  
ولمن يغالط في الحقائق نفسه      ويسمها طلب الحال فتطبع  
«المتنبي»

## روح المذكرات

ليس الموضوع الذي اغابله (١) الآن ذا مكانة كبرى في ذاته ، إذا  
نظر إليه أنه مذكرات شخصية ، كتبها رجل ما كان في مقام شخص إليه  
أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقدم والتأخير في بحري سياستها .  
أنا أعرف أنه ما كان بلادي إلى عهد قريب كيان تعرف به في المعرف  
الدولي ، ولا هي من إحكام الأمر بحيث يرعب بأنها ويسمع صوتها ،  
ولا هي من العلم والفن بحسب <sup>يُمَكَّن</sup> لها في مجالس العلماء ، ولا هي  
رابحة الصفة في أسواق الحضارة ، فتتنافس العارفون في اقتداء <sup>بدائعيها</sup>  
وأعلاقها . وأعلم أن من الأشياء ما يكبر بكثير مصدره ، ومن الرجال من  
يعظم في العيون بقدر ما لا ينته من عظمته .

أصور بهذا التقيد طائفه من عشت بينهم صورة صادقة ، وأدوين كل  
حق عرفته ، ليشاركتني أبناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من  
أضجروني بقصورهم ، وآلموني بنورهم .

ككتبت كتاباً كان الجد سداها ولثتها ، وما جوَّزت لنفسي الحياد عن  
قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيin المقدمين والمؤخرین ، وأردت هنا  
أن أزع قيوداً أتلقنها وأن أراعيها ، وأن أبعد عن ذاك الطراز المقيد ،  
وأخرج إلى هذا الأسلوب المطلق .

احاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرّها ،

( ١ ) كت أحرص في هذه المذكرات على ألا أنكلم عن ثقى ، وألا أنقول قلت وفعلت ،  
فتذر ذلك لأن أكثر ما فيها ما سمعته أذناني ، ورأته عيني ، ووعلته ثقى ، فلن الصعب ذكره .  
بحرجاً من سامعه ورائيه ورواعيه ، وهوَنَ على هذا الأسلوب أن رأيتني لم آت بداعاً ، وتابت  
طريقه من سبقوني من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات .

وَكَرِعْتُ خَلْهَا وَخَرْهَا، أَنْ أَهْزَلْ أَحْيَانًا، وَأَسْخَرْ أَحْيَانًا، وَأَنْجُوكْ أَحْيَانًا،  
وَأَبْكِي أَحْيَانًا، لِأَنْ نَفِي سُثْتَ التَّزَامِ الْجَدِّ، وَتَبَرِّمَتْ مِنَ الاضْطِرَابِ  
فِي زَمَنًا طَوِيلًا، وَطَبِيعِي لَعْنِي عَلَى العِيشِ الرَّتِيبِ.

وَرَجَائِي أَلَا يَبْدُرُ الْقَارِيُّ فِي الْحِكْمَةِ عَلَيَّ، فَيَتَهَنَّئُ أَنِّي أَكْتَبُ صَحِيفَةً  
فِي التَّشَاؤمِ، وَالْتَّشَاؤمِ يَكْثُرُ فِي الشَّيْوخِ، فَإِنَّا وَانْ قُضِيَتْ شَطَرًا كَبِيرًا  
مِنَ الْعُمرِ فِي سُلْطَانِ التَّفَاؤلِ، لَا أَتَفَاعِلُ وَلَا أَتَشَاءُمُ . دَأْفُولُ جَهْدِي أَنْ  
أَزْنَ الْأَشْيَاءِ بِعَقَادِيرِهَا، وَأَنْ أُعْطِيَ كُلَّ أَمْرِيٍّ حَقَّهُ .

وَامْبِيَةُ النَّفْسِ يَوْمَ تَشَرُّ هَذِهِ الْمَذَكَرَاتِ أَلَا يَشْعُرُ مِنْهَا تَالِهَا وَسَامِهَا  
كَثِيرًا، وَأَنَا إِلَى هَذَا لَا أَطْمَعُ أَنْ يَجْمِعَ الْمَلاَءِ عَلَى اسْتِحْسَانِهَا، فَتَلَكَّ بَنِيةَ  
مَا تَعْتَقِدُ حَتَّىَ الْآنَ لِتَأْلِفَ، وَمِنْ أَيْنَ لِصَفَحَاتِ مُحَدَّدَةِ أَنْ كَسْتُوْفِي عَامَةَ  
شَهْوَاتِ النُّفُوسِ .

سَارِبًا يَتَأْلِمُ بَعْضُ مِنْ عَرَضَتْ لِذِكْرِهِمْ بِمَا قَدْ يَسْخَطُهُمْ، فَإِنَّا لَا أَحْفَلُ  
غَضِيبِهِمْ، وَلَا أَسْأَى إِلَى رِضَاهُمْ . وَلَعِلِيْ نَعْمَدْتُ أَحْيَانًا هَذِهِ سَرِيمَ لِأَنَّهُمْ  
يَهْتَكُونُ بِأَعْمَالِهِمْ سَرِيمَ هَذِهِ الْأَمْمَةِ لَا يَبَالُونَ .

وَإِذَا كَنْتَ لَمْ اسْتَخِذَ أَمَامَ مِنْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمُ النَّفْعُ وَالضرُّ، فَإِنَّا  
لَا أَسْأَعُ مِنْ لَا يَرْضِيهِمْ إِلَّا سَكُونِيَّ عَنْ مَسَاوِيهِمْ . دَأْبُتُ عَلَى قَتَالِ الْأَرْدِيَاءِ،  
وَالشَّابُّ غَضْ، وَالرَّغْبَةُ فِي اطْلَالِ جَبَلِ الْأَجْلِ عَظِيمَةُ، خَفْرِيُّ بِيْ إِلَّا  
أَكْفَ عَنْهُمْ، وَإِنَّا أَطْوَيْ آخِرَ مَرَاحِلِ الْعُمرِ، وَأَنْقُضُ الْيَدَ مِنْ بَهْرَجِ الْحَيَاةِ.  
قَصَدْتُ بِمَا دَوَنْتُ التَّحْذِيرَ مِنْ دَجَلِ الدَّجَالِيَّينِ، وَالتَّنبِيَّهَ عَلَى أَحَابِيلِ  
الْمُبَطَّلِيَّنِ، وَالْعَمَلَ عَلَى مَكَافَةِ الظَّالِمِيَّنِ، لِيُعْرَفَ أَنَّ كُلَّ جَبَلٍ لَا يَخْلُو مِنْ  
دُعَاءٍ بِخَلْوِهِمُ الْجَهَرُ بِالْحَقِّ مَهَا جَشَّهُمْ، وَمِنْ أَفْضَلِ الْطَّرَقِ إِلَيْهِ ضَرَبَ  
السَّفَاهَةُ فِي وُجُوهِهِمْ بِعِيُوبِهِمْ .

جَرِبْتُ السَّكُوتَ عَنْ لِمْ يَأْتُوا بِرَهَانِ وَاحِدٍ عَلَى جَهَنَّمِ الْخَيْرِ، وَمَا جَنَبْتُ  
مِنَ الْأَعْصَاءِ إِلَّا الْبَلَاءُ .

الْجَهَرُ بِالْحَقِّ، وَمَقَوْمَةُ الظَّلْمِ، مِنْ أَوْلَى مَرَابِبِ النَّهْوَضِ، وَالسَّاکِتُ  
عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانُ أَخْرَسِ .

## لقب أسرنا

تفضلي رئيس بجمع فؤاد الأول للغة العربية بالنيابة رصيفي الدكتور  
فارس نمر باشا يوم افتتاح مؤتمر الديرة الثالثة عشرة وسأفي في الملاء بعد  
أن تكلمت في المسافات والمنسوبات أن أكشف الغطاء عن حقيقة اسم أسرنا  
« كرد علي » ، وأذكر الأصل في هذه النسبة وهذه الإضافة فوعده  
باجابة طلبه وان أحل هذا اللغو الفاضح الذي طالما كان موضع أخذ ورد ،  
كنت فيها في مصيبة ، وصائب الدنيا كثيرة ومن جملتها هذا الاسم .  
جاء جدي من مدينة السليمانية من بلاد الأكراد ( شمال العراق )  
وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة وامي شركسية من قفقاسيا فاما على  
رغم أنه من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل التزاع ، وليس لغريبي  
ولا للشرقي ما يقول في دمي . ساني أبي محمد وكتاني بفريد ، فلما دخلت  
المدرسة الثانوية سأفي الناظر التركي من أي محله أنا ، وكان من عادتهم  
أن ينسبوا التلميذ إلى جهه الذي يسكنه ، فحررت في الجواب لأن اسم  
محلتنا ما كان من الرشاقة بحيث أجوز لنفي أن يطلق عليَّ اسمه  
« زقاق البرغل » فقلت له أنا من التعديل ، اسم محلة أخرى كان يسكنها أبي لما  
كان طفلا ، فكنت محمد لمديل ، ست سنين مدة الدراسة الثانوية ، ولما  
وظفت في الحكومة لم يرض رئيس الديوان أن يعيدي إلى اسم أسرني  
فاكتفي بمحمد فريد وحذف اسم عائلتي على حادة الاتراك ، ولما بدأت أكتب  
في الصحف كان أفعى ثمي أن أعود إلى اسمي الأول وإلى لقب يتنا القديم  
فأصبحت « محمد كرد علي » واغبطة ان حافظت عليه طول عمري وبه اشتهرت .  
واستان لي بعد ذلك أن في الناس من يجيدون جادلين أو متဂاهلين

عن اطلاق الاسم الذي اخترته ، ومنهم من يحب المساكدة أو لا يحفظ اسمه ولو كررته على مسامعه ألف مرة ، فما لبث بعض من عرفوني حتى في أيام ظبوري في الرياسات والوزارات أن تدخلوا في صيغة اسمي يجادلون أن يبدلوه بما يتلاءى لهم فمددت إلى البلاء الذي اصبت به في المقد الثاني من عمري ، و كنت أظن بعد أن ربحت معركة الاسم أنني نجوت عما لم ينج منه المصريون في التسمية ، لقد أضاعوا أنفسهم وأسيوا ببللة عظيمة كادت تكون هزلا ، وهل من المقبول أن يكون اسم شقيق أحمد ذكي باشا ، محمود بك رشاد ، وأن اسم شقيق حسن صبري باشا محمود بك فؤاد ، واسم عم علي ماهر باشا عبد الرحمن بك فهمي ، واسم شقيق محمد بك الخضرى عبد الله بك عفيفي ، وأن يكون اسماعيل صدقي باشا شقيق عزت بك شكري .  
نعم ظلت في كرب من هذا اللقب وهو وإن لم استسنه كثيراً لأنه ليس بليغ ولا فضيح ، لكنني رأيت في الحافظة عليه معنى من معانى الثبات ، وقد صقل على الأيام بعض الشيء . ومن الغريب أن أحد وزراء معارف سورية ما زال ينادي إلى اليوم « محمد علي بك » وأحد وزراء مصر ل المعارف أيضاً ما برح يخاطبني « بكردي بك » وقد قلت للأخير لما سمعته يكرر هذه التسمية : أنت وزير معارف ومفروض فيك الذكاء والمعرفة كيف لم تحفظ اسمي على حقيقته وقد ورد في الكتب والصحف وعلى الألسن مئات الآلاف من المرات ، فلن كفت لم تعلم أبسط الأشياء فأي شيء تلمت بالله عليك ؟ أما وزير معارف مصر فما خلصت من تحريف اسمي في خطابه لي إلا بعد أن هددته بأنني سأعمل على تحريف اسمه وأعامله بمثل ما يعاملني ، وأنا على شرك إلى الآن فيما إذا كانت حفظ اسمي كما ازل ، وكذلك رأي في وزير الشام . والأنك من كل هذا وذاك إن هذا المجمع بجمع فؤاد الأول للغة العربية الذي كان لي شرف الانضمام إليه منذ تأسيسه ما برح مكتبه يجود علي باسمي معروفاً ، ويذكره ويزيد عليه نعماناً أو رتبة

مثل « الفاضل » أو « صاحب العزة »، وما رقاني إلى أرق من هذين اللقبين مدة سبع عشرة سنة ، هذا والرئيس والأخوان يخاطبني بسعادتك وصاحب السعادة وهذه ما أكثر ما أسمها في مصر من مختلف الطبقات ويزيدون فيها « بك »، فتكون سعادة البيك ومن لم ينسوا اني عملت وزيرًا مدة طويلة لا يحرموني ، جبر الله كرم ، من لقب معاليك وصاحب الممالي . ألقاب بمجموعها ما أحبتها ولا حرست عليها ، ولطالما عمدت إلى اقانها بكل حيلة كما حرست على عهد الترك ألا أتزبن برتهم ، وفعلت في عهد الفرنسيس حتى نجوت من وسام جوقة الشرف . ولطالما أعلنت لمن يؤذوني بالقائهم ان لفظ الاستاذ أحب الألقاب إلى قلبي ، وان ابتدلت حتى صارت تقال للمستجدي في الشوارع ، ولقد جرى على لسان زملائي أعضاء المجمع العلمي العربي أن ينادوني بالاستاذ الرئيس وهذا كان منسجحاً مع الحقيقة لكنه سبق ان تكنى به ابن الميد في القدماء وكان لقب كثير من الرؤساء في فارس أزماناً طويلاً .

ولقد خلت جهوريتنا السعيدة من هذا المخرج وقضت الا يطلق بعد الآن على احد من أبنائنا الا لفظ « السيد » منها بلغ من مكانته ، وإذا عنكم ان تعرفوا أصل معنى السيد في اللغة فارجعوا إلى الماجم لقطوا على ما تريدون ، والظاهر ان من مضى عليهم زمن طويل وميسرون ويرحون باللقب الترك لا يرقوم التخليل عنها ، وإذا خاطبهم مخاطبهم بالسيد يمثرون ذلك تحفيراً لهم ، وبهلوان اذا أضفت إلى خطابك « سعادتك » « دولتك » « معاليك » « خامتك » ولكن المؤلمين بهذه التحليلات سوف يذعبون من الأرض ويختلفهم جبل شبي جديد يقنع بلفظ « سيد » ويمدها نسمة على العالمين .

وبعد فقد كاد هذا التبليل في صيغة اسمى أيام الصبا ان يحرمني راتب التقاعد ( المعاش ) ذلك ان خباء في ديوان المالية قالوا ان محمد

فريد الذي كان موظفاً في قلم الامور الأجنبية كان تركياماً من سنين رحمة الله وان دعواي اني أنا هو غير صححة ، وشهاد مملحان كانوا اخرجا من خدمة المعرف بسوء سيرتها ، فما وسمني الا أن اتيت بشهود عدول من كبار رجال الدولة عرفوني في ذاك الديوان منذ أول نشأني ومنهم جيرانى ولدانى في المدارس ، وما نلت حتى في الراتب بعد هذا الا بيماز للديوان من مصدر عال لم يسم المالية إلا ان تعطيه على مضض ، وكان من المقاومين في اعطائى ذلك وزيران من وزراء المالية لا يمرفان من أمرها أكثر مما أعرف من علم الكيمياء مثلاً هذا الى ما عرفا به من الأذى لمن لا يتابعهم على أهوائهم .  
هذا ما أورته اسمي من الاضطراب وضياع الوقت والآيات والاشهاد وهاكم الآن ما كتبته في مذكراتي بشأن هذه المصلحة الخطيرة على أن يكون فصل الخطاب في هذا الباب ولا احتاج بعدها الى سؤال ولا الى جواب وأخلاص أنا من العذاب فلا يطلق عليَّ « اندى » ولا « بك » ولا « باشا » ولا « خواجه » ولا « شيخ » ولا صاحب العزة ولا صاحب السعادة ولا صاحب المعالي وبكل هذه الالقاب الشرفة لقبت وهي لقب لا يجوز لي ان اقللها بعد ان حاربتها بالقلم والسان .

حاول احد شخصي أصدقائي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ان يدل كنبي « كرد علي » ويستعيض عنها بعلي فقط وأخذ يقتفي بذلك زماناً ويكتب لي بها إذا راسلني وحجه انه هذا الاسم من الالقاب المرعية فإذا أطلق عليَّ يؤخذ منه ان صاحبه كردي فقط لا يعرف غير السلب والنسب الى ما شاكل ذلك . و كنت أحاجه في هذا المعن واربه أن يتفضل عليَّ بكنية أسرني بطلقيها عليَّ في الكتاب والخطاب وأقول له ان في كنى الافرنج والعرب اقل من كنبي وأخوف منها ، وان في أجدادنا الماضين من كانت كنبيهم أو حشر وأسمى مثل ابن بصافة وابن أبي كدية وابن كناكت وابن كحينا وابن زبر وابن بهائم وابن فار وكم في الرجال الأجلة من لهم الالقاب قبيحة كعادية بن عبد الكريم الصال وانا ضلَّ في طريق مكة

وعبد الله بن محمد الضعيف وانما كان ضيفاً في صحفه لا في حديثه  
— وقد كتب الاستاذ المؤيد إلى صديقي الحبيب الاستاذ رفيق بك العظم في  
القاهرة مانصه : « ان الانكشارية كانوا يلقبون الطائرين منهم بالقاب مربعة مثل  
قره محمد وكور أحمد وللي يوسف وبكري مصطفى وبالطجي مسعود  
وبهلوان أيوب وانجيه بيرقدار ، وكرد علي الخ ... ثم انقرضت باقرارهم  
واستبدلت الألقاب بمثل مدحت وعزت وبهجة ونشأت عند الاذراك ، ومثل  
حمدي وجدي وشهدي عند المصريين ، وتوفيق ورفيق وامثالها عندنا  
فيقول الترك مثلاً خليل رفعت محمد مدحت أحمد عزت والمصريون محمد  
حمدي أحمد وجدي والمربي محمد توفيق أحمد رفيق محمد حسن محمد علي  
الخ ولم يمد يلقي تلك الألقاب القديمة إلا النادر من يوم لقبه من لا يعرفه  
انه شخص مرعب ولو كان أرق خلق الله وألطفهم . فلو افترضت اليك  
بطاقة زيارة محببة خادمك من زائر لا تعرفه وقد وقف بباب ينتظر الجواب  
ولما قرأتها وجدت عليها لقباً من تلك الألقاب المفرزة قره محمد مثلاً أو  
بالطجي مصطفى أفالاً يأخذك العجب وكيف تصور هذا الزائر . وبعد  
فقد جاء في ألبية ابن مالك :

ترحيمها احذف آخر المنادي كيما سما مان دعا سعادا  
أما حذف أول المنادي أو وسطه ففيه نظر وعندي ( دان لم يكن لي  
عند ) انه لا يأس به لتمكن من ترحيم لقب أخيها المشار إليه ... ،  
هذا وقد أوردت مانقدم على سبيل العلم أولاً والفكرة ثانياً والحمد  
للله خير الأسماء

## ذكريات الطفولة

وَمَا شَفِيَ بِالسَّاءِ إِلَّا تَذَكَّرَ أَهْلُهُ الْجَيْبُ نَزُولُ  
وَمَا عَشْتُ مِنْ بَعْدِ الْأَحْبَةِ سَلَوةً وَلَكِنِي لِلنَّاثِبَاتِ حَمُولَ  
يَقُولُ الْعَلَمَاءُ إِنْ مِنْ عَلَتْ بِهِمُ السَّنَ يَذَكَّرُونَ مَا وَقَعَ لَهُمْ وَهُمْ أَطْفَالٌ ،  
ذِكْرُهُمْ حَوَادِثُ الشَّابِ وَالْكَهْلَةِ وَالشِّيخُوخَةِ ، وَلَا يَذَكَّرُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ  
مَا قَرُبَ مِنْهُمْ عَهْدُهُ ، وَأَوْلُ مَا يَصَابُونَ بِنَسْبَانِهِ أَسْهَمُ الاعْلَامِ . وَأَنَا أَنْذَكِرُ  
حَوَادِثَ وَقَعْتَ لِي بَيْنَ السَّادِسَةِ وَالثَّامِنَةِ مِنْ عُمْرِي ، وَأَذَكِرُ الْأُشْخَاصِ  
الَّذِينَ كَانُوا مِنْ كُلِّي أَرَاهُمُ الآنَ ، وَأَذَكِرُ الزِّوَافَةَ الَّتِي كَانُوا وَاقْفَيْنَا فِيهَا  
أَوْ قَاعِدِينَ ، وَالْمَقْدَدُ الَّذِي جَلَسَ عَلَيْهِ دُلُونَهُ وَشَكَلَهُ ، وَأَذَكِرُ أَكْثَرَ  
مَا قَلَتْ لَهُمْ وَمَا قَالُوهُ لِي ، وَمَا تَأْثَرَتْ بِهِ تَسْيِي ، وَجَالَ فِي خَاطِرِي .

استصحبني والدتي وأنا في السادسة لزيارة أسرة الاستاذ الشيخ محمد  
الطنطاوي (في زفاف النازنجة بحلة القبرية بدمشق) فأدخلوها القاعة  
البرانية التي يجلس فيها الشيخ (السلامك او المدرة) فوقع نظري لأول  
مرة على رفوف في المكتبة، مصفوف عليها مجلدات، فشرقت متمنياً مما  
نظرت وسألت والدتي عن هذه الأشياء التي رأيتها على الجدران فقالت:  
هذه كتب يقرأ فيها العلماء. فأعجبني هذا المنظر الطريف، وقلت لامي:  
أنا أحب أن أعلم هذه الصنعة.

وَكَانَ أَمِي تَذَكَّرْنِي بِمَا قَلَتْ كَلَا أَرَادَتْ أَنْ تَبْرُئَهُمْ عَلَى حَفْظِ  
دَرْوِسِي ، لِلْوَقَاءِ بِمَا كَنْتُ رَجُونَهُ مِنْ لَعْنَةِ تَلْكَ الصَّنْفَةِ . وَكَانَ أَبِي يَنْشَطُنِي  
عَلَى الدَّرْسِ ، وَلَا أَصْبَحْتُ يَافِي وَشَاهِدًا لِاستغراقِي فِي كِتَابِي ، حَتَّى الْلَّا يَنْعِي  
الثَّانِي مِنَ الْلَّبِلِ ، أَخَذْ بِنَصْحِ لِي بِالاعْتِدَالِ فِي الْمَطَالِمَةِ ، خَشِيَّةً عَلَى عَيْوَنِي  
وَحْتِي ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَطْفِيُ الْمَصْبَاحَ لِيَضْطَرِنِي إِلَى النَّوْمِ .

**المؤسس المرعى** أسلمني أهلي إلى مدرسة « كافل سيباي » الابتدائية ، وأنا في الخامسة من عمري ، يتولى ابن عمي ملاحظتي وهو دون العاشرة . وكان مرة في سدة الجامع مع بعض الأولاد يؤذن بصوت رخيم ، وصوته كان جيلاً ، فدخل المعلم فاركش الفتى وبال على ثيابه ، فقطارت على رؤوس بعض المسلمين تحت السدة من الأولاد قطرات ، فكانت قمة تحك لما كل من في المدرسة .

رأيت في الصف مشهدًا استفزته ، رأيت ذات يوم شيخاً ما كنت رأيته من قبل وشاهدته ، وقد ظهرت من بعض الأطفال حركة لم يستحسنها على ما يظهر ، يسرع فيضرب المذنب على رأسه بطرف جبهته ، ويوجهه بلجة مغربية ، فاستفزت صورة الضرب بالجلبة ، فسألت من هو هذا الضارب ؟ فقبل لي هذا المفتش ، وهو أعلم من شيخنا وبقدر أن يعزله . فقلت في نفسي : يا يتنى أكون مثله . وما كان هذا المفتش إلا استاذي الملامة الشيخ طاهر الجزائري الذي اتصلت به بعد سنتين ، وقد بدأت أكتب في الصحف ، وأنطب العلم عند الشايخ .

وضموني مرة عند شيخ قرب دارنا ، كان أخذ له من دكان متعد مكتبياً ، وحضر فيه عشرات من الأطفال ، والباب مغلق ، والطاقات مسدودة ، فكانت رائحة كريهة . وللشيخ عصا طويلة يضرب بها الولدان في صدورهم وظهورهم ورؤوسهم ، ولعله ضربني ضربة واحدة من أول يوم ، واستعففت في الند من الذهب إلى هذا الكتاب ، وبكيت لوالدي فرق لي ، وقلت له : لا أحب التعلم إذا كان المعلم يضرب كل ولد في الكتاب ، سواء أخطأ أم لم يخطئ ، فأغفوني من الدوام على المكتب وبقيت أسرح وأسروح طول الصيف ، واطوّف الماء عند عصر كل يوم في حسن الدار ، وأسبح وأغطس في الحوض حتى أتبرد ، ولا انته المطالعة المدرسية رجعت إلى « كافل سيباي » .

أركبني والدي معه على فرسه ، وقصدنا قرية جربن في النوطة أول

مرة ، وكان ابناع بها مزرعة منذ اشهر قليلة ، واخذ يسر في الدار هناك **عليمة** إلى جانب **عليمة** كانت من قبل ، والتجارون ينجررون الأبواب والنوافذ ، وصعدت سلماً منصوباً على الطريق من خارج الدار ، واصحبوني ب الرجل يلاحظني وأنا أصد ، حتى لا تزaci رجلي فأفع ، وما زال بعض من رأيهم من الفلاحين هناك ، كأنهم أمامي الآن أنظر اليهم واحدتهم ، وكنت بعد سنين أذكر لهم ماقتها وما قالوه فيتزرون طرباً لهذه الذكريات . وكان أحد سادة القرية أبا سعيد درويش عند أبي مجلسان في دهليز يتنا هناك ، فطلبت إلى والدي أن يزيد في نفقتي اليومية ، وما كانت تتجاوز المطالبين ( نصف القرش ) ورجوته زيادة متاليك آخر فأبى ، وقال إن متاليك يكفيك ، فقضيت وظهر الغضب في وجهي ، فلما رأني أبو سعيد أحب أن يهدد من أمي ويداعبني فقال لي : إن أباك قال لي إن الدرام التي كانت عنده مخبأة في البدراويات ( سلات الأرض ) دفنهها لك في التراب ، أني اشتري لك المزرعة ، فلم يعده عنده ما يعطيك ، أليس « الحانوت » أحسن لك من متاليك زائد على خرجنك كل يوم ؟ فسكت وقلت في نفسي : المزرعة أكبر ، وفيها أشجار اعلق عليها أرجوحتي وألب عليها ، وتقذافي بها اختي وأقدفها ، وفيها حقول واسعة أطير عليها طيارتي في الهواء ، وفيها نهر صغير أسبح فيه .

وما كنت أزعج إلا عندما يقال لي غداً السبت تهيأ للنزول إلى البلد ، وإذا تخلفت فرقايك في الصف يسبونك ، وفي ليل مفارقة القرية وألعابها ينقبض سدرى ، وأغبط الصفادع على استمتاعها في مناقعها ، وأندب حظي على حرمانى ساع تقىقها أياماً . وبين القرية والحاضرة ثمانية كيلومترات ، لا بد من ركوب ساعتين على ظهر الحمار ، وصرف الاسبوع كله في الدار ، والخروج إلى القرية آخر الاسبوع . بتخرون لرکوبى الحمار حتى إذا سقط عن ظهرها يكون الخطر أقل ، وأصل إلى الأرض بدون ألم يذكر . وما زلت أذكر أني أردت مرة اجتياز جدول صغير فقادني إلى مأخذنى

لو لم تتقذني شفيفي الكبيرة . وسقطت مرة من رأس غصن عال من شجرة جوز ، حاولت نصب أنشوطة الأرجوحة عليه ، وما أظن علوه يقل عن ثلاثة أمتار ، ووقت على أرض لينة ، فتألت كثيرا ، ولم أبك مخافة أن يشعر أهلي ، ويلوموني على نسلق الشجرة ، وكثيراً ما كنت أغير في البيدر وأنا أطير طيارتي ، فتتخدش بداعي ، ويتهم وجهي ، ثم أعود فأطيرها وأنا موجع ، أكتم وجهي مخافة أن يضحك مني أبناء الفلاحين ، وينسبوني إلى ضعف الهمة ، وقلة الرجولة . ولا أزال إلى اليوم أذكر بعض من كنت أقدّف بهم طيارتي تحلق في الجو ، ويجب لتحليلها صبيان الفلاحين ، ويجب من معي بعملي ، ومن سرعتي في المدّو ، وببعض ما زال حياً ولله الحمد ، أذكرهم بالألبانا ويدكرونني ، وهم كانوا أترابي في القرية ، ومن أحب أهلاها إلى قلبي ، وفي مقدمتهم السيد عبد المطي درويش ابن ذاك الذي قال لي وأنا غاضب على أبي لامتناعه عن اعطاني متابيك آخر زيادة على نفقة : إن أباك دفن في التراب دراهمه التي كانت مخبورة في السلال وما بقي عنده ما يعطيك .

نـ / كان والدي كل سنة يدعوا بعد الحصاد زمرة من الحصّادين الذين حصدوا حبوبنا ورجدوها أي أتوا بها من الحقول إلى البيدر (الإجران) ويسمون هذه الدعوة (الجَوْرِعة) ويدعو بهم أحرامنا ومرابعينا والمصيفين والتواطير والحارس والخطيب وبعض أصحابه من وجوه القرية ، ويأتي بهم إلى أجمل حمام يستحمون فيه « حمام القيشاني » وهناك كنت أفرك ظبور أحرامنا ، فيضحكون ويدعون أي أزع الأوساخ عن أبدانهم ييدي الصغيرة حتى إذا أتموا استحمامهم يأتون إلى دارنا يتناولون ما هي لهم من طعام شهي ، وأعد لهم من الحلوي المعروفة بالبقلادة وكانت تخشى بالفتق إذا كان سعره معتدلاً ، وإذا غلا ثمنه تخشى باللوز أو الجوز . ويعطي كل واحد من العائلة الذين أحسنوا الخدمة مقداراً من البقلادة يحملونها إلى عيالهم في القرية ، ويقبض كل من أجاد عمله قدرًا من المال يناسب مكانته

وغناءه . وقد بطلت هذه الجَوْرِعَةُ أى ضيافة الدَّمَّلَة في أيامِي ، وأصبح العامل يفضل أن يأخذ ريلاً أو ريلين على أن يعطى يوماً كاملاً في الحاضرة للاستحمام ، وتناول الطعام .

كانت لي حالة امرأة أب محبوبة من إخوتي وأخواتي ، نجها كما نجت أمنا ، وكنا نناديها بيا (أمِي ستي) ، وكانت تولى تربية كل ولد ثُمَّتْ أمي إرضاعه . و (أمِي ستي) من أصل الباني قوية الشَّكيمة وتعية بارة . كنت أدهش من مواطناتها على صلوانها ، وكانت تتجدد من الليل ولصلي مئة ركعة ، وتتوضاً من حوض الماء في صبيح الشتاء ولا تخاف البرد ، ولا تشعل النار لتتدفأ ، وتهضم عندما تقرأ وردها ، فكنت وأنا في القراءات أسمع تعمتها وهبمة القطة التي كانت أمي ستي تديمها في فراشها معنا ، وكانت لها سبحة أطول من ليالي شتاء ، يقولون لها الإلْفِيَّة لأنها تضم ألف حبة كبيرة ، وعندها إلى اليوم بعض جبابتها احتفظ بها أهلي للبركة .

شعرت أول ما وعيت على نفسي بضعف النساء ، وكنت أحب الاجتماع إلىهن ، وأفضله على الاجتماع إلى أزابي ، وأحب سماع كلام من مختلف مهن إلى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهن من كان أرضعني فصرت أبهن من الرضاع ، وغدا أولادهن أخواتي وإخوتي . وكان الكهلاط والشابات والمجازن من أولئك النسوة ، الفلاحات منهن والبلديات يضممني إلى صدورهن ويقبلنني وأغمبنهن وأقبهن ، وأحسن ما كان يسوقني الجلوس في حجورهن ، والبيث بنهودهن وشعورهن وضفائرهن . وكنت أحب ذات الشعر الائتِث ، ومن وجدت لمعاناً في وجهها أعتقد أنها تدهنه بالزيت في الحمام ، وذلك لأن أمي حملتني معها إلى حمام القرية مرة ، فشاهدت الفلاحات يدهن أجسامهن بالزيت والزيتون فقلت لا بد أن يكون كل النساء على تلك الشاكلة .

وكنت أشتاق جداً إلى سماع ما يقص على النساء من حكاياتهن الشهية ولا سيما ما كان فيه نكتة وشيء من الغرابة وكانت أميز بين التي تحسن

الحديث وبين التي لا تحيط به ، وأرجح الاولى ، ولو كانت عجوزاً شهداً  
بشعة الصورة ، على الصبية ولو كانت خلابة المنظر وكانت لي أخت من  
الرضاخ جميلة الوجه بضياء اسمها ( بحرية ) ، وكانت أستغرب هذا الاسم  
وأقول في تقسي : لها ولدت في البحر بيروت فسموها بحرية . وكانت  
أقبل ( بحرية ) قبلات حارة وتنقلني كذلك ، وقالوا لي سرات : ليتها تحيوز  
لذلك حتى نزوجك منها متى كبرت ، وبالطبع ما كنت أعرف ما هو الزواج  
وأجيهم زوجوني بها فاني أحباها ، وكانت يومئذ في السابعة من عمرها وربما  
كانت هي في الخامسة عشرة . وبقيت بعد ذلك أونرا مجلس النساء منها كان  
لونه ، على مجالس الرجال إلى أن شببت وشبت .

ومن كنت أبعت بهن امرأة مرابعنا سلطان في القرية ( سلطان اسمه  
وهو أفغاني الأصل ) كنت أكثُر من زيارتها وهي عجوز شوهاء فقدت  
بنיהם ، فكنت أسمح لهم أكثر الأحيان فأشفق عليهما ، وكانت أفي  
شعر رأسها لا يخرج لها الصبيان ، فأجعل بين ظفري حركة يسمع لها  
صوت كأنني أغلق القمل فتسري وأضحكها ، وأعظم ما كان يعجبني في دارها  
الواسعة بالنسبة للدور الفلاحين في القرية ذاك البنات المعرضة باسمه « الساعة »  
ويحمل زهراً مدوراً ملوناً مستديراً فكانت تحفني منه بما أحب فأحمله إلى  
أمِي فتسري وتفرح ببشرة امرأة مرابعنا الحزينة ، وندعو لها ولادها  
بطول العمر ودوام الصحة .

أخذتني أمي منها إلى عرس عظيم في دار آل البكري ، وأجلستني  
إلى جانب تخت المفتبنة ، وكانت صاحبة التخت أشهر مفتبنة في عصرها ،  
على ما قبل لي بعد ، اسمها أنيسة بنت جلاله ، وهي حنطية اللون ، دعجاء  
العينين ، تلاطف من يقترب منها ويكلمها من المدعوات ، وأظنها عند الصبح  
رقشت وهي تقني ، وكان يدها سيف . استمعت إلى أنيسة وجوقتها ، ثم  
غابي النوم ما صحوت ، والوقت كان صيفاً ، إلا على صوت المؤذن ينضم  
بالصلوات في المآذنة القرية بصوت جميل ، وبليل تلك الليلة أنيسة بنت

سوتها في فناء تلك الدار القوراء ، والنساء يصفقن لصفيقاً حاداً بين حين وآخر ، ويدعون للمقنية ، ويستحسن كل ما تنبه ، فطربت كثيراً ، واظن كان ذلك اول عهدى بالطرب ، واخذت ادرك معنى الصوت الحسن واشتاق الى سماعه ، وانوقي ان اسمع ما ينشد ، وكثيراً ما كنت اقول لامي بعد تلك الليلة المطربة ، خذيني معك الى العرس كما اخذتني الى عرس بيت البكري ، واذا احتفل بعرس ولم تأخذني معها اغضب وندمع عيني ، واغبطها لانها سمعت بنت جلاله ، لاعتقادي بأن آنيسة تكون مقنية كل عرس يختلف به .

أذكر أن ( امي ستي ) كانت تلخوها على من العين ، إذا عمل لي والدي مضربة ، أتي بها برد الشتاء تبادر إلى تربيع أكمامها بقطع لبست من لون قماشها ، ليقول من يشاهدونني أليس مرقطة اني ابن فقراء ، فتختلطاني عيونهم ولا ينظرون الي نظر حسد ، وأذكر أن أبي ابتع لي على اليد صرمادة حلبية أي نعلاً حلبياً أحمر ، ومعها جوارب غليظة من شغل الاكراد بطن قدماها بالسخيان ، وذلك لاخرج منه صباح اول يوم من العيد الى المقبرة لزيارة الاموات . وكانت لشدة فرحي بهذا النعل الا أحمر اضمه بجانبي في الفراش ، وانتبه مرات قبل ان يؤذن الصبح ، ويفحين وقت الخروج الى المقبرة ، ثم الذهاب الى المسجد الجامع لصلاة العيد ، والفرحة على ( السلاملك ) اي حفلة خروج الباشا والي البلد بالمساكر من الجامع الى الرأي . وكانت افرح فرحاً كثيراً لقرب ایام العيد ، فإذا انقضت اكتب ، وذلك لما يقام فيه من الالعاب في الشوارع ، فافرح بذلك أكثر من فرحي بما يصنع في بيتنا من الحلوى والمعمول ، وبجلب له من المرييات والملابس وغير ذلك مما يعمل بالسكر والقلوب من الجوز واللوز والفستق . فان هذه الاشياء كانت موفورة في بيوت اهل اليسار معظم أيام السنة . واكثر ما يطربني في الأعياد الالعاب المألوفة : ركوب ( الدويخة ) و ( المارجوحة ) و ( القلابة ) و ( المركبات ) التي تجر باليد او بالحمار .

كنت أستاء كل الاستباء عندما يكرهني أهلي على الذهاب الى الحمام

مع دالي - وما كانت الحسّامات إلا في الأسواق ، والبيوت يومئذ لا تُعرفها - أستقل الحمام لما فيه من الحرارة الزائدة . ولذلك يضطرون إلى الرضا بحكم والدي ووالدتي ، كانوا يتسبّبون لي خيالاً أشبه برجل فظيع له قرون ناطحة ، يجعلونه وراء الخوابي في بيت المزنة المظلمة ، ويمسكونني بيدي لأرى هذا الخيال ، ويقولون لي هذا البِهْمَع ، إذا لم تقبل أن تذهب إلى الحمام اليوم تقول له أن يأكلك ، فإذا ذهب صاغراً متألماً من هذا الحكم خائفًا من سطوة البعض . وأذكر أن والدتي أخذتني منها إلى حمام النساء فقالت لها إحداهن : لماذا لم تأت بأمي معه ؟ فانقطعت أمري عن أخي من منها إلى الحمام من ذاك اليوم .

وحلّني أبي على دابته عصر يوم من أيام القبض الشديد ، وأركبني أمامه خوفاً على من أن أهوي عن الدابة إذا ركبت وراءه ، وقد دخل قرية دمر لزيارة الأمير عبد القادر الحسني الجزائري في قصره . والتقينا بالشاذروان أي في نحو متتصف الطريق بعربة يركبها مشائخ ، قال لي أبي إن فيها صديقه الشيخ سليم العطار من أكبر العلماء . فسأل الشيخ والذي عن مقصد他的 من الركوب في ذلك الوقت فقال : لزيارة الأمير . فقال له : إن الأمير متمرض ولم ينزل من غرفته . فقال : إذاً أتابع سيري لبستان الصبي في حديقة الأمير قليلاً ثم نعود . وسرنا حتى بلغنا قصر الأمير ، فلما أخبر بوصول والدي ، سأله هل منه ابنه ، فقيل له نعم ؛ نزل من غرفته ورأيته . وربما كنت رأيته مرات قبلها فأنيته ، ولا أذكر صورته إلا هذه المرة . فكان يلبس قفطاناً أبيض مثل قفاطين المزاربة وعلى رأسه طاقية بيضاء ، ووضعني في حجره ، وقرأ على رأسي المعوذتين وبعض الآيات والتسليات .

والسبب الذي حدا بالأمير على أن ينزل من غرفته وهو منحرف المزاج ، ولم ينزل لأحد من زواره ذاك اليوم ، كونه يعتبرني ابنه الروحي  
م (٢)

وذلك لأنّه صنع لي ـ التابة ، فمشت بعدها . وكانت أمي مات لها ولدان قبل فقال لها من يعتقدون بهذه الأمور إن الأمير يحمل التابعات ، فإذا عمل لك تابعة يعيش ولدك الذي في أحشائك . والتابعة كنابة عن قصبة تلف عليها خيوط من الحرير ويقرأ عليها ويُعزّم ، وتأخذها الجبل وتتدفقها في قبر مهجور ، وترجع خطوات إلى الوراء ، وأظنهن قالوا يجب دفنهما قبل شروق شمس السبت . وبعد مدة سمعت أن الأمير توفى وحزن والدي والدتي عليه ( ١٣٠٠ھ ) .

أخذني والدي قبيل طلوع الشمس يوم السبت لزيارة سيدى أبي خارج سور البلد ، قرب الباب الشرقي . وكانوا يعتقدون أن كل ولد زوجته أهلة قبر هذا الصحابي ثلاثة أسابيع يفتح الله قلبه للعلم ، وتحسن ذاكرته فيحفظ دروسه . وصيغة الزيارة أن تقدم من القبر بخشوع وقراءة الفاتحة ، وبأنيك السادس بعضا يضربك بها على رجلك ، ويقول لك : إحفظ درسك ، فنتبأك وتقول له أحفظه ، ثم يتناولك حبات من الزيتون تقضيها . وما كان اضراب بالعصا موجعا بل كان صوريأ . وبهذا هيأ لي أهلي سبيل الحفظ والتعلم ـ آتابهم الله !

وحمدت الله يومئذ على نجائي من لطيف خرافه أخرى على ، كانت تتمثل بالقرب من الباب الشرقي أيضاً قرب مستشفى الجنديين ( الاعاطلة ) وكان الاعتقاد السائد أن كل من يصاب بالبرداء ( الملاريا ) – والكتنا على ما يظهر كانت عزيزة – يأتى به أهلة إلى النهر الأسود الذي تلقى فيه قاذورات قسم عظيم من مدينة دمشق ، ويفطسون المريض سبع غطسات – وأظنهن قالوا الأفضل ان يوم السبت – فيشفى باذن الله .

ولعلّما ذكرتني خالي وأمي بعد أن كبرت قليلاً كيف كنت أنا دعي كل ساعة ( ياخدى ) بدون أن أعلم ذلك من أحد ، بل كنت أنا دعي بضربي . ومعنى ( خدا ) بالفارسية ( الله ) وقالنا لي إاني بينما كنت أنا دعي يوماً في فناء الدار مداعي المتعاد زار والدي أحد أصحابه المسيحيين ، وقالنا لي إنه كان يعرف الفراسة ، فلما سمع مناداته تأمل وجهي قليلاً وقال

لأبي في الحال : يافلان اعن بهذا الصي سيكون عالما ، — والله أعلم .  
ومن حسن توفيقي أن والدي كان ينوي أن يجعل علينا وسيا أحد  
رجلين من أصدقائه : الأول تاجر غني والآخر مزارع عظيم ، فما هي  
إلا أعوام قلائل حتى بلغت مبلغ الرجال فأقامني وسيا على أخيه ولم يجتمع  
إلى أحد في هذه المهمة . ولو كان قادر لي أن أكون سفيراً احتاج إلى  
وصي ، ووصى والدي مضطراً أحد خليليه هذين لما خرجاني إلا في صنمها  
حتى أعرف كيف أغتنى ، ولا يجوزان أن ينفقا شيئاً من مالنا على  
المليمي وتعليم أخي . ذلك أن الصديقين كانوا لا يقدران حاجات الزمن ،  
وكانا في عقلية أهل القرن الماضي من أن العلم اذا لم يضر لا ينفع .  
ولطالما حثت المزارع أحد الصديقين بعد ما كبرت أن يعلم ولدآ من أولاده  
فن الزراعة الحديثة فكان يحاول ألا يحيي وينقل الحديث إلى موضوع آخر .  
وسمعت والدي غير مررة يشير على صديقه ذاك التاجر العظيم أن يعام أحد  
أولاده اللغة الفرنسية ليستعين به في تجارةه الواسعة فيعد هذه التصيحة  
مستغربة واستمعت إليه مررة يقول لو الذي يافلان إن كانبا برانب ثلاثة  
قرش في الشهر ينتينا عن تعلم ابني لغة أجنبية . فماذا كان حاله يازى مع  
أحد الصديقين الصادقين لو كتب لها ان يكفلاني حتى أشب !!  
وما بربت أذكر قصصاً مستغربة سمعتها من والدي وأنا صبي في  
أواخر العقد الاول من حياتي ، ومنها ما جرى له مع الامير سليمان الحرفوش  
المتغلب في تلك الأيام على أرجاء بعلبك ( وهو الذي قتلته الدولة العثمانية  
في قلعة دمشق ) قال : كنت في بده حياتي التجارية تعرفت الى هذا  
الامير ، وكان يزورني في مخزني ، واحتاج الى المال فاصبح يفترض  
مني ما يلزمه حتى تجمع لي عنده خمسة ليرة ذهبية ، وعاد بعد حين  
إلى بلده واعداً أن يعيد اليه باسرع ما يمكن ما افترضه مني قرضاً حسناً  
وطال هذا الوعد أشهرآ اضطررت بعقبها الى أن أقصد الامير في بعلبك أتفاوضاه  
ما استدان مني ، وزلت عند امرأة عجوز أربعة أشهر حتى تيسر المال لمديني

ودفعه الى رياضات فضية ، فأودعته عند حبيب مطران من خدام الامير يومئذ — وهو الذي غدا به سين من أعيان سوريا وبالرتبة باشا — ليحفظه لي عنده رينما أعود الى بلدي ، وسألني الامير لماذا أمنت على مالي حبيب مطران ؟ وتللت له لأن المسيحيين يمرفون قدر الدرام أكثر من المسلمين . ثم دنا الرحيل فأمر الامير مناديه في القصبة ، أن يعلن أن عميل الامير مسافر فأعد أهل البلد طماماً اختار كل واحد منهم الالون الذي يحسن ، وحلوه كعادتهم الى رأس العين . وحضر الامير فتقدمن والدي اليه وساره في أذنه قائلاً له : اني وحيد اني وبلغني أن من عادتكم بعض الاحيان أن لكموا الى مدینک ما له في ذمتك فإذا بعد عنک قليلاً أرسلت من يقتله ويبيد اليک ما أخذه منک ، فان كانت عينك في المال الذي أعطيتنيه فانا مستعد من الآن لأن أعطيك سداً بقبيطي له وأذهب الى بلدي بخشاشة نفسی ، فطممه الامير وذكر له معروفة يوم صائقته وأصحابه بعدين أسودين ، اسم أحدهما دعاء وبهـ واسم أخيه قضيب ، وأوعز اليها أن يذهبها من طريق الجرد وبوصاته الى قرية منين في جبل قلمون وبأخذها من شيخها وصلاً بوصوله . قال وبينما نحن سازون أصل ذاك النهار في محل اسمه « بير صرير » صادفنا سرباً من الغزلان فاصطاد أحد الرفيقين واحداً منها وتبسم لصديقه وتبسم له ، ثم تهمسا كأنهما يذكران أمراً وقع لها . فسألتها عما يشيران اليه فأبىا أن يوحا به ، وبعد إلحاحي عليهما قالا إنها كانت يجتازان هذا النجد منذ مدة فشاهدوا رجلاً وقع في نفسها أن منه شيئاً يسلبهنه اياه فامتنع منها فقوى ظنها أن منه مالاً فمتلاه ، وما أشد خيبة أنها اذا لم يسقطا في جيشه على غير قرشين . فلما سمع أبي هذا الحديث اللطيف هلم قلبه وقال لها : أسرعا اسرعا ، والشقيان القاتلان يعلمان أن في الخرج الذي تحت والدي عشرات الآلوف من القرрош . وسلم الله ووصل عميل الامير الى منين بعد أن نقض عنه غبار الموت كما قال : وعاد الرفيقان المحترمان يحملان الإيصال الى أميرها بوصول من رافقاه الى مأمهـ ولو كان والدي يفكـر مليـاً ما خاطر بالـه ثم بروحـه مع أمـير يجهـل أمرـه ، والغالـب أنه لم يكن يـعرف يومئـذ أن عشرـة الكـبراء تـسبـبـ الرـأسـ والـرـجـلـينـ .

## عوامل المتباطئين

خرجت إلى ميدان العمل أعزل لا أحسن الحرب ولا الضرب ، ويدخل المرء في الحرب يوم يدخل العالم كما قال فولتير . وما إن مثبت خطوات قليلة حتى وقف المبطون في طريقه ، يحاولون صرفي عما عقدت العزم على التمتعض له . وكانت تأخذني الصدمات فأتقها . وما أدرى إن كان ما لقيت جلب لي نفما ، أو عاد عليَّ بضرر فيها استقبلت من الأيام . ومع هذا ما وذلت ولا تراجعت ، ولا قطمت خيط الرجاء من النجاح .

ما خرج ما شرته لا أول نشأني عن مقالات ، لم تصل إلى أكثر من أقوال مبتدئي ، وكان جهور الناقدين من المشائخ غالباً ، يطالون لأن يكونوا المعنيين على كل ماله الصال بالدين والدنيا ، كانوا يفتاونني منفردين ، وقد ينافقون لي في الحضرة ، ومنهم من يستكتب الفينة بعد الفينة تقريراً باسمه ، يقدمه إلى صاحب السلطة ، ويحذره عاقبة أمري ، وبذلك كبروني في عيون الحكماء أكثر من جرمي ، وأليسوني من خيالهم حلة تزيد على جسمي . ورأيت منهم من تراجعوا بعد حين ، وزراءهم ما سموه من قوتني على حين لم أكن يومئذ أكثر من طائر لازغَّاب له أمام بوائق كاسرة دعلم من عرفوا من أنفسهم العجز بعد ، فكفوا ألسنتهم وكفَّوني شرم . ومنهم من ظلَّ يطعن في الأصحابين حتى لا يقال إنه تراجع ، ومنهم من اعترف بقصوره ، وطلب أن يقدم في الدعوات ، ويدعى إلى الحفلات ، وبذكر اسمه في المناسبات !

توفر أحد المقدمين فيهم على الطعن على في درسه في المسجد الجامع سنين ، لأنني لم أتمكنه من إلقاء محاضرة في ردهة الجمع العلمي ، وهو لا يحسن أن يحاضر ، وبضاعته من الأدب والعلم مزاجة ، وادعى بأخره

أنه قرأ ما كتبه في الاسلام فاستحسنـه ، وأحب أن يجعلني يدركـاته من أصحاب الجنة ، وكانت من قبل يتوعـدـني بالـنـار ، ولـما رأـني أـسـيرـ سـيرـ المؤمنـينـ حدـثـتهـ تـفـهـهـ أنـ يـعـقـدـ الصـلـاتـ مـيـ ، وـعـزـمـ أنـ يـزـوـدـنـيـ وـيـتـوـدـدـ إـلـيـ فـاـ زـدـتـ عـلـيـ أـنـ قـلـتـ لـلـوـسـيـطـ : لـيـحـذـفـ صـاحـبـكـ هـذـاـ المـدـحـ الـآنـ مـنـ قـدـحـهـ فـيـ أـمـسـ ، فـاـ زـادـ الـقـدـحـ فـاـنـاـ أـسـاحـهـ ، وـإـذـاـ زـادـ المـدـحـ فـهـوـ وـشـأـهـ ، وـلـاـ وقتـ لـيـ لـمـاعـ مـصـانـعـاتـ الـمـصـانـعـ ، وـلـاـ لـلـدـخـولـ فـيـ مـاـحـكـاتـ الـمـاـحـكـينـ .  
وـكـانـ مـنـ أـحـدـمـ ، وـهـوـ مـثـلـ الشـيـخـ السـالـفـ ، ضـيقـ فـكـرـ وـقـلـةـ بـضـاعـةـ آنـ يـزـوـدـنـيـ بـأـرـانـهـ فـيـ كـلـ مـاـ أـكـتـبـ ، وـيـقـدـمـ فـيـ تـقـارـيرـهـ مـتـبـعاـ مـاـ بـالـجـسـ علىـ أـكـثـرـ مـنـ خـمـسـ وـعـشـرـ سـنـةـ ، وـمـاـ تـعـبـ وـلـاـ كـفـ ، كـانـ يـطـالـعـ كـلـ مـاـ أـكـتـبـ وـيـسـتـعـيـنـ بـعـضـ طـلـبـةـ الـعـلـمـ ، يـسـتـخـرـجـونـ لـهـ الضـارـ مـنـ كـتـابـاتـيـ ، وـالـضـارـ فـيـ سـيـاسـةـ الـدـوـلـةـ ، وـفـيـ الدـنـيـاـ وـالـأـخـرـىـ ، قـاتـلـهـ اللهـ مـاـ أـشـدـ سـلـاطـتـهـ وـعـبـتـهـ . وـكـانـ يـكـثـرـ مـنـ لـاهـيـاـ بـالـوـهـاـيـةـ عـنـ الـأـثـرـاـكـ ، وـرـأـيـتـهـ بـعـدـ سـنـينـ يـثـفـيـ فـيـ بـحـرـ خـاصـ عـلـىـ الـمـلـكـ عـبـدـ الـمـيزـ آلـ سـعـودـ ، وـعـلـىـ الـوـهـاـيـةـ فـقـلـتـ لـهـ : الـحـمـدـ لـلـهـ يـاشـيـخـ عـلـيـ أـحـيـانـيـ حـتـىـ رـأـيـتـكـ شـفـيـعـ عـلـيـ مـنـ كـنـتـ تـطـمـنـ عـلـيـهـ وـعـلـيـ أـعـوـامـ طـوـيـلـةـ . وـمـاـ أـظـنـكـ الـآنـ تـتـوـقـعـ مـنـ هـذـاـ الـمـحـ إلاـ أـنـ تـحـجـ وـتـأـخـذـ مـنـ صـدـقـاتـ اـبـنـ سـعـودـ ، فـرـأـيـتـ مـنـ نـعـامـ الـحـيـلـةـ أـنـ يـنـقـلـ عـنـكـ أـنـكـ مـنـ أـحـبـابـهـ . وـكـانـ الـأـمـرـ كـاـفـتـ لـهـ . ذـهـبـ إـلـىـ الـمـجـازـ فـيـ الـمـوـسـ بـعـدـ أـنـ قـضـىـ حـيـاتـهـ فـيـ التـجـسـ ، وـمـاتـ بـمـدـ مـدـةـ غـيرـ مـأـسـوفـ عـلـيـهـ ، وـكـنـتـ كـثـيرـاـ مـاـ أـنـصـحـ لـهـ أـنـ يـكـفـ عـنـ الـوـشـاـيـةـ ، وـيـقـلـعـ عـنـ النـيـةـ وـالـنـيـمةـ فـيـقـولـ : إـذـاـ انـقـطـمـتـ عـنـ هـذـهـ الـخـطـةـ لـاـ يـسـبـقـيـ اـهـلـ هـذـاـ الـبـلـدـ الـمـاءـ الـبـارـدـ .

وـتـأـلـفـ جـمـاعـةـ باـسـمـ الـدـيـنـ وـأـلـفـواـ بـجـلـةـ دـيـنـيـةـ ، وـأـنـشـأـواـ يـتـسـقطـونـ لـيـ وـلـاخـوانـيـ الـمـئـرـاتـ ، وـيـقـوـلـونـيـ مـاـلـمـ أـقـلـ ، وـوـلـجـواـ كـلـ بـابـ لـلـظـهـورـ بـالـنـيـلـ مـنـ ، فـكـانـ صـرـاعـاـ ظـاهـراـ مـاـ بـيـنـ الـقـدـيمـ وـالـحـدـيـثـ ، وـبـيـنـ الـمـجـدـيـنـ وـالـجـامـدـيـنـ ، وـرـجـواـ بـعـدـ ثـلـاثـ سـنـينـ بـصـفـقـةـ الـمـنـبـونـ ، وـقـدـ نـفـسـتـ ثـرـثـنـهـمـ ، وـفـرـغـتـ

جعبتهم ، فأراحوا قراءهم من حشوم الذي ادعوا أنه حقائق ، متزقين غيظاً لأنهم ما سمعوا كلة واحدة في الرد عليهم . وكانوا ينتسبون إلى العلم فما نجعوا في باب من أبوابه ، فودعهم ملائكتهم بـ «عالة» «أعداء الإصلاح» ، تقرؤها في كتاب (القديم والحديث) وقال لي أحد أسانذني إنني لم أكتب أشد منها» ، ومنهم من تخسّ بعدُ للغريب على القريب ، مقابل عرض تافه من عروض الدنيا . وهو إلى هذا يظهر الفيرة على الدين . أسفيف به وأسفيف يقول من يعتقدون صلاحه .

جلب الاتحاديون رجلاً مصرياً محكوماً عليه في مصر بعدة أحكام لجرأته على شتم قومه كان يعزُّ وجود مثله في السفاه المجانين ، يحفظ من معاجم الشتم كل قبيح مقدع . ولما أغدقوا عليه الذهب الوهاج واتته قريحته في اختراع أساليب التشفي والتشهير . وكانوا لا يطلبون منه إلا أن يقف مني ومن أصحابي ، في جريدة لم اسموها (المشاكاة) ، موقف المجاد . وظنوا لفحة تجربتهم أنَّ الشتم سلاح قوي فعال ، وما دروا أنه سلاح الماجز الحق . فأشرت على أصحابي بالاعراض عما يلقط به سفيه المشاكاة . وكان يلتفنا أنه يود لو أجبناه بكلمة في جريدة أو في جريدة ، ومضت الأيام وهرب المتأجر للتطاول على الأحرار ، هو وبعض من أنشأوا تلك الصحيفة السخيفية إلى الاستئناف ، فصادقني في أحد شوارعها ، فاقترب مني يختلسَ لي جناح الدل ، ويهدش وبش ، طالباً العفو عما بدر منه نحوبي . فأكدت له أنني لم أفرأ شيئاً مما كتب ، فزلد ألمًا وسب نفسه على أن كانت حملاته كصرخة في واد . وعد الاتحاديون إلى (ع. س) أن يدهم بنوره في المشاكاة ، فنذها زبته المكر ، كما كان (ز. م) المصري الذي أعطى نفسه لقب باشا ، وهو يستجدي الاكْف في القاهرة ، وأنخذ الخلف يسير على قدم السلف ، يطعن الطعن المبرح عن برسم له سادته الطعن عليه ، ويحمل على أبناء بلده ليتقرب من قلب الغريب . ونجسم لؤمه يوم برأتني المحكمة مما كان أقيم عليهما من الدعاوى . وكنت اعتصمت بـ مصر ، وأخي مسجون في الاستئناف

مدعوى نشرنا قصيدة في الاصلاح ، لاحد علماء المدينة الشيخ ابراهيم الأسكوبي ، كانت نشرتها بعض الصحف الدامية قبل نشرنا لها . فما شن ناشرها الأول ، ونحن أغلقوا صحيفتنا دون غيرها ، ورأيت ( ع . س ) يوم تبرئتنا ، بخاطب المحكمة ويهدها ويقول لها إنها لم تعرف من برأت ، برأت أعظم عدو الدولة وعدّد سبئاني .

ولما قرأت ما كتب قلت : هذا والله من أبغض ما رأيت من ضروب الوشاية والافرم . صاحب الجريدة مشرد عن بلده ، وآخوه مسجون في العاصمة ، وجريدةتها معطلة ، والكاتب البلي يحاول نكتينا أكثر مما نكتنا ، ويطبع في أن يظهر لمن استخدموه انه يحب الدولة ونحن نبغضها . وقد نفأه الانتحاديون في الحرب العامنة الى الانضال . ووصيته حكومتهم بالخيانة فذل . ودارت الايام واتيت بهذا الرجل إلى عمل يرفع منه واحسنت عشرة فقال لي أحد رصفائي متوجبا ، كانك نسيت ما كتبه فيك ؟ قلت لعمري ما نسيت وما عاملته بما عاملته به إلا مكافأة له على عنایته بالادب العربي في المهد التركي ، وهناك سر لا يعرفه إلا الخالص من الاصقاء ، وهو اني كنت أكثر السواد بثل هذا النوع ، على تخالف ينتنا في العقل والروح حتى لا يكونوا عيونا عليّ وعلى ديواني فاستمليهم واتق شرهם ، وما زلت مع صاحبي هذا حتى فرق الموت ينتنا ، وقد ابنته يوم مات ، وذكرت مزاياه الحسنة ، وأغضبت عن غيرها ، وما خسرت شيئا ، والله أعلم من الخاسر منا .

وأذكر اني ناقشتة مرة واحدة ، وبالحربي اني أجبت صاحب الجريدة على ما كان يحاول أن يجرني اليه ، وكان يفيض على هذه الجريدة بأراءه ، فسولت له نفسه أن يشير الرأي العام ، أو أن يجعل للجريدة الخاملة التي يكتب فيها شهرة بين الصحف ، وأظنه كان يقصد الغائبين . كتب في تلك الجريدة يقول : إني ما قصدت بما كتبت الا إلقاء التفرقة بين النصارى والمسلمين . فكتبت في الجواب على خلاف المادة : إني ما زلت منذ وعيت على نفسي ، أسمى للتأليف بين الطوائف ، وأدعو الى القومية العربية ، على ما هو باد فيها

كتبت ونشرت . ورجوت صاحب الجريدة أن يتبعه في هذه الموضوعات المؤذية . وكان صاحب الجريدة حداداً في البقاع الديزرة وظهر في دمشق بعد مدة عاماً مؤلفاً صحافياً ، وهو أبي وما أكثر حظ الغرب عندنا ، وما أوفى الأميين يومئذ في المحامين والمألفين والصحافيين ، بل في المدرسين التعميين والمتطبين والقواد والولاة .

أوردت هذه الأمثلة من عمل الجماعات والأفراد في حرب الناشطة ، ومقاومة كل داع إلى الاصلاح ، ورب سفيه كان يرزق من الطعن على ، وبثت الطامة . قلت يوماً لشيخ علي يوسف صاحب المؤيد بالقاهرة : بلغ عدد الجرائد الأسبوعية الساقطة التي تطعن فيك نحو عشر صحف أما من وسيلة للتخلص منها ؟ فقال ببرودة قلب : دعهم يعيشون ولو بالطعن في . وإن كنت شهد الله أحب أن يتعلم هؤلاء الطاعنون ولو بالطعن على أيضاً . طريقة التمس الشهرة بالتحكك بأربابها شائعة كثيراً ، وقد نامت في مصر ، وعهدى بها على حصة موفورة فيها ، وأكبر ظني أنه كان لتطبيق القوibات على السفهاء دخل كبير في قفهم ، وقل أن رأيت في مصر والشام من أصحاب الأقلام على كثرة من رأيت منهم ، رجالاً اتخذ سب الناس وشنهم سلماً إلى الكسب والشهرة فباء بغير القرآن ، ووسم بغير الرقاعة وربح غير المفت .

كان في بيروت وكيل بعض الصحف ، وكان من أتباع شيخنا الشيخ طاهر الجزائري ، وزين لشاب أديب الطعن في الشيخ قاتلاً له إنه لا يشتهر إلا إذا سلك طريق الخط من العلماء المشهورين . فكتب الشاب المفروض مقالتين في الطعن على الشيخ فأدى ذلك إلى سقوطه وسقوطه الجريدة التي نشرت له؛ لأن فضل الاستاذ لا يطفأ بمقالة ، وأدرك المدركون أن غرض الكاتب أن يشتهر على حساب الشيخ الجزائري ، حتى يقول العامة أنها كالآمثال الأقران .

يحب الجمود المطاعن وتلذ له ، ويشتفف بالمحاكمات منها كان لونها . وإن

زمن والجريدة التي تخلو من هذه المهاارات لاتكاد تهراً حتى يضطر أربابها أن يخلقوا موضوعات يناقشون فيها غيرهم ، ويتحينون الفرصة لفتح أبواب المطاعن لتروج جرائمهم الكاسدة . وكان القوم يتلقفون الصحف التي ترى رواجها بالعنف في الأعراض ، كما يتلقفون اعز شيء عليهم ، وإذا نفت أعدادها ، يدفعون في اقتنا النسخة الواحدة عشرة أضعاف ثمنها ، وأكثرون يؤيدون فريقاً على فريق ، ويزبون لهذا ما ينكرون على ذاك ، والجمهور مجتلون ، ونعود بالله من جنون الجاهير .

النقد شيء والطعن شيء آخر . وقل أن رأيت أحداً من المؤرخين السع صدره لنقد النقادين . ومن هنا جاء اسمه القائد عن النقد النافع لثلا يتزعج المتقد عليه ، ويتخذ من ناقده عدو له . ورأى القائد في مصر على عدتها الأخير أن يدهن بعضهم البعض ، ويستكتوا عن قدر ما ينتقد ، وفي النقد حياة المجتمعات ، والمتقد يزيد قدره إذا ما تآقى الانتقاد بالقبول ، ولقد بلغت القمة ببعض أصحاب النفوس الصغيرة أن نوهت أن كل أعمالها سديدة لاستحق إلا الإعجاب والتقرير .

قال أحد علماء المشرقيات وكان تفوي سنين في القاهرة إن من سوء حظ النقد في مصر أن معظم القادة يتزلون العاصمة فتضطرهم واجبات الجوار والمعرفة إلى أن يصانع بعضهم بعضاً ، ولو كانوا متفرقين في بادان مختلفة لا يرى الواحد صاحبه كل يوم لجرروا على قدر من يجب تقاده منهم ولا أصيوا في هذا الشأن بحياة لامع له .

## الصادرون عن العلم

لَا ضفَّ الْعِلْمُ إِلَّا حَوَلَ بَعْضَ الْأَمْرِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي اسْتَحْلَمَ  
أَبْناؤُهَا الْإِسْتِفَارَ بِالْمَدَارِسِ وَالْأَوْقَافِ وَالْوَظَافِفِ الدِّينِيَّةِ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ  
لَهُمْ شَيْءٌ مِّنَ الْعِلْمِ ، أَنْ تَبْقَى لَهُمْ هَذِهِ الْمَفَانِمُ وَالْمَظَاهِرُ وَقَفَّا أَبْدِيًّا عَلَى الْدَّهْرِ .  
وَفَكَرُوا فِي أَسْهَلِ حِيلَةٍ تُدِيمُ عَلَيْهِمْ نَعْمَمَ ، فَكَانَ مِنْهَا مِنْ الشَّيْانِ مِنَ  
الْعِلْمِ ، لِيَكُونَ الْقُضَاءُ وَالْإِفْتَاءُ وَأَعْمَالُ التَّدْرِيسِ وَالْوَعْظِ وَالْخَطَابَةِ وَالْإِمَامَةِ  
حُكْمَرَةً لَهُمْ وَلَا عَقَابَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَمِنْ دَأْبِهِمْ عَلَى هَذِهِ الدِّعَائِيَّةِ شِيخَانِ  
مِنْ دَمْشَقَ ، كَانَ يَعْزِزُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَعَلَّمَ إِنْسَانٌ ، وَمَا كَانَ عِيشَاهَا بِطَيِّبٍ  
إِلَّا إِذَا صَدَا الطَّلَبَةَ عَنِ الْعِلْمِ .

وَكَانَ الشَّيْخُ طَاهُرُ الْجَزَائِريُّ يَكْرَهُهَا كَرَاهَةً عَظِيمَةً ، وَسَأَلَهُ ذَاتُ  
يَوْمٍ عَنْ سببِ كَرَاهَتِهِ لَهَا ، وَعَما حَدَثَ بَيْنِهِ وَبَيْنَهَا فَأَدَى إِلَى هَذَا الْمَدَاءِ  
الْمُظِيمِ ، فَقَالَ : إِنَّهَا مَا زَالَتْ يَحْوِلُ لَمَابَيْنِ النَّاسَةِ وَبَيْنِ الْعِلْمِ ، وَبِعِلْمِهَا  
انْقَطَعَ أَرْبَعُونَ شَابًاً عَنِ الْعِلْمِ . قَوْلَتْ لَهُ : هَذَا حَقٌّ وَقَدْ حَوَلَ  
أَحَدُهُمْ أَنْ يَنْصُحَ لِوَالِدِيِّ ، وَأَنَا فِي أَوَّلِ نَشَانِي ، لِيَخْرُجَنِي مِنْ حَضِيرَةِ  
الْدَّرْسِ إِلَى التَّجَارَةِ . وَقَالَ لَهُ وَأَنَا أَسْمَعُ ، وَهُلْ تَرَانَا نَحْنُ الْمَلَاهُ فِي  
حَالَةِ حَسَنَةٍ ، وَإِنْ أَحْدَنَا لِيَطْلَبَ الْعِلْمَ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَغَایَةُ مَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ  
رَاتِبٌ ضَئِيلٌ فِي إِحْدَى الْمَدَارِسِ ، أَوْ إِمامَةٌ فِي أَحَدِ الْجَمَاعَاتِ ، قَدْ  
لَا يَجُوزُ رَاتِبُهَا إِلَيْهَا وَالْمُؤْمِنُ قَرْشًا ، فَإِنْ كَنْتَ تَرِيدُ الْخَيْرَ لِبَنِيكَ ،  
فَاقْطُعْ أَبْنَكَ عَمَّا شَفِلْنَا بِهِ قَبْلَهُ أَعْوَامًا ، وَمَا عَادَ عَلَيْنَا بِنَفْنَى  
وَلَا رَفَاهِيَّةً .

وَكَانَ شِيخَنَا يَقُولُ : لَوْلَا أَنْ شَفَلَ كُلُّ الْأَخْرَى أَحَدُهُمْ بِالْآخِرِ  
لِلْخِلَافِ بَيْنَهَا فِي قَضِيَّةٍ ، وَكَانَ الْوَاحِدُ بِتَنْبِيبِ سَنَةٍ فِي الْإِسْنَانَةِ الْمُلَاحِقَةِ

دعواه ، ويعود في السنة التالية إلى بلده ، فيسافر أخوه فيتذرع بمثل ماتذرع به شقيقه ؛ وظلاً على ذلك طول المحر ، وماما لم يدَّتْ في تلك الداعي المباركه - لو لا أن شفلاً بانفها لنزل بالناس منها شرًّا كثير . وكبرتُ وصرتُ أكتب بالصحف ، وأصبح لي أصدقاء وأعداء ، وكان ذلك الشيخ الذي سوت له نفسه ان ينفعني من ورود حياض العالم ، يوم كنت طالباً صغيراً ، بنظر إلى نظر من آمن لمن كفر ، وأنا وكثير من أهل البلد نعرف مبلغه من الدين والأخلاق . قال لي يوماً : بلغني ان عندك خزانة كتب . قلت صحيح ما بذلك ، منها ما كان اشتراه والدي لي ومنها ما ابنته انا . فقال : أريد أن أزورها ، فقلت له : لا تزورها ولا تراها . قال : ولي ذلك ؟ قلتُ : لأنك تسرق الكتب على ما أكدى لي غير واحد ، ولذلك لن تراها . قفت من قولي وتفارقنا ، فكان في شيخوخته يطعن عليّ وعلى الشيخ محمد عبده وشيخ طاهر الجزائري وغيرهما وأنا ماقلت له ماقلت إلا لامه كان حقيقة يسرق صفحات وأحياناً كراريس من الكتب المذهبة المذهبة ، ومنها ما أخذ طرته . واستحل لذلك بجموعات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وخزانة الأفراد في كل مكان دخله فشوء الأصل ولم ينتفع كثيراً بالفرع .

وبعد ذلك يهتب علينا ، لأننا لأنحترم هؤلاء الذين ينسبون زوراً إلى الخواص ، وعلم الله أن المقام أكثر منهم عملاً بالدين ، والوقف عند مناهي الشرع .

## أُخْرَق بِمُضِ القَضَايَا

لَمْ أَرْ فِيهَا رَأْيَتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَدَوَاتِ أَشَدَّ مِنْ تَعَادِيِ الْمَاجِنَى ،  
وَلَا أَكْثَرُ مِنْ غَمْطٍ بِمُضْهِمِ حَقِّ بَعْضٍ ، وَلَا أَشَدُّ مِنْ تَهَالِكِهِمْ عَلَى أَبْوَابِ الْأَمْرَاءِ  
وَالْحَكَامِ . وَلَقَدْ رَوِيَتْ لِي رِوَايَاتٌ عَنْهُمْ مَا كَنْتُ أَصْدِقُهَا ، لَوْلَا أَنْ رُوَايَاتِهَا  
لَمْ يُرْفَوا بِكَذْبٍ ، وَلَا أَخْذَتِ الْعَرْفَ إِلَى الرِّجَالِ رَأَيْتَ مَا هَالَنِي ، وَأَبْقَيْتَ  
أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْهُمْ عَرَفَوا الْكَرَامَةَ وَعِزَّةَ النَّفْسِ ، وَمَمْذُونُهُمْ جَعَلُوا صَنَاعَتِهِمْ  
بِصَنْعِهِمْ عَلَامَةً ضَعْفَةً ، وَكَانَ آيَةُ الْشَّرْفِ . وَلَقَدْ أُصِيَّتْ جَهَرَتِهِمْ بِغَرْوَرِ  
ظَنَّوْا مَعَهُ أَنْ سُلْطَانَهُمُ الْقَدِيمَ عَلَى الْمُلُوكِ فَمِنْ دُونِهِمْ يَقْتَلُ لَهُمْ بِهَذَا الْجَهَلِ  
وَهَذَا الْفَسَادِ .

قَلْتُ يَوْمًا لِأَلَمِ درسَ تَارِيَخِ الْإِسْلَامِ درسَ تَذَبَّرِ وَعْرَفَ اسْتِخْرَاجِ  
عِبْرِهِ : أَمَا كَانَ فِي الْعَصُورِ الْمَاضِيَّةِ قَضَايَا جَاهِلُونَ فَاسْقُونَ سَارِقُونَ ، فَكَتَبَ  
الْأَدْبُرُ تَعْرِضَ لِذِكْرِ كَثِيرٍ مَا كَانُوا يُتَهْمُونَ بِهِ ، أَلِيَسْ مَارُوِيُّ عَنْهُمْ  
بِصَحِّيْحٍ أَمْ صَنَعُوهُ لِنَكَتَةٍ ؟ فَأَجَابَ : أَكْثَرُ مَارُوِيٍّ فِي سِيرَةِ الْقَضَايَا قَدِيمًا  
صَحِّيْحٌ ، وَالْجَهَلُ وَسُوءُ الْخَلْقِ مَا انْقَطَعَ دَابِرَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنْ إِذَا فَرَضْنَا  
أَنَّهُ كَانَ فِي الْمُلْكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَلْفُ قَاضٍ فِي الدَّهْرِ الْفَابِرِ ، وَأَلْفُ مُثَلِّهِمْ فِي  
هَذِهِ الْأَيَّامِ ، فَإِنَّ الْأَلْفَ السَّابِقِينَ كَانُوا فِيهِمْ عَشْرَةُ أَلْفٍ فَاسِدُونَ لَا يَصْلَحُونَ ،  
أَمَا الْأَلْفُ الْآخِرُونَ فَالْفَاسِدُونَ مِنْهُمْ يُمْدَدُونَ بِالْعَشَرَاتِ .

وَأَظُنُّ السُّلْطَانَ يَلِمْدِيرِمْ بِإِيْزِيدِ الثَّانِي هُوَ الَّذِي جَمَعَ قَضَايَا مُلْكِهِ  
وَأَمْرَ بِقَتْلِهِمْ لَا ثَبَّتْ لَهُ مِنْ قَلَّةِ دِينِهِمْ وَتَلَاقِعِهِمْ بِالْحُكُومَةِ . فَلَمَّا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كُلُّهُ  
الْعَذَابُ لَجَاؤُوا إِلَى أَحَدِ نَدْمَانِهِ ، وَرَشَوْهُ بِمِلْعُونٍ مِنَ الْمَالِ ، فَنَذَّهَبُ إِلَى السُّلْطَانِ  
لَابِسًا أَلْبَسَ السَّفَرَ ، فَسَأَلَهُ السُّلْطَانُ عَنِ الدَّاعِيِ إِلَى اِكْتِسَابِهِ هَذِهِ الْكُسُوَّةَ  
فَقَالَ : إِنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى سَاحِبِ الْقَسْطَنْطِنْطِيْنِيَّةِ — وَكَانَ يَوْمَذْدَ بِأَيْدِيِ الرُّومِ —

لآخر من عنده بحسبين يتولون القضاة في مملكة السلطان ، فضحك هذا وغنا  
عن القضاة ، على ألا يعودوا إلى سالف سيرتهم القبيحة .

هذا مرح  
السبب الأعظم في إدخال قوانين الغرب على الدولة العثمانية . والحكومة المصرية  
والإمارة التونسية ، لكترة ما أساءوا إلى الشرع ، وعيتوا بأصوله وفروعه ،  
وبقلة دينهم وقلة علمهم ، أمست أحكام المحاكم الشرعية سلسلةً من الخلل  
والخلل ، فأكرهت دول أوربا الدولة الإسلامية على قبول قوانينها ، ظناً  
منها أن الفساد آثر من الشريعة ، وما العيب إلا من جهل المنفذين لأحكامها ،  
وفساد أخلاقهم .

وقد شاهدنا نحستا ظاهراً في قضاة الشرع ، لما أنشأت الدولة مكتب التواب  
في الاستانة ، وكان المنخرجون على أسانته إلى الاستقامة والعلم أكثر من  
سيقوم ، وعلى مثل ذلك شاهدنا القضاة في مصر لا أنثروا يختارون الصالحين  
وكان في الجبل الماضي يتولى الأغمار القضاة . أما أنا فقد بحثت سيرة من  
أهمي أمرهم من القضاة منذ خمسين سنة فرأيت من نعمة مستقيماً قد  
لا يتفق عن قبول المدايا من أرباب المصالح .

قصة لطيفة وقعت لقاض من أهل دمشق كان في دُوْمة من الغوطة . وكان  
مضحاكاً خفيف الزوج والظلل ، يحفظ كثيراً من النواادر والفكاهات ،  
أنماه ذات يوم رجل اسمه محمد عبد النافع ، أحد طرقاء دومة بكتاب يقول  
فيه : إن الله خلقه بغير إرادته ، وآتى به إلى هذا العالم ولم يستشره ، وزين له  
أن يتزوج ففعل ، ورزقه أولاداً ليقرء بهم عيون والديهم ، ف كانوا علة افالس  
والدم ، وشقاء والديهم ، وإن فقره يزيد كلما زاد عدد أولاده ، فهو لذلك  
يلتمس من القاضي أن يجذب إلى محكمته العادلة المدعى عليه ، وهو الله سبحانه  
وتعالى ليتقاضى وإيه . فرأى القاضي أن صاحب الدعوى من أصحاب النكبة ،  
فانتظر حتى انجز أرباب الأشغال مراجعتهم ، وأغلق باب المحكمة ، ولم يترك  
فيها غير الموظفين ، وطلب المدعى ، وهو واحاضرون يتكلفون الجد ، فسأله

عن دعوah على الحق تعالى ، فقال : إن دعوah مكتوبة في القصة التي قدمها . قال القاضي للمدعى بعدأخذ ورد قليلين : هل لسقط دعواك ياشيخ ، إذا أعطيت من مال الله خس ليرات وكبس طحين ؟ قال أفعل . قال القاضي : أنا سائلك سؤالاً تحيين عليه بصرامة ، فقال : الأمر ليس بي . فقال القاضي : جاء هذه البلدة قضاة كثيرون قبلي فلم تقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك من تدعي عليه سبحانه ؟ فقال له : لم يكن القضاة الذين يقدمون لتولي القضاة في بلدنا ملائكة ، كانوا يخالفون منه ! فصدق الحاضرون لصفيقاً شديداً ، استحساناً لهذا الجواب . وربما قال القاضي في سره : إنه والله لصادق . فاما أعلم من نفسي أن معظم القضاة لمهدنا لا يخالفون الله ، وهم لصوص تحمل رؤوسهم عمائم يضاء ، وأن طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم من أموال البتامي والآياتى .

وبلغني عن قاض ولي صند فارئى قبل أن يصل إليها يبلغ عظيم . وتزل مدة في دار من تناول مالاً من خصومه ليس به ملكه ويقطبه لمن رشاه . وقد خلف ثروة طائلة انفقها أولاده بعده في سنتين . كنت أقول وأنا أرى هذه الروايمز من البشر المضر : إن المولى أخذ يجازي في العاجلة وينقد عند الحافرة ، وكان يجازي بالنسبيه فيرجي العقوبة إلى الآجلة . ورأيت هشرات من جمعوا أموالهم من القضاة خصوصاً ، رأوا في حياتهم خروج ما كسبوا من إيمانهم ، وهذا من الجزاء العاجل .

---

## العلماء يحترفون

إلى عهد قريب كان العالم يحترف ويعيش من كسبه ، وبربما بنفسه عن الناس احسان السلطان ، وأكل أموال الأوقاف والمدارس والجوامع . والناس يرون طلب العلم فريضة ، والأخذ منه بنصيب نافعاً في الدين . وقل أن يتطلب صاحبه مكافأة عليه في الدنيا ، وإذا نفعه في حياته جاءت الفائدة منه مزدوجة ، وكل فرد يرى الأخذ عن الشاعر ، واقاء الرجال شرفاً عظيماً .

كانت بنو العادى مفاتي دمشق ، خرج منهم فقهاء وسلسل الافتاء في ينتمون عدة بطون ، ولما ضعف الأحفاد عن اللحاق بالاجداد ، وأصبحوا وليس لهم من العلم إلا زيه ، صارت تصدر عنهم فتاوى ضعيفة تدل على جهل بالشريعة ، وتتناقلها أيدي المارفين ، وتعرض على الشيخ اسماعيل الحائز في جملة من تعرض عليه من أهل الفقه . وكان الشيخ اسماعيل حائلاً بالفعل ، وهو فقيه حنفى محقق مشهود له بين أقرانه ، ومعرف في بلده ، في حين وجه الخطأ فيها ، ويدل على الصواب ، والقول الصحيح ، أخذ من المراجع والاممارات المعتبرة . وبلغ الفتى اعراض الشيخ اسماعيل على فتاويه فيغضب وينقض جماعته ، ولا يجدون للنجاة من تحكمه بفتاواهم باباً

وكان من عادة الشيخ اسماعيل أن يقطع يوم الجمعة عن عمله في الحياكة ، ويذهب في الضحى إلى الحدائق راكباً حماره ، يحمل في خرجه ما يأكل ، وكتباً يطالعها . وكان في طريقه إلى زهرته يجتاز بدار الفتوى غالباً ، فاتفق في بعض الجمع أن صادف الشيخ وهو ذاهب إلى البستان ، على باب آل العادى ، ابن الفتى وأخاه فسلم عليهما . فقال له أحدهما بهم واذراء إلى ابن ياشيخ اسماعيل ، هل أنت ذاهب لا تأخذ منصب الفتوى ؟ فأجابه الشيخ : أفعل إن شاء الله . ومضى الشيخ في طريقه ، وتحول من سكة أخرى إلى داره فأخذ شيئاً مما كان

ادَّخر من الدرام ، ودفع لزوجه جانباً ، وسافر على حماره يريد الاستانة ،  
فبلغها في أربعين يوماً . وجعل يجلس في حانوت على باب الحان الذي كان نازلاً  
فيه . وعرف صاحب الحانوت وجيرانه ، أن هذا الرجل الشامي من العلماء .  
فكانوا يحترمونه ويكرمونه . واتفق أن عرضت على الدولة من بعض الدول  
الأجنبية ، فتوى لمذر على علماء الاستانة الاجابة عليها ، وقص بعضهم على الشيخ  
قصة الفتوى ، وعجز العلماء عن معالجتها ، وحمل الشيخ على الذهاب إلى أمانة  
الفتوى ، ليأخذ السؤال منها ويحجب فعل . ولما عرض ما كتبه على شيخ الاسلام  
أعجبه ، فبعث يستدعيه ، وعرض جوابه على السلطان فـ " كثيراً" ، وصدرت  
إرادته بمنع الشيخ منحة عظيمة من الدنانير ، وقال لشيخ الاسلام : لا شك أن  
هذا العالم الكبير قد افترض له يريد تحقيقه ، فسألته ما شأنه وما يريد ،  
فقال الشيخ اسماعيل : افتاء دمشق وتدريس المدرسة الفلانية والوقف الفلاني ،  
فكتب له المراسيم بها . وعاد شيخنا الحائث على حماره حتى بلغ دمشق . وحدثته  
نفسه أن يجتاز بيت العادي قبل أن يدفع كتاب السلطان إلى والي البلد بنصبه  
مفتيًا ، فصادف على الباب أيضًا شقيق الفتى ، فسألته بتلهف أين كنت يا شيخ  
اسماعيل ؟ إنا لم نرك منذ زمن طويل فأجابه أنت كنت قلت لي أن آخذ الفتوى ؟  
فأنا عملت بقولك فوجها على السلطان ، فسقط في أيديبني العادي ، وذهب  
الحائث العالم بالافتاء ، وخصومه يظلون أن منصبهم يدوم لهم بالجهل آخر الدهر .

## أدب

دعاني السيد توفيق البكري نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية إلى تناول طمامه في سرايه في الخرنش بالقاهرة المزدحه . فرأيته متكلماً منطيناً ، حلو الحديث ، يعت إلى الأدب بصلة قوية ، وهو أقرب إلى أن يكون شاعرًا منه إلى أن يكون نازلاً ، وأدنى إلى أن يكون أمير مجلس من أن يكون رجل سياسة . يجيد الفرنسيه اجاده حسنة ، ويجمع بين معرفة القديم والحديث .  
وسألت عنه استاذه الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، وكنت أعلم أنه أخذ عنه كثيراً ، وأن بينها صحبة وثيقة فقال لي : ما رأيت رجالاً فتح الله عليه بغلط مثل توفيق البكري في كتابه أراجيز العرب ، فهو من أوله إلى آخره مغلط . وهذا كلام غضبان ينطوي على كثير من المبالغة . وما قال لي الشيخ الشنقيطي في ذاك اليوم : انه ليس في مصر من يفهم كلام العرب غير اثنين (الشيخ محمد عبده ) و (أحمد تيمور بك ) - وأظنه سمي شخصاً آخر نسيته - وهذا أيضاً من المبالغة بعkan .

بعث اليّ السيد توفيق البكري ذات يوم يستدعيه إلى داره لغرض مهم . فذهب الفكر حالاً إلى أنه يريد أن يستنصرني في مسألة له خاصة وقدم لي مبلغاً من الجنيهات لمعاونتي على إصدار مجلة المقتبس . فقلت له : يا صاحب السماحة — وكانت رتبته باية استانبول — إن المجلة رئيس مال ودخلها يعني بخريجها ، وشكرته ، وظهر علىّ الاتقباض . ثم التفت وقلت له : نعم أن جريدة الظاهر — وكنت رئيس تحريرها — لا تدخل في مسائلكم وهذه مسائل لا تنفع القراء ، وليس من مصلحة الجريدة أن تخوض فيها . فسر بذلك ، وانصرفت ولم ألقه بعدها . كان السيد البكري على جانب عظيم من الذكاء ، وضع عدة كتب في الأدب ، ونشر في الصحف والمجلات نظاماً وثرياً ، وكان عظيم الهمة في الطبع والنشر . وأحب أن تقرأ أسفاره في الشام ، فدفع اليّ عدة بجموعات منها أرسلتها إلى أصحابي .

والظاهر من حاله أنه كان يحب المغامرات السياسية ، أثر الجهد في بمحوعته المصيبة ، فاستلزمت صحته أن يصرف عدة سنين في مستشفى الأمراض المقلية في لبنان ، عاد في آخرها إلى مصر فمات فيها . ولو كان عقله على نسبة ذكائه ، لجاء منه رجال ينفع مصر كثيراً .

ليس من اشتهروا في القاهرة هم كل رجال مصر فهناث في الريف من اصقاع الفلاحين ، الوف من فضلا ، القوم امتازوا بصفات طيبة ، وعلم جم ، وأدب غزير ، وهم لم يশهروا ، ويذهبون من هذا العالم ولا يعرف بهم أحد ، وما زلت أهتمي إلى أناس من هذا القبيل كما زرت بعض ضياع الوجه البحري والوجه القبلي وتحدى نفسي أن بعض من اشتهروا كانوا مدينيين بشهرتهم لترويهم العاصمة ولاعتبارات أخرى تنشأ بالضرورة في البلدان الكبيرة .

دعاني صديقي عبد المعطي حسين عمدة الصوالح في الشرقية يومئذ ( أي قبل أكثر من ثلاثين سنة ) مع استاذي الشیخ طاهر الجزائري ، وصرنا عنده ثلاثة أيام ، فكان يزورنا كل يوم شيخ من قرية قرية من الصوالح أنيت اسمه واسم قريته ( عرفت بأخره أن اسمه الشیخ حسين ابو مکي ) وكان في نحو السنتين من عمره ، يذاكر شیخنا في مسائل عویصة من العلم تدل على تبحره في الشرع وشدة حرصه على نشدان الحقيقة ، فسألته عن ترجمته ، وانا منتجب من حاله ، فلعلت انه يعيش من زراعته ، وانه درس في الازهر جماً بالعلم والتفقه بالدين فقط ، ومن يأت القاهرة منذ عهد الطلب ، وشهد الله انني ما عدلت عليه خرافه واحدة على كثرة ما افاض فيه من الاحاديث خلال الايام الثلاثة التي لزمتنا فيها وسلامنا . ومن العجب الا يظهر مثل هذا العالم بالظاهر الذي يليق بعلمه ، ولا يعرف قدره حتى اهل قريته . وكم في المعمورين من هم افضل من النابحين .

وكم في العرس ابهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

## أمي صاحب أغماد

تولى ولاية سوريا على المهد العثماني وال اسمه حسن باشا . وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، قيل انه كان مصارعاً عند السلطان عبد العزيز . وكان طيب القلب ، تقي السريرة ، لا يحب الحق ضرر بأحد . هذا الوالي الامي دفع عن سوريا غائلة عظيمة ، لما جيء به من بغداد إلى دمشق ليتحقق في قضية جمية سرية كانت فرعاً لجمية الاتحاد والترقي . وكان دخل فيها نحو ثلاثةمائة انسان فيها ذكر في دمشق فقط . وأدجني رفيق بك العظم في جملة الداخلين على صفر سفي يومئذ ، وأنا لا أعرف إلا من أدخلني ومن أدخلته بعدي . كان المشير عبد الله باشا قائد الجيش الخامس يؤكّد وجود الجمية ، ويؤيد رأيه أحد كبار الاعيان ، واتفقا على أن الجمية تبني نشاطاً كبيراً في بث دعوتها ، وأن برناجها مضر بكيان الدولة . فلما جاء حسن باشا كذب المشير وصاحب تكذيباً قطرياً ، وزيف تقاريرها إلى المابين ، وأطافت المسألة وخفت صوت الجمية وصار لوالى حظوة عظيمة في ولادته ، ولو لا سياساته لخررت عشرات من البيوت ولامتلاك السجون بال مجرمين السياسيين ، هذا ما تم على يد أمي بصير . وكان هذا الوالى سأله كبيراً من علماء بغداد أن يدعوه له فقال له : بصرك الله بالعواقب ، فكان حقاً من البصراء بالعواقب .

كنت في تلك الأعوام كتاباً في قلم الأمور الأجنبية فشهدت نجلي . ذاك الوجيه يكثران من زيارتي . وقال أحدهما يوماً هازنَا بمن يطعن على والده لطوعه في كشف سر الجمية ان هذه وظيفته . وهو يفاوض المابين مباشرة بالأرقام ، ولاسل عن حراجة مركزي يومئذ ، وعما كان يلقيه على أحددهما من الاستلة ، فكنت أتباله ، والتباله يتفع في مثل هذه الأحوال ، واتخاشى معهما الخوض في شيء اسمه سياسة حتى مضت الأعوام الطويلة ، وما عرف صاحبائي أنني رب شبهة والله الحمد . وأم ما كان يعجبان به أنني كنت متمنكاً من الفرنسية . ومعرفة المسلم

الفرنسية في ذاك الدور كانت لمد منقبة عظيمة . وقد طلب مني والي الولاية حسن باشا أن أدرس ابنه النجيب هذه اللغة ، فكنت أكرر له اللفظة أربعين مرة فينساها في المرة الحادية والأربعين ، فقضبت على اليوم الذي تعلم فيه هذه اللغة ، وما جنحت منها إلا لشهي الولاية على كل حين تعلم أولادم .

كان ذاك الوجيه شريك المشير في القول يتواصل حزب الانحاد ذكياً منوراً غير محدود العقل . وكان بعض الاعيان يتنافسون في كسب رضا رجال الاستانة والتقارب من قلوب عمال الدولة في سوريا ، وعلى ذلك كانت تتوقف مظاهرهم ، وبغير هذه الاساليب لا تحمي ثروتهم . وأنذَّرَ أن والدي ابناع لي كتاباً من احدى التركات ، وكانت تباع التركات في الجامع الاموي بعد صلاة الجمعة ، وغُرم فيها ألفاً وخمسمائة قرش فبلغ ذاك الوجيه الخبر ، وجاء إلى دارنا في المساء ، وكان يعرف والدي وله به صحبة فطلب إليه أن يعطيه الكتب أو بعضها على سبيل المارة فأبى والدي أن يدفعها إليه وقال له : إنني اشتريتها للصبي يتعلم بها ، ولا سبيل إلى أن أخرجها من خزانته حتى لا أكسر شوقيه . وقال لي بعد انصرافه : يا ولدي لو دفعناها إليك ما عادت إلينا .

مسند

## اجماعات مفيدة

كنا جماعة نجتمع على قراءة كتاب بعض ليالي الأسبوع ، يكون موضوعه الدين أو التاريخ أو الأدب ، فإذا فرغنا من المذاكرات العلمية نجرنا الأحوال إلى البحث في الشؤون السياسية ، وكان اجتماعنا في بيتنا ، وفي مدرسة عبد الله باشا في غرفة محمد علي افندي مسلم ، وكان على جانب عظيم من الأدب والتهذيب ، ومن أخصائه شيخينا سليم افندي البخاري والشيخ طاهر الجزائري روح تلك الجماعة . وكان يدعى صداقتنا كلنا أحد رجال الشرطة والظاهر من حاله أنه يحب الجماعة ويمشى الاجتماع بهم ، وان نفسيته ليست تقسية شرطية يعمل لحساب الشرطة التركية ، وينقل إليها أخبار جماعتنا ، وكثيراً ما كان بضمهم يفتح قلبه وينطلق حراً في كلامه . وأنظن الكبار مما يومئذ بعلمهم وخبرتهم ما كان يخفى عليهم أمره ، وما استطاعوا دفعه عنهم خيفة أن ينبهوا الانظار إليهم ، وعندها لاتزورهم دمشق ، ويُشتتون تحت كل كوكب ، وهذه القاعدة في تأليف قلوب أصحاب الاخبار كثيراً ما كان يحمد إليها أصحابنا وأنا أنا بهم عليها مكرهاً ، فكنت أعيش في بعض وجوه بعضهم وقابلي بضمهم . كان هذا المجلس نافعاً من كل وجه ، كأنه بعث دعاء إلى الحق والنور في عاصمة ماختلت في كل عصور الاسلام من علماء عاملين ، يرمون بضمهم إلى بعيد ، ويرون من واجهم أن يعملوا للإمام كل مفيد . وكان بضمهم ينظر إلى هذه الجماعة نظر الريبة ، وتنذهب الظنون في الحكم عليها مذاهب ، وكلما كانت المطاعنة توجه إلى القائمين بها بزيدون تالفاً ونعاشاً . وعقل الشيوخين الرئيسين يرد علينا ضربات أصحاب الأغراض ، وبقيها شر الدسسين والسايسين وكانت معظم الطاعنين يعرفون ما يجري فيها من الاحداث النافعة ، وما يلقى فيها من النكات والبدائع ، فتشتاق تقوصهم إلى الانضمام إلى أربابها ، ولا يتيسر لهم ذلك .

عرف بعض الأعيان أن جماعة أكثر من العوام ، يجتمعون عند أحد التجار مرة أو مرتين في الأسبوع ، برئاسة شيخنا السيد محمد المبارك وأن من جملة من يضم هبذا المجلس استاذ الشيخ المبارك الشيخ طاهر الجزائري . وكان ذلك الوجيه يكره الشيخ طاهرًا كما يكرهني . فأرسل أحد خاصته ينبه على صاحب البيت الذي يختلف اليه الجماعة ، وكان تاجرًا متسيحًا متصلحاً ، فقال له في سرّ ، إن الوالي غاضب غصباً لا مزده عليه على الشيخ طاهر وعلى تلميذه كرد علي ، فمن كلامها يستهدف لنفس الوالي وغضب الوالي من غضب السلطان ، وغضب السلطان من غضب الله ، فكلم التاجر شيخ الجماعة وتماهدوا في الحال على ألا يكلمونا — وانا لم أدخل مجلسهم قط ولا أعزفهم إلا من بعيد — ولم يلب الدخول في هذه المؤامرة غير صديقين لنا السيد عبد الباقى الحسنى ، ومحمد اندى الحكيم ، فأخذنا بعمدان الاكتئار من زيارتنا أكثر من قبل . وما لبث شيخنا المبارك أن تبين له تمجله في تصدق الدسايسين ، وأدرك كيف حيكت الميسسة . وكان للشيخ طاهر بد طوى في كشف المؤامرة ، وما خلت من نكات أضحك جماعتنا وتلهوا بها زمناً . ذكرت هذا نموذجاً من أخلاق الأعيان .

زار الشيخ طاهر على أثر الفتنة الفاشلة مدينة القدس ، وعاد يتفى على أهلها ، فمجب الحاضرون من المبالغة في مدحهم ، وكلهم سيرف أن المقادسة لا ينزاون شيئاً عن غيرهم من سكان مدن الشام . فسأله الإبر شكيب ارسلان ، وكان حاضراً في الجلسة : يا مولاي وما وجه تميز اهل القدس عن غيرهم ، وانا ارى ان اهل دمشق احرى بهذا الثناء . فأجاب الشيخ : اهل القدس جهلاء ويعرفون بجهائهم ، ويكبرون ان يخرجوا منه ، فيحاولون ان يتمهوا اما غيرهم من اهل المدن الأخرى فلنهم لا يدرؤون ولا يدرؤون انهم لا يدرؤون . فجمل المقادسة إذا جهل بسيط وجهل غيرهم جهل مركب . فرفع شكيب بد به إلى السماء ، وقال : اللهم ارزقنا هذا الجهل البسيط . والشيخ يقصد من ذلك تحذ المهم ، والقاء المنافسة بين البلدان لتهب نحو العلا .

## شِعْرُ الْأَوْنَانِ

الشعراء الخمسة الجمجم على تقديمهم البارودي فصيري فحافظ فشوقي فمطران .  
كان البارودي مجدد ديانة الشعر الحديث وكان صبري مثال الرقة في الشعر  
وحافظ آية الجزاية والوطنية الملتبة وشوقى أمير الشعراء حفاظاً خاصاً في  
مواضيعات لم يخضها أحد قبله من شعرائنا ، ومطران أدخل في الشعر العربي  
روحًا جديداً وكان آية الابداع في كتابته وشعره وأحسن ما به أنه  
الشامي الوحيد الذي نزل مصر وغتصب وما عادت عليه غلطة فكان مخلصاً  
لوطنه الثاني اخلاصه لوطنه الأول . وإذا قلت أن سديقى الإبر خليل  
مطران هو أول من رفع رأس الشامي في مصر وكان مثال المروءة والفضل  
لا أعد بجازفًا .

أما شعراء الشام والعراق فكثير عددهم ومن قرأت من المؤخرين شعرهم  
وأعجبت به خير الدين الزركلي بشارة الخوري فؤاد الخطيب شفيق جبرى  
خليل مردم بك عمر أبو ربيعة محمد سليمان الأحمد ( بدوى الجبل ) ومن العراقيين  
رضا الشيبى معروف الرصافى جليل صدقى الزهاوى وكل قصائد هؤلاء  
النوابغ مما يرقى ويطرب ويعلم وبهذب .

## شِعْرُ أَصْبَحَ حَسِيرًا

وقع في ملك الخديوي اسماعيل جزء عظيم من أراضي مصر رأى أنها تحتاج إلى  
ترعنة زراعة وكان أكثرها ما عرف الرئيسي من ذكر تاريخ وأهلها يموتون بغريها  
عطشاً والنيل على مقربة منهم فعمد الخديوي إلى الطرق التي معرف الناس  
غيرها إلى ذلك المهد وهي السخرة فسخر الفلاح وكانت السباط تهال على  
 أجسام الفلاحين ولم يفتحون لغيرهم زرعة لا ينالمون منها أدنى خير ونقلبت

الاحوال وتنازل اسماعيل عن عرش مصر وكان الاحتلال فرأى الاورد كرومر مصلح مصر أن هناك أراضي واسعة ربما بلغت نحو نصف المزروع من أرض القطر المصري يومئذ وكان اسماعيل عجز عن ادارتها وما كانت لتفل له ما ينفق عليها فاستعان بالدائنين من الافرنج شا هي إلا أعوام حتى آلت إليهم ملكيتها ولم أيضاً ما عرفوا كيف يدبرونها . فكان رأي كرومر هو الصواب قسماً وباعها من المصريين فعاد إليهم ملك كان خرج من آباهم بطرق غريبة وانتقمت مصر كلها برعة الابراهيمية وهي ترعة صناعية طولها ١٥٠ كيلو متراً تشي على وجه الارض بعض الاحيان تتدن من دروط إلى عمل اسيوط إلى الجيزة في جيطان القاهرة ، أصبح ذاك الشر بعد لصف قرن خيراً لمصر .

## فقيه السياسة الفالي

احتفلت الجمهورية السورية بمرور سنة على وفاة الزعيم العظيم السيد سعد الله الجباري رحمه الله واشتركت البلاد العربية بهذه الذكرى ذكرى عظيم خدم استقلالها .

وقد تلي في الجامعة السورية مقر الاحتفال من ضروب المنظوم والمشور كل جيد وأثبتت الأمة أنها تقدر رجالها أقدارهم .

خرج صديقي سعد الله من الدنيا ولم يخلف سوى ثيابه واسماً لا يبل ويكان شقيقه الاكابر الصدر المقدم السيد فاخر الجباري هو الذي يتولى الانفاق عليه لامن ماتؤديه اليه الامة ما كان يكفيه للصدقات أما أجور الفنادق وسائر نفقات الفقيه الباهظة وكان يسددها السيد فاخر وما زال بنو الجباري في حلب منذ أيام الترك يحملون مشعل الوطنية العربية وقد عانوا في سبيلها أشد الآلام وما التوى لهم عصب وظلوا على ما توجبه المرودة قدوة من أحب وطنه وعرف واجباته .

## ما يقلب على من الشام

عنوان مستغرب وأغرب منه الحكم الذي نحكم به الآن في موضوع يصعب الخروج منه واعفي به المايل على كل مدينة والظاهر من التجانس في كل بلد . فأهل دمشق لا كلها فيه إلا للمسلمين وسائر الطوائف تتبع لهم في السراء والضراء وأهل حمص يستترك مسلموهم ومسيحيوهم مشاركة قوية لأن إكلنا الطائفتين غني ولهم رجال وأهل حماة لاشان فيه لنغير المسلمين وأهل حلب يتقاسم المسلمون والمسيحيون السلطان شق الامامة ولا أرى أجمل من تجانسهم واحترام بعضهم بعضاً وهذا قديم فيهم وبقي متسللاً في أصولهم وفروعهم إلى اليوم . لذلك وقى الله بهم شر الدسائس السياسية فلم تقم بها مذبحة ولم يكدر يعتدي مواطن على مواطن كما حصل في دمشق وبيروت سنة الستين وبعدها وقبلها وأهل طرابلس نموذج المواطنين الخالص الوطنية الصبحية وان كان أكثرهم مسلمين لا يشعرون كل ساكن فيها إلا أنه أخ لمواطنه حقيقة وأهل اللاذقية ديمقراطيون بكل ما في الديمقراطية من معنى شريف كان صبيحهم هذا تكفير لسيئات الاستقرارية التأصلة في جبالها وأهل بيروت كسائر المدن التجارية في حوض البحر المتوسط مشاغل بتجارتهم لاتهمهم السياسة إلا إذا مزجوها بالتجارة والتجانس قل فيهم . ولما كان المسيحيون أكثر تعدادا كانوا بالطبعية المسيطرین على المسلمين وإن كانت الأغلبية في لبنان للطوائف الإسلامية وفي يافا الكلمة الأولى للMuslimين وفي القدس وتل أبيب لليهود وكذلك اسلاميتان وهكذا كل بلدة يغلب عليها السواد الاعظم سنة الله في خلقه .

## انصاف أسرة

كثيراً ماتنقدت في باطني ما أراه من اعتزال بعض أعضاء الأسرة المالكة في مصر يشبحون بوجوههم عن الرعية كأن لسان حالم أنهم من عنصر غير عنصر الامة التي هم بعض أفرادها وما يزدهم عنها إلا كون جدم الاعلى كان له الفضل الاعظم على مصر واشتغل لمصر فقط لا لنفسه خلافاً لاكثر أخلاقه . نعم اشتغل أكثرهم بأنفسهم فما أغنوا أنفسهم ولا أتمتهم على تقىض ما كان من الامير عمر طوسون رحمه الله فان هذا من الشذوذ فيهم بسيرته وهدى . ويسريني أن بعض أبناء هذه الأسرة الكريمة طلقوا العزلة في العهد الاخير واحتلطا على سواد الشعب وعدوا أنفسهم خدمة للعملة وأرباب الصناعات والحرف والطبقات التي يسمونها النازلة وهي سواد الامة والحجر الاول في بنائها ، والرجل ان بمحري سائر أفراد البيت الملكي على هذه الطريقة اينفروا ويتدفعوا . وأننا على حساب نفسي آليت ألا أسأل عن أحدهم وكان صديقاً لي ويظهر لي التودد العظيم إذا قصدته واجتمعنا . ولكن ما كان يسأل عني ولو غبت عنه سنتين فهو من الضرب الذي يجوز أن نسبه انصاف الامة كأنه ذي إن ما كان يمثل في الماضي لا يتأتى الآن تمثيل مثله وأن القلوب لا تستمال إلا بالمعطف . وإن كل إنسان في غيبة عن الآخر مadam طالبشي كثيراً عديدهم . وما جراء الاحسان إلا الاحسان ، وإن من لا يفعل الخير بداعم نفسي لاحمله في نظر الامة شيء .

## التطوّيل في المقالات

زرت الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ في إدارته فجاء ابنه محمد قلت له اريد أن أفت نظرك إلى المقالات الأدبية التي تكتبها في البلاغ كل أسبوع فانها مطولة جداً وما احال احداً يقرؤها واللغة العربية افة الابيجاز وانت لا تكتب قصة ولا رواية توسيع فيها لتأخذ من وقت القراء فهلا عودت نفسك الاختصار ما امكن فلو كتبت ثلاثة اعمدة بدلاً من ستة لكان الامثل بك ولماذا لا تقتدي بوالدك وابيجازه في أدق الموضوعات السياسية وقد كان ابطريقة هذه العامل الأول في اسقاط وزارة من ادراك وزارات واكتفائها فقال عبد القادر حمزة اسمع يا بني نصيحة الاستاذ الحكيمية واجملها منهاجك في حياتك الصحافية تنجح بحول الله .

## الرافعي مؤرخ العصر

طالعت كل ما خطته انايل والاستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخ مصر الحديث فرأيت امانة المؤرخ وبحث العالم ونظر السياسي متجلية في كل صفحة من صفحات كتبه . ولقد حاول بعضهم ان يكتبوا في تاريخ مصر و منهم حملة الشهادات المالية من جامعات الغرب واساتذة في جامعة مصر فما افلحوا وكانوا ان تمت لهم الادوات تخونهم التجربة فينقلبون نظريين لا عمليين و منهم من عد التاريخ بایاً من أبواب الرزق فكتب تاريخاً في سيرة بعض الولاة المتأخرین في مصر كان في كل صفحة ينادي على نفسه بالغلو والمراؤفة و منهم الافاقون أشبه بمراسلي الصحف اليومية لا يهم ان يكتبهم الواقع ولا تحرر وجوههم إذا انكشف كذبهم ولذلك حق لي أن أقول أن حبيبي السيد الرافعي هذا هو مؤرخ مصر الحديث في مصر بلا مراء بل مؤرخ الاقتدار العربية لأننا لم نطلع على تواریخ لها تروي الفلة من كل وجه وإذا جود بعضهم في ناحية فالمخترقون أوفر عدداً على مارأيت .

## تمثال تيمور

لقيت اسماعيل باشا تيمور في قصر عابدين وذكرته بما اقترحه يوم ذكرى والده في اوبرا مصر ( فبراير ١٩٤٥ ) من اقامة تمثال له وحضرته على المذكرة بهذا الامر المهم الذي يحفز الشباب إلى السير على أقدام الشيوخ فبكى وقال لي لم أجد أحداً وفي لواليدي مثل ما وفيت له أنت فأجبته لو كنتُ مت قبل أبيك لقام نحوي بأكتر مما قلت أنا نحوه . بدأت مصر باقامة تماثيل للسياسيين الوطنيين وهي بعيدة اليوم عن اقامة تماثيل للعلماء العاملين ولو كانوا من عيار أحمد تيمور باشا قضوا حياتهم كلها في عمل الخير ونشر العلم وما فكروا فيما سوى ذلك .

أما الاقتراح فقد كتبته إلى صدقي الشيخ خليل ثابت بك رئيس لجنة الاحتفال ورئيس تحرير المقطم الذي جعل من هذه الجريدة مدرسة سيارة علم قارئها سياسة الدول والامم ولا نطالعه بغير المقبول .

عزيزي الاستاذ خليل بك ثابت المحترم

تفضلت وطلبت اشتراكك في إحياء ذكرى صدقي العلامة د أحمد تيمور باشا ، رحمه الله . وإذا قد سبق لي أن دونت كل ما عرفته من سيرته الخاصة وال العامة لم أر الآن أن أسفل الناس بحديث معاد . ونهاية ما أرجو أن ينجلبي اجتماع يوم الذكرى عن تحقيق أمنية من عرفا جهاد تيمور العظيم في خدمة الأدب وذلك بطبع كل ما خطته يمينه من كتب ورسائل ومقالات وتأليفات . وإذا صحت النية على البر بعلم الإعلام فخير ما يكون منه تعلم المصريين أن يقام له تمثال ينصب أمام مجمع فؤاد الأول للفة العربية عنواناً على الاعتراف بيض أيادي ابن مصر البار على هذه اللغة وعلى تاريخ الإسلام .  
والسلام عليك أخي

محمد كرد علي

## الساعيون في مصر

كتب إلى أحد شبان الدمشقيين من زلاه مصر ، وأنا في تحرير « المؤيد » ،  
برجو أن أعادونه في الجريدة على تأليف جماعة سورية إسلامية تتولى من الشامين  
في القطر المصري ما تتولاه جميات البر والاحسان التي يؤلف مثلها الزلاه الاجانب  
ففتحت له أن يعدل عن هذه الفكرة لأن الشامين المسلمين في مصر ينزلون على  
أهلهم وعشيرتهم ، أما غير المسلمين من أهل الشام ، فان شئتم بعض بالغرة في  
مصر فذاك لأن منهم من جاؤوا القطر واستخدموها في اعمال آلت المصريين ،  
كوظائف الامن العام وغيرها ( ومنهم افراد كانت لهم علائق غير محمودة مع  
ارباب المقامات المالية خلفوا بها الوفا من الفدائيين وعقارات كثيرة ، وعمدوا  
بأشدّ الاتهاب ) فأبغضهم المصريون واستثنوا ظلهم .

ولما نشر هذا الرأي حملت علي كل جريدة فيها يد للبنياني ، وانحوا علي النحاء  
شديداً ، وزيفوا اقوالي ، وعنوا علي أن وصفتهم بما وصفتهم ، فحمدت لهم  
تعاسكم ودفعهم عن ابناء مذهبهم ، وتنبأت لو كان المسلمون في كل ارض على  
مثل هذا القدر من التعاون . وما انقضى من ايدي المحررين الذين كتبوا في  
ما كتبوا إلا الشیخ طاهر الجزائري واحمد زكي باشا وعما قاله زكي باشا في معرض  
الدفاع عنی ، لينقضني من مخالب المهاجمين : إن لم ارزق حظاً من التعبير فيما كتبت  
في بحثي .

وحقيقة انني مازلت اكره التمييز بين سوري ومصري ومغربي ، لمنزلا  
هذه التفرقة بين شعوب لا فارق بينهم في الحقيقة . ولقد ذرت مع بعض اصدقائي  
السوريين ناديهم في شارع وجه البركة بالقاهرة فأنكرت على جماعته لسمية ناديهم  
 بالنادي السوري وعددت هذا هضاماً لحقوق مصر في مصر . وزاد انكاري لما  
عرفت انهم ما دخلوا منهم احداً من المصريين ، بدعوى ان السوريين المسيحيين  
يأتون مع ناسهم إلى النادي ، والمصريين يحضرؤن وحدم ، فقلت لصاحبي : إنكم

بذلك كسبتون لأنفسكم أكثر مما كسبتُون للمصريين ، فان تباعدكم عنهم يضركم وقد لا يضرهم ، اما وقد هاجرتم من بلادكم هجرة قطامية ، ومنكم من هاجر من مئة وخمسين سنة ، مثل اجدادك انت ( اي مخاطبي ) فلا معنى للاحتفاظ بالثوب القديم بل حسِّبكم الجديد وعليكم الصناعة به ، حتى يطيب العيش مع اهل القطر بامتزاجكم بهم فتفيدون واستفيدون . ولاني اعرف رجالاً من الشاميين قضوا في مصر اربعين سنة واغتنوا فيها وتناسلوا ، وعظمت مظاهرهم ، وما عرفوا من المصريين إلا ظواهرهم ، فأي جفاء اعظم من هذا الجفاء ؟ .

ولطالما تأملت نفسي في مصر والشام من ينادي أو جمجمة يسميه او يسمها بالكاثوليكية او المارونية او الارمنية ذكورة او القبطية او الاسلامية او الملوية او اليهودية ، وكل ذلك تفرقات لا معنى لها في هذا العصر .

ظلّ المصريون اي سوادهم الاعظم إلى عهد قريب يعتقدون ان الشاميين ليسوا سوى اللبنانيين الذين جاءوا مصر ، وناهوا وباهوا على عهد الاحتلال الانكليزي ، ذلك لأنّه قلّ المهاجرون من مسلمي الشام من الطبقات الصالحة ، ولما هاجرت طبقة راقية من المسلمين ، أدرك المصريون أن الشام على غير ما كانوا يتخيّلون ، وأن لبنان جبل من جبال الديار الشامية اقتضت سياسة أوربا ، وتنافس البرستانتية مع الكاثوليكية أن يتعلّم قعلم قبل غيره . وأن في رجال الاسلام أناساً يفكرون تفكيراً صحيحاً ، وينشرون الجرائد والمجلات ، ويعرفون معنى المدنية ويتذوقونها ويدعون إليها .

قال أحد المفكرين إن مصر لم يجعلها من الشمال إلا فانع . ومن الغرب إلا صاحب طريق ، ومن الجنوب إلا خادم ، ومن الشرق إلا تاجر ، وهو كلام في جملته صحيح يثبت الواقع ، فالسوريون أنوا مصر نجارةً ولذلك يستقلّ ظلّهم بعض المصريين . وقد ادعى عميد الاحتلال لورد كرومر في بعض كتبه في مصر أن الجالية السورية فيها أرقى من جميع الجاليات بهذتها وتربيتها ، وأظنه تشيع لهم بعض التشيع ، وقد بهذا الثناء مكافأتهم على حسن خدمتهم ادولته ، فحكم على المجموع بما لقيه من رق افراد .

لولا لائحة رياض باشا التي تحظر على غير المصريين الاستخدام في وظائف الحكومة المصرية إلا بشروط ، حق لا يحرم المصريون التوظيف ، لزاد عدد السوريين كثيراً في خدمة مصر . وعادت هذه اللائحة مع هذا على السوريين بفائدة عظيمة ، فقللت همهم بالتجارة والزراعة ، وانصرفوا عن الاستخدام إلى الأعمال الحرة فاغتنوا ، وجاء زمن وقد بلغت ثروتهم في مصر خمسين مليون جنيه أو عشر ثروة القطر المصري ، وذلك قبل أزمة سنة ١٩٠٨ . وما كان ي Thom المصريين دعوى بعض الشاميين أنهم حلوا إلى المصريين التور والعلم ، وكانوا من قبل في عمادة وجبل ، لا يقيمون وزناً للمدنية . وهي دعوى غير صحيحة كررها بعض اللبنانيين كثيراً ، وما زالوا يكررونها حتى اعتقاد السذاج من بينهم بصحتها ، فإن المصريين ، والتاريخ ناطق بذلك كانوا سارين نحو المدنية قبل الشاميين بشرات من السنين ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمذاهب التعلم والتربية منذ فجر القرن التاسع عشر ، وقد أنشئت مدرسة الطب واللغات عندما من أكثـر من مئة وعشـر سنـيـن .

والشـام لم يـهدـ فيها شـيءـ من عـلومـ الـحـضـارـةـ الـحـدـيـثـةـ قـبـلـ آنـ وـافـاـهـاـ الـمـرـسـلـوـنـ الـأـجـانـبـ بـكـثـرـةـ ، عـقـبـ مـذـابـعـ سـنـةـ ١٨٦٠ـ ثـمـ اـنـشـئـتـ الـمـارـسـ فيـ لـبـانـ ، وـمـنـ أـهـلـهـ مـنـ تـلـمـيـذـاـ فـيـ مـارـسـ الـأـمـيرـ كـانـ الـبـرـكـسـانـيـةـ ، وـمـنـهـمـ مـنـ تـلـمـيـذـاـ فـيـ مـارـسـ الـفـرـنـسـيـنـ الـكـانـوـلـيـكـيـةـ . وـبـالـاحـتـالـلـ الـانـكـلـيـزـيـ ١٨٨٢ـ كـثـرـ لـسـلـلـ الـبـلـانـيـنـ إـلـىـ مـصـرـ ، فـنـهـمـ مـنـ كـانـ يـسـتـخـدـمـ فـيـ الـحـكـومـةـ ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـتـرـجـمـ فـيـ الصـحـافـةـ ، أـوـ يـسـتـخـدـمـ فـيـ بـعـضـ الـمـارـضـيـاتـ وـالـشـركـاتـ كـاتـباـ أـوـ حـاسـبـاـ أـوـ وـكـيلـاـ أـوـ سـمـارـاـ ، وـكـانـ الـمـصـرـيـوـنـ فـيـ ذـاكـ الـمـهـدـ يـقـبـلـونـ عـلـىـ التـوـظـفـ فـيـ الـحـكـومـةـ ، وـيـفـضـلـونـ الـوـظـافـ علىـ غـيرـهـاـ مـنـ مـذاـهـبـ الـمـاـشـ ، وـمـنـهـاـ الصـحـافـةـ .

فـلـماـ اـمـتـلـأـتـ الشـوـاغـرـ فـيـ الدـوـاـوـيـنـ ، اـنـقـلـبـ الـمـصـرـيـوـنـ نـحـوـ الصـحـافـةـ فـأـنـشـأـوـاـ جـرـائـدـ وـبـلـاغـاتـ لـاـ نـقـلـ بـعـكـاتـهـاـ وـمـظـهـرـهـاـ عـنـ الـجـرـيدـتـيـنـ الـتـيـنـ عـاـنـهـاـ فـرـنـسـاـ وـانـكـلـتـرـاـ ، وـلـاـ عـنـ الـجـلـيـنـ الـمـظـيـمـيـنـ الـتـيـنـ عـاشـتـاـ بـعـمـونـةـ وـزـارـةـ

المعرف . وما كان « المؤيد » و « اللواء » من حيث التحرير يقللأنت يومئذ مكانة عن « الأهرام » و « المقطم » ، ولا تقل مكانة مجلة « الثقافة » و « الرسالة » اليوم عن مكانة « المقتطف » و « الملال » ، فليس من الانصاف والحالة هذه أن يقال : إن الشاميين علموا المصريين ، وقد سبق المصريون إلى إنشاء الصحف والمجلات ، وما حال دون اطهار سدور ما صدر منها إلا داء التوظف ، وما زالت عقابيه متجلية فيهم إلى الآن ، وهو من أمراض مصر وقاها الله منه .

---

## الاستفالم بالصحافة

بدأتُ أقرأ الجرائد المرئية في الثالثة عشرة من عمرِي ، وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية . وبند حين اشتَرَكت بجريدةتين ( بيروت ) الأسبوعية و ( لسان الحال ) نصف الأسبوعية . وما كان يصدر في دمشق إلا جريدة ( سوريا ) الرسمية الأسبوعية ، وهي ذات وجہين ، وجہان منها بالتركية ، وجہان بالعربية ، وعربيتها مترجمة عن التركية ، مثل الركاك وضعف التركيب ، تنشر فيها الأوصاف الرسمية ، وما يسرُّ الوالي من أنباء حكومته وإعلانات المحاكم .

وأولمت بطالعة لسان الحال لأن فيه أخباراً طريفةً مغربيةً عن الانكليزية ، وفيه مناقشات ومساجلات وأديبيات ، واشتركت لما كنت في السنة الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة فرنسية أسبوعية تصدر في باريس اسمها ( صدق الريف ) L'ami de la Campagne ، وكان أمم مباحثها الزراعة وما إليها ، تجحب سكنى الأرياف لسكان المدن ، وفيها من كل فن خبر ، فشُفِّفتُ بدرسها ، وكنتُ أقرؤُها قراءة تدبر لا قراءة تفكك ، وقد أصفحها مرتين وأكثر ، حتى يجيء العدد الجديد . وأطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الاستانة ، ولا سبباً المجالات الأدبية والتاريخية . وقد أقرأ بعض المقالات التي ترافقني أكثر من مرة ، ولا سبباً مقالات كبار الكتاب المفكرين في السياسة والاجتماع . وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد .

ما كنت أظن أن هذه البداية تشي بي إلى الفرام بالصحافة ، وبلغ بي الحال أن أحرر أولَ جريدة ظهرت في دمشق ، وأنطَرَ دُورها مدة ؛ واسمها « الشام » ، كانت تصدر أسبوعية لصاحبها مصطفى أفندي واصف ( الشقللي ) ، مدير مطبعة الولاية ومدير إطفاء الحرائق .

وفي مطبعة الولاية كان يطبع جريده . ولم يكن محسن<sup>م</sup> الكتابة بالعربيه فانكل على صهره أديب أندلي نظمي (الطائحي المصري) ، وكان هذا يلتف بين جل محفظها لبعض الكتاب المحدثين ، ومنها عبارات لا أدب إسحاق ، ويصوغ من عنده بعض جل . وانكل أيضاً على إسماعيل أندلي النابلي من أبناء الأعيان . وكلا الرجلين لم يدرس آداب اللغة العربية الدرس المطلوب ، ولا أرب له من تحرير الجريدة إلا أن تخد منها سلماً إلى الترقى ، ووسيلة إلى التقرب من قلوب بعض من بهم التقرب منهم . وكلا الرجلين كان في القضاء ، ويعرف القوانين والأنظمة المتعارفة ، ويتكلم بالتركية وبكتها . وإسماعيل النابلي من أحفاد الشيخ عبد الغني النابلي عالم دمشق في المئة الثانية عشرة .

ـ ملـ صاحب « الشام » على ما قال من إعانت هذين المحررين له ، فمهـ إلى تحرير جريده . ولـا أخذـ بالنقل عن التركية والفرنسية شـرـتـ بـنـطـوـرـةـ الـعـلـىـ الـذـيـ وـسـدـ إـلـيـ . وـأـشـدـ ماـ كـانـ بـؤـانـيـ كـابـوسـ المـراـقـةـ ، وـماـ أـلـقـاهـ مـنـ النـيـظـ حـقـ بـؤـذـانـ لـلـجـرـيـدـ بـالـطـبـعـ . وـماـ كـانـ مـرـاقـبـ الـجـرـيـدـ غـيـرـ صـاحـبـهاـ وـهـوـ مـنـ عـمـالـ الـحـكـومـةـ ، وـمـنـ اـعـرـفـ النـاسـ بـمـاـ يـرـضـهـاـ وـمـاـ يـنـضـبـهـاـ ، وـغـایـةـ مـاـ يـتوـخـيـ انـ يـرـضـيـ الـوـالـيـ عـنـهـ اـبـداـ . وـالـصـوـمـيـةـ فـيـ المـراـقـةـ اـنـهـ لـاـ قـاعـدـهـ لـهـ بـرـجـعـ إـلـيـهاـ ، وـلـيـسـ لـهـ قـانـونـ ثـابـتـ مـعـرـوفـ ؟ وـرـبـماـ كـتـبـتـ القـطـعـةـ لـظـنـ اـنـهـ لـاـ زـوـقـ المـرـاقـبـ فـيـقـرـهـاـ وـبـسـتـحـسـنـهاـ ، وـقـدـ تـكـبـ غـيـرـهـ وـأـنـ لـاـ رـزـىـ فـيـهاـ مـاـ يـقـالـ ، فـتـحـذـفـ . فـلـاـ قـاعـدـهـ فـيـ المـراـقـةـ غـيـرـ ذـوقـ المـرـاقـبـ وـهـوـ ، وـلـاـ قـانـونـ إـلـاـ مـاـ يـسـتمـدـهـ مـنـ رـوـحـ الـحـكـومـةـ الـاسـتـبـداـتـةـ . وـاـكـثـرـ مـاـ يـحـبـ انـ يـتـوـقاـهـ المـحرـرـ ذـكـرـ شـيـءـ يـمـسـ السـلـطـانـ مـنـ قـرـبـ اوـ بـعـيدـ ، اوـ يـمـسـ عـمـالـهـ وـرـجـالـهـ وـجـيـشـهـ وـإـدـارـةـ وـسـيـاسـتـهـ ، وـأـلـاـ يـشـيرـ إـلـىـ مـسـأـلـةـ تـارـيخـيـةـ فـيـهاـ ذـكـرـ الـخـلـاقـةـ وـالـحـرـيـةـ وـالـشـورـيـ وـالـدـسـتـورـ وـقـتـلـ الـمـلـوكـ وـخـلـمـهـمـ .

ولـطـالـمـاـ تـأـلـتـ نـفـيـ لـحـذـفـ صـاحـبـ الـجـرـيـدـ المـقـاطـعـ الـكـبـيرـةـ مـاـ أـكـتبـ ،

وأحياناً المقالة برمتها . أما حذف الأخبار الصغيرة فأليس ما ب فعل . وقد يحذف ما يكون منقولاً من سحف الاستانة . فاذا سأله عن السبب في ذلك قال : إن هواء سوريا غير هواء فروق عاصمة الملك . و كنت أسمع كليلات و تمعنات ما أنزل الله بها من سلطان .

وددت منذ السنة الأولى أن أستعنني من تحرير هذه الصحيفة إلا أن استاذي كان يقول : إن تحريرك لها بمنابع الشق ( يشق ) عليه الأولاد لتحسين خطهم . وعلى هذا بقيت ثلاث سنين في تحرير ( الشام ) فلقيت من الصحافة عرق القرية لأول أمري ، وبعد ذلك اصلت بمجلة « المقططف » المصرية وأخذت أوامر فيها . وكان صاحبها بشكا إلى صديقي الأمير شكب أرسلان أنه مضطر إلى أن يكتب المجلة كلها ، وحجمها يزيد على مئة صفحة في الشهر . وبكتابتي في هذه المجلة امتد شهرتي . وكلا طال المهد بالصحافة زدت بها ولوعاً حتى بلأت منها الحلو والمر في مصر والشام .

رب شر أنتج خيراً . فالمراقبة على ظاهرها شر حض ، وقد نشأ لي منه بعض الخير ، ذلك أنني مررت بها على البديبة والارتجال ، لأن تلك المقاطع والمقالات التي يحذفها قلم المراقب بمحبره الأحمر ، يضطر المحرر أن يعلا مكانها بأشياء من نوعها ، تكون مقبولة في ذوق المراقب ، والجريدة لا يجوز أن تشطب منها سطور وأعمدة ، وتنشر الملاك كالدين المقلوعة . والوقت ضيق ، والبريد حافز ، والطابع يرجوك العجلة ، والقراء يتوقفون تناول جريدهم في وقت صدورها ، وإلا جاءكم بعضهم إلى المطبعة ، يسأل عن سبب التأخير .

ربما قال القائل وأنت لماذا تتصرف هذا النصب ، وتتصب هذا النصب ، اكتب ما يجوزه المراقب ، وتفوّق ما تعرف أن مصيره الحذف ، وسر بما يمكن ترح وترح . وهذا كلام يقوله من لم يعش في ذاك الجو المشبع بالكتافات ، ولا يفوتنا أن المراقبة من أشكال المشاكل ، وما هي إلا صراع

ين الحرية والاستبداد ، ونأبيك به من صراع ، والقابضون يومئذ على  
زمام الارس يهزون بالحرية وأنصارها .

وما ي Finch أن صاحب الجريدة طمع في طبع محترم جريدة الناشي .  
بطابعه ، فبشرني وهو فرح جذلات ذات يوم بأنه توسط لي مع الوالي  
فاستكتبه مفترحاً (إهـاء) لي برتبة ، وظن أن هذه البشارة من أعظم  
ما يزفه إلى من البشائر . وأكـبر نـعمة أـحصل عـلـيـها فـي ذـاك الدـور ، فـقـلت  
لـه : وـأـين الـكتـاب الـذـي يـطـلـب لـي فـيـه هـذـا التـشـرـيف ؟ قـال أـرـسل مـع  
الـبـرـيد إـلـى الـاسـتـانـة . فـقـلت لـه ، وـأـنـا مـتـمـضـ اـمـتـاضـاً عـظـيـماً : قـلـم وـلـاشـكـ  
أـنـي لـم أـسـع لـضـرـرـ إـنـسـانـ فـي حـيـاتـي ، وـإـنـ كـنـت أـنـت قد سـعـيـتـ اـضـرـرـيـ  
بـاستـحـصالـ رـتـبةـ لـيـ ، فـأـضـرـرـكـ فـيـ مـقـاتـلـكـ وـأـنـا أـعـرـفـهـاـ ، بـحـيـثـ لـاـ تـقـومـ لـكـ  
قـائـمـةـ ، وـعـنـدـهـ خـافـ صـاحـيـ سـورـتـيـ ، وـاستـعـادـ الـكتـابـ مـنـ الـبـرـيدـ أوـ مـنـ  
الـدـيـوـانـ بـوـاسـطـةـ جـمـاعـةـ الـوـالـيـ ، وـنـجـوتـ مـنـ تـقـلـدـ الرـتـبةـ وـلـبسـ الـقصـابـ ،  
وـكـانـ المـدـيرـ يـسـتـغـرـبـ مـنـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ ، وـرـبـماـ عـدـهـاـ فـيـ باـطـنـهـ رـقـاعـةـ ، لـأـنـ  
كـسـيـنـ بـالـمـائـةـ مـنـ عـمـالـ الـحـكـومـةـ وـغـيرـمـ إـذـ ذـاكـ كـانـواـ مـخـدـرـةـ أـعـصـابـهـمـ هـذـهـ  
الـخـيـالـاتـ ، يـذـلـونـ مـاهـ وـجـوهـهـمـ وـلـاـ يـخـجـلـونـ فـيـ سـبـيلـ أـخـذـ رـتـبةـ وـوـسـامـ  
وـقـدـ بـدـفـعـونـ فـيـ ذـلـكـ الرـشاـوىـ وـالـهـداـيـاـ الـمـظـبـةـ ، وـكـانـ بـعـضـهـمـ بـرـىـ أـنـهـ  
لـاـ مـعـنـىـ لـلـعـيـشـ بـدـوـنـ شـرـفـ السـلـطـانـ !

كـتـبـتـ أـولـ مـقـالـةـ فـيـ مجلـةـ «ـ المـقـطـفـ »ـ ، شـيـخـةـ الـجـلـاتـ الـعـرـيـةـ فـيـ القـاهـرـةـ  
وـكـانـ مـوـضـعـهـ «ـ أـصـلـ الـوـهـابـيـةـ »ـ ، فـاتـهـمـيـ المـتـهـمـونـ بـأـنـيـ وـهـابـيـ ، وـأـسـبـعـ  
الـوـهـابـيـونـ يـعـدـونـيـ مـنـهـمـ ، وـاسـتـبـشـرـواـ بـقـبـوليـ دـعـوـتـهـ ، وـتـكـثـيـرـيـ سـوـادـهـ ،  
وـظـلـ الشـاغـبـوـنـ يـصـمـونـيـ وـأـصـحـابـيـ بـالـوـهـابـيـةـ سـنـيـنـ طـوـبـلـةـ ، وـالـوـهـابـيـ نـبـةـ  
إـلـىـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ الـذـيـ دـعـاـ إـلـىـ مـذـهـبـهـ فـيـ نـجـدـ فـيـ الـعـصـرـ الـماـضـيـ ،  
وـعـاـونـهـ عـلـىـ بـثـ دـعـوـتـهـ الـأـمـيرـ اـبـنـ سـعـودـ الـأـوـلـ . وـمـذـهـبـهـ مـذـهـبـ أـحـدـ  
ابـنـ حـنـبلـ ، أـحـدـ الـأـمـةـ الـمـشـهـورـيـنـ عـنـدـ أـهـلـ السـنـةـ . وـالـوـهـابـيـوـنـ هـمـ الـدـيـنـ  
قـبـلـوـ دـعـوـتـهـ ، وـكـانـواـ قـبـلـهـ فـيـ جـاهـلـيـةـ جـهـلـاـ . فـرـدـهـ إـلـىـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ ،

وانتشلهم من ته الوتنية إلى حظيرة التوحيد . ويحب الوهابيون أن يطلق عليهم اسم السلفيين أو الخنابلة .

وما أدرى وجهاً لانهامي بالوهابية ، وكيف ينسب إلى جماعة من عرق بهم بدون قذف ولا تحامل ، وكان الشعب في تلك الحقبة تبعاً لمن شابهه وحكومته ، وهذه من مصلحتها أن يضم كل وهابي بالضلال . ومن ثم هذه الدعيات الكاذبة خوف العثمانيين على الولايات العربية من صاحب نجد . فلما دعا ابن عبد الوهاب إلى باب الدين ، وألف شمل التجديدين بعد كشنته ، لم ترك الدولة العثمانية باباً من أبواب الدس عليهم إلا وجلته . وأفضل التهم التهمة في الدين ، ومن تهمه بهذه التهمة كان ذلك دعوت إلى قتله ، وربما هدرت الحكومة دمه فقتلته الفرغاء . وما بصر علماء الحجاز واليمن وال العراق والشام في إنارة النقوس على ابن سعيد الأول ، ومن تقلهم من قومه من الظلمات إلى النور ، مدعين أن ذلك منهم غيره على الدين ، وأرجح أنهم فعلوا ذلك تقرباً من السلطان ، ولالتماس عطاياه ورواتبه ومراتبه .

كان الارتفاع إلى آخر أيامهم يحسبون حساب أمراء نجد ، وآخر من استدعوه للتحقيق معه في المحكمة بدمشق ، صدقي الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فسألوه عن ( البريد الطبار ) ( كذا ) بينه وبين ابن الرشيد ، وأنهموا بأنه يسمى لسلب الخلافة من بيبي عثمان وإعطائهما لأمير نجد ، ففضحوك وكان من ظرفاء العلماء ، وقال : إذا كنت أستطيع أن أسلب الخلافة من بيبي عثمان وأعطيها لأمير نجد فلماذا — وبقى على لحيته البيضاء — لا آخذها لهذه اللحية ؟ وهل الخلافة تقاحة حتى أخرجها من جيبي وأدفعها لمن أريد ؟ هذا والله من أجمل ما سمعت ، ففضحك المحقق وأطلق سراحه . وفي الواقع أنهم أنهموا هذه التهمة لأنه وبعض علماء دمشق وبغداد صرحو يومئذ أن القوم ما عرفوا حقيقة الوهابيين ، وأن مذهبهم مذهب التوحيد لا غير . وكتبت مقالة في الزيدية أهل اليمن ، على غرار المقالة التي درست فيما مذهب الوهابية ، فلم أتهم بالقول بعذههم ، كما اتهمت باتباع مذهب ابن عبد الوهاب ، بمقالة كتبتها في حقيقتهم على أسلوب علي . وكانت

قيدي مقالة الراهية من جهة لو عرفت الانجمار بالكتابات والمقالات . ولقد دعيت بسيها إلى نجد غير مرة ، في عهد آل الرشيد وعهد آل سعيد ، فاستففدت من الرحلة إلى أرض لا غرض لي من زيارتها ، خصوصاً وتفتي زاهدة في المغامرات والخلع والمعطيا . وفتقنط الحيلة لأحد أصحابي من أهل لبنان باب رزق فقصد إلى أمير نجد ، وكتب له ما أرضاه ، فأبانت أنه من نجار التقنيين ، وأن التجارة متصلة في خلفائهم اللبنانيين .

وأول مرة (سنة ١٩٠١) دخلت مصر قاصداً زيارة آثارها ومصانعها والتعرف إلى رجالها ثم أرحل عنها إلى باريس لقضاء بضعة أشهر المدرس والنظر . فعرض عليَّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الأسبوعية قوله أفتدي شحاده بواسطة صديقي الاستاذ السيد رشيد رضا صاحب المغار أن احرر له جريده . ولما كنت انوي السفر اعتذر ثم عرضت مسألة في دمشق اضطررتني إلى البقاء في القاهرة فصرفت النظر عن الذهاب إلى فرنسا ، وقبلت بتحرير تلك الجريدة .

وليست جريدة (الرائد) المصري من الجرائد المقرورة ، وصاحبها رجل مهذب ، وهو من أهل زحلة في لبنان جعلها واسطة للطعن بأصحاب المقطم ، وكان بينه وبينهم خلاف مالي قديم . وجريدة الرائد من جرائد المية تصطنع الطعن بالمحظيين وكأنها ابنة جريدة « المؤيد » أو ذيلها وكان صاحب المؤيد يعطى على صاحب الرائد المصري نكاشة بأصحاب المقطم فيها كت أرى . وظل السيد قوله شحادة على طول مقامه في القطر المصري يتكلم العربية باللهجة الزحلاوية ، وكان يعرف دخائل السياسة المصرية إلا أنه كان كل ساعة يدق عنق سيفه فلا تستطيع أن تدخل له سطرين إلى المطبعة قبل أن تنظر فيها وتنقيها . وما أظنه ارتفق عن الدرجة التي بدأ بها لاؤنه تعلق بالكتابه وهو كبير السن . وبعد عشرة أشهر قضيتها في تحرير هذه الجريدة عدت إلى الشام فارماً من الوباء الذي انتشر في القطر المصري . وقد مخلصت من تحرير الرائد ؛ وما كنت احرص على تحريره قليلاً ولا كثيراً .

## الصحافة أيضاً

ـ هـ ظـتـ مـرـ لـمـرـةـ الثـانـيـةـ (ـ ١٩٠٥ـ) عـازـمـاـ أـصـدـرـ بـهـ مجلـةـ شـهـرـيةـ باـسـمـ (ـ المـقـبـسـ) تـبـحـثـ فـيـ الـمـلـوـمـ وـالـآـدـابـ ، وـعـرـضـتـ عـلـىـ الشـيـخـ عـلـيـ يـوسـفـ صـاحـبـ المـؤـيدـ ، وـكـانـ يـعـرـفـنـيـ بـأـكـتـبـتـهـ فـيـ جـرـيـدـتـهـ ، وـبـمـاـ تـنـشـرـهـ لـيـ بـجـلـةـ «ـ المـقـنـطـفـ» مـنـ فـصـولـ أـنـ أـكـتـبـ فـيـ سـجـيـفـتـهـ مـقـالـاتـ بـهـيـنـ هوـ مـقـدـارـهـ ، وـيـطـبـعـ لـيـ فـيـ المـجـلـةـ مـقـابـلـهـ . فـقـالـ إـنـهـ عـازـمـ عـلـىـ اـنـشـاءـ عـدـدـ أـسـبـوعـيـ مـنـ المـؤـيدـ ، بـرـسـمـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـانـيـةـ وـالـاقـطـارـ الـاسـلـامـيـةـ سـيـمـهـ بـتـحـرـيرـهـ إـلـيـ وـفـيـ المـطـبـعـةـ أـشـفـالـ كـثـيرـةـ لـاـسـتـطـعـ اـنـجـازـهـ قـبـلـ شـهـرـينـ . فـلـمـ أـرـتـحـ لـهـذـاـ الجـوابـ وـقـلـتـ لـهـ :ـ لـاـيـهـ مـفـيـ الـانتـظـارـ»ـ ، وـصـاحـبـ الـحـاجـةـ أـرـعـنـ لـاـيـرـومـ الـاـقـضـاءـهــ .

وـبـمـدـ أـيـامـ دـفـتـ أـصـوـلـ الـمـقـالـاتـ إـلـىـ الـمـطـبـعـةـ الـعـوـمـيـةـ ، لـنـشـرـ الـمـجـلـةـ الـمـزـمعـ نـشـرـهـ ، وـصـدرـ الـمـدـدـ الـأـوـلـ . وـمـاـ هـيـ إـلـاـ أـيـامـ حـتـىـ طـلـبـ إـلـيـ صـدـيقـيـ سـامـيـ أـفـنـديـ قـصـيـرـيـ أـحـدـ مـحـرـرـيـ الـقـطـمـ آنـ أـذـحـبـ لـمـقـابـلـةـ مـحـمـدـ بـكـ آبـيـ شـادـيـ صـاحـبـ جـرـيـدـةـ الـظـاهـرـ الـيـوـمـيـةـ وـقـالـ إـنـهـ مـحـتـاجـ إـلـىـ مـحـرـرـ . فـقـاـبـلـتـ رـئـيـسـ تـحـرـيرـ هـذـهـ جـرـيـدـةـ مـحـمـودـ أـفـنـديـ وـاـصـفـ فـسـائـيـ إـذـاـ كـنـتـ أـعـرـفـ التـرـجـمـةـ مـنـ فـرـنـسـيـةـ فـأـجـبـتـهـ بـالـإـيجـابـ ، فـدـفـعـ إـلـيـ بـرـقـيـاتـ ذـاكـ الـيـوـمـ مـنـ شـرـكـتـيـ (ـ روـزـ وـهـافـاسـ) فـتـرـجـمـهـ فـيـ أـقـلـ مـنـ رـبـعـ سـاعـةـ فـنـظـرـ فـيـهـ وـقـالـ :ـ لـابـأـسـ :ـ وـذـهـبـ إـلـىـ صـاحـبـ جـرـيـدـةـ وـأـطـلـعـهـ عـلـىـ التـرـجـمـةـ فـأـعـجـبـهـ فـعـادـ وـقـالـ لـيـ :ـ تـجـلسـ هـنـاـ عـلـىـ هـذـاـ المـقـدـدـ إـلـىـ هـذـهـ المـنـضـدةـ ، وـتـبـدـأـ بـالـتـحـرـيرـ غـدـاــ .

وـكـانـ فـيـ زـاـوـيـةـ الـغـرـفـةـ شـابـ قـصـيرـ الـقـامـةـ أـيـضـ الـبـشـرـةـ تـبـدوـ عـلـيـ عـلـاـمـ النـشـاطـ ، بـادـرـتـيـ بـعـدـ اـنـصـافـ مـحـمـودـ وـاـصـفـ إـلـىـ غـرـفـةـ مـدـبـرـ

الجريدة ، فسلم عليّ ورحب بلهفة وأدب ، وقال لي . أنت فلاّنا ، قلت : بلى . قال : ألسنت أنت الذي تكتب مقالات المتنطف ؟ قلت . نعم قال : كيف قبلت أن ي Finch محمود واسف ، قلت . لا يensus الحال الآن لأنقول لك شيئاً وأذكري لك عذرني . فتواعدنا على أن نجتمع خارج الادارة في المساء ، وهذا الشاب هو الاستاذ محمد اهلي جمدة الهاي الكاتب الخطيب المؤلف المشهور وكانت يترجم للظاهر عن الصحف الانكليزية ، وتصاحبنا كأتنا كنا يعرف أحدهما آخاه منذ سنين . وقال لي : إن الرجل الذي رضيت بأن يتحنك عاجز عن الكتابة ، ويزدهر خالاً مابطاطاه من المُهُنَّدَات ، وقد يحفره رئيس المَهْنَدِين بعض الأيام ليدفع اليه مواد للجريدة ، فلا يرى أمامه غير اعلانات الجريدة الرسمية يعطيها له للصف ، لتنشر في الصفحة الأولى من الجريدة على أنها مقالة افتتاحية ، وتصَّصَّت باختصار على صديقي الجديد ما دعاني إلى الرضا بامتحان محمود واسف ، وهو أني اصدر مجلة تضطرني إلى المقام في مصر ، فأنا في حاجة إلى عمل آخر مع المجلة حتى تكفي في القاهرة واردات ملكي في الشام . ثم إن صاحب هذه الجريدة لا يعرفي كما يعرفي ساجبا المؤيد والمقطم مثلاً .

وأخذت من الغد أترجم عن الصحف الفرنسية والتركية ، وأنقل البرقيات ، وأشغل الوقت بكتابة مقالة سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، فتغير مقامي في الادارة ، وأخذوا ينظرون إليّ غير نظرهم الاول : وبعد أيام جاءني سيد بقطر كاتب الاستاذ أبي شادي بك في مكتبه مكتب الحامة وقال لي : هل تري أن تكون رئيس تحرير الجريدة بدلاً من محمود واسف ؟ قلت له : إذا رأى صاحب الظاهر أهلاً لذلك ، وعاد من الغد إلى وقال : إنك مقبول جداً هنا ، ونحن سترفع هذا المحرر ، وزرجم أن تكون عند قوله . فاكتدت له أني كذلك . وبعد أيام رجع عليّ وذكر أنهم سيصرفون رئيس التحرير ، وطلب مني ألا أقول غداً ما يشعر بزهدتي في هذه المهمة ، فقلت له : أنا عند قولي ، وثقة صاحب الجريدة في نظري شيءٌ بسندٍ به ،

وما كان اليوم الخامس عشر من دخولي جريدة الظاهر حتى كنت في منصة رئيس التحرير أرأس بضعة محررين ومحررين ، وألصرف في سياسة الجريدة ، وقد علا راتبي ومرتبتي .

ومضى شهراً أو ثلاثة ، وانتشر المتبس الشهري ، وقرظته الصحف والمجلات وكان تقرير المؤيد من أحسن التقارير ، أفادني في انتشار المجلة لأن المؤيد كان مقرراً في كل الطبقات ، وكان صوته يومئذ أعلى الأصوات ، وكان صوت الاهرام والمقطم خافتاً . وإذا بالشيخ علي يوسف يستدعي ويقول لي : إن المطبعة انتهت من طبعوانها وإن الجريدة الأسبوعية التي كان عازماً على إصدارها كما كان قال ، يكفي الآن أن أستلمها ، وأنه سيمهد إلى منها بفتح البريد ، قبل كل أحد في إدارته ، لانظر في الصحف الأجنبية ، وأشار إلى المقالات التي يجب ترجمتها ، وأدفأها إلى محرره محمد أفندي مسعود وحافظ أفندي عوض وأشرف على تحريرها وعلى الجريدة عامه . فأجبته إني توليت رياضة تحرير الظاهر ، وأن صاحبها صرف الرجل الذي كان قلي ، واعتمد على في إصدار جريده ، فلا يسمى أن أتركه . وشكرت له وانصرفت . وكان من أهم العوامل التي دعتني إلى الإباء كون مسعود وعوض من أصدقائي ، وأعرف أن على يديهما قام المؤيد ، وأن لها الفضل في إنشائه . وهم على غاية الكفاءة علمًا وأحلاً . وكيف يجوز أن أرأسها وماضيها في المؤيد ماضيها ، وهم مصريان ، وأعرف مني بما يتفعج جريدة مصرية ، وربما كان دخولي المؤيد على هذه الصورة مقدمة لإخراجها منه ، على ما وقع في نفسي واستنجه من كلام صاحبها . وأنا ماضي على الميش في مصر حتى أكون علة لقطع رزق صاحبين عن زبن ، ما شهدت منها إلا اللطف ، وها أولى مني بهذه الخدمة .

ترك مسعود وعوض جريدة المؤيد بعد حين وأنى صاحبه بجميل أفندي مدور من أدباء السوريين بعاونة في القلم الإفرنجي ، وعرض عليه سليم أفندي سركيس من كتاب السوريين أيضاً مؤازرته في القلم الانكليزي

قبل منه . وأخذ علام أعمدة المؤيد بالاعلان عن نفسه . ومات المؤذن بعد مدة قصيرة ، وكانت تركت الظاهر مع جميع محربه ، لعجز الادارة عن تأدية الرواتب في اوقاتها ، وأخذت ترجم روايات خليل بك صادق ساحب مجلة سامرات الشعب ، وكان يلحّ على أن أعطيه رواية ليطعها فأعده ، فلما فرغت من التحرير انصرف إلى الترجمة فقتلت روايتين كبيرتين في ثلاثة أشهر .

وفي خلال ذلك دعاني الشيخ علي يوسف إلى تولي التحرير في جريدة قبليت ، وكان مي سيد كامل وكامل فيضي بخ NAN على النقل من اللغة الفرنسية ، وعهد إلى النظر في المقالات الواردة من المؤازرين ، مما كان موضوعه الأدب والإسلام والتاريخ ، والاشراف على الجريدة ، وكتابه الافتتاحيات إذا اقتضت الحال . ووقع لي لما اصطاف الشيخ في سوريا في آخر السنة الثانية لتولي تحرير جريدة ، وكان أوصاني بالانتباه لجيم شؤون الجريدة ، أن حدثت الأزمة المالية في مصر ، فاضطررت إلى كتابة فصول في معالجة الأزمة ، وفي الشؤون المالية والاقتصادية ، موضوعات ما سبق لي الاشتغال بها ، خضتها مضطراً بعد درس مستجل ، لأن حالة الجريدة تستلزمها . والجريدة اليومية لا تتطلب التعمق كثيراً ، ولستلزم الخوض في الموضوعات التي اشغال بالقرائتها ذاك اليوم .

عرفت في المؤيد سرّاً من المصريين ، وكان تحريري فيه الدعامة الثانية في شهرتي بعد مجلة المقططف ، وبه صار لي أصدقاء رأوا إخلاصي في خدمة مصر ، فصاروا يفتحون لي قلوبهم ، ويطمئنونني على ما لا يطلع عليه إلا خاصة الخاصة منهم ، وكانت جدة حريص على صداقهم ، ومكافأوا كذلك

لهم منتهى سعي وصفوة موادي ومحض الموى في ولناس سائره وقد حاربت مع المحاربين دلوب مستشار المعارف ، وانتقدت عليه ما كان يرمي إليه من تأخير الدروس العربية ، فأدرك رجال ذاك الدور

وناشته ما يحمل قلبي من حب مصر ، و كنت أوقع مقالاتي ، فمرفوني  
و جازوني على خدمة بلادهم وتقهم ، فاغتبطت و شطّت ،  
و أصبحت في مصر كأني في بلدي ، تهمني من وراء الماء سلامتها و سعادتها .  
كان الشيخ علي يوسف في عهده من أعظم الكتاب الدين قليلاً  
المائة المصرية على وجهها كل مقلب ، وكان ذات بدبهة مؤانة ، وعارضة  
قوية ، شهدته برد على لورد كرومر عميد إنكلترا في وادي النيل ردة  
الشهور الذي جعل منه كتاباً بعد — وقد نقلت له عن الفرنسية النصوص  
اللزمه — يدفع رده للطبع ورقة بعد ورقة ، وأمامه ضيوفه في مكتبه  
يلقطون ويتحاورون . وكان المقلاء ينمون عليه تلونه في مشربه ، ويقولون إن  
 أصحابه اليوم أعداؤه غداً واعداه اليوم أصحابه غداً ، ومن كان في مثل حاله يخدم  
المظاء لا يستكثر عليه هذا ، ومن ثم له مظهر عظيم بعد أن كان نكرة قد  
يزدهيه العز . ومع ذلك كان الشيخ علي على صفات حسنة من سمة  
الصدر ، وفرط الذكاء ، والاغفاء عن بؤلئه ، والاحسان لمدوه . ويقول  
من ينتقد سيرته أيضاً إنه لو عرض على صاحب اخلاق أن يطعن فيمن  
نشله من سقطته ، ورفعوه بأفلامهم وأموالهم ، لآخر الخروج من الصحافة  
كلها على ارتکاب ما ارتکبه مع أخلص محبيه ومحانه .

وما لا يُعذر عليه أيضاً تقلبه رئيس الحزب الوطني مصطفى كامل  
باشا صاحب جريدة اللواء ، وكانت هذا يطال باستغلال مصر جهراً ،  
وله قبول عند الناس أكثر من الشيخ علي ، والأموال تنصب على إدارته  
كما ينصب ماء المطر من فم الميزاب . وكانت نزيلته عصرية ، ويعده من  
الخطباء الابناء . وكلامها يصدع بأمر الخديوي . فأحب صاحب المؤيد أن  
يظهر بعظر صاحب اللواء على ضعف موارده فأضاق ، وزاد ضائقته اشغاله  
بالمضاربة في الأراضي ، خسر كل ما يملك حتى اضطر آخر عمره أن  
يتقلد مشيخة طريقة ويأتي أموراً لا تتفق مع ماضي رجل كانت جريدة  
لسان حال العالم الإسلامي .

لما اشتد الضغط على الافكار في الارض الثانية أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني لجأ إلى مصر كالملاجىء إليها بعض أحرار الشاميين وعاشت النفس على نشر جريدة يومية باسم المقتبس في دمشق ، إذا نفس خناف الحرية ، أخدم بها الديار الشامية خاصة والبلاد العربية عامه . فلما أعلن القانون الأساسي وسقطت دولة الاستبداد رجمت في سنة ١٩٠٨ إلى دمشق وأنشأت مطبعة وأصدرت المقتبس اليومي السياسي مع المقتبس الشهري العلمي ، وكان المقتبس السياسي أول جريدة يومية صدرت في دمشق .

وباستقلالي بجريدة يومية ، وكنت أكتب في مثل هذه الصحف باسم غيري ، عرفت مقدار التبعات ، ولقيت خيراً قليلاً وشراً كثيراً . خاضدني بعض العلماء المنورين والشبان المثقفين ، وقاومني بعض المشائخ الجامدين ، وسرّاق العمال المستبدين ، وعادى المقتبس كل مصر منها كان حاله و شأنه ، غير خائف ولا بمحجوم ، وما كان الإهالي والحكام يعهدون مثل هذا النقد وهذه الحرية في الكتابة ، ولا أنكر أن البار كان يأخذني أحياناً ، وبسط بي القلم على غير إرادتي ، لكنني لم أجا إلى الطعن الشخصي بأحد بل كانت جملة المطاعن موجهة للإعمال النابية عن حد القوانين والدستير .

ولم ير الحكم وجهاً لتغليم أظافري وإخفاقات صوري ، أفضل من الانجاء إلى المحاكم ، يقيمون على "القضايا" ، فكنت أصر عليهم ، وأصحابي يهتجبون من صوري على مألفي من المآثر ، وكانت نزاهة القضاء تشجعني على الأمسي في طربتي . وكان القضاة الأزراك والمرب على السواء يصفونني كل الاصف ، والعدل عدل عند كل جنس وفي كل لغة . وتتلخص الدعوة التي دعوت بها في المطالبة بالصلاح ، وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب إلى العمل النافع ، والتذرع بالمشاريع المتوجهة ، وبث القراءح واستخدام الكفاءات ، ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة . وفاقت في هذه الدعوى إلى حد ما كنت أطالب إلى

مثله ، وكان المصفقون لي أكثر من الم Scorbs ، ونجلى الاتفاف عما ينشر من المقالات والأفكار ، وكان معظم القوم لم يتمتدوا تلاوة الجرائد ، فجحيت المقبس بهم المطالبة ، وكلا رأيت فتوح الجريدة في ازداد ، ازداد نشاطاً ومفاداته . الواقع أن العامل الآخر كبر في انتشار الجريدة ، وثقة الأمة بها ثقة عمياء ، اقتصرها على مواردها الشرعية من الاشتراكات والمبادرات والاعلانات فقط ، وتزهها عن كل عَرَضٍ ماديٍّ منها كان مصدره . وحاول الاتحاديون القابضون على زمام الأمر أن يرشوني فلما ينسوا مفي تحيلوا أن يفتالوني وخصوصاً الذي أعدوه للقتل بمعنى من المال لا يستمان به فنصحه سديق له اطلعه على ماينوي وبين له عاقبة ماستجني يداه فأعاد الدرام إلى أصحابها . ولم رضت بسبب الجريدة للاختصار والمتاخرات مرات وأشاع الوالي في رجال الأمن الفرسان ، أن من يَقْبَضُ على حيّاً أو ميتاً يرقبه ويكافئهم . وساعدني التوفيق ولم أحبس يوماً واحداً ولا خسرت قرشاً واحداً ونحوت من الخدمة عشرات من الموظفين فيهم الوالي ومتصرفان وعدة قوام المقام ومدربين وقضاة وغيرهم من صغار العمال وكبارهم ، حاولت الحكومة شتمي ببني ، فهدتني وروقعني بطرق مختلفة فيها وعد ووعيد ، وأغلقت الجريدة غير مرّة لأسباب تافهة أشهرأ ، مُغْرِّمت بها مئات من الجنحيات ، ثم عوَّضت على الحكومة زمن الحرب العامة ، لما استندت حاجتها إلى الجريدة ، واعترفت بأنها ظلمتني بالإغلاق مرتين ، حتى أزمت أن أترك الصحافة . ولو لا أن هددتني ضحناً بفتح الحسابات الماضية ما كنت أعود إلى إصدار صحيفتي . أما مجلة المقبس العالمية فانقطع صدورها في الحرب العامة ، بعد أن صدر منها ثمان مجلدات وعددان من المجلد الناسع ولم تُمد بعدها إلى الصدور .

ولما وضعت الحرب أوزارها أخذت نفسى تكره الصحافة شيئاً فشيئاً ، وانصرفت إلى التأليف ، وكان الباب الأكبر لاغلاق المقبس السياسي أن سلمت تحرير الجريدة بعد وفاة أخي أحد ، وأنا في الوزارة ، إلى محرر أراد أن يخدم بعض الأحزاب على حسابي وبلسان جريديتي ، وأطال لسانه

في بعض زملائي الوزراء فأمرت باغلاقها<sup>(١)</sup> وكان ذلك خاتم حياتي الصحافية ولم أكتب بعدها في غير المجالات الملمبة ، والسم لي الوقت لنشر ما كنت أعد من التأليف فطبعتها في مصر والشام ، والحمد لله على كل حال .



---

(١) كنت غير راض عن بعض ما ينشر في المقتبس في عهد الاتداب الأول وقد كتبت يوم ٢٩ كانون الأول ١٩٠٧ إلى شقيقى أحد أسأله عن مقالة للصفدي وعن أخرى لرامد وهذنه بحسب امتياز المقتبس اذا هو ظل على نشر مثل هذه الآراء، الخجنة يكتبهما أطفال الباشة وممن طبقة تجد للفرنسيين بعض ليرات وقد جعل الاتداب لفرنسا برقرار دولي ومن سياسى أن أتفاق مع المتدين ولو غضب الصفدي وأمثاله ، واتهمنى بالمرroc من الوطنية . وأواعزت إيه إلا ينشر في المقتبس شيئاً هؤلاه الاحداث لأن لا أريد ان يكون المقتبس كالمعزان قارورة أقدار وأواخ . وبهذه المناسبة أن بعض .. شر من المطاعن بالمقتبس في بعض رجال السياسة ومنهم صديقى حفى بك العظم لم يكن بایعاز مني ولا لي رأى في نشره ولا نشر غيره .

## ناظم باتا والقتيس

شق على والي سوريه في عهد الحرية والدستور أن يسمع في الجريدة المطالبه بالصلاح شعرون الولايه ، وتقى ادارته أحياناً . وله الحق أن يتافق وهو من ربوا في عهد الاستبداد الحدي ، ورجل هذا شأنه . يصعب عليه ان يسمع أصوات الأحرار ، وهو الذي اعتاد أن يرى أعظم أعيان ولايته يقبلون ركبته ويلشمون أذياله . ووهم بأنني أطأول على مقامه لاسقاطه ، وأن الشعب قد مقته ومقت حكومته ، لكترة مارددت من أخبار الضف في ادارته ، فلم ير ليشغلني عنه ألحى وسيلة من أن يقيم عليَّ بعض العمال من انتقدت أعمالهم ، دعاوي لدى المحاكم ، يزبن الوالي لهم اقامتها ، ويماونهم عليَّ ، وهم في باطنهم لو تركوا وآخبارهم لما أقدموا على اقامه قضايا قد تكشف خلال النظر فيها سبئاتهم ، وهم أدرى بأنفسهم وبما يرتكبون ، والخائن خائف .

وأنى زمن علينا أمام القضاء نحو من ثلاثين دعوى من هذا القبيل ، يطلب بعض أربابها جزاء المفترى أي حبسنا ثلاثة سنين . وجاءنا الفرج بعد حين على مالم يكن في الحسبان ، وذلك بتعيين رجل من أهل القدس اسمه اسحق روحي افندى البدرى رئيساً لمحكمة بدامة الجزاء ، فدرس عامة الدعاوى المرفوعة علينا ، فوجدها كلها من نوع واحد فوحدها ، وأقنع المحكمة بأن صاحب الجريدة لا غرض له إلا الاصلاح ، ولا حرج في القوانين على من يطالب به ، وليس فيها كتبته الجريدة ما يمس عاطفة المكتوب فيه ، ولا ما يلهم شرفه ومرموته ، فحكمت المحكمة ببرئتنا من كل القضايا ، فصعق الوالي والاتحاديون ، ومن سار تحت علمهم ، واستأنفوا النظر في الدعاوى أمام محكمة الاستئناف ، فحكمت بتأيير رئيسها شكري بك ، وكان تركياً من جماعة الاتحاديين ، بسجن شهر واحد على أخي

أحمد مدير الجريدة المسئول ، ثم أُنزل الحكم إلى النصف ، وطلب إليه بعض رجال القضاء أن يدخل من باب من أبواب السجن ، وبخرج من آخر لتم الصيغة القانونية ، ويقال إن المدير «بس» ، ويقيد ذلك في السجل فأبى . وأعلنت الحرب العامة فذهب الدعوى مع ذهاب الملكة كلها . ومن الغريب أننا ما كنا نعرف رئيس المحكمة السيد البديري الذي حكم ببراءتنا ولا هو يمرفنا إلا من الجريدة .

قلت إن الوالي كان يتأنم للتعرض لأنعم الله في المقبس ، وكانت بيننا بروفة بسبب ذلك ، وهو يوالي إقامة الدعاوى على الجريدة بواسطة أعوانه وللكرة مارآه أصحابه حانقاً علياً عرض عليه أحد أعيان الجزائريين ، بل أمير من أمرائهم وبasha من باشاوتهم أن يقتلني . فقال له الوالي : لا تفعل ، وتبين بعد أن هذا الجزائري كان من الخائنين للدولة ، وتنفي بسبب ذلك إلى الاناضول . وخاف الوالي هذه المرة مغبة القتل فنهى عنه . أما ذلك الشقي فلطالما قتل الفلاحين وهتك اعراضهم بواسطة أعوانه الاشرار حتى اغتني وترك ثروة كبيرة ، تزقت شذر مدرب في بضع سنين ، وكان في تجويز قتلي برمي إلى غایتين ، الاولى مصانعة الوالي ، والثانية خلاصه من نقد جريدتـا لتزويراته أحياناً .

جامني ضابط تركي اسمه جيل بك ، وهو من دعاة حزب الاتحاد والترقي ، يخطب بالتركية ، ويثرثر في فضل الجمعية على العالمين ، فرجاني أن أصالح الوالي ، وطلب أن أرافقه إلى دار الحكومة لهذا الغرض ، فقلت له : باسم الله ، اعلم يا صاحبي أن ليس بيننا وبين الوالي عداوة شخصية ، وما نكتبه في الجريدة فلمصلحة الدولة ، ونحن إذا لم نوجه الكلام إلى الوالي المسئول فمن نوجهه ؟ فلما اجتمعنا في دار الولاية سر الوالي جداً ، وظن أن الأمر يقف عند هذا الحد بهذا الصلح ، فلا أعرض له بعدها . فيسير كما يشاء مع من يدبر الأمر في هذه الولاية

الظفيرة على هواه لا كما تتفى القوانين والمصلحة ، وما قال لي : لقد أنسقطت من الانظار بما كتبت عن في جريدةتك ، وأصبحت خجلاً في نفسي ، حتى إنني لا أقول للمحوذى أن يسير بي بين الناسين إلى داري ، لولا أشتهد للعن في الطريق ، وبقولوا : هذا هو الوالي الذي يكتب المقتبس في إجراءاته الخارجة عن النظم والأوامر المرسومة . قال : وفي الحن إنني لم أرك يوماً أهنتني بكلمة واحدة ، أو تعرضت شخصي باشارة أو تصريح . فأجبته : إننا نكتب ما نكتب لنمرض رأينا على أنظاركم ، وندلكم على عورات الصارفين في الادارة الحكومية ، وغرضنا في ذلك شريف ما أظنه يسوئكم ، وهو إصلاح حال الادارة التي لم يغير الحكم الجديد شيئاً من روحها ، ونحن لا نخرج بحال عن استعمال الحرية التي منحناها الدستور إليها . أما قولكم : إننا نذكركم بما فيه إهانة شخصكم الكريم . فنحن لا نقول بهذه الطريقة ، ونتم الأدب وحرمة الكبار منكم ، وأي دخل للخصوصيات في مسألة عمومية .

وحقاً كان هذا الأسلوب في الإنقاد مما يؤلم عمال الدولة وغيرهم أكثر من السباب والشتائم ، وكنت أتوّق أن أمسِّ إنساناً فيها أكبه ، وحصرت الجهد في مناقشة العمال ، وكان كل ما يكتب في الغالب مستندًا إلى وثائق ، مدعوماً بنصوص القوانين ، وبذرازير سراً في ذلك بضة شبان سوريين تخرجوا من المدرسة الملكية في الاستانة ، مدرسة السياسة والادارة ، وعادوا إلى سوريا ليترنوا في دواوين الولاية ، ثم يعينون قوام المقام ، وهم الذين كانوا يكتبون بالدقائق والجليل مما يجري في مقر الوالي ، ومنهم من كانوا من أعزِّ أصحابي ، ومنمن عرفوا بأخلاقهم للدولة وجهم للعرب والمربيَّة . وعمدنا في مراسلات الجهات على أناس متعلمين من أصدقائنا كانوا يعاونونا بجملب الأخبار الصادقة جيًّا بالاصلاح لا طلياً للظهور ولا للهادة ، ولذلك جاءت تأثيرات الجريدة فوق المأمول ، فكانت إدارة فعالة في تنمية الولاية ، وعزل المتصرفين ، وقوام المقام وغيرهم .

ارسلت محكمة الاستئناف في جنابه ارتكبت في دمشق ، كانت من أفعع ما سمع من أصناف الجنسيات ، فما زلتنا نكتب في ثبرتها للقاتل ، وكان والده من كبار المرايin ، حتى أقيمت المحكمة بكل من فيها من كتاب وأعضاء . وكان عبد الرحمن باشا وزير العدل على عهد أواخر السلطان عبد الحميد الثاني ، رجلاً عظيماً يكره المرشين كراهة شديدة ، فإذا ثبت له أن بعض القضاة نلوث برشوة وأضاع الحقوق والدماء ، يفتأط ويختنق ويبكيت بجانب اسمه (م) في مذكرته ، ولا يعود إلى توسيع عمل اليه ، ولو طلب إليه ذلك السلطان نفسه ، وكان السلطان يحترمه لهذه الأخلاق ولا يتدخل في شؤونه .

أصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية ، التي تصدر باللغة العربية ، لأنها كانت تكتب بحرية زائدة حتى ليظفها المارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر ، تصدر على عهد العميد لورد كرومر ، وفي ذلك العهد كانت حرية مصر تشبه حرية بلاد الانكلترا . ولعلما هدد أصحاب الظلamas صغار الموظفين إذا لم ينسفوه بأن يرفعوا شکوام إلى المقتبس ، أي أن المقتبس صار حكومة أو محكمة على الأقل ، وهذا التفوذ هو الذي كان يخوف منه الولاة ويبكتون به إلى مرجمهم الأعلى في دار الملك ، وهو يمضم ويسمو كل يوم .

وبعد الاتحاديون على تأفهم من نقد الجريدة ، لأنها كانت تكون رأياً عاماً في ديارنا ، وهذا مفارق ولن يرق أحداً من الأعزاك منذ القديم ، وسياسة الترك مع العرب في معظم أدوار التاريخ نمط واحد : وهي ألا يعترفوا للعرب بشيء من الحقوق ، لثلا يرفعوا رؤوسهم أمام غالبيهم وسادتهم ، وكانت المركبة في عهدهم من أشد ما عهد من نوعها تشبه مركبة فرنسا مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج . وكان كل إنسان يطلب اصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان زكرياً أم من عنصر آخر من عناصر الدولة ، يعامل أسوأ معاملة . ينفي ويتجن ويتصادر

ويقتل هو ومن يقول بقوله ، ويقولون عليه الأقويل ، وأقل ما يهمونه  
بـ أنه مارق من الدين ، بدعي النبوة ، ويقول بأباحة النساء ، وشرب  
آخر إلى آخر أكاذيبهم . ويمد من بلقتنا أخبارهم من هذا القبيل بالشراط  
وـ كثيـر من هـذا الطـراز قـتـلـوا وـلم يـعـرـفـ بهـمـ أحدـ . ولـذـلـكـ كانـ منـ المستـرـبـ  
نجـانـيـ منـ تـلـكـ الـأـبـدـيـ الـأـثـيـمـ .

نجـانـيـ منـ تـلـكـ الـأـبـدـيـ الـأـثـيـمـ .  
لا تمـجـبـنـ منـ هـالـكـ كـيـفـ هوـ بلـ فـاعـبـنـ منـ سـاـمـ كـيـفـ نـجـاـ  
كـنـتـ عـارـفـاـ هـذـهـ الحـقـيـقـةـ عنـ رـجـالـ الدـوـلـةـ ، وـمعـ ذـلـكـ كـنـتـ أـمـضـيـ  
فيـ سـبـيلـ أـحـارـبـهـمـ ، وـأـنـاـ عـارـفـ بـمـاـ يـهـدـدـ جـيـاـنـيـ كـلـ حـيـنـ ، وـلـيـسـ لـيـ مـسـتـنـدـ  
إـلـاـ عـوـاطـفـ الـأـمـةـ ، وـإـذـاـ جـدـةـ الـجـدـ يـقـلـ الـآـخـذـوـنـ يـيـدـيـ ، وـأـنـرـكـ وـشـأـنـيـ ،  
ولـسـانـ الـحـالـ يـقـولـ : ( يـدـاكـ أـوـكـنـاـ وـفـوـكـ نـفـخـ ) .



## الرغمق الطيبة

كان لوالي صدقة وثيقة العرى مع السيد عبد الغنى القوتلى ( جد رئيس جمهورية سوريا الحالى ) وكثيراً ما سمعته يقول : يا بني قد تلد الولادة مثل عبد الغنى القوتلى ولكن أعظم منه بأخلاقه وكرمه فلا . وكان أبي يعجب من ثباته على عمل الخير وتفتنه في ممارسة ضروره .

قال كان يدعوا إلى قصره العظيم كل مدة أربعين يوماً أو خمسة فتخير بهي لهم الذ ملوك التي تفاخر بها دمشق ويجهز لهم الحلويات وما يتبعها من صنوف الفاكهة حتى إذا طعموا خرجوا من الباب ، وخدماته قد اعدوا لكل مدعو قماشاً مع بطانته يحمل منه ثوباً ، ونعلان يلبسه برجله ، وربلاً يشقق منه على عياله ، يعمل كل هذا لا يتبعج ولا يتتفج ولا يقصد إلا وجه ربه .

بلغه مرة أن أحد سواره الذين يختلفون إلى داره قال إن السيد عبد الغنى القوتلى وجد كنزًا في داره فصر منه جامع السادات في سوق مدحت باشا فكتم القوتلى الامر حتى جاء شركاؤه من البر فبعث يدعوه صاحبـه الذي اتهمه بالشور على الكنز ليتناول طعام العشاء معه ، ولما فرغوا من طعامهم استدعى صاحب الدعوة كاته وأخذ بمحاسب عملاه حتى نظر في حساب جملة منهم فكان مجموع ماربع بواسطتهم خمسة آلاف ليرة عثمانية - وهذا المبلغ ضخم جداً في حساب تلك الأيام - والتفت إلى المدعو صاحبـ الكنز وقال له يا أبا فلان ان من يربح من تجارتـه في سنة مثل هذا المبلغ المظيم عدـا غلة أملاكه في القرى وريـتها في المدينة لا يصب عليه أن يبني مسجداً بـثمانمائة ليرة . وهكذا بكته بهذا الاسلوب الرقيق . وقصـت يوماً على شكري القوتلى قصة روبرت لي مـرة عن جده المظيم

قلت : بلغني أن جدك حمل إليه ذات يوم من قريته اثنا عشر حيلاً من الحطب ، وكان يطير من طرف غرفته على الشارع فشاهد أحد الجوزة يقطع حلين ويسوقها أمامه فابنوه السيد حتى رأى أنهما يجلاين أمام بيت في محله النوفرة ببصر في الدار فرأها خالية من كل شيء يدل على حياة ، فأمسك بيد الجمال وابتاع له كيسين من الدقيق وصفحة سمن وصفحة زيت وصفحة دبس وسلة أرز وسلة بن وكل ما يلزم للطعام وقال له مازحاً الآن يلزمك الحطب أما من قبل فماذا تفعل به ؟ مثال من الفتن في الإحسان .

وكان السيد القوتلي لا تقطع صدقاته بغيرها على مئات من أهل الستر ومن ابتلام الله بالفقر مما نراه به خزائن الملوك يومئذ ، فكان حقاً ملك الكرم في عصره ، ومثال الرجل الصالح ، والمسلم الذي تحمل الإسلام حقيقة ، دأبه جباية الأموال ودأبه انفاقها في وجوه البر وعلى الحاويج والموزين . وكثيراً ما قلت للسيد شكري حفيده قبل توليه رئاسة الجمهورية يجب وضع ترجمة حافلة بجداً فان في سيرته مارينا يحفز الناس إلى عمل الخير وليس من المدل أن يقتصر أرباب الترجم على الترجمة للفقهاء والمحدين والإدباء والشعراء فقط ، وما كان أبدر برجال المال والإعمال أن يتدارس الناس سيرهم ليقتدوا بهم ، فكان يصرح باني أعرف عن جده ما لا يعرفه هو فقلت له : الفضل في هذه المعلومات لوالدي .

وحدثني من أثق بصدقته من قدماء أصحابي أرباب المطابع قال : إلى اليوم بتحديثون في حيننا حي القميرية بقصبة وقت لتجار مفلس مع السيد عبد المنفي . ذلك أن أحد جيرانه من التجار تأخرت أحواله فعنده أن يبيع داره ويتسع بيتها ويستعيد شرفه فبلغ القوتلي ما صارت إليه حال جاره فارسل يدعوه إليه وقال له : انتهى إلى أنك في ضائقة وأنك تريد بيع دارك قال : نعم يا سيدي ضرورة دفعتني إلى ذلك قال السيد : أنت إذا زهدت في جيرتك فانا لا أبيع جوارك منها كلفني الأمر وهذه صرة من النقود تذر نفسك بها وكف عن البيع لأجل خاطري ، فذهب صاحبه بمجرور الكسر

وكان اميناً صادقاً واشتغل بالتجارة فاسترجع بعد زمن نسنه وخف إلى من أسدى إليه هذه اليد ، وأولاً هذه العارفة يشكره يمد إليه البصر الذي كان أفرضه إياه إلى أجل غير مسمى . فضحك السيد وقال للناجر : أنا لا أنزل عن جوارك وأنفق أضعاف أضعاف هذا المبلغ لبقائك جاري وإن كان لا بد من رده فارجوك أن تصدق به على من تحب . وهكذا ظهرت هذه المكارم في المحسن والمحسن إليه على أشرف ما كانت عليه أخلاق المسلمين يوم كانوا مسلمين عاملين بأكثر شروط الإسلام ، وما تردوا في بواحة هذه المادية القدرة . يوم كانوا مسلمين لا بورقة الهوية ونذكرة التفوس وكتب الجغرافيا .

حدثني الاستاذ الشيخ عبد السفر جلاني صربى ثلاثة أجيال من أبناء دمشق وقد اشتهر بتقواه وصلاحه قال : حججت في بعض السنين واتفق أن كان في الموسم السيد عبد الغنى القوتلى ، فلو قلت لك يا سيدى أنه لم يبق في الركب الشامي رجل لم يأكل على مائدة القوتلى أو أخذ من صدقاته لكتت صادقاً في قولي ، وأعتقد أني لا أقول إلا ما رأيت .

قال إن فقراء بيت الله الحرام انهالوا عليه بما يضره منه الحليم فكان يفضل عليهم مقتبطاً واتفق ذات صباح أن الشمس كادت تشرق والسيد يسارع إلى المسجد ليصل إلى الصبح حاضراً وعلى ظهره عباءة ثمينة فلقه النحاذ والسيد لا يحمل كيس دراهمه فما وسعه إلا أن خلع عباءته ونجا برئشه مجرداً إلا من ثوب رقيق .

وحدثني أبي أن السيد عبد الغنى القوتلى قاطع أخيه مراد أفندي ، وكان لا يقل عنه بكرمه وحسن أخلاقه ، لأنه بلغه أن السيد مراد قال للفلاحين في المدينة أزكوا مقبرة المرابعين بعد الآن لا تدفوا فيها موناكم وقد خصصتكم بالأرض الفلانية للدفن فقال السيد عبد الغنى لأخيه ما كفاك بعض مئات من الأفندية في المدينة وبلا حق لعمتي على قبور المسلمين لتقيم عليها حدائق الدار التي تبنيها . وكان مراد وعبد الغنى شركيين في الاملاك والتجارة

الاول يتمهد املاك الفوطة والمرج والثاني يقوم على التجارة في المدينة .  
وربما يسأل أحد الفضوليين وما معنى هذا الاسم التركي ( قوتلي ) يطلق  
على أسرة عربية وقد حل هذا الاشكال لي من أثق به ، قال كان يقال  
لهذه العائلة بيت النحاس وكانوا تجارةً كباراً في النباب وكان حجاج الاناضول  
من الاراك يأتون في طريقهم إلى الحج كل سنة ويتباعون هذه البضائع  
ويقولون عند ما يساومون فيها بالتركية ( حاجي قوتلي قماش ايسترز ) أي  
يا حاج نطلب منك قماشاً متبناً ( قوتلي ) . وما زالت هذه الكلمة تتردد  
 بين البائع والمشتري حتى غدت تطلق على بني النحاس والله أعلم .



## لبنان

أحسن تعريف يختصر للبنان أن جياله أكثر من سهوله وأنه من أجمل سواحل التام اشتغلت فيه بد الخالق وأيدي الخلاائق قروناً وكان في الإسلام عمالة من عمالات دمشق مقطوراً منها بسائرها في النساء والضراء بدون أحد ورد . ولما أراد البرستانت أن ينشروا مذهبهم في الشرق لم يجدوا أحسن من لبنان فجاؤوا وأنشأوا مدارس في الجبال ثم أقاموا الجامعة الاميركية في بيروت وغار اليهوديون من اللاتين على الكثلكة فخذلوا حذو الأميركيكان . ولبنان عش الموارنة والموارنة كانوا يلوك مرتبون بالكرسي الباباوي في رومية . وتفخ الواغلون على البلاد في السكان روح التحصّب الديني فكان من ذلك الضرر عليهم وعلى البلاد عامة . ولما تخرج الطالب بالجامعة الاميركية لم يطب عيشهم في بلادهم فتفرقوا في الأرض وكان الاحتلال الانكليزي لمصر والاحتلال يحتاج إلى من يخدمه فرأى في اللبنانيين المتخرجين باللغة الانكليزية أحسن أنصار فأخلصوا كلهم له ونسوا مصلحة مصر فاستفادوا من ذلك فوائد مادية لا تقدر وخسروا كثيراً في المعنويات .

وقويت الهجرة إلى الأميركيتين فكان اللبنانيون في الطليعة من أكثر من هاجروا ، غادروا البلاد إلى غير رجمة ، فبدأت القرى تخرب والمعيش في تلك الجبال يضيق . ولما جاءت فرنسا إلى هذه الديار عطفت على لبنان من المصاري عطفاً غريباً فاسترجع الجبل بعد ذلك بعض قوته واستندت الدعاءيات للاصطياف فأصبح جبل لبنان مثابة المصطافين من الشاميين وال العراقيين والمصريين وغيرهم من الأمم فأفأد من ذلك وما هو إلا جيل حتى غداً كل لبناني يفكر في الدعاية للاصطياف كما يفكر في مصلحة أولاده وبيته .

وظل التحصّب الديم في بعض العناصر اللبنانيّة على أشدّه حقّ إذا أراد اللبنانيون بل أرادت فرنسا أن يجعلوا لهم كياناً خاصاً وألفوا الجمهورية

البنانية كانت سوريّة خلاطها تم بدها إلى اللبنانيين وهم يناؤن بجانبهم، ولما تألفت الجامعة العربيّة لم يدخلوا فيها حتى تمهدت لهم سوريّة بحقهم وبغير حقهم . وإلى اليوم يتذلل لبنان على سوريّة وبهذا ضئنا بأنه إن لم يعطه ما سأله كل يوم ينضم إلى دولة قوية ربته وعلمه . ولا يجب أن ننسى مع هذا أن الأكثريّة الساحقة في لبنان لل المسلمين ولكن النصارى سبقوا وتعلموا قبلهم بواسطة الأوروبيين والأمريكيين وأخذوا يملؤن هذه الاعمال .

انا على يقين ان الصحف اللبنانيه غداً متى صدر هذا الكلام ستسقط في بالسن حداد وتقول في مقاله مالك في الخبر وقد حدث ذلك مرات واثل الدارج يقول : ( من احب ان يسكت لا يمد.الاقذاح ) .



## جمعية الاتحاد والترقي

استلمت جمعية الاتحاد والترقي زمام الدولة ، بتهديد السلطان عبد الحميد الثاني ، وثرت الدستور ودعت المجلس النيابي الى الاجتماع ، وزالت شوكتها بعد أن الف السلطان جمعية سرية سماها الجمعية المحمدية ، اغتالت بعض أفراد الاتحاديين في الاستانة ، وبث فيها روح الثورة والمصيانت ، وعاد الاتحاديون فتغلبوا على السلطان وخلعوه ونفوه الى سلانيك ، وقضوا على زعماء الحركة المحمدية في العاصمة والولايات ، وأخذوا يكتبون من اغتيال المعارضين لسياستهم ، من أرباب الأقلام في الاستانة ، وأحبوه أن يجرروا على هذه الطريقة في الولايات ، وكانوا من قبل يحذرون أن يأتوا فيها شيئاً مما أنوه في دار الملك فبدأوا بي ، وأرسلوا دركياً تركياً بهدفي في رابعة النهار ، وأنا سأر مع رفيقين لي على جادة الصالحة ، وقال لي ما معناه : يكفي يا سيد ماعملت فالماقبة لا تعرف ماتكون . ولما انتهرت هرث . وفي غضون تلك المدة أعطى الاتحاديون مبلغاً من المال لأحد الاشقياء ليقتلني قائلين له : (إني كافر وعدو الدولة ) فذكره لأحد أصحابه ما أنيط به القيام به فقال له : ويحيك إن أهل دمشق يمزقونك إذا فعلت ما أمرتك به الجمعية ، الرجل معروف بأنه ليس بكافر ، وأهل هذا البلد يحبونه ، فالاولى لك أن تعبد الدرام لمن أخذتها منهم ، والله يرزقك من غير هذا الباب .

هذا كل ما استطاع الاتحاديون أن يأنوه انتقاماً لجعيمتهم من ، بعد أن أصلبتم ناراً حامية على السياسة التي نهجوها مع العرب ، وكانوا يرسلون إلى يعودونني باعطائي ما أطلب من المال ، على أن أعدّ لهم في تقدّم أعمالهم ، واقتربوا عليّ أن يعينوني والياً في إحدى الولايات ، او في منصب يعادل

منصب الولاية ، على أن أترك الجريدة . فأجبت إن مطالبنا بالصلاح إذا تحقق ترقى الشام فاستفيد أنا في جلة ملايين من الخلق ، وأنا لا أكتب لئنكم أصيبي ، وغايتي تعليم الشعب المطيبة بحقوقه ، ودعونه إلى القيام بواجباته ، حتى تنتظم أمور المحكومين والحكم معًا .

علم الانحداديون حرصي على الدستور ، وعلى الحكم النيابي ، يوم قامت الجماعة الحمدية في الاستانة والولايات ، ودخل الناس أفواجاً ، كيف هورت في حرب هذه الجماعة الارتجاعية حتى قررت تناي . وقال لي عبد الرحمن باشا يوسف من كبار الانحداديين : إن القوم يعني جماعة الحمدية ، يبيتون لك القتل ، فأنا مرسل لك ثلاثة أشخاص من شجعان الـ كراديرافقونك حيث ذهبت ، أو تقطع على الأقل عن التجول ليلاً في المدينة ، فقلت له : إنهم أضعف من ذلك . وهذا مثل قوله لفوزي بك البكري وقد طلب مني أن أكف عن التعریض بشفیق بك المؤید ، وقال لي إن والده عطا باشا قال : إذا لم أعدل عن غمز أعيان البلد فان قتلي محقق ، فأجبته : إنني إذاً في موتي لسعيد ، وأنا أعتقد أن عشرات من الشبان يقومون بعدي يستلمون زمام ما بدأته به ، وأي سعادة لي أعظم من ان أرى في أمي من يتصدى للقتل لقصد شريف ، ويتناقض بالحسنى كل من يقف في سبيلنا .

وبينما كانت الجماعة الحمدية تحاول قتلي ، كان جماعة من شبان الميدان - أعظم حي في دمشق - يتحالفون على حمايتي من الأشرار ، وقضوا بالمناوبة بينهم عشرين يوماً يتناوبون حراستي منذ خروجي من داري إلى أن أعود إليها ، في المزيع الأول أو الثاني من الليل ، أخذوا على أنفسهم أن يحموني من إطالة أيدي الآذى إلى . وهؤلاء كانوا من قراء المقتبس ومن المجيدين بما يكتب في الحكم الظالمين ، وما عرفت ما بدا من صروفتهم إلا بعد مدة ، وما كنت أعرف منهم معرفة شخصية سوى رجل واحد فقط .

وبعد هذا أتّهـت بالارتجاع ، أي بعـادة من يـحاول إعادة المـهد الاستبدادي ، وأنا الذي كـنت من أول النـاقـين عليه ، والـهـارـين له ، ولـلـفـارـ منـه فـارـتـ الـأـهـلـ وـالـوـطـنـ سـنـيـنـ ، وـرـضـيـتـ بـالـاسـتـخـدـامـ فـيـ الصـفـ المـصـرـيـةـ حـتـىـ أـعـيشـ شـرـيفـاـ لـأـسـفـ إـلـىـ مـاـقـدـ يـسـفـ إـلـيـهـ بـعـضـ أـمـانـيـ .  
هـذـاـ عـمـلـ وـهـذـاـ عـمـلـ الـاتـحـادـيـنـ ، وـالـاتـحـادـيـنـ أـعـاجـمـ لـاـ يـفـهـمـونـ وـلاـ  
يـجـبـونـ أـنـ يـفـهـمـواـ ، أـقـوـيـاءـ الشـكـيمـةـ ، لـاـ يـرـضـيـمـ إـلـاـ أـنـ يـسـيرـ كـلـ إـنـانـ  
فـيـ الـمـلـكـةـ عـلـىـ بـرـنـاجـهـمـ الـأـعـرـجـ ، بـدـونـ بـحـثـ وـلـاـ نـظـرـ ، وـإـلـاـ فـاـقـتـلـ  
مـصـيـرـهـ ، وـالـقـتـلـ أـيـسـرـ الـأـمـورـ فـيـ نـظـرـهـ ، وـأـيـ حـرـجـ عـلـيـهـ فـيـ مـاـ دـامـواـ  
يـحـاـولـونـ سـلـامـةـ الـوـطـنـ ؟ وـمـاـ أـعـرـفـ كـمـ مـرـةـ هـدـنـيـ الـأـنـراكـ وـأـشـيـعـهـ  
بـالـقـتـلـ مـنـذـ قـبـضـتـ يـدـيـ الـقـلمـ ، حـتـىـ خـرـجـوـاـ مـنـ الـدـيـارـ الشـامـيـةـ . وـكـانـ  
يـضـحـكـيـ وـعـيـدـمـ ، كـمـ كـنـتـ أـهـنـأـ بـوـعـودـمـ .

جـاهـ مصرـ قـبـلـ اـعـلـانـ الدـسـتـورـ العـثـانـيـ بـسـنـةـ أوـ سـتـيـنـ أـمـدـ رـضاـ  
بـكـ صـاحـبـ جـريـدةـ تـرـكـيـةـ ، كـانـ يـصـدـرـهاـ فـيـ بـارـيزـ ، وـاجـتـمـعـ إـلـىـ المـشـتـغلـيـنـ  
بـالـمـسـائـلـ السـيـاسـيـةـ مـنـ الـلـاجـئـيـنـ إـلـىـ مـصـرـ مـنـ أـبـنـاءـ الـعـربـ ، وـسـأـلـتـ رـفـيقـ  
بـكـ الـعـظـمـ ، وـكـانـ يـدـخـلـ مـعـ كـلـ جـمـاعـةـ تـذـرـعـ باـمـرـ يـنـفعـ الشـامـ وـغـيرـهـ ،  
وـقـدـ اـخـتـلـطـ بـهـ كـثـيرـاـ ، عـنـ رـأـيـهـ فـيـ الدـسـتـورـ الـذـيـ يـطـالـبـ بـهـ ، فـقـالـ  
أـنـ بـرـىـ أـنـ يـكـوـنـ دـسـتـورـاـ فـيـ التـفـوقـ لـلـأـنـراكـ فـيـ كـلـ حـالـ ؟ وـلـاـ بـنـالـ  
سـائـرـ الـعـنـاصـرـ شـيـءـ مـنـ الـحـقـوقـ الـتـيـ تـضـرـ بـسـلـامـةـ الـمـلـكـةـ ، فـقـلتـ لـهـ :  
أـنـ الـقـومـ لـاـ يـفـلـحـونـ ، وـكـيـفـ لـمـلـكـةـ سـكـانـهـاـ ثـلـاثـيـونـ مـلـيـونـاـ أـرـبـعـةـ مـنـهـمـ مـنـ  
الـعـنـصـرـ التـرـكـيـ ، وـخـمـسـةـ عـشـرـ مـلـيـونـاـ مـنـ الـعـنـصـرـ الـعـرـبـيـ ، وـالـبـاقـونـ مـنـ  
أـجـنـاسـ مـخـلـفـةـ ، وـمـنـهـمـ الـأـكـرـادـ وـالـبـشـنـاقـ وـالـشـرـكـسـ وـالـلـازـ وـالـرـومـ  
وـالـأـرـمنـ ، أـنـ يـكـوـنـ بـعـضـ الـأـقـلـيـةـ الـكـلـ فـيـ الـكـلـ ، وـيـهـمـ اـمـرـ سـائـرـ  
الـعـنـاصـرـ ، وـلـاـ سـيـاـ الـعـنـصـرـ الـعـرـبـيـ ( الـبـنـيـ آـخـرـ مـدـةـ الـقـومـ )

# سلطان الراعیان

استدعي ناظم بابا والي سوريه وطلب إلـى أن أولى تأدب ابنه ، وقال لي : أكتـنـتـ منكـ بـأنـ تـلقـنـهـ ماـ أـخـذـهـ منـ أـفـكـارـ شـيخـ طـاهرـ الجـزاـريـ ، فـاعـتـدـتـ بـأنـ أـشـغـالـ الزـرـاعـيـةـ فـيـ القرـيـةـ نـحـولـ دـوـنـ غـنـبـانـ الـحـاضـرـ كـثـيرـ . فـلـمـ يـقـبـلـ عـذـرـيـ عـلـىـ مـاقـرـأـتـ فـيـ أـسـارـيـ زـ وجـهـ . وـعـدـهـ مـخـرـجـاـ مـنـ هـذـهـ السـخـرـةـ ، أـوـ تـرـفـماـ عـنـ تـدـرـيسـ طـفـلـ ، أـوـ سـوـهـ أـدـبـ مـنـ سـفـيرـ إـلـىـ كـبـيرـ . وـرـدـ كـلـامـ الـظـيـمـ كـانـ غـيرـ مـأـلـوفـ ، وـلـوـ كـانـ فـيـ غـيرـ مـقـولـ . وـأـتـتـ عـلـيـنـاـ سـنـةـ جـفـتـ فـيـهاـ الـبـنـابـعـ ، وـغـاضـ مـاءـ الـانـهـارـ ، فـقـامـ جـيـرـاتـ أـهـلـ نـهـرـ الـمـنـيـحـيـ فـيـ الغـوـطـةـ يـمـتدـونـ عـلـىـ نـهـرـنـاـ نـهـرـ الدـاعـيـانـيـ ، وـرـفـوـاـ بـطـ المـاءـ الـقـاسـمـ يـيـتـنـاـ ، فـسـالـ مـعـظـمـهـ مـنـ نـاحـيـهـ . وـالـدـاعـيـانـيـ يـروـيـ أـرـاضـيـ أـوـسـعـ وـقـرـىـ عـاـمـرـةـ بـالـسـكـانـ أـكـثـرـ مـنـ الـمـنـيـحـيـ ، فـشقـ الـأـمـرـ عـلـىـ أـصـحـابـ الـحـقـ فيـ قـرـانـاـ ، وـأـرـادـوـ رـدـ مـقـسـ الـمـيـاهـ إـلـىـ حـالـهـ بـالـفـوـةـ . وـاجـتـمـعـ كـبـارـ الـمـازـارـعـينـ وـكـنـتـ فـيـ جـلـةـ مـنـ اـنـدـبـواـ لـرـفـعـ ظـلـامـةـ الـأـهـلـيـنـ إـلـىـ الـحـكـومـةـ ، فـنـزـلتـ هـذـهـ عـلـىـ إـرـادـةـ الـمـغـبـونـيـنـ مـنـ كـانـ الـحـقـ فـيـ جـانـبـهـ . فـتـأـثـرـ أـحـدـ أـصـحـابـ نـهـرـ الـمـنـيـحـيـ ، لـانـكـشـافـ الـمـؤـامـرـةـ عـنـ أـهـلـ الـقـرـىـ وـعـنـ الـحـكـومـةـ ، وـخـصـنـيـ بـقـسـطـ وـافـرـ مـنـ غـضـبـهـ ، أـنـ كـانـ لـيـ يـدـ فـيـ إـرـجـاعـ الـقـدـيمـ إـلـىـ قـدـمـهـ .

مضـتـ أـيـامـ وـنـشـتـ فـتـنـةـ فـيـ الـبـيـنـ ، وـأـقـبـلـتـ الـحـكـومـةـ الـعـيـانـيـةـ فـيـ دـمـشـقـ لـسـخـرـ الدـوـابـ لـنـقـلـ مـهـمـاتـ الـجـيشـ ، وـكـانـ لـضـعـ يـدـهـاـ فـيـ جـلـةـ مـاـ لـضـعـ عـلـىـ الـجـيـادـ الـمـطـهـمـةـ وـخـبـلـ السـبـاقـ . وـمـنـ اـعـتـدـتـ عـلـيـهـمـ أـحـدـ وـجـوهـ تـجـارـ الـخـبـلـ أـخـذـتـ خـيـولـهـ ، وـكـانـ يـعـدـ بـعـضـهـاـ لـلـسـبـاقـ ، أـوـ لـتـبـاعـ مـنـ الـجـيـشـ الـانـكـلـيزـيـ فـيـ مـصـرـ ، فـعـظـمـ ذـلـكـ عـلـيـهـ ، وـاستـكـبـ أـحـدـ اـصـحـابـهـ بـيـانـاـ بـالـعـرـيـةـ فـيـ وـسـفـ إـدـارـةـ الـوـالـيـ . وـهـاـ قـالـ فـيـهـ : اـنـ سـلـمـ لـحـيـتـهـ لـذـاكـ الـوـجـيـهـ (ـ خـصـنـاـ فـيـ

الباء ) يجره إلى حيث يشاء وشفع ذلك بعض العبارات الجارحة .  
وعلق هذا البيان على جدران المدينة فاهم له الوالي ، وحاول بكل مالديه من وسائل أن يعرف الكتاب . فقال له ذلك المين : إن كاتبه فلان ، يريدني ، مدعياً أن البيان كتب بقلبي ، وليس في المدينة من يكتب بالعربية غيري ! فصدر أمر الوالي بتفتيش داري ، ففتحوها وروّعوا عالي ، وأخذوا أوراقي ودفاتري . ولما بلغني الأمر لفيفت عن الانتظار في بعض القرى ، وكان ذلك في شتاء ( ١٣٢٢ ١٩٠٤ ) ، ولما لم يجدوا أقل إشارة إلى أنني أنا واسع ذاك البيان ، أراد الوالي تلافي الأمر ، فكلم الأمير شبيب ارسلان قائلاً : إنه ليس له نحوي أدنى فكر سيء : وما يجب أن يقول الناس عليه بسببي ، فجئته وأمر أن تدفع إلى أوراقي ، وكان فيها أشياء لا ترقى السياسة المتبعه يومئذ ، والغالب أنها لم تهم كلام الطعن عليه .  
وحاول أمين سره ولي أفندي أن يؤخر أوراقي عنده فأخذتها منه على رغم أنه . وهذه الحادثة السياسية استحقت فكاهة أدبية كما قال الأمير شبيب ارسلان ، وكان يردد أحياناً نظمها على البدية فيما أصابني ؛ راقت الشیخ طاهر فأراده على أن يتها قصيدة يصف الحال ، ومن الغد كانت قصيدة في أكثر من خمسين بيتاً بدأها بقوله يداعبني :

ألا قل لمن في الدجى لم ينم طلاب المعالي سير الأم  
ومن أرقته دواعي الهوى فدون الذي أرقته الحكم  
شريد الكتاب طربد القلم فكم في الروايا تخبي فتى  
برى الأرض ضيقاً كشق البراء منها :

وفي كل يوم سؤال وبحث  
وقد كان في كبرهم بيته  
فكان على كتبه غارة  
وقالوا سينق إلى ( رودس )

وأنى تولى وأين انهزم  
بحبلق قال وقيل عم  
كفارات عرب ( الصفا ) بالذئم  
وقالوا سيعجز بما قد جرم

وقالوا سِيَحْمَلْهُ أَدْمَ بِرْقَةُ لَا لَسْتَرِيجُ الْقَدْمِ  
 وَتَلَكَ السَّوْمُ وَتَلَكَ الْحَمْ  
 وَبَعْضُ بَصْرَبُ عَلَيْهِ حَكْمَ  
 فَفَاتَ وَمِنْهُ الرَّجَاهُ افْسَرَمْ  
 فَانَّ الْهَمْسُومُ بِقَدْرِ الْمُمْ  
 نَ تَوْقَعُ أَنْ يَبْتَلِي بِالْنَّفْمَ  
 وَكَمْ أَدْرَكْتُ مِنْ لَبِيبٍ وَكَمْ  
 وَكَمْ مِنْ كَلَامٍ لِقَلْبٍ كَلَامَ  
 فَانَّ السَّكَاكَةُ مِنْهَا الْقَسْمُ  
 وَمِنْ بِالْكِتَابَةِ أَبْدَى هُوَيَّ

وَبَقِيَ ذَاكُ الْوَجِيهُ الْمُعْتَدِي عَلَيْنَا فِي الْمَاءِ يَحْمَلُ احْقَادَهُ إِلَى بَحْرِيَّهُ أَحْمَدْ  
 جَالَ بِاَشَا قَائِدًا عَامًا عَلَى الشَّامِ اَوَّلَ الْحَرْبِ الْعَامَةِ، فَكَانَ مَا نَصَحَ لَهُ فَيَا  
 قَبْلَ اَنَّ الدُّولَةَ لَا لَسْتَرِيجَ فِي هَذِهِ الْدِيَارِ إِلَّا إِذَا صَلَّبَتْهُ فِي ، فَانِي عَدُوُهَا  
 الْمَدُودُ ، اَنْلَاعِبُ بِعَقْوَلِ النَّاَشِيَّةِ فَأَفْسَدَهَا وَانْ مَقَالَانِي فِي الْحُكُومَةِ لَشَهَدَ  
 بِالْجَحْلِ عَقْدَةَ الْوَطَنِيَّةِ ، وَالْخَرْوَجُ عَلَى الْجَامِعَةِ الْعَمَانِيَّةِ . وَقَدْ قَالَ لِي جَالَ  
 بِاَشَا بَعْدَ مَدَةٍ مُشِيرًا إِلَى هَذَا الاقتراحِ بِمَا يَقْرَبُ مِنَ الْصَّرَاحَةِ . قَالَ لِي ،  
 وَانَا فِي يَتَهِ اَزُورُ بَارِهِ الْاَدِيَّةِ التَّرَكِيَّةِ الْمُشَهُورَةِ خَالِدَةِ اَدِيبِ خَانِمَ ،  
 وَكَانَتْ تُزِيلُهُ إِنْ بَعْضِ الْاعْيَانِ اَفْتَرَحُ عَلَيْهِ قَتْلِي ، فَقَلَتْ لَهُ مَهَا قَبْلَ فَانِي  
 مَدِينٌ بِالْحَيَاةِ لَكَ ، قَقَالَ كَنْتُ اُنْوِي شَنِقَكَ وَلَكِنِي وَقَرَّتْ عَلَمُكَ .

وَالْحَقُّ مَعَ ذَاكُ الْوَجِيهِ فِي أَنْ يَحْاولُ اِتَّخِلُصُ مِنِّي ، لَاتِي مِنْذَ اَنْشَأَتْ  
 جَرِيدَةَ الْمُقْبِسِ الْيَوْمِيِّ فِي دَمْشَقَ ، وَأَنَا أَنْهِي الْحُكُومَةَ لِتَنْقِذَ الْاَهْلِيِّينَ مِنْ  
 تَسْلُطِ اَعْيَانِهَا ، وَأَنْ تَقْصِيْهُمْ عَنْهَا لَثَلَاثَةِ تَزِيدُ فِي سِيَطَرَتِهِمْ ، فَيَقْوُونَ عَلَى  
 الْبَثِّ بِحَقْوَقِ الْشَّعَبِ وَحَقْوَقِ الدُّولَةِ ، وَلَوْ بَحْتَنَا عَنْ مَصَادِرِ ثُروَةِ مُعْظَمِ  
 تَلْكَ الْطَّبَقَةِ مَا رَأَيْنَاهَا لَعَدُوِّ مَصْدِرِيْنِ اَثْنَيْنِ سَرْقَةِ الدُّولَةِ وَسَرْقَةِ الْاَهْلِيِّ .  
 وَقَدْ حَاولَ ذَاكُ الْوَجِيهِ أَنْ يَسْتَمِيلِنِي بَعْدَ مَدَةٍ ، وَأَظْنَهُ مَا اَفْتَنَعَ أَنْ مِدَأً  
 ضَبْتَهُ كَانَ لِدَفَاعِي عَنْ حَقِّي وَحَقْوَقِ الْضَّعِيفَاءِ فِي قَرِبَتِي وَمَا جَاَوَرَهَا ،  
 وَكَنْتُ الظَّافِرُ فِي تَلْكَ الْوَقْمَةِ ، وَتَأَكَّدَتْ أَنَّ الْاعْيَانَ يَغْضُونَ مِنْ أَرْبَابِ  
 الْأَقْلَامِ كُلَّ مِنْ يَنْبَهُ الْاَفْكَارَ .

# نحوت من الفاروقى و جبل المروز

لَا اعندى بعض دروز حوران على جيرانهم أهالي قريتي غص ومرية  
و سكانها مسلمون سبئون و مسيحيون، و قتلوا منهم نحو ستين رجلاً و امرأة،  
ونهبوا بعض قرى السهل القريبة منهم ، كتب المقتبس هذه الاخبار مفصلة ،  
ومازال يكتب فيما دأبوا على شق عصا الطاعة ، حتى عزّمت حكومة الاتحاديين  
أن ترسل حلة على الجبل لعيد الامن إلى نصايه ، ولضرب على أيدي  
الخارجين على السلطان . وأرسلت الحلة بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقى .  
أخذت الجريدة تروي الأخبار بصورة تفت في عضد العصاة ، وتضفت  
شوكتهم ، حتى قال لي سامي باشا الفاروقى إنه كان من نفع «المقتبس»  
في الحلة ، ومن تأثيراته فيما أخلوا بالأمن ، ما يوازي تأثيرات فرقة من  
الجند ، وأن صوته نفع الدولة كما كان يتوقع من عشرة آلاف جندي في  
مثل هذه الحال . وكان صاحبنا خليل رفعت الحوراني يكثر في الجريدة  
من الكتابة في كل ماله علاقة بأحوال الجبل ، بين مسالكه و مضائقه ،  
وسهوله و وعراته ، يتلقطها من أنفواه المارفين ، ولا سيما من صديقنا علي آغا  
الحسلي والد شكري بك ، فكان كلامه على الطرق والمياه ، وعلى أخلاق القوم  
وعاداتهم مما يزيد أمراء الجيش بصيرة ، وأكده رئيس أركان حرب الحلة أنهم  
انتفعوا بالخبر الذي رسّها خليل رفعت الحوراني وغيره في جريدة المقتبس أكثر  
من انتفاعهم بما لديهم من المصورات المختلفة ، ذلك لأنّ الخبر يطأطّل الوطنية مفصلة ،  
فيما يحتاج إلى معرفته بدون تحريف في الأسماء ، وخلت من الامغالات التي تنسرب  
إلى الغريب إذا أراد أن يكتب في شعوب غير بلده .

وثارت عرب الكرك خلال هذه المدة لامن الدولة أرادت إحصاء  
تقويمهم ، كما أحصت نقوس حوران وجبل الدروز ، فقامت الحلة الفاروقية  
م (٦)

بتأدبيهم فم الأمان الأرجاء ، وشنق بعض زعماء الدروز والكركيين ، فنزل المزعجون وأرباب التفود في المدن والقرى . ولا تسل عما أصبح للقائد الفاروقي من الموقن في القلوب ، وعدها اسمه مضرب الامثال في الرهبة بخاف منه البداي والحاضر .

وما هي إلا أيام حتى وقع الاختلاف بيني وبين القائد ، وانصرفت عنه فلم يترك وسيلة لاسترضائي إلا أنها ، وأن لا أزيده إلا نجها ، وانقطع صوت الجريدة عن نشر حماده وأعماله ، كما كانت من قبل ، وما عاد يجري فيها ذكر لجبل الدروز ولا للحملة . حداني على ذلك ما ثبت عندي وعندي صديقي شكري بك المصلي من أن الفاروقي جار على بعض رؤساء الدروز فعاقبهم بما لا يستحقون ، وأئمن من العقوبة أكابر الجوزين ، وربما وقع له أن جرم البريء وبرأه المجرم ، فأكبرت الأمر جداً ، ولست نفسي على تخمي في تأديب الجيل ، وعلى اغضاب القوم ، وفيهم الاصدقاء والخلات ، وفيهم كرام الناس ، واصحاب النじدة والمروة ، فدهش القائد لوصولي إلىحقيقة ماجرى ، وما ظن أني اصل إلى كشف مادر في سر . وما زلت أكشر له عن نابي ، وهو يرجو أن أقبله أو أقيل دعوته ، فأرفض ويتوسط بعض أحبابي من ضباط العرب ليقمعوني بحسن حاله ، ويدركوا لي محنته لي ، ويريدونني على أن أزوره ، وبت مصرأ على الابتعاد عنه ، أشير من طرف خفي لما حصل ، وهو يدرك أني لم اذكر بجماعته إلا بعض ما أعرف ويحذر ان ابدأ بتسطير ما لا يليق من اعماله على صفحات الجريدة .

وأصيб القائد بالسُّى بعد حين ، وبلغني أنه كان يقول في بحرانه : لشْ أحياني الله لأنْقعن من ( كرد علي ) و ( المصلي ) انتقاماً بتفق ومعاملتها لي ، سأقتلها شر قتلة ، وأجعلها عبرة ، فاريح البلد منها ، وقضى نحبه بعد أيام . وقيل إنه كان أدخل من الأموال التي دخلت عليه جانباً عند أحد التجار المراقيين بدمشق فانكرها بمده ، ولم يصل إلى أسرته منها شيء ، لامن ذاك التاجر كان عارفاً بأصل هذه الأموال وآخر الفاروقي

أن يجئها عنده ، لعله بأنه يظهر أمره إذا أودعها في أحد المصارف والطالب أن الناجر الباقعة لاستئجاره بالأمانة لم يأخذ منه الفاروقى سداً بماله ، فاستحل أكله بعد موته .

حدثني صديقي يحيى بك الاطرش أمير الجبل في عهده أنه مانجا من بد الفاروقى يومئذ إلا بفضل ما هدى إليه وانه سجنه في درعا ، وكان كل مرة بوهمه انه سيحكم عليه ، ففيادر الى تقديم ماريضية . وأماما اضطررتني الحال الى التزام الصمت في الجريدة عن الفاروقى إلا لكونه من أبناء العرب وصعب عليّ اذ ذاك ان نقضح أنفسنا أمام الآثارك ، فيكون ما كتب حجة لهم علينا في إقصاء العرب عن الوظائف الكبرى ، مع أن من كانوا على هذه السيرة منهم يمدون بالبشرات ، والفاروقى إن صح مانسب اليه ، هو ابن تربتهم . فاكتفيت بمقاطعته فقط وعرّفته إني عرفت ، وأسفت على ما قدمت له من الخدم ، واحتسبت عملي في خدمة أمي ، ورجائي أن أكون خطئاً في حكمي عليه .

ووقع لي مرات أن وقعت في مثل هذه المآزر ، فكنت أخلص القصد ثم يلتوي عليّ الامر بالتواء من وضعت نقبي به ، فأخاصم حتى من بأيديهم اضراري ويعطيل عملي . طعن بي أحد الكتاب المصريين مرة لاتي مالقطوعت كما لطوع غيري فقلت إنه اشعر من شوقي وحافظ ، وما جعلت من مجلة المجتمع العلمي بوفاً لشعره ، قال : إني ماشتغلت مع انسان إلا اختلفت معه في الآخر ، وكان هذا الطمن سجيحاً من بعض الوجوه ومن لي بأن يصنفي الطاععون فينظرؤا في وجه اختلافي مع من الصلت به هل كان لأجل حظ نقبي أم المصلحة العامة ، وأظن أن في تمجيبي لم تنجيئت شيئاً من النطق أكثر مما في دعوى خصومي . وهذا الفاروقى هل من سبيل معه الى ألا تختلف في الآخر ؟ أنا مع هذه الطبقة خادم أمين ماداموا على الحق ، فإذا الصبح لي أنهم حادوا عنه فكيف تود أن أحاسنهم ولا نتنازع . ؟

## في المزاجتين

من أجل الذكريات ذِكريات الصبا وما فيه من مغامرات ، وما يخللها من توفيق وخيالية ؛ قد لا يصيب المرء مثلها ، ولا يجرؤ على اقتحام أخطارها إذا طعن في السن ، «والذِّكريات صدى السنين الحاكي» ، وهي مما يحرّس على تدوينه لما تحمل من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيعي مرتين ، من وجه من أراد بي السوء من عمال الثنائين قبل أكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيها أرى من طرافة وتفكيره . ولكتة ما انجزت ، ووقفت في هزاعي كلها ، فأبانت عن مهارة في الهزاعة دعاني بعض الظرفاه «هزيعة» وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله) أن أوّس في القاهرة مدرسة أعلم فيها كيف ينهرم الخائف الذي يترقب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الأزهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلني كنت أجيب الطلب لو طال ذات الحكم في قطرينا أكثر مما طال .

أقام والي سوريا دعوى على جريديتي واحتال لاقفال الجريدة واغلاق المجلة والمطبعة قبل صدور الحكم علينا ، وبثت إلى مرجحه الأعلى في الاستانة يستاذن في المواقفة على مقتراحاته ، فوافقه بلسان البرق على إلقاء القبض عليَّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محله القبصيري كان لاحدهما الصال بادارة البرق ، عرقا بالامر فطلبا إليَّ أن ألبس ثيابي وأسير معهما ، فان الشرطة تأتي بعد حين إلى داري لتفتشها وتقبض عليَّ ، وكان الأمر كما قدّرا ، وسرت ممهما وأنا لا أعرفهما وغاية ما عرف أخني أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروعة من الشبان ، فبت ليلي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام أكرم أهل الدار متواي

فيها انتقلت إلى حي السوقة ، وأوتيت إلى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي يطربني بصوته الرخيم وإنشاده البديع ، ثم عدت إلى داري وأعددت معدات الرحيل ، وقلت : مادمت مضطراً إلى الاختفاء في البيوت ربنا ينظر في دعوائي ، وقد يطول النظر فيها عمداً ، فالاولى أن أصرف هذا الوقت في أوربا ، وكنت منذ سنين أريد الرحيل إليها للدرس والبحث فتعوق العوائق .

وفي ليل الثلاثاء من شهر رمضان سنة ١٣٢٧ هـ ركبتُ من دمشق يرافقني صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً زَلَّاً يعرف الطرق والمسالك . ومن قرية القابون سرنا قبيل العجر ، ومنها إلى قرى برْزَه فعبر بها فبسيمة فدير مُقرن فكفار الزبت فدير قانون فكفار المواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليتنا الأولى . ومن الند قصدنا إلى سوق وادي بردى فعيتا الفخار فكمادِ اللوز فجُبْ جيدين فلا لا فيملول ، وفي هذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المدايع ، وأنجذنا قاصدين جزين في جنوب لبنان . وعاد صاحبي إلى البلد وسرت وحدي إلى تاير فمطاوطور فالمختارة فدير القمر وبَتْ فيها ، ووصلت إلى الباروك ماريا بيت الدين وكفرنبرخ . وبَتْ ليتنا في الباروك ومنها سرت إلى عين زحلانا فبت فيها ، ومنها إلى حمَّانا فقرن نابل فصلبا وبَتْ فيها ثلاثة ليال ، ومنها إلى بحْدَس فكْفَيَا فبيت شباب ، وقضيت في هذه القرية الكبيرة فيها اذكر ثلاثة ليال ثم قصدت إلى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة أيام واحتلت المقام في هذه القرية لا تكون على مقربة من القرية بلد الاستاذ أمين الريحاني اقفي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت إلى بيروت في دار صديقي السيد احمد إلais ربنا تيسر لي بعد الغروب التزول إلى باخرة نمساوية قبيل إقلاعها بقليل .

كان رآني في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليَّ جرأتي في رحلتي ، وقال لي إن الوالي يفتح عليك ، وكان

الوالى عدوى نقل من دمشق إلى بيروت ، فالاولى أن ترحل إلى مصر برأ . فقلت له هذا متذر الآن فقال : إذا تأوى إلى القرى ، وتنجذب من بيوت العجائز مسکناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع إلى الرجال ، وعلى هذا أردت التزول في عين زحلتا في دار عجوز ، ولما وقفت عينها على بكت ، فسألتها ما يبكيك يا أماه ؟ قالت : كان لي ولد في أميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته ، ثم سألتني عن ديني قلت لها بريستان ، ففرحت ، وقالت : وأنا بريستان وهذه التوراة ، وأشارت إلى المنضدة ، والقس يسهر عندنا . فلما سمعت باسم القس خفت أن يجيء تلك الليلة وتبكتشف له حقيقتي .

وكنت قد قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذهني شبه البريستانتية على الكلمة ، حتى لا أستطيع أن أنكلم ساعة في البريستانتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فإنه إذا كان ذكراً يتجلّى له أمري بعده قليل . فلما قالت المرأة إن القس يحيطها من الليل ، ادعى أن غرفتها لم لعجبني ، وأكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت إلى أسفل القرية فنزلت في الفندق . وكنت صدّمت إسمها أردت أن اسمى به ذلك اليوم ، وهو اسم أحد أصحابي المسيحيين بدمشق ( خليل العبي ) فلما رأني صاحب الفندق وعرف أنه دمشقي قال لي : إن خليل العبي شريك في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على أنه لم استمر اسمه ، وسألتني عن اسمه فاخترت له اسم آخر من أسماء النصارى ، وأظنه أغفاني من السؤال عن مذهبني .

وفي لبنان لا بد لك أن تبح ثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وذهبك وذهبك ، امور كانت العرب تحرص على كتمانها . والبناني لتدبره يحاول أن يعرفك بما تدين ، ليزيد انسه بك وتبسطه معك إذا كنت على مذهب ، ويريد أن يعرفك إذا كنت ( مقرضاً ) أم لا ، فإن معاملة الموسر تختلف عن معاملة المستر ، ويوجد أن يطلع على مقدار مقامك عنده ليكون على

بصيرة من أمره . وأنا في تلك الحال لا استطيع أن أقول إلا اني برئستاني ، والحكومة لطاردي ، والوالى غائب على ، والانظار ترقى . وقد جازت برئاستي على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته ، واتفق ان ابعت من الطريق عدة كتب من كتب البرئاست ، فتحت الجلة على الخوري والخورية عشرة أيام . وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرئاست وانا اقصد بالقراءة الا اطبل الحديث منه ، وهو يسألني لماذا يقرأ البرئاست كثيرا ، فأجيئه لأن رؤسائنا يوصوننا بذلك . واماً لما تحيلت له كت اطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من نيتى ان أشرب منها ، فاذا انصرفت عنى أخذت قدحين وصبتها في الحديقة ، لا وهمها اني تناولت من عرقها .

ودعوى البرئاستية ما نفتي في « بيت شباب » ذلك ان صديقي أمين الرحابي قال لي انه زار حبيس مار بطرس قرب بيت شباب ، وهو يليس المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وانه كتب فيه مقالة بالإنكليزية فقلت له : وانا اريد ان ازوره واكتب فيه مقالة بالعربية . فقال لي : وانت في اي حال الآن ؟ فقلت له : لا بد من زيارته . ومن الفد استصحبت ولدآ من ابناء القرية يدلني على قلبة الحبس ، فما إن حيته حتى وجه إلى السؤال عن مذهبى . فقلت له : برئاست ، نصائح : انت هالك ، انت هالك ، وهل انت الذي صبأت عن دينك الاصلى ؟ قلت له : بجدي . قال : وهل لك راتب من البرئاست ؟ قلت لا ، قال العرف القراءة ؟ قلت : قليلاً . قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثروس ما قال بالبرئاستية إلا ليتزوج ، إلى غير ذلك مما أفضى فيه . واظن معلوماته عن النصرانية لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته . وكان الحبس أكرمي بمحنة من التين المجفف فاخذت أناول منه ، والنلام الذي برافقني يحمدوني بنظره ، والغالب أنهم لا يتناولون منحة القس امامه ويحملونها لابرك فقط ، كما بتبارك حاجاج المسلمين بعام زمز .

وبدا المطر ينهر ، فلا والله ماخلت من عظامه ، وتكفريه لي ، وتخويق  
عاقبة أمري ، إلا بانقطاعها ، وهرولت أنا ودليلى ، وقد اعطبت الحبيس  
شبه وعد أن أعود إلى قراءة الكتاب ، وارجع إلى حجر الكنيسة .  
وسراً دليلى بما سمع من وعظ الحبيس لي . وقال لي أن انتصح بقوله حق  
انجو من العذاب يوم الدّيْنونَة . ثم قال : ( يامعلمي ، شفت هذا الحبيس ؟  
كان قبل أن يقطع في صومته يقف ساعة أمام المرأة يصف شعره  
وأبرطله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمّه فابت انت تزوج  
به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه امله ، دخل في الرهبة ، فقتل  
له : هذا قد يقع فيعشق المرأة وينحب أمله في عشقه فلا يوجد غير الرهبة  
والانقطاع إلى الله عزاء له وسلوى عما شغل قلبه مدة ) .

---

صادفت في الباحرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي  
سماذ بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس  
تحرير جريدة « طنين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد  
والترقي ومن أكبر كتاب الترك ، ومه صديقه صلاح الدين ججوز بك  
صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح  
سماذ لتمكنه من الهرب ، وسرته نجاتي من الوالي ، وكان من انسانه  
الا انه مشهور بكراهته له ، وأحاب أن يفيظه فقال لي سأكتب اليه :  
كيف تدعى أنك كنت ناظراً للضبطية ( مدير الامن العام ) مثل السلطان  
عبد الحميد ، وهذا عدوك يمر من تحت لحيتك في بيروت ولا تدرى به  
فأين معرفتك ويقطنك ؟ فرجوته ان يرجي هذا المزاح والتشفي من نسيه  
على حسابي إلى ما بعد اقلاع السفينة من بناء يافا ، حتى لا يكون للوالى  
ولا للدولة العثمانية بجندها وحرابها سلطان علىَ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باربز أثراً حتى برت ساحق ، ورجعت إلى بلدي عن طريق الاستئمة . وكان الداعي إلى الرحلة شرّاً فاتح خيراً كثيراً .

أما المزعجة الثانية فكانت ألم من الأولى لتشبيهاً ، وطول الطريق التي سلكتها برّاً ولاّني كنت فيها كل ساعة معرضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي إلى جميع المخافر والشكّات والرافع في سوريا لا عرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض علىَ حالاً . ونوعت الأساليب حتى أعني أعني وينفع على الوالي أمري ، وأفنته بأنني خرجت من ولايته فما افتعل ، حتى ان أحد خلاني أناي بورقة من أوراق الرسائل وبخلاف مطبوع عليها شمار البوادر الفرنسية (الميساجري ماربتيم) وكانت كتاباً بالريشة الدقيقة يشعر باني كتبته على ظهر البالغة ، ووضع في البريد من بيروت باسم أخي عسام بنفس خناقه قليلاً ويكتف الطلب عن ، فلما أُتي إلى الوالي تأمله فقال : الخط خططي ، والورقة المطبوعة ورقة البالغة ، لكنني ما برأحت دمشق . وبهذا فقط أثبتت أنه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلته إلى المدينة المنورة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعواني الملفقة استغاثي بنفسي ، والراحة من نقد صحيفي ، ولو أيام قليلة ، وكان الوالي في هذه المرّة أشد نقاوة علىَ من المرات السالفة ، وذلك لاعتراضه بالاتحاديين ، وكانوا أنوا به إلى سوريا مرة أخرى ليعارضهم في انتخاب أعضاء مجلس النواب ، فنفذ لهم ما أرادوا ، وهو ما كان من حزبهم ولن يكون ، ورأى أن الفرصة سانحة للقضاء علىَ آخر الدهر . ولما فررت أشعاع في جماعة الجنود والدرك أن كلَّ من باني بي إليه جيأ أو مينا يرقى من جندي عادي إلى رتبة « بوزباشي » ، مباشرة ، عدا ما بعطاهم من مكافأة تقديرية .

كنت فادماً بعد العصر إلى إدارة الجريدة ، فرأيت سرية من الجند

تحيط بها ، فعمزني أحد الشبان أن أرجع ، و كنت على بعض خطوات من الباب فرجت وتبيني فقال لي : إن أخاك قبضوا عليه الساعة وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت إلى داري وقفت في قلبي أن القوة المسلحة لا تثبت ان ثانية للقبض عليَّ . وكان الأمر كما حبت ، فخرجت من داري ساراً على قدمي بين الحدايق لا ألوى على شيء ، ومهى السيد حكمة العسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر زيد الحائل ييفي وبين الجبل ، وكان الوقت ربما ، والنهار طافحة بالمياه ، فطلبت إلى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فشي إل بجاز يعرفه ، وما كان أكثر لمجيئه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأأسندت على شاطئي النهر ، كأنها جسر وضع لا يعبر عليه ، وسرت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت إلى درر أقصد بيت صديقي الامير عمر الحسني ، وكان حانقاً عليَّ لأنني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تعرضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعاوة الجمعية الحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بابعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسيق القوامان بها إلى الاستانة المحاكمة وبعد جهد جيد كتبت لها النجا من القتل .

قصدت دار الامير عمر لأنَّه افرنزي التبعية ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخفاني ثلاثة أيام في دار بعيدة . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن أخي الامير عمر من وراء جبال درر بلقنا المزة . وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عنِّي في قرية المزة هذه ، وكبست في صالحية دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم نقف في المزة بل اجتنزا ارضها فقط ومنها سرنا إلى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد عحي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده أياماً على غایة من المساء والطائفة ، حتى ابتعَّ لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلق

كالمطف والباهة ، وهذه أول مرة ابست فيها ثياب غيري ، ولا سيا مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكون موبوءة ، وذلك لينطلي أمري على من براني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وششت هندسي حتى أشتبت صوري بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني أحد أصدقائي عبد القادر آغا سكر من أعيان حي الميدان وأبطال الرجال يريد أن يصحبني إلى مصر فظننته هازلاً فإذا هو يجد ، ورجع بعد أيام يركب حصانه ، وقد ابنت حصاناً بمحلني ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحديدة بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطئتها قال الوالي : الآن يفتر صاحب المقبس مقتناً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت على محطات السكك الحديدية كلها ، وفانه أن للدمشق عشرات من المنافذ وأن من اتهم تهمت لا يهرب من طريق السكك الحديدية مادامت الأرض واسعة . وسرنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديق الامير محمد أجبل ذكري ، وقد كتم وجودي في بيته حتى عن أهله وأنسائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من العثمانيين بدلائهم على خشي .

---

سلكنا سبيلاً مموجاً في أول مرحلة رحلناها من حوشن بلاس ، فاجتازنا أرض المزة وبلاس والأشريفية وصحتانيا والدرخيبة والطيبة وشة حب من قرى وادي المجم فدبر المدس فالحارثة من إقليم الجيدور حتى النقرة من إقليم الجولان ، واتهينا عصر اليوم التالي إلى نهر الرقاد ، ولم نهوم في الطريق إلا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من أن يعرف أصحاب الحكومة بالأمر فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل ، والقمر ليلة البدر ، بضمة انفار من الدرك فوقنا عليهم وشربنا ماء ، وكلهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا أنا مغاربة ( وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطهم هناك ، فقالوا : إن صاحب المقبس سيمر من هذه الأرجاء وقد أمرتا الولاية بالقبض عليه ! )

والمُرْفَق صاحبِي عبد القادر آغا في الجولات إلى رجلٍ نجدي اسمه عبد العزيز الحبيسي يقود إلى مصر مع ستة من الرعاة سبعة وسبعين جلاً، هي ملك أحد أصدقائي الحاج ياسين دياب من تجارة دمشق . فذكر عبد القادر آغا للمحبيسي مأْوَاقع لي ، وما يتوقع من شرٍ يصيفني إذا سقطت في يد أحد رجال الحكومة ، وأنه رافقني حتى يبلغني مأمني ، فقال انه سمع بقصتي . وما قال له صديقي أنك إذا أخذته تحسن لا يُهُل دمشق ، وهو يحمل دراج يعطيك بقدر ما تُنْجِب . فأجابه : تقول لي إنك تحسن لا يُهُل دمشق إذا نجا بروحه ، وتعرض علىَّ ان آخذ منه أجرة ، وممّا كان العربي يأخذ أجراً على المعرف .

وعاد صاحبِي عبد القادر آغا سكر ، وسرت على بركة الله مع جمال النجديين ، فقططنا سهل الجولان وبتنا تلك الليلة دون عقبة فيق . واقترب مني ساعة نزولي فارس من خفراء شركة الدخان ، يجادلني ويتعجب إليَّ ، فازعجني بكلامه ، ولاحظ اني متعب كثيراً فقال لي : مالك وللجهال تضر بها - ورُءَاة الجمال يوهون من نصادف اني انا صاحبها - لو فتحت لك دكاناً في سوق باب البريد بذلك لعشت في نعيم ؛ وخلصت من هذا الشقاء ، ومن قطع الصحاري والبراري ، فتماءبت وتساومت . فقال لرفافي « إنه كعبان المسكين » ، وتركني وانصرف .

ومن الفد هبطنا المقبة فأشرفتنا على اراضي غور بيسان وبحيرة طبرية ونهر الأردن (الشريعة) فاجترنا الجسر القديم المتداعي سباحةً على الدواب ؛ ثم توقلنا الجبل إلى موقع الدلايكة ؛ وهو بين جبلين منفرجين متآزجين ، وبتنا ليلتنا في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة . وفي اليوم الرابع دخلنا في غابة عظيمة من شجر الباطم نحو ساعتين ؛ فبلغنا قرية دبورية ؛ وفي منقطع ارض هذه الدسكرة ينتديه مرج ابن عامر ( سهل يزرائيل ) فقططناه عرضاً في اربع ساعات حتى بلغنا قرية البحون ؛ ومنها إلى وادي عارة ؛ وطوله ثلاثة ساعات ؛ وهو ضيق متوازي الاصلاع . وبتنا

الليلة الخامسة في عيون الامساور على ساعتين من قيارة؛ واجترنا في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاون وفلنسوة والطيرة ومسكـة ، فبلغنا نهر الموجاه على ساعة ونصف من يافا .

وحدثني من أثق به بعد مدة ؛ أن جماعة من أعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها منتفع ؛ استصرخوا أهل قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وأشاروا إليهم إذا رأوني أن يحملوني إلى مكان بعيد ، وبعدوني عن أنظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان أهل القرية من القرى المستعرخة يتذدون أناساً من شجعانهم وأنصار المرؤات منهم ، يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمن وباتوا يترصدون الماء والماء أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أني بلغت مصر . وهذه مرودة عربية استرق بها النابسيون قلبي مادمت حياً .

وفي اليوم السابع اجترنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدى بربرة ، بير هديد ؛ غزة . ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة . وقضينا الليل في دير البلح . وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاثة ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رفح أول حدود مصر والشام . وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الإسماعيلية : ها أنتا . وكنا نسير في هذه الجفاف على مقربة من البحر لأنبعد عنه كثيراً ، والرمال لا يتبدل شكلها .

ذكرت هذه المراحل لأنني قطعتها على راحلتي وما كنت لا قطعها لو خبرت . وقد استفدت من هذه الرحلة فوائد جغرافية وطوبوغرافية . وما كان يومئذ خط حددي يصل بين آسيا وأفريقيـة أو بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق معبدة تسلكـها السيارات . وقصدت بتقديمي هذا لجبل ظاهرـة غربية ، أو بدمع قديم بطلـ ، وذكرـ أيام قضيتها في عالم الـابـاعـر فاستحلبتـها وهي ثـمرة .

قلت في عاصرة أقيمتها في الأسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق ادن بالاس ، اجابة لقترح جماعة من السورين ، بعد أن عدلت مأوائهن لي منذ خرجت من بلدي إلى أن دخلت الإسماعيلية ، وألمت بتاريخ ذلك الطريق الذي كان من أعمق الطرق منذ كان الإسلام : وكان رحلتي في الشهر الماضي إلى الحجاز وجنوب الشام وزنوبي على أهل الباذة من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صفحة واحدة ، وقدان الملمسة والشوكه والسكين والفوطه والكأس ، والأكل من طعامهم *ئون* العراق وجرباش الحنطة والتمر والخبز الممول بالمللة أو على الساج *يسجر* بعر الاباعر ، والرمال تسفو فتدخل كل ما يحمل هناك من خبز وأدم ، وكل مطبوخ ومعجون .

ولقد حلو لي الماء في قربة فما هي إلا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة أيام أنسى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس إلى مياه الجفار البشمة المبوعة ، وهي بعض ماء البحر ووقتها الرمال قليلاً . وأذكر ان « خويي » المخسي ناداني مررة ، وجالنا مسرعة في طريقها ، وحادثها يحدو لها بصوت يذكر بنجد وأهل نجد ، فالتحقت به مسرعة ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسقى فأتوه بدُّكرة شرب منها وأعطاني فإذا بها لبن رائب ثم ارادني ان اشرب واشرب ، واردت ان اعطيهم شيئاً فأشار إليَّ الا افضل . وكنت امني شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنيهاناً وانا غير مقبول . وكنا مررة زولاً على بشر أشيٌ على عهد الخديوي عباس الثاني ، وعليه كتب اسمه ، فنانى وليد بعطف من الطاطم ( البندوره ) الصغيرة فأحببت أن أعطيه ريالاً فصرخ خويي « بشلك ، ثم قال لي : اذا توسلت في اكرام البدو هذا التوسع تضر بنا فنحن لازال نجتاز بهم طول السنة فإذا تعودوا الكثير نضطر أن نعطي كل مرة كما أعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال مهم .

و كنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفع آخر الحدود المئانية المصرية  
فلاً جدًا ، و قضيت ليلي وأنا في هواجس أدر و أقدر . و سرت قبيل  
الفجر أمام قطار الجمال وأنا أقول في نفسي : الآن فصل الخطاب فلما أن  
أنجو وأدخل أرض مصر ممتعًا بالنعم بعد هذا الشقاء ، أو أعود أدرجى  
وأنا في قبضة الترك إلى مطريق من مطابقهم ، ألقى ما ألقى من معاملتهم  
الجاورة . وبعد خمس ساعات سألت الحيسني متى تبلغ رفع فقال : قطعناها  
منذ كذا ساعة ودفتنا عنك لاجندي من عن علة دخان لا اعترضنا قائلًا إن  
إخراج الخيل من الأرض المئانية منوع ، فأفنتناه بأن هذا حسان راعي  
الجمال الذي رأه . فأخذ « البشكك » وهي قطمة تساوي قرشين ، ولم يمسنا  
بسوء ولم يتحقق من أمرنا غير ما رأى .

و سعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من  
عيش اهل جزيرة العرب ، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعايتها ، وكلهم  
نجديون لا يعرفون الفضول ، وما رأيت أحداً سأله خويي عبد العزيز عني  
بالإشارة ولا بالعبارة ، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون إلينا ونختلف  
إليهم وشرب القهوة معًا ، وحدئهم في البعير وسوقه ورعايته وعنه ورواجه  
وكسراته . ولم اسمع في اربعة عشر يوماً بلياليها كة هجر وبداء ،  
ولا تجدينا ولا لمعنا ، ولا نسمية ولا غيبة ولا كذباً ولا منكرًا . وكان أولئك  
الأعراب مواطنين على صهواتهم ، يتيمون بالرمل إذا اعوزهم الماء  
ولا يسرفون فيه إذا وجد . وأنست بالجهنم وفيها كثير من الفصح ولها  
رنة لطريك .

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاثة ليال في  
أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم ، وأخرى في بير  
البيطار على محمد ابي الفرج شيخ بنى عطا وهذا المزارع على مقربة من  
ولادي موسى ، وبت ليلة في الزيزاء (الزيزدة) عند صديقي فواز بن سطام  
شيخ مشايخ بنى صخر فرأيت العيش المدوي على اختلاف درجاته ؛ وكان

العيش في البلدين اللتين قضيَّهما في بلاد الشراة « ديمقراطياً » وفي ارض البلقاء « ارستقراطياً »، نعا هنا على فرش الحرير محسنة بريش النعام ، وشربنا في الصبح لبن النيلاق .

سألني أحد الأعراب أى العيش افضل لنا نحن البدو : الحضارة أم البداءة ؟ فقلت له : ابقوا على بدوتكم واقتربوا من المدينة ما سمحت لكم حالتكم ولما يأكلكم أن لفظوا عن تعليم أولادكم . وإنني أخاف إذا عاشتم الحضر فأكثركم من عشرتهم ان يختلط عليكم أمركم وتخربوا عن فطرتكم وأخلاقكم إلى ما تثن منه حضارتنا من النفاق والكذب والتزوير والخدامة . ولو لا الغارات المتواترة عندكم لآمنت أن اعيش في هذه الديارات بين البوادي ولو أشهراً في السنة .

زرت في تلك الرحلة عمان والصلت والكرك ومادبا ومؤتة ، وبخت معان فقصدت إلى عاملها صاحبي القديم حليم بك أبو شعر وطلبت منه ان يصحبني بذركي لزيارة وادي موسى فنادي در كينا واسر إلبه شيئاً في اذنه ، واظنه قال له أن يتبعه لحديثي مع البدو وان يحييه بخبري كله . وشكّرت له لأنّه لم يقل له جئني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور إلى قلوب الانحداريين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجه في ذاك الأسبوع . وانهى بنا السيد قبيل الغروب إلى عين ماء عذبة على خمس ساعات من معان فقلت للدركي : تتشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل يمكن هذا وبعد ساعة نصیر إلى قبيل العرب فيذبحون لنا ؟ فأقتنطه بأن نأكل من زادنا لأنّي لا اريد ان اشق على القراء هنزل واكلنا .

وفي العشاء كنا تزولاً على العربان فما ان ترجلنا حتى سمعت صوت « المهاجر » لعمل القهوة واصواتاً أخرى تنبئ بأن الخروف يذبح . فقلت للدركي : قل لهم انا تعشينا : فقال : هذا الكلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين زارهم من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرابيك ( بسييك ) فلنتم ينتظرون قدوم المضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا

شاعتين فخرج الخروف في قصمة صغيرة وحملت تحته رفاق من الخبز لابت بالمرق والابن الرائب فأصبنا منه قليلاً إرضاء لهم ، وكنا نزام . والقرب من القصمة يتبعض للبعيد عنها ، فتسافر قطع اللحم من فوق رؤوسنا وتنادى العظام أيدي البدو فأنعمهم وهم يعرقوها بأسنانهم كما يعرق الكلاب العظام . وخمنت من تناولوا من الخروف تلك الماشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجدهم ليأتوا على الطوى . ولو قدرت أنا سترل على مثل هؤلاء الأعراب يكرمونا هذا الأكرام على فقرم تحملت اليهم من معان على الأقل بعض الشياط أكسو بها بعض أبنائهم وبناتهم لأنهم كانوا أشبه بعراء .

وأعظم ماماً نسي سروراً في رحلتي إلى المدينة المنورة أن رأيت العرمان بدأ يسري ، بفضل السكة الحجازية ، إلى بعض المحطات ، وأخذت المدينة تدخل في تلك القفار ، ويجري الانتفاع بآبار المخزونة في بعض الأودية في أرواء الأرض ، فأنشئت الحقول والحدائق بمد بلدة معان ، وببدأ الأعراب هناك يتذوقون طعم السكني ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظلَّ استئثار الخطب إلى اليوم لرأيت قريَّة قامت على جانبي هذا الطريق الطويل ، وصار للبادية ما تبلغ به وتميش ، ولقامت بعد الديار الشامية حتى مدينة الرسول « هجرات » على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل سعود فأشغى أهلها عن الفارة ، وعلمتهم الحرف والكرف ، وحببت إليهم عيش المدار بعد عيش الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أن جميع الناصرة الإسلامية تدخل بخشوع وأدب لا يكونان في أبناء العرب ، فإن هؤلاء يغضبون ويأخذون حربتهم ، ويلقون بنعاملهم كيف اتفق ، مما لا يصدر منه من الهند والأفغان والجاوبيين والإيرانيين والقوقازيين والسودانيين والاتراك ، كأن أبناء العرب يرون أن صاحب هذا القبر الشريف هو بعض أبناء عمهم أو أحد إخوتهم ترتفع بينهما الكلفة ، على ما هو الحال بين أبناء أسرة واحدة .

ولائي وقد ألمت بك بما قصصت عليك ، وأنت هل تعيت بقطع هذه المسافات  
أفي فطمنها راكباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك إن ربك يبتلي عباده ويعينهم.  
كنت إذا ركبت دابتي إلى قربتي ثلاثة أربع ساعة أضطجع إذا نزلت عنها  
ساعة أو ساعتين الاستجمام ، ولم تتفق أقل مرحلة فطمنها هذه المرة عن  
اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثانية عشرة ساعة في اليوم ، وسرنا  
في اليوم الأول أربعاً وعشرين ساعة متتابعة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر  
المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد نكتفي بنوم ثلات ساعات  
تنشط عقبها للركوب كأننا نفينا ثمانى ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن  
نومنا كان بالمرأه على الأرض بيدين عن القاذورات والرطوبات . و كنت  
أنشط اليوم بعد اليوم وألف هذا المشي لا أثبرم به كثيراً ، وهو جديده  
بالنسبة لابن المدن والرفاية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الأخير من هزاعتي مدينة القاهرة قصدت إلى  
مقهى « اسبلنديبار » توأم ولم أكن أحمل معي شيئاً إلا ما على من ثياب  
وسيخة . فكان كلما جاء واحد من أصحابي الصحافيين يعمى عليه أمري ، حتى  
أتكلم وأضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصربيج ، وتجمع على منهم  
بعد ساعتين عشرات شفينا النصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ،  
والطليان يتظرون علينا شزراماً ، وكان مقهام وراء مقهانا ، ولعلهم ظنوا  
بعض أولئك الأعراب الفارين من ليبيه ، وكانت الحرب يومئذ على ساق  
وقدم بينهم وبين العثمانيين . وأخذني حتى بك العظم وصورني بذلك المندام  
العجب ، وساقني رفيق بك العظم أمامه إلى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ،  
 فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساخة . ومن الند  
خلمت حلقي ، وحلقت لحيقي ، وعدت إلى قيافي . وعندها بدأ التعب بدب  
في جسي ، ولم ترجع إلى قراري إلا بعد نحو أسبوعين ، حمدت الله على  
السلامة ، وأنشدت مع من أنسد « أنت يا مصر ملجاً الأحرار » .

# شبك نجوت منه ونجوت به

زارني في داري قبل الحرب العالمية بنحو سنتين أحد موظفي خارجية فرنسا (ج . ب) ، وكان أوصاني به قنصل دولته في دمشق ، فرأى على مكتبي جريدة (الطان) ففتح الكلام بأن قال : إن أهل الشرق الادنى يتهمون أن هذه الصحفة هي لسان حال خارجيتنا ، والصحيح أنها لسان حال نفسها لا تنطق بلسان الحكومة ، ولا هي من الصحف الرسمية . ثم قال إن جريدة المقتبس إذا خدمت سياستنا ، فلصاحبها أن يطلب ما يحب مقابل خدمته ، وقرب وبهد من هذا المعنى . فأجبته بلهف بما معناه : إنك تعرف ولا شك الاتحاديين ، جماعة حزب الاتحاد والترقي ، القابضين اليوم على زمام الدولة ، وتعرف أن الآتراك مثلنا من أهل الاسلام ، لا فرق بيننا وبينهم إلا هذه اللغة ، وتعرف أن جامعتنا بالآتراك لم تبدأ بفتح العثمانيين أرض العرب ، بل كانت علاقتنا بهم وشديدة منذ اتحلوا الاسلام أوائل الحكم العباسي ، وقد ساروا معنا في قتال الصليبيين جنبا إلى جنب ، وبهم وبالـ كراد دفعناكم عن بلادنا في القرون الوسطى . ولما بدا للاتحاديين أن يتركوا العناصر كان من رجال العرب أن حاربهم بكل ما عندهم من أسباب الكفاح . وذلك لأن العرب لا يريدون أن يتخلوا عن لغتهم وقوميتهم ، يعترفون بتاريخهم وينجذبون بحضارتهم . وأنتم كيف تمدوننا أن نسير معكم مع خالفتكم لنا في الجنس والمدنية واللغة والدين . وكيف نشابلكم وأتم تحاولون القضاء على لقتنا وقوميتنا في كل ارض حلتموها . بدأوا سياستكم في الجزائر وتونس ، والمسلمون طيبة قلوبهم يعترفون بجميل من يدي إليهم بدأ ، ونحن في الحال نزد صدى امتناعكم منكم ، بدون مقابل على ما تنشر ثم إني وأخوتي مكفيون مؤنة الرزق ، ولنا مزرعة في

النوطة زتفت بريها ، وأنا واثنين من إخوتي نعمل في الجريدة ، فاذا كانت الصحيفة مثلاً تكلف غيرنا في السنة ألف ليرة فتحن تتكلفنا خمسة وجريدة رائحة ولها قراء ، وتابع في جميع مدن سوريا ، ولها موارد جيدة من الاعلامات .

نعمل التأثر من هذا الجواب ، وأكده عليَّ قبول اقتراحه فقلت له : لا يسعنا إلا أن تكون مع العثمانيين . وجاءني بعد الحرب العالمية بأكثر من ست عشرة سنة يزورني في داري فلم يجدني . والنالب أنه اشتق إلى واراد أن يذكرني باجتماعنا السري على عهد العثمانيين ، وبما بدر على إنساني يومئذ ، والبلادة تتبع الأحوال ، وتبدل بتبدل الأزمان .

ومن كان يظن بأن ما جرى ييفي وبين الرجل قد حفظت صورة منه في دار الفنصل . ولصرفت الأقدار لصرفها ، ونشبت الحرب العلامة ، ووضمت الدولة يدها على الفنصليات ، وفتشت أوراقها ، وأهمها الإطلاع على أسماء من كان لهم من الأهالي صلة بها ، فخرج تقرير ذاك الرسول الذي كان قد صدر قبل الحرب ، وفيه تفصيل لما وقع لنا من حدث ، فدهشت الحكومة العثمانية من تصريحاتي هذه ، وكانتوا يتهمونني بالصالي بفرنسا تارة وبإنكلترا أخرى ، ويرمونني بخيانة الدولة على كل حال ! ثم خرجت لي أشباء في أوراق دور فنصال فرنسا في بيروت وحلب ، ومنها منشور عام من سفير فرنسا في الإستانة إلى فنصال دولته في الديار الشامية يقول فيه : إن كرد علي شخص لا يركن إليه ، وإن الحكومة التركية استرضته مؤخراً ، وبرأته من دعوى كانت أقيمت عليه ، وحذَّرْهم مني وقال : أني لا أسير إلا مع الآثارك .

وكان السبب في تزعزع الثقة مفي أنني أبنت عن رغبي لأحد أصحابي في باريز ، وهو المسيو لشاتليه صاحب مجلة العالم الإسلامي الفرنسية ، بزيارة المانيا في عودتي من فرنسا ( ١٩٠٩ ) فقال لي : إذا فعلت أخرجتك من صداقتي ، ولا أعرفك ولا تعرفني . وعجب من حال بعض السياسيين من

الفرسین ، يطلبون منا أن نوالى من يوالون ، وننادي من يعادون ، ونخن  
لا دخل لنا في سياساتهم المتبدلة .

ووقع الانحاديون في كتب ضبطوها من البريد على ما يؤيد أيضاً معلقى  
بالمهنيين ، وهو كتاب من رفيق بك المعلم إلى فرع حزب الاسم كزية  
في دمشق ، جواباً على كتاب رئيس الحزب خلاصته أنهم عرضوا على  
الدخول معهم فأبى ، وقلت لهم : إن الدولة تعم برنامج هذا الحزب  
خروجًا على سلطانها . فكان جواب رفيق بك : دعوه شأنه ، إنه يتعرض  
أبداً في الحرب ما زيد أن نعمره . ذكر لي ذلك ضيا بك ضيف جمال باشا  
الذى أشرت اليه في مكان آخر .

أدرك الآراك أنهم ضلوا كثيراً باتهامي زماناً بأمور أنا بريء منها ،  
وجاءتني اثبرة بطبعتها تمشي على قدميها ، ومضت أعوام وأنا أرمى بكل  
كبيرة ، وبتهموني بأنني عدو أزرق لدولتهم ، جرياً على العادة المتبعه في  
اتهام من يقصد اتهامه بأقصى التهم وأشدتها . وكنت أرى من الفضاعة  
عليه أن أبريء نفسي مما ينسب إليه ولم يخطر لي ارتكابه بحال . وما كان  
يتأنى لي ذلك ، ولو أتيتهم بآلف برهان على برائتي ما صدقوني ، لأن معظم  
الخلق ينصح من انانه ، والكذاب يعتقد ان كل انسان يكذب ، والسارق  
يعتقد ان كل امري يسرق . وكنت اكتفي بأن اقول إن كانوا يتهمونني  
بأن لي شلماً مع الانكليز او الفرسين فان من يشایع دولة لا بد ان تظهر  
على كلامه امارات التحذب لها ، وتبير موافقها في سياستها ، فهل يجد  
الاعداء بالترى في كل ما كتبت في جريديتي المقتبس وفي الصحف التي  
آثرت فيها في مصر كالمؤيد والظاهر واللواء والرائد المصري كلها واحدة  
لشعر بشيئي الدول صاحبة المطامع في الشرق . ولطالما انتقدت سياسة الدولتين  
اذا رأيت ما يتحقق لي نقهه .

وبعد فان هذه التقارير والشهادات كانت سبب نجاتي من القتل اثناء  
الحرب العامة . وكان اعدائي واوليائي يقولون اني سأكون اول المصلوبين

من ابناء العرب إذا وضع الميزان للحساب . وكانت الازاك يحرقون على  
الارض ، لكتلة ما تأذوا بما كتبوا . والحق أنني كنت انحني على القائمين  
بالامر ، كلاماً تقاضيهم بعض حقوق العرب المشروعة ، وهي مطالب لاتخرجهم  
من حظيرة الدولة وتزيد قلوبهم ارباطاً بها . وأكثر ما كنت اردد نفسي  
التعليم باللغة العربية في الابتدائي والثانوي ، وجعل المحاكمات بالعربية في  
الولايات العربية ، وانت يعرف المجال بأجمعهم اللغة العربية ، إلى غير ذلك من  
المطالب المعقولة ، وكان بعض الازاك يتأنرون من ساع هذه النسمة ، لثلاث سري  
بزعمهم إلى الأكراد والالبان والروم والارمن وغيرهم من المناصر المنهائية .  
بالغ الازاك في اضطهادي ، وانا صابر بلا يزيدني ما اتقى من اذام  
إلا ثباتاً على المطالبة بحقوق الامة . ولقد اغلقوا الجريدة مرات في عهد المستور  
والحرية ، بضرورب من التهم المضحكة لفقوها ، وآخر اغلاق كان لنσري  
مقالة عنوانها ( حجاب النسوان ) نقلت عن صحف الاستانة ، فصدر الامر  
باقفال الجريدة شهراً ، بدعي ان المقالة خـدشت الاذهان ! ثم رخصوا  
باعادة صدورها ، فاستنفت من معاودة نشرها واعلنت اني لا احب المودة  
إلى الصحافة لما اورثتني من متاعب ، وهنا عرض على قنصل فرنسا معاونته  
بواسطة صديقي جورج فاخوري اولاً ، ثم كلني شفاهما بنفسه ، فأيـت اخذ  
شيئاً منه ، وشكـرت له عاطفته الكريمة . وأخذ الجوايسـس يراقبونـي ،  
ويتبعونـي في غدوـي ورواحـي ، ويكتبـون اسـم كل من يزورـني في داري ،  
وازوـره في دارـه او مكتـبه . ودام ذلك اشهرـاً حتى اعلنـ النـفيرـ العام ،  
وعـزمـتـ الـدولـةـ الصـهـائـيـةـ عـلـىـ الدـخـولـ فـيـ الحـرـبـ إـلـىـ جـانـبـ دـوـلـ اـوـرـباـ الوـسـطـيـ .

— — —

## والى سوريه خلوصى بك

نصب والياً على سوريا خلوصى بك شيخ المندسين في الدولة العثمانية ، وهو رجل عظيم بأخلاقه وعلمه ، وكان يحب الشام ويمضي على أهله . نيل لي انه كان ربي فيه صغيراً ، وإنه يحسن التكلم باللسانية الدمشقية ، وأنا لم أكلمه بها . جاء في أول النفي العام قبل اعلان الحرب العالمية باشهر قليلة ، فزرته أول مرة في مكتبه ، فقابلني بسوس ونجف ، ثم قال لي : إن الوقت ضيق ، وأشار إليَّ أن أزوره بعد رمضان ، وكنا في أوله . وبعد أسبوع بعث بطلبني إليه بواسطة الشرطة فأتيته ، فقال لي : إن الحالة السياسية الحاضرة اقتضت أن يجعل الاجتماع بي ، وذكر لي أنه يحمل من الاستاذة اضمارة ما أنهم به ، وأن الحكومة تسب إلى مسئلين ؛ أحدهما أنني أعقد الآمال على استيلاء فرنسا على هذه الديار ، والثانية أن قنصلها في دمشق يزورني وأزوره . فلما سمعت قوله انتصب قائماً ، والنفiste آخذ مني ، ضربت ييدي على مكتبه بدون اختياري ، وقلت له بصوت عالٍ ، مما يخالف أصول الأدب مع الكبار : إني أرى بادولة الوالي ان وجودي أصبح عبئاً ثقيلاً على الحكومة العثمانية في هذه الإرجاء ، وأنا منذ مدة والجوايس يتابعوني حيث سرت ، وتنكتب كل يوم قائمة باسماء من يدخل بيتي أو أدخل بيته ، ويراقب برؤدي مراقبة مضحكه ، فهلا أمرتم بآخرجي من الملك كلها ، أو يجسسي في إحدى القلاع ، أو نفي إلى بلد بعيد ، انقطع فيه عن أيان ما مستقدونه ضاراً . أما آمالي مع فرنسا فان لم أكن اول من يعرف غواصي الاستعمار فأنا ولاشك احدهم خمسة على الاكثر يعرفون ما هنالك . وأما صداقتى لقنصليم فسبها انه رجل مستعرب يحسن العربية ، وكان اسمه المسمى اتفا ، وهو يستعير مني كتاباً ، وأنا أستعير منه الصحف

القتل ، فيرجعون من حيث أتوا . فقلت له : كان مولاي يعرف مافي قلبي ، والله لو علمت أن هذه الدعوة تجمع ما تأخرت عن الجهر بها لحقن دماء البشر ، وتقليل نصيبه من الشقاء .

قلت خلوصي بك ذات يوم إن قنصل ألمانيا يطلب مني أن أعود إلى إصدار جريدة المقبس ، ويلوح كثيراً للإسراع بذلك وكان صديقي نظيف ، بك الحالدي المهندس كانني سرّاً أن أصدرها وقال : إني إذا بقىت على امتاعي عن إصدارها ، يهد الاتحاديون ذلك نمرداً على الدولة ، وينبشوون دفاتري الصيحة ، وهم لا يتلذثون عن إيقاع شرّ بي ، والمهد قريب بما كتب فيه وفي حزبهم . وقلت للوالى : إني قلت للقنصل بالواسطة إني أحتاج إلى ألف ليرة عثمانية لاصدار الجريدة ، لأنني مدین بألف ، وأربد استخدام الآلف الأخرى في تغذيتها سنة او سنتين على الأقل ، فاستعظم القنصل هذا المبلغ ، وقال إن جريدة من جرائد الولايات لم تقبض قط اعانته عظيمة كهذه .

وقال لي الوالى مرة : إلام أقول لك أن تعود إلى إصدار جريدةتك وأنت تأبى ، وما أدرى وجهاً لابائك وعليك دين فمن يسدّ عنك دينك وأنت مدین بألف ليرة كما أخبرني شكري بك العسلي ، فقلت له توفيقها في فرنسا أو انكلترا أو إيطاليا فدهش الوالى لقولي إيطاليا وقال : صحيح إن لفرنسا وإنكلترا مطاعم هنا ولكن ما شأن إيطاليا في الإمر ؟ فقلت له : إني في السنة الماضية ( ١٩١٣ ) رحلت إلى إيطاليا لأبحث عن مواد تاريخية كانت بمجموعة في خزانة خاصة لاحد علماء الشرقيات الإيطاليين ، فكتبت صحفيكم الاتحادية ، إني قبضت من إيطاليا عشرة آلاف ليرة . وبينما كنت أبكي في رومية يوم افتتاح مجلس نوابها ، لانزعاع طرابلس وبرقة من الحكم العثماني ، وقد تعرضت حكومة إيطاليا لذكر ذلك ، وفاجرت به في أول جلسة من دورة مجلس النواب لاذفة لي ولا جل في لبيبة . فضحك الوالى حتى بدت ثيابه ، وضحكتنا ضحكتنا سمعه من كان ينتظر على الباب ليؤذن له على الوالى . ولما جاء الآذن يستاذن لاحدم سلامت وانصرفت .

## جمال باشا و المقتبس

بينما كانت المفاوضات جارية بشأن اصدار المقتبس ، وأنا اقدم رجلاً آخر أخرى ، وقنصل ألمانيا يلعن على الانتحاديين لاقناعي باصداره حالاً ، نصب قائدًا على الشام ناظر البحرية احمد جمال باشا . ولما خلا بالوالى خلوصي بك ذكر هذا له ما يقترحه القنصل بشأن إعادة المقتبس ، فسأل جمال باشا عني وقال : أليس هذا هو الذي كان يكتب فيما تلك الكتابات المرة ؟ فقال له : نعم هو بيمنه . فلما رأاه قد استغرب هذا الاقتراح قال له سأطلعك على ما ظهر له من اشياء ثبتت شدة تعلقه بعهديته ، وجاءه بالاوراق التي ظهر فيها ذكري في التنصيبات الفرنسية ، فدهش القائد لما رأى وقال : وعلى ذلك فالرجل قد ظلم ظلماً فاحشاً ، وعلى الدولة لا على ألمانيا أن تومن عليه خسائره الناشئة من اغلاق جريمه مرتين . وطلب الوالى إلى مقابلة القائد فذهب إليه وبحثنا في شؤون الجريدة . ودفع إلى في الحال كيساً فيه أربعمائة ليرة عثمانية ، وقال لي : بعد أيام سأتم ذلك المبلغ إلى ألف ليرة ، وأكراماً خاطري ، وبقى على لحيته ، أصدر الجريدة بأسرع ما يمكن ، فقلت له إن الجريدة مصدر بعد غدٍ بحسب أمرك فسر كل السرور .

وعادت الجريدة إلى الظهور ، وبقيت مدة لا أكتب فيها مقالات افتتاحية ، فلفت القائد جمال باشا المرسيني نظر القائد احمد جمال باشا إلى ذلك ، فسألني عن سبب امتناعي عن الكتابة ، فقلت له : كتبت فحذف المراقب ما كتبت غير مرة ، فقال : أكتب وأنا أراقب ما تكتب ، فكتبت مقالة قرأها مع الأمير شبيب أرسلان ، وأرسلها لنطبيع ، وأمر ألا يحذف شيء مما أكتب ، وأن يتخطى قلم المراقبة مقالاتي وقال إني أعرف كيف أدير القلم في خدمة الحكومة ، وقدر الحال الذي نحن فيه .

وبقيت على ذلك حتى صدرت جريدة (الشرق) جريدة الدعاية التركية الالمانية ، ووسمت إلى رياضة تحريرها ، وطلب مني القائد رفع اسمي من

جريدة المقبس ، لتروج الجريدة الجديدة فعملت ، وزركت الجريدة لأنني  
احمد يتولى تحريرها وحده .

وأخذ جمال باشا يحتقرني كثيراً ، وبعاز حني ونباسط ، ولكن لا بالصورة  
التي كان يعاملني بها الوالي خلوصي بك فع هذا كانت صدقة أكيدة ، وعين  
الحب ظاهرة فيه كل الظهور . سألفي القائد مرة مازحاً : مالك لا تكتب  
مقالات في العرب ، ومجده العرب ؟ وفضل لغة العرب ؟ كاً كنت تكتب قبل  
الحرب ، قلت له : الآن نحن في شغل شاغل عن ذلك ، وبعد الحرب نعود بمحول  
الله إلى ما كنا عليه ، فضحكت ضحك استهزاء ، ولسان حاله يقول : إن  
كنت الآن هذا لاصلبنيك . وسألني مرة كم عمرك ؟ قلت ثمان وثلاثون  
سنة . قال هذا كثير قلت له : يعني أني صرت كبشاً ثميناً ، وحان وقت  
ذبحي لأنكلوا لحمي ، فضحكت كثيراً .

سـ. وما زال جمال باشا يظهر لي كل عطف ، ويتحجب إلى ، ويقول في  
كلام المعجب بصاحبه . قال لي أحد ولاتهم ، ونحن نجتاز الجسر في الاستانة ،  
أواخر الحرب العامة ، وكان جمال باشا قد غادر الشام منذ مدة . قل لي  
ماذا كان منك جمال باشا حتى وقمت من نفسه هذا الموقع ؟ فأجبته إني لم آت  
شيئاً ، ومن أنا ، وهو ورجل عظيم ، حتى أؤثر فيه . فقال لي : ليس الأمر  
كذلك ، كنا منذ أيام تذاكر من يحسنون الأدب العربي ، والجلس غاص ،  
فذكرروا رجلاً يعرف هذا الأدب معرفة عظيمة ، فضحكت جمال باشا وقال :  
إن فلاناً لا يعرف واحداً من مئة مما يعرف كردي علي . قلت لصاحبى :  
هذا من حسن ظنه بي . وقال في القدس علينا وأنا أخطب أمامه على مائدة  
ضفت زمرة كبيرة من اعيان الديار الشامية : إني لا أفهم أحداً من  
بنطبون أمامي باللغة العربية في سوريا وفلسطين إلا كردي علي ، فاني افهم  
ما يقول ، ويكره أعصابي أيضاً . هكذا قل ديسـ. المولى أن عظمت في  
عينه ، وأنا اعرف بنفسي من جمال باشا . وكان من إعجابه أن استمنت  
براحة نسبية مدة الحرب العامة ، والناس يومئذ في بلاء وشقاء .

سأل صديقي الاستاذ كمال ملص صاحبه وصاحب الشيخ اسد الشقيري  
هل كان جمال باشا على شيء من الشهور الدينى فأجابه نعم كان على جانب  
بارز منه . وقصةٌ عليه قصةٌ لشمر بغيرته على المسلمين قال : أمر جمال  
باشا مرة أن يرسل من المنزل إلى دار مفتى بيروت الشيخ مصطفى نجاحا  
مقدار من الارزاق وبلغ من الورق المالي لاعداد ضيافة عظيمة في داره  
يدعو إليها أعيان بيروت على اختلاف طائفتهم . وحضر الباشا الدعوة وتزل  
صاحب البيت مع المدعوين لاستقباله في مدخل الدار ، فلما وقفت عين  
جمال باشا على المفتى قبَّل يده ، وأشار إليه بالصعود ثم أشار إلى الشيخ  
اسد الشقيري أن يلحق به ، ثم صعد هو ورءاهما ، حتى إذا جلس الجموع  
كان على يمين القائد الشيخ المفتى وعلى شيماله الشيخ الشقيري وعنده اتهام  
المأدبة عاد الباشا وقبَّل يد المفتى شاكراً له حفاوته . وركب الباشا مع  
الشقيري عائداً إلى منزله وقال له في الطريق : أني أعرف من هو مصطفى  
نجاح وما رفعت شأنه اليوم إلا لأرفع بذلك شأن المسلمين .  
ووْقِعَ لي ان ذكرت بجمال باشا أن خالد بن الوليد لما جاء دمشق فاتحها  
ركز المقابل رأية الرسول في رأس الثنية المعروفة بشنية المقابل (الثنايا)  
اليوم المطلة على الفوطة والمرج من الشهال ، وهي ذاك الجبل المترمِي الشكل  
الصعب المرتفق ، وحارب بني غسان في يوم فصحهم فكتب له النصر عليهم .  
وقلت له ان مما يحفظ هذه الذكرى المظيمة اقامه مسجد في قمة ذاك الجبل  
المالي فوعدي بذلك . ثم راجته مرة ثانية فأثنى على هذه الفكرة وقال  
انه لن ينساها ووعد بان يقوم بإنجازها على ما أريد بعد الحرب . ولحظت  
منه غيرة دينية وشعوراً إسلامياً في احاديثه الكثيرة منه ، ولكنه كان في  
السائل السياسية لا ينفر لاحمد زلة إذا حاد قيد أئمه عن قانون الوطنية العثمانية .  
وما اعده له في باب الغيرة الدينية ما اقرره على من أن أضع على

رأسي عمامة ليوسد إلى إفتاب دمشق فأنمك من ادخال الاصلاح على أهل  
السلوك العلمي ، فتبسمت في المرة الأولى لكلامه وقلبت الحديث إلى ما يشبه  
المزبل . فلما تكرر ذلك منه بعد حين قلت له : اظن مولاي يهزل في  
اقترافه هذا على<sup>هـ</sup> . فأقم انه يجد وانه يتوقع من ذلك خيراً للمسلمين  
لاعتقاده أن من الصعب أن يقوم بهذا من لم يقف الثقافة اللازمة . وقال  
إن معالجة المشايخ بعلم الاصلاح خدمة للإسلام والمسلمين . فشكرت له  
فضله وغيره ، وتنصلت واعتذررت من عمل قد لا يجلب علي<sup>هـ</sup> غير الضرر .



## المأوس السافل

سألت صديقي الدكتور عبد الرحمن شهيندر عن (خ . ز) ، وكان والده سكن الاناضول . سأله وقد آتى دمشق بعض السنين بهب المدارس الاهلية هبات جيدة فكان الجواب : إن الرجل مطعمون في آدابه ، يستعمل أشياء لا تليق بشريف . فحفظت هذه الترجمة ، وصرت كلاما ذكر اسمه في الجريدة أذكره بصورة عادية . وبينما كانت الدولة العثمانية في جناق قلمة في مركز حرج للغاية وذلك في الاشهر الاولى للحرب العامة جاءني الدكتور شهيندر يصحبه (ذاك الناجر) إلى قرية المزة حيث كنت ساكنا ، وقال لي : هل نسرع عند رضا باشا الركابي فراقتهم . فبدأ الدكتور بذلك ما يقاربه جيش الدولة في حرب جناق قلمة من الضربات ، وقال ان الواجب أن يفكروا أهل هذه الديار في مصيرهم ، كأن تؤسس جمعية سرية تتصل بالإنكلترا لاتفاق على خطة إلى غير ذلك .

فذكرت للجامعة ما لقينا من القوم عندما أنشأنا حزب الامتناف ، وأن هذه الأمة يصعب الاتكال عليها ، لأنها لم تربَ تربية سياسية تعرفها الصواب في قولها وعملها ، وقد جربناها غير مرّة فضاع ثمنها وجهدنا معها وقلت إن الحرب تقدم وتتأخر بما لا يحوال ، وما يدرينا أن تكون الغلبة غداً للدولة ، وأرى البحث في مصير الديار الشامية أكبر من عقولنا ، ونحن يسعنا ما يسع أهلها إذا نزل البلاء . فقال الدكتور متوكلا : وكيف إذا تدعى أنك تخدم العرب ؟ وأين حميتك ووطنيتك ؟ فقلت له : لم أصح شيئاً من هذا مع الأسف ، وإذا مت فاكتب على قبري : هذا خائن العرب ، وانظم قصيدة في هجوي ، وأنا لا أدخل ولن أدخل في مثل هذه المسائل . فقال البشا صاحب الدار : اذا كان فلان يمتنع عن الدخول فانا لا أدخل ، وافتلقنا متعاهدين على الكمان .

لحظت بعد حين ان جمال باشا أخذ يزيد في إكرامي وإكرام الركابي وأن عطفه على الدكتور يتفاصل ، ولم ادرك إلا بعد مدة أن ذاك الرجل المنحط - الذي لم آمنه على روحي ، وانشراكه في جمبة سرية ، لأنه لم يؤتمن على عرضه - كان له الصال عظيم بجمال باشا ، وأنه كان مقلقا فوق بيته وبين والي تلك الولاية العظيمة الفنية التي ينزلها ، وأشار كما لاستقلال النقليات على الطرق الحدودية ، وأعاد إليه الوالي بصنائع كان المعا عاد بفياها بأثمان باهظة ، وانشراكا في كل انواع التجارة ولا سيما المأكولات واعطى لشريكه معملاً عظيماً يستشره . وكان جمال باشا يندق على والده ذاك الجاسوس ، مقادير من الأرزاق من المتزل يعونها بها ، ولما مات خرج في جنازتها سرية من الجندي منكري الساحتهم . وهكذا استغل الجاسوس الوشاية بنا .

قال لي ذاك الجاسوس المنحوس ذات يوم ، وقد صادفه في المرج الاخضر في طريقي إلى داري : أرأيت هذا الشاب ؟ وأشار إلى أحد المارة ، وكان يلبس ألبسة من الجلد ، وهو شاكي السلاح . فقلت له : نعم قال : هذا ابن مرضعي ، ولي عليه سلطان عظيم ، لأنه ربى في دارنا ، فأنا إذا قلت له : اقتل جمال باشا بقتله بدون توقف . فجئت في الحال نفسه ، لا رأى إن كانت حرارته متضاعفة عن المعتاد . وقلت له : أمر يغض أن أم بمحنون ؟ ويحك ولماذا ، أسألك بالله ، تقبل أحمد جمال باشا ؟ قال : حتى يستقل العرب . وهذه فرصة لنا في هذه الحرب القائمة . فقلت له متى : قوله هذا من أسفف الآراء ، وهل تقتل رجلاً ملماً جاء ليدفع عن ديارنا أعداءها ؟ وينقذنا من براثنهم . وبالله لو بعثت الاستانة كافراً ، وجاءنا يقول إنني على أن أدفع عنكم عدوكم لقبينا يديه ورجليه ، نعم إن الدولة ياصاح إذا قتل جمال باشا لا تعلم عشرات مثله ، ترسلهم يختلفوا ، فيجعلون على ارضنا سافلها ، انتقاماً من أهلها لقتلهم رجل الدولة . فإنه عليك إذا بمرت من لسانك هذه البادرة الآن ، وما كنت أظنه تقدر منك ، فلا تقل لأحد

مثل هذا القول ، وأنا أعاهدك على كثيـر ما بسطت به لسانك . وهكذا اتـبـعـتـ شـرـهـ ، وـأـعـتـدـ أـنـهـ نـقـلـ كـلـامـيـ إـلـىـ جـمـالـ باـشاـ ، وـوـبـعـاـ كـانـ هوـ الـذـيـ وضعـ لهـ صـيـفـةـ استـدـراـجـيـ بـهـذـاـ اللـسـانـ . وـلـمـ دـخـلـ الـحـلـفـاءـ الـأـنـاضـولـ قـبـضـواـ عـلـىـ ذـاكـ الجـاسـوسـ ، وـزـجـوهـ فـيـ السـجـنـ أـشـهـرـاـ ، وـسـادـرـوـهـ فـيـ كـلـ مـاـ يـمـلـكـ ، فـاتـ بـعـدـ أـشـهـرـ قـلـيلـةـ بـجـرـدـاـ مـنـ كـلـ نـسـمةـ .

بـقـيـتـ تـحـكـ فيـ صـدـريـ حـالـةـ ذـاكـ الجـاسـوسـ أـرـبـعـاـ وـعـشـرـينـ سـنـةـ ، وـلـمـ أـرـ فـرـصـةـ أـخـلـوـ بـهـاـ بـالـدـكـتـورـ شـبـينـدـرـ لـاـذـكـرـهـ بـماـ قـالـ فـيـ نـمـتـهـ ، يـوـمـ سـأـلـتـهـ عـنـهـ قـبـلـ الـحـربـ ، وـمـاـ كـانـ فـعـلـهـ مـعـنـاـ مـنـ اـبـلـاغـ جـمـالـ باـشاـ صـورـةـ اـجـمـاعـاـ ، وـاعـاتـهـ عـلـىـ تـهـورـهـ مـعـهـ ، وـهـوـ يـعـرـفـ أـكـثـرـ مـفـيـ مـيـلـفـهـ مـنـ الـأـخـلـاقـ ، حـتـىـ كـانـتـ السـنـةـ الـمـاـضـيـةـ ( ١٩٣٨ ) فـذـكـرـتـ لـهـ ذـاكـ فـيـ دـارـهـ فـيـ الـقـاهـرـةـ فـنـكـرـ مـلـيـاـ بـعـضـ دـقـائقـ وـقـالـ : صـحـيـحـ هـكـذـاـ كـانـ ، الـحـقـ مـعـكـ . وـقـدـ يـنـلـبـ عـلـىـ الـمـرـءـ حـسـنـ الـظـنـ فـيـ الـخـلـاثـقـ ، فـيـعـاـمـلـهـ مـعـاـمـلـةـ الـشـرـفـاءـ . وـأـنـاـ لـمـ أـحـتـطـ هـذـهـ مـرـةـ مـعـ ذـاكـ السـافـلـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ وـقـتـ غـيرـ مـرـةـ مـعـ غـيرـهـ ، فـعـلـمـتـنيـ هـذـهـ الـأـيـامـ ، وـلـوـ عـمـلـتـ بـاقـتـرـاحـ شـبـينـدـرـ لـكـانـ الـقـتـلـ مـصـيـرـيـ وـمـصـيـرـهـ لـاـ محـالـةـ . كـثـيرـاـ مـاـ قـلـتـ لـصـدـيقـيـ شـبـينـدـرـ أـوـائلـ الـحـربـ الـعـامـةـ إـنـيـ فـيـ رـبـةـ مـنـ أـمـرـ عـبـدـ الـكـرـيمـ الـخـلـيلـ - شـابـ كـانـ يـعـمـلـ مـعـ أـبـنـاءـ الـعـرـبـ وـأـحـزـابـ الـمـشـتـلـةـ بـالـاستـقـلـالـ - وـهـوـ يـغـلـبـ حـسـنـ الـظـنـ وـيـسـتـبـعـدـ أـنـ يـصـدـرـ مـنـهـ مـاـيـؤـذـنـاـ ، عـلـىـ بـالـاستـقـلـالـ - وـهـوـ يـغـلـبـ حـسـنـ الـظـنـ وـيـسـتـبـعـدـ أـنـ يـصـدـرـ مـنـهـ مـاـيـؤـذـنـاـ ، عـلـىـ مـارـأـيـ مـنـ شـدـةـ اـخـلـاطـهـ بـجـهـالـ باـشاـ ، وـكـانـ يـتـهـامـسـانـ ، وـالـاعـيـانـ بـتـتـظـرـوـنـ فـيـ الـبـابـ الـاذـنـ لـهـمـ بـالـدـخـولـ فـلـاـ يـؤـذـنـ لـهـمـ . وـصـلـبـ جـمـالـ باـشاـ عـبـدـ الـكـرـيمـ ، فـتـبـينـ بـعـدـ ذـاكـ أـنـ الرـجـلـ عـلـىـ تـقـيـةـ مـسـتـحـكـمـةـ فـيـهـ ، كـانـ يـشـتـغلـ لـلـتـرـكـ وـلـلـعـربـ فـيـ آـنـ وـاحـدـ ، مـثـلـ رـجـلـ مـنـ بـيـنـ الـجـنـديـ قـتـلـهـ الـتـرـكـ اـيـضاـ وـكـانـ يـشـتـغلـ لـهـمـ وـلـلـعـربـ وـلـلـافـرـنجـ ، وـمـثـلـ رـجـلـ مـنـ بـيـنـ بـنـيـ الشـنـطـيـ وـكـانـ مـذـهـبـهـ كـذـكـ وـقـدـ صـلـبـ اـيـضاـ . وـرـبـعـاـ اـشـتـغلـ أـحـدـمـ لـمـدةـ دـوـلـ وـعـدـةـ مـذـاهـبـ سـيـاسـيـةـ . سـئـلـتـ وـاـنـاـ فـيـ بـيـرـوـتـ قـبـلـ اـعـتـقـالـ عـبـدـ الـكـرـيمـ الـخـلـيلـ بـأـيـامـ عـمـاـذـاـ كـنـتـ دـاخـلـ

في الجماعة التي الفها فأجبت بالسلب ، ثم لقيته فقلت له : بلغتني إنك تقول هنا  
إني والركابي داخلان في جميتك فهل دخلت معك ؟ وهل سألك يوماً عما  
عمل منذ عرفك ؟ قال : لا . فقلت له : لماذا تذكر اسمي وأنا لست معك  
ولا من رأيك ؟ قال إن القوم يسألونني عندما أريد إدخال أحدهم في جميتي  
فيما إذا كنت والركابي داخلين فإذا قلت لا ، لا يدخل أحد معي . فهددته  
بان لا يتجر بسامي ، ولا يعود إلى ذكري لاحد ، وإنما أكتم سره ولا أتدخل  
في شؤونه . فعاهدني وأطنه عاهد كثيرين قبلني ، وعهده عهد أولاد طائشين ،  
وكان على شيء من البلاهة ، مهلا لا يوراقه ، وربما تركها في أيدي من  
لا يعرفهم ، وخرج لقضاء حاجة . ومثل هذا لا يستودع سرماً ، ولا يلقى  
المؤمنون معه إلا شرماً .



## المنظروون بالحاوسية

حقيقة إن اسم «عليه»، كان ينزع الاحرار خلال الحرب العاشرة فالـ هذه القرية المبنائية كانت يساق المتهون بالسياسة ، يحشرون فيها زرافات ووحداناً ، وفيها يعقد الديوان العرفي اي المحكمة التي تصدر فيها الـ احكام النافذة عليهم ، لا استئناف فيها حكت ، ولا نقض لما أبرمت ،

وقد طلب هذا الـ الـ ديوان مـرة الى جـمال باشا ان يـبعث فيـ اليـه للتحقيقـ مـي فيـ بعضـ المسـائل ، او لـاستـشهادـي بـامر ، فـأبـي لـارـسـالي ، وـأـمـرـ انـ يـكتبـ بـالـ سـؤـالـ فـأـسـأـلـ عنـهـ فيـ دـمـشـقـ بـدونـ انـ اـذـهـبـ إـلـىـ عـالـيـهـ . وـلـمـ يـلـفـنـيـ ذـلـكـ إـلـاـ بـعـدـ حـينـ وـبـالـ مـرضـ ، وـهـذـاـ مـنـ مـنـ الـ بـاشـاـ عـلـيـهـ ، فـانـهـ لمـ تـسـمحـ نـفـهـ انـ اـضـايـقـ بـشـيـءـ بـعـدـ انـ ثـبـتـ اـخـلـاصـيـ الـ دـوـلـةـ بـأـورـاقـ الـ قـنـصـلـيـاتـ ، وـتـأـكـدـ أـتـيـ كـنـتـ اـطـالـ بـالـ اـصـلـاحـ الـ مـمـلـكـةـ بـأـسـرـهـ ، وـأـنـ كـنـتـ أـخـدـ الـ دـوـلـةـ زـمـنـ الـ حـربـ خـدـمـةـ حـسـنةـ .

جيـءـ بالـشـيخـ عـبـدـالـحـمـيدـ الزـهـراـويـ - وـكـانـ الـ اـصـلـاحـيـوـنـ رـأـسـوـهـ عـلـىـ مـؤـمـرـمـ فيـ بـارـيزـ ، ثـمـ اـسـتـرـضـاهـ الـ اـنـتـخـابـيـوـنـ وـجـعـلـوـهـ عـضـوـاـ فـيـ مـجـلـسـ الشـيـوخـ - إـلـىـ الـ دـيـوـانـ الـ عـرـفـيـ فـيـ عـالـيـهـ مـخـفـورـاـ لـيـحـاـكـوـهـ . مـعـ انـ الـ حـكـومـةـ اـدـعـتـ بـوـمـنـدـ انـهـ لـاـ تـؤـاخـذـ اـحـدـ بـمـاـ كـانـ مـنـهـ قـبـلـ الـ حـربـ ، بـلـ تـحـاـسـبـ عـلـىـ الـ اـعـمـالـ الـقـيـ يقومـ بـهـ اـعـدـاءـ الـ دـوـلـةـ فـيـ مـدـةـ الـ حـربـ ، وـمـنـ قـتـلـهـمـ كـانـ قـتـلـمـ بـاـ قـدـمـتـ اـيـدـيـهـمـ سـابـقاـ ، وـفـيـ الـ حـربـ لـمـ يـسـتـطـعـ اـحـدـ أـنـ يـتـحـركـ فـيـ اـحـبـ ، إـلـاـنـ يـكـونـ بـعـضـهـمـ لـصـدـيـ لـلـدـعـوـةـ لـلـانـكـلـيزـ .

وـلـاـ وـصـلـ الزـهـراـويـ إـلـىـ حـلـبـ أـبـرقـ إـلـىـ جـمالـ باـشاـ يـقـولـ لـهـ إـنـ لـدـيـهـ مـرـوـخـاتـ خـاصـةـ ، يـرـجـوـ انـ يـدـلـيـ بـهـ اـلـيـهـ مـشـافـهـ . فـأـجـابـ القـائـمـ طـلـبـهـ ، وـاسـتـمعـ لـلـاـ عـرـضـهـ ، وـمـاـ عـرـضـهـ غـرـيبـ فـيـ بـاـيـهـ . قـالـ الزـهـراـويـ اـنـ وـانـ كـانـ ذـهـبـ إـلـىـ

شقيق اسحق على صعيد وعلم عمار بن ابراهيم . هذا دليل اخر في حقه .  
سنة ١٩٦٣م

باريز ، ورئيس مؤتمر الاصالحين ، فان بيته كانت سليمة ، وما كان يضر  
خيانة للدولة ، وان الرجل الذي كان يفاوض الاجانب ، ويعرف اللغة الافرنجية ،  
هو صاحب المقبس كرد علي ، اطلقوا سراحه بضعة أيام لآتيكم بأعداد من  
جريدة تقرأون فيها مبلغه من الوطنية المئانية . فأجابه البشا عليه ان تقول  
هذا الكلام في الديوان العرفي في عاليه .

وذهب الزهراوي إلى عاليه ، واورد امام الديوان العرفي ما قاله جمال  
باشا ، فالتقت رئيس الديوان وقال له : هل تعرف عثمان بك العظم . فقال :  
نعم اعرفه . قال : هو شقيق رفيق بك العظم . قال : نعم . قال إن الديوان العرفي  
برأ عثمان بك لاته له لم يدخل فيما دخل فيه أخوه ، وما وجد وثيقة ثبتت  
ادانته ، وحكم على رفيق بالقتل ، لأنّه ظفر برسائل مكتوبة بخطه توّيد  
خيانته . فأنت إن كان لديك شيء بخط صاحب المقبس وتوقيمه يستدل منه  
انه أحد اعضاء جمعية سرية تدرّعت لقلب الحكومة ، او الدعوة إلى دولة  
اجنبية ، او غير ذلك من انواع الخيانات فأبرزه وتحنّن نأبي به حالاً ، واما  
أن يجعل باشرتك فلا . وقولك إنه كتب اشياء في الحكومة في جريدة  
فهذا نعرفه وعندنا بمجموعه .

هذا ما قاله رئيس المحكمة العرفية المتطوع لقتل أخيه ، وهذا ما قاله  
جمال باشا التركي ، وتوصل به صاحب العريني خلاصه واتهامي . ولطالما  
احسنت اليه مذ جاء منفياً إلى دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ،  
وأنسته وخفت من كربته ، وكان يومئذ كذلك السامراني لا مساس ،  
ومن يجرأ ان يقترب من مغضوب السلطان ، وما رأى مني منذ عرفة  
إلا الاخاء واللطف .

حاول الزهراوي الاشتهر بالعلم فكشفت الأيام أمره . بعث إلى وأنما  
بعصر مقالة لتنشر في مجلة القتف كتبها على أسلوب القرآن فدفعتها إلى  
منسى ، المجلة فلم تنشر ، وبعد مدة راجعه لكترة إلخاخ الزهراوي فقال لي  
صديقي الدكتور يعقوب صروف : إن من عادني في المقالات الواردة من

المؤازبين أن أدفعها إلى ابني فتقرؤها ، فإذا رأيتها قد فهنتا وسوعتها  
انشرها وإنما فلا . ومقالة صاحبك دفعتها على العادة إلى ابني فتلتها فـ  
ادركت مزاجها ، فقلت : إن كانت **البنية** لم تفهم فالقراء أجدوا لأنفسهموا .  
وكتب إلى الزهراوي من حمص مرة يسألني عما إذا كنت قرأت  
مقالاته في مجلة المنار (نظام الحب والبغض) فأجبته إني قرأتها ولم أفهم ما  
يريد منها ، فقال : أقرأها ثانية تفهمها ، ووافي برأيك فيها . فقرأتها ثانية  
فلا والله ما فهمت لها معنى ، وخفت أن أذكر له ذلك ، وبوعز إلى أن  
أقرأها مرة ثالثة فأجبته إني قرأتها مرة ثانية كما أشار إلى ، والظاهر أن عقلي  
غير مستعد لفهم الفلسفة المعاصرة ، وهذه المقالات من هذا الطرز على ما ظهر لي  
فاعغفي من إعطاء فكري فيها .

وكنت مرة أتحدث إلى صديقي إبراهيم بك رمزي من أدباء مصر فقال  
كلامًا فهمت منه أن الشيخ محمد الشرباعي مات ، فأسفت لوفاته فقال :  
لأناس فهموا فالموضع في حياة أخيه «المقداني» الثاني الذي عندكم وهو الشيخ  
الزهراوي . ويريد بالمعقداني الذي لا يبين عما يريد في كتابته . وكانت  
الشيخ الشرباعي مع الشيخ الزهراوي في هذا الباب فرسى رهان . كتب  
الزهراوي جريدة «الحضارة» في الاستانة مدة مما كانت تفهم مقالاته السياسية ،  
وكتب أشهرًا في «الجريدة» بعمر فاضطروا إلى إخراجه منها لأن القراء لم  
يفهموا أقواله ، ولا حلوا معهياته وألفاظه . ولم يشهد من يتطلع في تفريطة  
غير صاحب المنار فإنه صوره صورة لا تقل كثيراً عن تصويره للسيد

جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده !  
وكان الزهراوي إلى ذلك خداعاً ، نصحي غير مرة أن ترك مطالعة  
الكتب القيمة ، وأكف عن قراءة كتب الفرزالي وابن تيمية وابن حزم الخ  
وأكتب من فكري دون الرجوع إلى هؤلاء الأئمة فائلاً : إني أعلم منهم !  
فكنت أجبيه إني أسلى بكلامهم فقط أوقات الفراغ ، وقصصت ما دار بيمنا على

استاذي الشيخ طاهر الجزائري قال : إن الرجل يقصد غشك . فقلت له : عرفت ذلك وأجبته جواباً مهما ، فقال ما معناه : إنه لم يتعلم ولا يرغب في أن يتعلم ، وبشق عليه أن يتعلم أحد ، مازادت معلوماته عما أخذه عن الشيخ فلان في المدرسة الرشدية في حمص ، وهو لا يحب أن يتبع نفسه بالطلالة ، فإذا طالت أنت تفوقت عليه ، فهو لا يحاري المتعلمين ، وما طبع عليه من حسد يحمله على أن يصد كل راغب في العلم ، حتى لا يظهر في المستقبل الفرق بينه وبين من تعلم .

عود إلى المقطوعة بالجاسوسية ، ومن ذكرني وأكثر من ذكري في الديوان الغربي صاحب جريدة المقيد عبد الغفي افendi العربي فإنه بدا له أن يتسع في أجوبته فكتب فيما قبل نحو مئة صفحة كبيرة ، ذكر فيها حتى سبيان المدارس ، رجاء أن تعدل الحكومة عن مس كبار المجرمين بأذى إذا استدعت المسألة إلى حد بعيد ، وقد خصي من هذه الصفحات بأربع ، الله أعلم بما حشاها به . وهو أيضاً لم ير في إلا التنشيط الجميل . وكان من سيف الدين الخطيب أن ذكرني غير مرأة وما قال إنهم كانوا في المدارس لا يعرفون ما هي السياسة ولا الأحزاب والجمعيات ، فصاحب المقتبس هو الذي علمنا ودربنا . وهذا كالعربي والزهراوي من قتلوا صلباً وما ألغت عنهم وشايائهم بالإبراء .

ومن الأشراف الذين آثروا وطنتهم ولم يوحوا باسم أحد ، على كثرة ما لاقوا من التعذيب ، شاب متعلم من أهل صيدا اسمه توفيق البساط فإنه آثر الموت والنكال على كشف سر أحد . ومنهم صديقي سامي بك المطم ، وكان مراسلاً للمقتبس في الاستانة ، فإنه اهين في الديوان العربي قتاله ، وأنكر أن يكون يعرفني ، أو أنه كان يراسلي بما يحدث من الأحداث الدقيقة في الماصمة ، فبريء على أنه أبله ، كما بريء بهذه الصفة صديقي الأمير طاهر الحسني .

ولقد أيقنت بعد الاستقصاء أن بعض ما اتهم به المتهون في عاليه كان قائماً على الفتن ، ولم يرجع في الأكثـر إلى وثائق قانونية . وقد سأـلت الوالي خلوصـي بك ، وكان ذهب إلى بيـروت واجتمع إلى أعضـاء الـديوان العـرفي ، عـما كانوا يتـهمون به فقال : إنـهم اـتهموا بـضـرـوبـ منـ التـلـفـقـاتـ ، أـنـزلـ اللهـ الـبـلـاءـ بـهـمـ ، أيـ بالـانـحـادـيـنـ . وـمـنـ الـحـقـ أنـ تـقولـ إـنـ مـنـ اـتـهـمـواـ ماـ خـلـوـاـ مـنـ شـهـادـةـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ ، وـمـنـ أـصـحـابـهـمـ مـنـ تـبـرـعـواـ بـالـشـاهـادـةـ عـلـيـهـمـ كـاـنـ مـنـ شـابـ شـهـدـ عـلـىـ بـعـضـ أـصـحـابـهـ . ذـكـرـتـ ذـلـكـ لـوالـدـهـ وـكـانـ صـدـيقـيـ فـأـنـكـرـ فـعـلـ اـبـنـهـ ، وـقـالـ إـنـهـ يـقـصـدـ مـاـ فـعـلـ اـنـقـاذـ عـمـهـ ، أيـ آنـهـ لـطـوعـ بـالـوـشـايـةـ بـعـضـهـمـ وـهـيـ لـلـحـكـومـةـ الـعـلـيـةـ أـسـبـابـ قـتـلـهـمـ حـتـىـ يـنـقـذـ عـمـهـ ، وـلـوـلـاـ آنـ القـائـمـينـ بـالـأـمـرـ كـانـواـ يـرـجـمـونـ إـلـىـ الـمـنـطـقـ إـلـىـ الـقـانـونـ فـيـ مـعـظـمـ الـحـالـاتـ ، لـأـسـتـلـاتـ يـبـوتـ عـالـيـهـ وـيـبـوتـ الـقـرـىـ الـمـجاـوـرـةـ لـهـاـ مـنـ الـمـهـرـمـينـ السـيـاسـيـنـ ، لـكـثـرـةـ مـاـ وـشـىـ النـاسـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ . وـقـالـ أـحـدـ ضـبـاطـ الـدـيـوـانـ الـعـرـفـيـ : إـنـ حـالـ أـهـلـ هـذـاـ الـقـطـرـ عـجـيبـ ، كـنـتـ فـيـ الرـوـمـ أـبـاـيـ عـضـوـاـ فـيـ أـحـدـ الدـوـاـنـيـنـ الـعـرـفـيـةـ فـيـ بـلـدـ كـذـاـ . وـكـنـاـ نـأـيـ بـالـلـفـارـيـ لـتـقـرـيرـهـ فـلـاـ يـبـوحـ بـشـيـءـ ، وـنـعـذـبـهـ أـنـوـاعـ الـمـذـابـ ، وـنـحـمـيـ الطـاسـ وـنـضـمـهـ عـلـيـهـ ، فـيـسـيلـ دـمـهـ وـبـحـرـقـ جـلـدـهـ ، فـلـاـ نـسـمـعـ مـنـ فـهـ اـسـمـ أـحـدـ وـلـاـ اـشـارـةـ إـلـىـ سـرـ وـالـأـهـالـيـ هـذـاـ يـتـبـرـعـونـ مـخـتـبـيـنـ بـالـوـشـايـاتـ حـتـىـ أـضـيـرـتـنـاـ كـثـرـتـهـاـ ، وـبـلـلـتـنـاـ أـنـوـاعـهـاـ ، وـلـوـ عـمـلـتـ الـحـكـومـةـ بـاـ وـرـدـ مـعـ الـبـرـيدـ فـقـطـ مـنـ الـكـتـبـ الصـادـرـةـ عـنـ أـمـيـرـ كـاـ بـأـسـهـاءـ السـورـيـنـ ، وـفـيـهـ أـشـيـاءـ كـتـبـتـ عـمـداـ لـتـضـرـ بـالـكـتـوبـ عـلـيـهـ ، لـبـلـغـ الـمـتـهـونـ بـالـخـيـانـةـ الـوـفـاـ . فـتـحـنـ لـشـفـقـ عـلـيـهـمـ وـهـمـ لـاـ يـشـفـقـوـنـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ ، وـعـلـىـ أـبـنـاءـ وـطـهـمـ وـجـنـسـهـمـ .

وـمـثـلـ ذـلـكـ حدـثـ أـوـاـئـلـ الـاحتـلـالـ الـافـرـنـيـ فـانـ تـقـارـيرـ الـجـوـاـسـيسـ كـثـرـتـ عـلـىـ الـقـائـدـ فـأـحـالـهـ إـلـىـ الـدـيـوـانـ لـلـتـرـجـمـةـ ، فـكـانـ بـضـعـةـ تـرـاجـمـةـ يـتـرـجـمـونـ كـلـ يـوـمـ عـشـرـاتـ مـنـ هـذـهـ الـأـورـاقـ ، فـلـماـ رـآـهـ مـتـشـابـهـ فـيـ مـنـاـهـاـ ، وـأـنـهـاـ كـلـهاـ تـقـارـيرـ وـشـايـاتـ دـيـنـيـةـ بـدـوـ الـفـرـضـ الشـخـصـيـ مـنـهـاـ ، قـالـ إـنـهـاـ مـنـ شـكـلـ

واحد ، وهذا لا يفيد سباعه ولا العمل به ، فأمر باحرافها كلها قبل النظر فيها وكانت بضعة الوف . وقال لي رجل من اسرة هانى في بيروت : إنني أعرفك من زمن ، قلت له : أنا لا أذكر أنني رأيتك ، فماين كانت هذه المعرفة ، قال : كنت رئيساً على الترجمة أول الاحتلال فعرفتك من التقارير التي كتبت فيك . وانا اعرف ان احد المستخدمين عندي كتب في ثلاثة تقارير للسلطة الفرنسية لاني دعوته مرات الى القيام باحسان عمله ، وطلب مني مرة ان أشهد له في المحكمة شهادة زور تنفعه في مسألة ارث فآمنت . وكان عندي ثلاثة التمسووا مني زيادة رواتبهم ليرة او ليرتين لكل واحد ، والقانون لايسعد بذلك فلما أتيت اجابة طلبهم شكوني إلى السلطة .

---

## المسيحيون والصهاينة

بحسن رجال السياسة استدرج البسطاء لسقوط الأخبار . ومن رأيت  
بين هذا القبيل المهر لود فيد فنصل ألمانيا في دمشق زمن الحرب العامة ،  
كان يهودياً ملبياً داهية ، سألني مرة : هل تعرف فلاناً وفلاناً قلت نعم  
أعرفهما قال : أريد أن تتفق على ماهيتهما . قلت : ليس من بلدي ولا  
علم لي بحالهما . قال : وكيف ذلك ؟ قلت : وهل الواجب أن أعرف  
الخلق كلهم ؟ قال : لا . ولكن هذان من يجب أن تعرفهما وهم من أرباب  
الإقليم . قلت : ما عرفتهما فقال : جاءآني منذ أيام يشكون ضيقاً وضنكأً  
فأعطيتهم على سبيل الصدقة عشرين ليرة عثمانية . فسكت ولم أبد استحساناً  
ولا استهجاناً .

وكان هذا الفنصل كثيراً ما يسألني عن جمال باشا فأثنى وأجد ، وأذكر  
له أن القوم يحبونه ويدعون له بال توفيق . ورأيت اتفاء شره إلا أقول له  
 شيئاً إلا إذا كان من هذا البحر والقافية . وحاول مرة أن أصرّح له برأيي  
في البasha وضايقني قلت له : إن عوام دمشق يعتقدون أن يوم ينزل عليهم  
جمال باشا من الشمال أو الجنوب أو الغرب تمطر السماء وتنزل الرحمة ، فهز  
رأسه وهزت رأسه ، وتقارقاً بسلام .

مضت أيام وانتصر الجيش العثماني في كوت الأُمارة بالعراق ، وسرر  
ثلاثة عشر ألف جندي والجزرال الانكليزي طاؤس هند ، فجاء القوم يهشون  
القائد العام أحمد جمال باشا في فندق فكتوريا بدمشق فرقاً فرقاً . وخففت  
لتهنئته مع أرباب الصحف ، ولم يكن منهم في دمشق غير اثنين صحبتهم  
فلما دخلنا على جمال باشا عبس . وكان قبل دخولنا يضحك ، فسلمنا وجلسنا  
ثلاثتنا . فافتتح البasha الكلام وقال موجهاً الخطاب إلـي<sup>١</sup> : هل قصرت معمكم

في كل ما طلبت مني ؟ فقلت له : قد أغرقتنا بانعامك . قال : فما هذا الذي يبلغني عن قرع بعض أبواب الأجانب لأخذ إعانتهم ! هلرأيت أجنبية فقط جاء يدق بابنا ؟ يطلب مثل هذا الطلب منا ولما سمعت قوله هذا سرني عني ، وتدبرت حالاً ما كان قاله لي الفنصل عن شخصين استجدياه . ثم تكلم الباشا هنا كلاماً لم يبق معناه على خاطري ، واتفت إلى وسأله لماذا توقفت عن إصدار مجلة المقتبس ؟ فأجبته إن من الصعب صدورها ، والزمن زمن حرب ، والناس متوجهة عقرهم وقلوبهم إلى ساحات القتال ، ومتى انتهت الحرب بالنصر إن شاء الله أعود إلى إصدارها ، ثم إن الورق عزيز جداً ، فقال لي : أنا عندي ورق تعاوٍ إلى بيروت أعطك منه المقدار الذي يلزمك ، وعد إلى إصدار مجلتك ، وأكتب بها مقالات لتعلم الأخلاق فقلت له : سيكون ذلك بسعادكم ، وموازرة رصين هذين . قال : نعم ، فضحكتنا وانصرفنا .

ولبلغني من رجل كان حاضراً في مجلس الوالي خلوصي بك أن هذين الرجلين استأذنا عليه بعض الأيام فرحب بهما ولاطفهما ، فأخذنا يندبان طالعهما ، وقالا إنهم لقيا أعظم الشدائـد لصالحهما بخدمة الاتحاديين - الحزب المتغلب يومئذ على الدولة - وأن أحدهما ضرب وسبـجـن وأهـبـنـ من أجل نزعـتهـ الاتحادـيةـ ، فـكـيفـ وـاخـلاـصـهـماـ يـعطـيـ كلـ واحدـ منهاـ عشرـ لـيرـاتـ فيـ الشـهـرـ إـعـانـةـ لـجـرـيدـتـهـ ، وـآخـذـ أـنـاـ الفـ لـيرـةـ عـثـانـيـ دـفـعـةـ وـاحـدةـ ، وـقـدـ حـارـبـ الـاتـحـادـيـنـ وـسـقـيـتـهـمـ مـنـ دـنـيـ كلـ كـدـرـ ، فـابـتـسمـ الوـالـيـ ، وـكـطـلـعـ بيـنـيهـ منـ وـرـاءـ زـجاـجـةـ نـظـارـتـيهـ ، وـقـالـ بـيـنـ هـازـلـ وجـادـ : الفـالـبـ أـنـ الدـوـلـةـ لـطـيـ كلـ وـاحـدـ بـقـدـرـ مـاـ يـساـويـ ، رـأـتـ فـلـانـ يـساـويـ أـلـفـ فـأـعـطـهـ أـلـفـ ، وـرـأـتـ الـواـحـدـ مـنـكـ يـساـويـ عـشـرـ لـيرـاتـ فـرـتـتـ لـهـ عـشـرـ لـيرـاتـ مشـاهـرـةـ . فـنـأـمـ الصـحـافـيـانـ هـذـاـ الجـوابـ وـانـصـرـفـاـ مـنـ لـدـنـهـ يـلـعـنـانـ السـاعـةـ أـيـ جـمـعـتـهـ بـهـ ، وـصـرـحـاـ بـهـ صـرـحـاـ بـهـ حـتـىـ سـمـاـ مـاـ سـمـاـ . وـلـوـ لـمـ تـكـنـ الـحـربـ وـالـصـحـافـةـ مـقـيـدةـ ، لـسـلـخـاـ جـلـدـ الـوـالـيـ وـلـسـاـ آـيـاهـ وـأـمـهـ .

## عقول الاتحاديين والانكليز

زارني في داري قبل الحرب العالمية مدير الشرطة ، وهو من أصل الباني وكثيراً ما كان يزورني ويدعى صداقني ، ويوضح إلى ذات نفسه ، ويتظاهر ببعض الاتحاديين ويدرك مساوיהם . و كنت منه كما كنت مع جمور الموظفين ابتعان منه ولا ابيعه كما يقولون ، لأنني كنت أغلب سوء الفتن مع كل من ساير الاتحاديين ، وما عرفت ترجمته الحقيقة وميله الأكيد ، وما قال لي : إن جماعة الاتحاديين يزعمون أن لك ضلماً مع الانكليز ، وأنك تقضي منهم كل شهر تسعين جنيهاً . فثارت وقتله : جماعتك لا يعرفون الوطن والوطنية ، ويفصلون كل شيء على الدینار معبودهم ، لأنهم هو في نظرهم كل شيء لا يعلمه الشرف ولا المروءة ، ولا حب الخير .  
توهموا لما رأوني أدعوا إلى الاصلاح أنني أخدم مقصداً خاصاً ، ونسوا أن في الكتاب من يكتب للنفع العام ، وعندم أن كل من يطالب بطلب شريف ، هو مدفوع بعامل من الموامل . لو عقل أصحابك لسألوا دائرة البريد عما يحمل كل يوم إلى الجهات من جريدة المقبس ، وهم يرون انتشارها المظيم في دمشق ، أو لسألوا المطبعة كم عددآ تطبع كل يوم وما دخلها من الإعلانات . ومن كانت جريدة رائجة هذا الرواج ، يستطيع أن يعيش بدون معاونة دولة أجنبية . ثم إن الحكومة التي زعموا أنني آخذ مونتها لا أعطي درهماً إلا إذا رأت مثناً لها ، وهل رأى أصحابك في صحيفتي إلى اليوم كلة لشهر بأني مشابع لإنكلترا أو أن الأمر عكس هذا ، أناقش أملاها أحياناً ، وأنقدها النقد المقبول المعتدل ، ولا أغلو خطافة أن يدخل الفضل على الوالي إذا غضب على الجريدة ، فلا يخرج من عنده إلا وقد أوقفها لأجل مسمى أو غير مسمى .

ومن غريب المصادفات أن الانجاديين بينما كانوا يتهمونني بالتشييع للإنجليز ، كان فصلهم حانقاً عليَّ إلى التي ليس بعدها . فقد خرج ذات يوم للصيد فاعترضه بعض السلبة فنجاً منهم بعد جهد . فكتبت الجريدة أنه كان عليه أن يطلب جندياً أو جنوداً تحرسه كلما خرج إلى مكان بعيد ، حتى لا يقع عليه ما تكون عاقبته سينة ، فيحدث بذلك مشكلة لحكومة . وكان هذا الفصل في جده فأطلق عليه العرب بنادقهم ، وما زال الرصاص في صدره . وقام الفصل بعد مدة يربد أن يؤسس نادياً في دمشق سماه « النادي الشرقي » فدخل منه كثيرون من الموظفين والاعيان ، وأبيت الدخول متذمراً لأن في النادي مسكرات وفخاراً ، وأنا لا أشرب ولا ألب ، فزاد الفصل غصباً علىَّ . وكان رجاني بعض القائمين بتأسيس النادي أن أعد خطاباً لباقي يوم افتتاحه فأعددته فتمفي الفصل من تلاوته .



## التجارة في السياسة

صادفت في الطريق في الاشهر الاولى للحرب العالمية صاحب بشاره افدي الاصغر ترجمان قنصلية المانيا بدمشق وأحد كبار تجارها ، فقال لي ان القنصل قال له : لماذا لا يأخذ صاحب المقتبس اعانته من جريده ، انه إذا طلب معاونه اعطيه بقدر ما اعطيت ارباب الصحف بأجمعهم في سوريا . وقال : يا أخي كل يوم لا تذهب حرب كالحرب الحالية ، وهذه فرصة لك لاتقع على مثلها ، خذ من القنصل ما هو مستعد لاعطائلك ايام تبن به على الاقل دارما لا ولادك . فأجبته : إنني أخذت من جمال باشا ما كنت في حاجة اليه من المال ، حتى أصدرت جريدي ووفيت ديوني ، والخزانة الالمانية والمئانية في حكم خزانة واحدة الآن ، والكيسان ككيس واحد ، ورجوته أن يسلم على القنصل وبيله شكري ، لحسن عاطفته نحوي ، وابتدا هذا بقولي : قل لسعادته إنني إذا احتجت إلى شيء لا أتأخر عن طرق بابكم . فاستغرب صاحبي هذا الجواب ، لانه لم يتحقق رغبة قنصله ، وكان يجب أن اغلب الفكرة التجارية على الفكرة السياسية ، وقد نقل كلامي بالطبع إلى قنصله ، وقنصله نقله لقائد الجيش ، وهذا أحببه من هذا الإباء ، وإليه أشار لما لقيته مع الرجلين اللذين طلبوا معاونة القنصل يوم جئنا تقدم تهانينا إليه بانتصارات كوت الامارة . و قوله لي لما سأله عن السبب في توقف مجلة المقتبس عن الصدور إنه يعطيه ورقاً لاصدارها ، لا كتب فيها مقالات تعلم الناس الاخلاق .

ظن بعض المشتغلين بالصحافة في الشرق أن الجرائد باب من أبواب الكسب فقط ، والماهر من يكون خراجاً ولا جماً . وهذا ما زهدني في الصحافة منذ قام التجرون بالوطنية . ولقد اقترح عليَّ كثيرون أن اعود الى اصدار

جريدة المقبس فاعذرت قائلًا : إن نفي سنت من هذه الصناعة ، وقد رأيت كل حكومة منذ عهد الترك تحاول أن تفسد أخلاق أرباب الصحف ، حتى غدا معظم الصحافيين يجرون لأنفسهم أن يقضوا زمان السلام معونات من بعض الدول ، ومن الشركات ، ومن كل من يريد أن يتغنى من الترفة العامة . وصعب على الشريف أن يتمتن هذه المهنة التي عن فيها الصدق ، وهي من أشد ما يكون احتياجاً له . ومن المتذر أن تسقط على صحيفه لم تلوت بما لوثت به الصحف في الغرب . عدوا الجرائد متجرأ ومرتفقاً بحال أصحابها كل مال فخررت هذه الأداة الجميلة عما وضعت له من نقل صادق الأحاديث ، والدعيات الوطنية النافعة ، والدعوة إلى الحق والمدنية .

لو تيسر لي الأسباب لأصدرت جريدة أوزع أكثرها مجاناً أبتعد بها عن كل ما يدرس سمعتها ، وأعتقد أن صوت مثل هذه الصحيفة يصل إلى أعماق القلوب ، ويوثر في الأئمة التأثير المطلوب ، لأنني آتونني أن اصونها عن كل ما يمكن منه استخفاف بالقراء ، أي بالكذب عليهم والتضليل لهم .

الجرائد مرآة الأئمة وإذا أراد الغربي أن يحكم علينا بما ينكشف في هذه المرأة ، وأعتقد أن هذه الصحف ناطقة بما في قلوبنا ، معبرة عن تراثنا وأخلاقنا ، فالويل لنا ثم الويل .

السياسة صبة المراس جداً ، ولا سيما الجزء الفعلي منها ، وأظن أحسن تعریف لها أنها خلاصة العقل البشري ، وذمة علوم العالم ، ويحتاج صاحبها إلى حسن فراسة ، وبعد نظر ، وبديهة مطواعة ، وقريبة فياضة ، ودرس متواصل ، وأظن من جمعوا هذه الصفات قلائل في الغرب لما بالك بالشرق .

# بعض الاشتراكيون

سألني الامير زيد بن الحسين ، وهو ينوب عن أخيه الامير فيصل في الحكم أثناء تفييه في أوربا : لماذا لا يجربني الانكليز ، فقلت له : ربما يطبع الانكليز أن يعيشهم المرء بدون بحث ولا سؤال ، وأنا أحب أن أضع رجلي على صخر مخافة أن أنهور إذا نسرت في الرمل . فأدار وجهه إلى الحائط ، وأحسبه ظن أنني أعرض بوالده في هذا الجواب .

استدعاي الامير فيصل ليلًا ، وطلب إليَّ أن أدعوه الشاميين ليقولوا باستداب انكلترا عليهم ، فيوحد الاستداب في أرض العرب ، وكانت اللجنة الاميركية على وشك الشخصوص إلى سوريا ، لتأسل أهلها رأيهم في الدول التي يفضلون أن تتدب عليهم . فقلت : كان عليكم أن تأمروا بذلك قبل ستة أشهر على الأقل ، لاعداد الأفكار لقبول هذا الرأي . فقال : في الوقت متسع لمن يعمل ، ويمكن تدارك ما فات ، وأنت بما لك من الثقة عند القوم ندعهم فيستجيبوا لك . وكان وراءه صديقي الدكتور أحمد قدرى بشير إلى ألا أناقشه ، وأن أظهر امتنال أمره ، فسكت .

ومن الغد وردت عليَّ كتب من الأحزاب بدمشق ، يطلب إلى كل حزب منها أن يذهب إلى اللجنة الاميركية وأذكر لها رأيي . ومن هذه الأحزاب من يطالب بالاستقلال الناجز لاحماية ولا وصاية ، ومنها من يشير ضمئاً إلى القول بالاستداب الانكليزي . وكانت الصيغة التي لعنها القوم : « نريد استداب أميركا علينا ، فلن لم يمكن فانكلترا ، ونرفض استداب فرنسا رفضاً باتاً . » ففكرت في تبني وقلت : كيف أطلب استداب دولة ، والاستقلال غابة كل وطني عاقل ، وهل من اللائق أن أطلب استداب الانكليزي ، وقومي في مصر تحصدم رشاشات البريطانيين في

شوارع القاهرة والاسكندرية ، وكان ذلك خلال ثورة مصر الاخيرة .  
لি�تذهب من ينتدب بدون طلب مني ، ولزرت بيتي لا أخرج منه . ولم  
أذهب إلى اللجنة الاميركية ولا طلت انكلترا ولا فرنسا ولا اميركا .  
وكان المطلمون يعرفون من المآفادات اني حصلت بين الانكليز والفرنسيين  
أن سوريا ولبنان من حصة فرنسا ، وقالت لي صديقتي ميس بل الانكليزية  
قبل الحرب العالمية ، من دون سؤال وقع مني لها : إنكم حصة فرنسا  
فهي أنفقتم كثيراً على سوريا ، وجهزتها بالمدارس والخطوط الحديدية وغير  
ذلك من المشاريع ، ونحن الانكليز لم نتفق شيئاً عليكم ، فاستغربت كلامها  
كل الاستغراب وكان قولهما كان بوعة بما سيحصل ، وهي من جماعة  
الاستخبارات الانكليزية ، ذهبت بعض مرات من دمشق إلى بغداد على  
متن الأبل ، وأخر مرة وقفت فكررت ساقها ، وحملت معاونة لحاكم  
العراق لما سقط في سلطان بريطانيا العظمى .

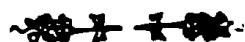
بعث إلى الامير فيصل من باربز كتاباً يخظه يقول : إن الانكليز  
السكسونيين (انكلترا وأميركا) يعاونونا على نيل استقلالنا وأننا سنحرزه ،  
ويوصي ألا أعبأ بغير هذا ، وأن ارفض كل قول بخالفه ، واظنه كان  
يقصد بكلامه تضليل عقلي ، وربما كان جماعته أشاروا إليه بالكتابة إليه  
في ذلك . ولما جد الجد أوعزت انكلترا إلى الامير فيصل أن يarry لندن  
إلى باربز ليتفق مع الفرنسيين وأووست به ، فكان الانتداب لفرنسا على  
سوريا ولبنان ، وذهب كل ما أمله المؤملون كففاقيم الصابون .

عاد فيصل إلى الشام وهو يطمع في أن يكسب رضا البريطانيين والفرنسيين .  
أي ان يجمع بين الفرنتين المنافستين ، ولا يزيد به غلام السياسة إلا إحراجاً .  
ويقللون علينا من مكانة الفرنسيين ويهددون ويتوعدون ، ولا يدرؤون مام  
فاعلون ، حق دخل جيش الاحتلال بالقوة إلى دمشق وحلب ، وركن  
بعض أولئك السياسيين إلى المهرب ، بعد أن هلك بتحميسهم وتحميس  
غلة الوطنية ، والغورين على الدين مئات في دمشق وميسلون .

إنني مازلت أُعجب بالإنكليز فرادى ، ولا أرتكبهم جماعات ، تروقني إدارتهم ،  
ولا لمعيني سياستهم . وكما ذكرت أن عرب السلطنة المئانية كادوا ينالون  
استقلالهم ثلاث مرات ، وتنكب في قائمة الأمم وحدهم ، وأن الإنكليز  
كانوا يقضون على هذه الأمانة ، آمِّنَ لهم كلَّه ، ولا استطع منها أحست  
ظني ، إن أغترف بهذه الإساءة ، وعندما أرى أن من الثورات الأخيرة في  
جزيرة العرب مقام فيها قبل يأيد أجنبية ، لشتد كراهيتي لهذه السياسة ينبعها  
القوى مع المستضيف . وكما تعلم ليعني أن الإنكليز في فلسطين يملعون  
الصهيونيين ، ويجردون العرب من السلاح ، ويحكمون على هؤلاء بمحاكم تقيلة  
جداً ، وقد يغدون أولئك من المقويات ، أو يخصونهم منها بما خف ،  
يزيد غمي وتألمي .

ولقد جرت عدة محاولات لارجاع السكة الحديدية الحجازية كما كانت  
قبل الحرب ، فكان الإنكليز يقاومون هذا الشروع سرّاً فيما بلغني لأنهم  
يمحاولون ألا يكون ركوب الحجاج في غير بوالمرأة ، وأن ينقطع الاتصال  
بين أجزاء الإمارات العربية . وبذلك تأخرت تجارة الشام والحجاج ، وعادت  
الوحشية إلى الجزيرة ، وقد كانت أوشكت تدخل في المدينة .

انا اعرف ان الاستعمار الانكليزي أخف انواع الاستعمار ، يبقى المستعمرين  
ما يتبلغون به ، ولكنني ما أحببت الاستعمار قط فأحبه منهم . هذا رأي  
فيهم ، وهذا ما يفسرون له بفضي لهم . وما قيمة بغضي وحي الدولة تملك خمس  
سكان الأرض .



## الامير فيصل

عرف الامير فيصل بن الحسين ، وعرفت اخوته قبل الحرب العالمية .  
ووافى دمشق في الحرب ضيفاً على جمال باشا ، فتأكّدت الصدّاقة بيننا ،  
وكنت أخلو به ساعات ، ونتفاوض أموراً كثيرة ، ويبيوح كل منا لعشيه  
بما لا يبيوح به لأقرب الناس اليه . ولطائفًا كان الشيخ اسعد الشقيري ،  
ونحن في معسكر القائد العام ، يحرضني على قطع الوقت معه ، لثلا يضيق  
صدره ، او يتبرم باللقاء في الشام ، وقال لي مرّة : عجباً لهؤلاء القوم  
( يريد جمال باشا وجعاته ) دعوا ابن الرسول واهلوه هذا الاهتمام .

وكان الامير يقترح عليَّ اعداد بعض الوان من الطعام ، ويستأذن جمال  
باشا بالتخلف عن مائته ، ليكون في ضيافي . ومقصده من ذلك أن نخلو  
بانفسنا في دارنا ، بميدان عن البيئة الرسمية في المعسكر . ويأتي معه احياناً  
من يحب من اصحابه ، وبطبيب والده اخواص ، وهو تركي يدعى أنه لا يعرف  
العربيَّة ، مع انه قضى سنين طوبلة في الحجاز ، وكانت أفت نظر الامير  
إلى التوفيق أمير طيبة ، فكان يقول لي إنه من خواصهم ، عاش بقصبة أبيه  
زمناً ، وعلمت بعد مدة أن جمال باشا اتي هذا الطبيب في حوران ، وكان  
الشريف حسين ثار في الحجاز ، فقال له باشمئزاز : أنت تركي ، ولمد من حاشية  
الشريف حسين ، وتدخل في حرمه ، فكيف لم تتعلم على بيته في العصياني  
على الدولة ، والنالب أن هذا الطبيب كان عند حسن ظن الامير فيصل فيه ،  
كان صادقاً لآل الحسين ، ومات منذ بضع سنين في القاهرة .

ولما أراد الامير فيصل ان يفرِّ إلى الحجاز نافضاً يديه من العثمانيين ،  
وقد كتب له والده أن يُمْجَل العودة اليه ، بعث مع أحد آل البكري  
أصدقائه ، يقترح عليَّ أن اصحبه إلى مكة ، فقلت له إن القوم بنكبون

عالي إذا هربت ، وإن صحتي لا تحتمل عيش البوادي ، فعد رفضي ممقولاً ، وعذرني على ت وفي الشر والضر . ولما عقدت المدنة ودخل الأمير فيصل دمشق مع الجيش العربي وجيوش الحلفاء ، كان أول ما طلب إلى أخي إن يكتب إلى في استانبول بالحضور حالاً ، وما زرته كان لقاؤنا لقاء آخر بأخيه ، وتفضل وعاون المقبيس على الصدور ، وكان توقف قبل جلاء المهاجرين عن دمشق . ومع هذه الصداقة القديمة المستحكة الأوانبي ما كنت أرى لمجيزه ، وقد أصبح أمير سوريا ، على نحو ما كان يفعل ببعضهم ، ومنهم رئيس المؤتمر السوري ، فإنه ما كان يتوقف عن الاختلاف به قبل الشمس في غرفة منامه ، ولا في ساعة متأخرة من الليل ، وهو بطيئاً للدخول في فراشه . ياغته في خلوته وجلوته حتى ضاق به ذرعاً على ما فطر عليه من سعة صدر . ثم غضب على والده الملك حسين ، وكتب فيه ما لا يكتب وطعن في نسبه بما لا يقره عليه عاقل . أطلمني على الطعن صديقي الأمير شكيب ارسلان في برلين وقال : انظر ما كتب صاحبك ، فقلت له هو صاحبك قبلي ، وأنتم تقارضان المدعي . قال شكيب ؟ أنت تعرف ما بيني وبين المهاجرين من أجل السياسة التي انسجوها في معاونة الدولة ، ومع ذلك لا أستبيح أن أطعن بهم هذا الطعن ، وأرى من واجبي إذا رأيت الطفل منهم أن أقبل يده لأنه ابن الرسول .

كثير من يصدّعون الأمير فيصل بزيارتهم ، وهو يقابلهم بلطاف ، ويرضىهم بما يصل يده إليه ، وكانت الفوضى بادية في ادارته في دمشق ، على نحو ما كانت ظاهرة في حملاته بالبادية . وإذا كان له بعض العذر في فوضاه يوم كان في الصحاري ، فهو لا يمذر على الفوضى في حالة الاستقرار بالمدن . والفوضى تبدو جلية في الحضر أكثر من البوادي . وكان الاسراف في قصره كثيراً ، وفيه سرّاق من كل صنف وأناس لا يهتمون لنير مصلحهم ، وكان الانكليز يمطونه كل شهر مئة وخمسين ألف جنيه مصرى ، ينفقها بكثير من التبذير ، هذا عدا ما في هذه الديار من موارد تدخل خزينة الدولة ،

وهو يحرس على أرضه مشاعر الاعراب ، ومقدمة الريف ، والزعماء من سكان المدن واستهلاة قلوب المسلمين وغير المسلمين ، والشاميين والنجاشيين والمرافقين والبريطانيين والاجانب ، لذلك كان من واجب أصحابه أن يوفروا له وقته ، ولا يزيدوه أعباً إلى أعباته بمقابلاتهم وطلباتهم ، وهو مضطر كل ساعة إلى أن يقابل أصنافاً من الخلق ، ولو لم يكن لديه إلا المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين ، وكل من الفريقين يحاول أن تكون لدولته الكلمة العليا في الشام ، لكنه ذلك حماً ومشغلاً . أضعف إلى هذا أن القوم لم يربوا التزية السياسية المطلوبة ، ومم خارجون من أيدي حكومات عبّثت بمحاضرهم ، وأضررت بتراثهم .

استصحب الأمير فیصل من باريز الكولونيل تولا ، فأنزله في دار عبد الرحمن باشا يوسف ، وتمرت اليه أول وصوله ، ونبت على حاشية البشا وأقاربه ألا ينطلقوا أمامه بالكلام ، ولا يستعملوا معه غير الأدب تحفظين ، اذ قد يدرك الغريب الأعمي مرئي ما يتكلم به المتكلمون من نبرات أصواتهم ، وأسابر وجوههم ، وإن جهل اللغة التي يتحاطبون بها . وطال نزول الكولونيل في دار صديقي عبد الرحمن باشا ، وهذا يكرر رجاهه ألا انقطع عن الدار ، لأن أعماله الخاصة تضطره إلى انتفاض ، فأكون أنا مع ضيفه على المائدة ، نائباً عن صاحب البيت ، وكان السبد تولا لا يترك القصر في النهار كثيراً ، ويجلس في ردهة الاستقبال يتوقع أن يكلمه أحدهم أو أن يتكلموا أمامه . وتبين بعد أشهر وقد نجزت مهمته ، أنه يحسن العربية ، وما نطق بحرف منها أمامي ، ولا أمام أحد من أهل الدار ، مدة مقامة بينهم . فحمدت الله تعالى وجماعة المضيف على هذا الاحتياط ، وعلى ما ظهر به بدت عزيزي البشا من مظاهر الود والأدب أمام الغريب .

تعلمت هذا التحفظ من حادثة وقعت لنائق كمال الأدب التركي المشهور قصها على صديقي الأمير أمين أرسلان قال : كان نائق بك مسافراً في

قطار الشرق من الاستانة إلى سويسرا ، يصحب بعض أدبائهم ، وكانت في المركبة عجوز أفرنجية . فأخذ مع رفاته بأطراف الحديث ، وتشادوا بالاشعار ، وتطرقوا إلى ما ابتلوا به من رفقة تلك الشمطاء الدردليس ، وأطلوا في هذا الباب وأكثروا وهي كالمثال المنصوب لابدي ولا تبدي ، ولا تكلم ولا تبسم ، ولا تببس ولا تنبض . ولما قربوا من لوزان تقدمت العجوز إليهم ، وكلامهم بلغة تركية راقية ، وقالت إنها مسروقة بساع كلام أدباء الترك ، وقالت إنها لم يجر لسانها باللغة التركية منذ مدة ، وعرفتهم بنفسها فكانت امرأة سفير انكلترا في الاستانة سابقاً ، فقصوا لما بدأ من فلتات لسانهم ، ولما دل ما فاهموا به على قبح أدب . ثم دعوه إلى تناول الشاي في منزلها من الفد في مدينة لوزان ، فأجبوا أن يقاتلو من دعوها ، فأصرت عليهم ، وأرسلت من عرف المنزل الذي ارتدواه ، فاضطروا إلى الحضور مكرهين ، يتمشرون بأذيال الخجل ، ورأواها قد دعت سرباً من حسان الاواني والمقاييل ، وما تركت للإدب التركي ورفاته بمحالاً ليغتصروا ، وودعهم إلى الباب ومن حولها الشابات الصالحة ، كائنة بعض وصيفاتها وخادماتها . وهكذا ضربت الانكليزية رفاتها في القطار ضربة موجعة على ام الرأس .

والانكليز من أعرف الأمم بتسقط الاخبار ، ومن أقدر الخلق على كظم غيظهم ، حدث أن سفير انكلترا في الاستانة أرسل إلى فنصل دولته في دمشق ، قبيل الحرب العامة بنحو شهرين ، يقول له إن ضابطين تركيين برتبة كبيرة غادرا الاستانة إلى فلسطين ، ولم يعرف الغرض من سفرهما ، وطلب إليه التحقيق عن الدواعي اليه . فبحث الفنصل عن الضابطين فلم ان وجوهها فلسطين ، وملأ سنتين من المأكلي والمشروبات ، وتحمّندخول الضابطين إلى المركبة في قطار فلسطين فركب معها فكلمه بالفرنسية فقال لها بالإنكليزية إنه سائح أميركاني ، ولا يعرف غير الإنكليزية ، وأخرج كتاباً انكليزياً يتلوه وتتفاني ، ثم نبش السلة وفتح زجاجة من النبيكي

ودعها لتناول قدحين فأجباه إلى دعوته الطفيفة، ثم شرب وناولها واطمئنها ما يترزان به، وأخذنا بأطراف الحديث، وقال أحدهما لصاحبه لتكلم بهذا حيوان لا يفهمنا. ولكن الفصل كان يحسن التركية، وما إن بلغ القطار محطة سخن حتى عرف المبة التي ها مسافران من أجلها. ونزل من القطار وازل سلبيه، وسلم على رفيقه، وانتظر قطار دمشق فركبه، وكتب إلى سفيرة بسر الصابطين.

وما يدل على مهارة الانكليز بأخذ الأخبار حادثة سمتها عن رجل منهم عاش بين الأتراك في الحرب العالمية أربع سنين، وهو من أعلم الناس بقلوبهم، ومن أقرب رجال الحكومة إلى تأخذ أسرار الدولة. ذلك أن جمال باشا لما أتى الديار الشامية استصحب معه من الاستانة شاباً شرکسياً اسمه ضياء بك، كان مقدماً عند الاتحاديين ونائباً في مجلس النواب العثماني وتمارفت إليه وتحككت به، فألفيته ذكراً مرحراً يحفظ بعض جمل بالعربية ويوردها في المناسبات، وكان ينادي (يا خالي) إشارة إلى أن أمي شركسية وهو أخوها. وكان يطلع على أشياء شخصي ويتقوى عزمه ويدو همي، وأنا أستغرب منه ذلك وأقول: هي التربية، ولا بد أن يكون هذا الرجل عاش مع جماعة راقين مدة في أوربا. وأسبحت لضياء بك منزلة في معسكر القائد العام، يذهب في المهام، ويؤتمن على الأسرار ويجتمع إلى من يحب، ويختلط بالناس، ولا يعرف عنه غير هذا.

وبلغني بعد الحرب أن هذا الرجل الشرکسي كان انكليزياً صرفاً. ولد في القوقاز بين الشركس فعذق لهم، ثم انتقل إلى آسيا الصغرى، ونشأ بين الشراسة كأنه واحد منهم، وتدخل مع الاتحاديين فعدوه في جلتهم، وانتخبوا نائباً في المجلس الثاني عن إحدى مقاطعات الأناضول، ثم ثبتت الحرب الكبرى، فكان من حاشية جمال باشا يركب بركوبه وينزل بزوله. وقيل لي بعد الحرب إنه كان معه مجويرات كثيرة، كان يهدى منها من يهدى أكرامه واستخدامه وذكرت اسمه لاحد رجال الترك

بعد عقد المهدنة مع الحلفاء ، وما كان من أمره فقال : عزت عليك ألا  
تذكري بنياً وتناً .

عود إلى الأمير فيصل . قيل إن مبايعة فيصل بملك الشام كانت بتدير  
جماعته الذين عول عليهم واصطدام لسياسته ، وكانوا يعتقدون أنهم يحملون  
إنكلترا وفرنسا أمام أمر واقع إذام تقدموا فيها به ، فلم يرض الانكليز  
والفرنسيون عن هذه المبايعة ، وما دام هذا الملك سوى أشهر ممدودة .  
وسواء كان الانكليز راضين عن هذه المبايعة أو غير راضين ، فقد خذلوه  
لما جاء دور الرسميات . وبدخول الجيش الفرنسي دمشق خرج الملك فيصل  
وبث الفتنة في الجنوب ، ونادى بالنفحة على المحتلين ومن عاونهم ، فكان  
من ذلك قتل الحرارنة رئيس الحكومة علاء الدين بك الدروبي ، وأحد  
وزرائه عبد الرحمن باشا البوسف . وكان هذا دعاني إلى أن أصبحه في  
رحلته هذه ، فاعتذررت وقلت له : ما دمنا نسافر غداً إلى بيروت فأنا في  
هذا التهار أترغب لقضاء أشغال ، فسلمت بفضل الله من هذه القائلة .  
وعلاء الدين بك الدروبي من أهل حمص ، تخريج بعد أن درس في المدرسة  
الميكية بحسين حمي باشا في الادارة . وأظهر نكراناً لجميل فيصل ، وتناسي  
أفضاله عليه بعد رحيله ، فطمئن فيه في دار الحكومة في خطاب رسمي .  
وتهور بعد ذلك بزيارة حوران ، وكان متصرفاً عنها السيد أبو الخير الجندي  
كتب إليه سراً أن الحالة الروحية سيئة في لواهه ، فالإولى أن يؤخر  
رحلته فلم يستمع له ، وكان في ذلك حتفه وحتف صديقه وغيرها ، وبمقتلها  
خربت حوران ، بما ضرب عليها من الغرامات ، وما عرف القاتل الحقيقي .  
كان القوم على عهد فيصل في قلق واضطراب ، يعتقدون أعظم الامانى  
على ملك الماشيين ، ويرجون بهم إرجاع دولة العرب . وأكثر ما أضر  
بذلك الملك وعجزه في القضاء عليه الاعتماد على الصمالق الأغمار ، ومظالمهم  
أطفال في السياسة يريدون الظهور والانتفاع قبل كل شيء ، وكان الأهلون  
من ذلك في غمرة ، ولو طال ملك فيصل ، وأراد الانكليز نجاحه لما كان

صيده ما كان . فقد رأيناهم لما صحت عزيمتهم على فلاحة في ملك العراق كيف هبوا له ذرائع التوفيق ، وكان هو قد تعلم سياسة الخلق في الشام فما ارتكب ما ارتكب هنا من أغلالات . هذا والمقالة المارفوت بمحضها على أن استمداد الشاميين للحكم أكثر من استمداد العراقيين ، والنور باكر الأولين قبل أن يباشر الآخرين ، ولكن حظ العراق أعظم من حظ الشام ، وللبقاء نصيبها من الشقاء والسعادة .

ومن أسباب زوال ملك فيصل من الشام ضعف إرادته ، ومن ضعف إرادته أنه كان من أسرع ما يكون إلى نقض القانون في فهو في الحال عن التمس منه الصفع عنه ، ولو كانت المادة مادة قتل والمساحة بها لضر بمصالح الدولة ، وكانت كثيراً ما يهدى إلى سياسة الارضاء ، فقد نصب الشيخ تاج الدين بن الشيخ بدر الدين رئيساً على العلماء في دمشق ولا تتجاوز سنه يومئذ الحادية والعشرين .

وكان المتكلم الآخر مع فيصل هو الذي يقبل رأيه ويحمل على كلامه مما بلغ من سخف وضعف . وقد صحبه صديقي الاستاذ فائز بك الفصين وهو من أذكياء العرب ، كان أبوه زعل الفصين من رؤساء العجالة — في رحلته إلى باريز فلم يلبث أن رجع ، فسألته عن سبب عودته قبل إنعام أمال الأمير فقال : إن الأمير يصعب العمل معه ، فهو أذن يستمع لكل من يأتيه بخبر ، زراه أبداً متقلقل الرأي ، ضعيف المزيمة ، وحقيقة ما قاله ابن الفصين ، فإن الأمير لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين ، ما وقعت وقمة ميسلون ، ولا دخل للمتدبرون أرضنا بالقوة . ومع هذا فقد كان من أفضل أولاد الحسين ، أسمع صوت العرب في الغرب ، وعرف السياسيين بأن للشعوب العربية مطالب يثورون من أجل تحقيقها ، وأنهم أمة ذات ماضٍ مجيد ، يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار ، فنشأت بذلك مسألة اسمها المسألة العربية .

## بطريرك الروم

عرفت صديقي البطريرك غريغوريوس حداد قبل الحرب العالمية ، ولا أذكر بأي واسطة من وسائل التعارف كان اجتمعنا أولاً ، وبلني عنه أن أحد الشمامسة جاءه ذات يوم يقول إن الخنطة التي كانت مخزونة في مخزن الدير بدمشق قد كادت تنفد ، واقتراح على بطريركه أن يخسر بصدقائه أبناء طائفته بعد ذاك اليوم . وكانت البطريركية لا شئ الجوع أيام الحرب الم匝مة توزع طعاماً على الفقراء من جميع الطوائف . فبعض البطريرك ، وصمت دقائق ، ثم قال للشمامس ساخراً : إذهب ولا تعط صدقة إلا لانسان ترى منقوشاً على جبينه (روم ارنوذكس) ، وخصه بالطعام ولا تعط لغيره شيئاً . ثم قال بصوت متهدج : إدفع الصدقة لكل من يطلبها ، فانطلق كلهم عيال الله .

”نقل إلى“ هذا الحديث عن ثقات أعتقد صدقهم ، فمعظم البطريرك في عيني ، وأيقنت أن نفسه صفت من لوثات التمصب الأعمى ، وكنت في دعوة أقامها في دمشق قائد الجيش جمال باشا ، وكان السيد غريغوريوس في جملة المدعوبين ، ولما اقترب من الردهة همست في أذن القائد وقلت له : إن هذا البطريرك من العلماء الأجلاء ، ومن أهل النقوى والصلاح ، وهو إلى هذا عريق في عثانته أكثر منكم ومني ، وقصصت عليه باختصار ما كان منه مع الشمامس في توزيع الصدقات على المساويج من كل نحلة . فقال لي الباشا : هذا الرئيس الذي جدير بأن يعاون إذا . فقلت له : ويكون لعاونته إذا تفضلتم دولتكم بذلك أحسن الأثر عند طائفته ، وعند جميع الطوائف ، ولا سيما عند المسلمين ، لأنّه محظوظ عندم ، ومحظوظ عند عقلاهم وأهل الرأي منهم . واتصل بي أن «صاحب الدولة» أرسل إلى

«صاحب النبطة»، مقدبر وأفرة من الحنطة، ومنحه مبلغاً عظيماً من المال وأحله من نفسه محل التجلة والاكرام، وما زال على معاوته حتى غادر الشام.

ما اطلعت البطريرك على حد بياني مع قائد الجيش مدة الحرب، لأن مدادتنا كانت حدثة المهد يومئذ، وقد توطدت دعائم المحنة مع البطريرك بعد ذلك، وصرنا نقضي ساعات مما تذاكر في امور علمية وأدبية، ونخوض في موضوعات اجتماعية وسياسية، وما كنا نتعارض ولا تصادم.

قضيت في سوق الغرب في لبنان أيام ما كدت أفارق صديقي، وكان مصطفاً هناك في ديرم، إلا وقت النوم، وكانت أشده مائده في الظاهر وفي المشاه، وما استطعت لما له من السلطان على القلوب أن أفلت من ضيافته.

ولما انشأت الجمع العلمي أهداه ما عنده من الآثار والماديات. وفرغ بعض السنين محل عضو في الجمع كان فيه رجل من طائفة الروم فاحب البطريرك أن يجعل خلفه شخصاً من ابناء طائفته فأيدت، وقلت له : عضويات الجمع توزع على أرباب الكفاءات، لا على المذاهب والديانات، فمذرني.

كانت معرفة غريغوريوس بالتاريخ الاسلامي والفقه الاسلامي كفاه سمة عقله وعظيم تجاربه، وكان من الخطباء الائيناء، والآباء العارفين، لا عمل حدثه ولا تعلم من مجلسه، وكانت كما اطلت النظر في احلاقه أقول إن هذا الرجل جمع بين النصرانية والاسلام، واحد من روح الديانتين كل ما شئت حاجة البشر إليه.

ولما أخذ بعض ابناء طائفته ينقمون منه اشياء ويتحاملون عليه . لطوعت لرد هجاتهم، وقلت لبعض أصدقائي منهم : إنكم تحاولون العبث بأوقف الطائفة، وان تصرفوا بأمورها على هواكم، والبطريرك فيما أرى بمحول بينكم وبين ما تجيرون له، والله لن يكن عليه بكاءً كثيراً اذا فقدتموه، فكانوا يسمون لقولي ويدركون اني عرفت ما تكن صدورهم . وكان ما يعدون عليه أنه يعطي لابنة اخته راتباً شهرياً ، فكفت اقول لهم : إن الذي يأتي طائفته بشرفات الالوف من الجنيهات، يصرفها في تعليم أولادهم وإطعام فقراءهم ،

تستكثُر عليه إعطاؤه عشرات من الليرات في السنة لسيدة محتاجة ، وهي الوحيدة الباقيَة من رحمة في الأرض .

دامت صداقتي مع السيد غريفوريوس إلى أن وافاه أجله . وكانت من أمنع الصداقات ، وأنوفها صفاء . ولما نقل جثمانه من لبنان ليُدفن في دمشق ، كان المسلمون هم الذين تولوا الاحتفال بتشييعه ، فحضر جنازته منهم ما لا يقل عن خمسين ألف إنسان آسفين مكتئبين . وقد عجبت النزالة الاموربية يومئذ ان احتفل المسلمون برئيس ديني لا صلة لهم به في الظاهر ، هذا الاحتفال الباهر الذي يدل على عاطفة كريمة ، فأجبت بعض من سألفي عن سر ذلك منهم قائلاً : لا ننجعوا لهذا الحب المتجلي في هذا الحفل ، فتحاب الناس متصل في قلوبهم في هذا القطر منذ زمن طويل ، وما كانت تقع أمور غير مستحبة بين أبناء هذا الوطن أحياناً إلا بالعابكم ، والماضي ساسة الدول المنهانية ، ورجل من عيار هذا الراحل العظيم يحبه جميع الطوائف ، لأنَّه على شدة تمسكه بيديه ما عقل عن حقوق وطنه ووطنيته . ومع انه بطريرك أسطوري وسازِر المشرق ، وطائفته في هذه الديار أكبر الطوائف النصرانية عدداً ، فهو أقرب الرجال إلى قلوب السود الأعظم من السكان ، يحبونه حبَّم لاعن رجالهم ، وكثيراً ما أطلقوا عليه اسم بطريرك المسلمين محمد غريفوريوس . وزار مرَّة بيروت فخرج إلى لفائه أربعون سيارة تحمل مساقطين من أرق طبقات المسلمين وكانوا يصرخون وهم فرحون بقدمه عاصِم : إنا نستقبل حبر النصارى والمسلمين . كان السيد غريفوريوس من التفاني والزهد على جانب عظيم ، خرج فيما روِيَّ لي عما يملك من صلبان الذهب ، باعها وأنفق ثمنها في إطعام الفقراء وإغاثة المأسفين مدة الحرب العامة ، وكان يرقص ثوبه ، ويُخصِّف نعله ، ولا يأْمِن إلا إذا قصده قاصد وليس لديه مال يواسيه به . ولطالما قلت امام المواقف والمخالف إن غريفوريوس من أعرق الناس في حب قوميته ، وأكثُرهم تناغماً بعربيته ، واتهَّفَ لو كان كثيراً من مشائخ المسلمين على سنته وأخلاقه ، أو كما قلت .

## وفى جناف قلمة وشّون

ألف جال باشا في السنة الأولى للحرب العامة وفداءً من مفاسدي سوريا  
وتقهانها وشرائها ووجوها ، وشفعه بأربعة من الصحافيين أدمجني في جلتهم .  
فأغار الوفد إلى الاستانة ثم إلى جناف قلمة ( الدردنيل ) لبزور المشاهد  
التي تدل على عظمة الدولة ، ويرجع إلى سوريا يخبر أهلها بما رأى  
وما سمع . والحقيقة أن الباخت إلى إرسال هذا الوفد كان للامتداح من أعمال  
جال باشا أيام ولادة الامر في الاستانة ، وكان مركزه مزعزاً فاعترض  
تبيته بهذه الواسطة .

وكان الوفد برئاسة الشيخ أسعد الشقيري المكاوي ، الذاهية الباقة ،  
الذكي القلب ، الخفيف الروح ، وكان يخطب باللغتين العربية والتركية ،  
ويحسن في جملة ما يحسن ادب الكبار ، ويعرف طبائع الاتراك ، لانه  
عاش بينهم زمناً طويلاً ، وكانت دراسته الاولى في الازهر ، ويرجع السبب  
في طلاقة لسانه إلى كون ابيه او جده من اهل وادي النيل .

وانم الوفد مهمته على ما يحب مرسله ، وتجلت في هذه الرحلة اطیاع  
بعض افراده وجسمهم ، فتأذى بهم رئيس الوفد ، وكان يتتوسطي لاكلم  
بعض من يشددون عن قانون الجماعة ، ومصطلح المدینين في الاكل والجلوس  
والسير والاجتماع والخطاب ، فألق وياقي هو من بعضهم عتناً وما دعا إلى  
هذه البلبلة الا عدم التجانس بين المؤذنين ، على ان الوفد لو كان من غير  
جماعة المشائخ ما كان له ذاك الواقع في نفوس اهل الاستانة ، وما عرفوا  
ان منم الجلاء ، ومنهم من يشهد الزور ، وبيكذبون ولا يرون في الكذب  
غصانة ، وقد يفتونك فيما تعتقد محراً ، وبيرون ذلك ما كان محظوراً ،  
ومنهم من يحبون ان يستثمروا كل شيء لجيوبهم ومظاهرهم .

عارض أحد أعضاء الوفد سديق الشيخ بدر الدين النصاني الحلبي ،  
لما بلغنا الاستانة ، وتخلف عنا ولم يرافقنا إلى جناق قلمة . وركب الوفد  
إلى هذه الارجاء باخرة من بوآخر المستشفيات الخاصة بنقل المرضى ، وكان  
الخطر مهدقاً بنا من الغواصات ، وذهب المشائخ بتلون حزب البحر ، داعين  
الله أن ينجينا من الفرق ، فنجونا ببركات انفاسهم الطاهرة ، واز حزبهم  
في البحر وما هاج ، بفضل توصلاتهم ، وتحطمتنا غواصات الحلفاء وما كان من  
المفردين ، ولما عدنا إلى استانبول رأينا مريضنا قد ابلَّ ، فقال لي إنه كان  
يدعو الله آناء الليل واطراف النهار أن يفرق سفينتنا ، لينفذ سوريه من  
ثلاثين شيئاً ، وإن غرت أنا معهم فاته يسكيني ، ويسره أن يكون المشائخ  
طعام الأسماك في قاع البحر . وطالب ذلك شيخ أيضاً ، وقد ظلمه من ادخله  
في سلكهم . قال هذه النكتة وكلامه لا يخلو من حقيقة جارحة .

وعدنا إلى مسافط رؤوسنا يحمل كل واحد منا نوط الحرب وساعة  
من ذهب ، ولكل واحد من أرباب الجرائد مئة ليرة عثمانية معاونة لجريدةه .  
فسقط في أيدي بعض أعضاء الوفد لما بلغتهم ما ناله أرباب الصحف ، ووُدّ  
بعضهم لو كان في الامكان عده في الصحافيين ، حتى يقبض ما قبضوه ،  
ولو بخلع عمامةه وحلق لحيته ، وجعله في مؤخرة الصفوف .

زرت القائد العام في فندق فيكتوريا لدن عودتي من الاستانة ، وصادفت  
عنه رضا باشا الركابي ، فرحب بي ترحياً كثيراً ، وشكري على مهمتي  
في الاستانة ، ثم قال لي : بلغني إنك تحب الذهاب إلى جبل الدروز ،  
لتحدث أهلها بما رأيت في دار الملك . فقلت : هكذا النية إذا صدر أمر  
دولتكم . فقال : نعماً تفعل ، وسارسل معك نسيب بك الاطرش ليتولى  
خدمتك بما لا تقدر أن تتولاه بنفسك ، وعندها تكلم الركابي فقال : يا حسرة  
الباشا كان لفلان ، يعني ، صحيفة سوداء قبل الحرب ، فلما جئن هذه  
الديار يرضي صحيفته بخدمة الدولة ( أو ما هذا معناه ) فقاطعه جمال باشا  
وقال : ثبت لي أخلاصه وغيره على هذه الدولة ، واني ما وقعت به إلا

بعد ان جربته عشرين مرة . ومعنى هذا انه وضع عليَّ عيوناً يأْنونه بأخباري ، وام ما كان بهم له شخصه ورأي فيه . وانا كيف افوه بشيء بؤلئه وهو الذي عاملني معاملة رفع بها من مقامي ، ووقائي اذى المؤذين ، وما اكثُرُهم إذا شاهدوا من يُؤذونه ضعفاً .

وكان في جلة العيون عليَّ شاب من اهل حمص ذكر لي هو ذلك ، وذاك المخوس السافل الدمشقي وكانت الشیخ التغیری قال للبasha ، وقد رأَني في عودتی إلى دمشق كاسف البال وأجماً ، لأن فريقاً من اصحابي سیقوا إلى سجن عاليه مدة غبایبی : إن فلاناً الذي خدمك كثیراً في الاستانة ماذا يكون مصيره بعد أن قبض على أصحابه ، واودعوا السجن رهن التحقيق في عاليه ؟ فأجابه إنه راض عن كل الرضا ، ويعتقد بقوة ايماني وعقیدتي الوطنية ، ويحب أن القاء ليطمئنني بنفسه . وكان أن صدر منه الكلام الذي قاله لي في فندق فيكتوريا .

ولقد شجعني على المضي في نقل حسناً قائد الجيش ، كلما دعا إلى ذلك داعٍ ، نصيحتان لظيمين يمرقان نفسية الكباراء في هذا الشرق . إحداهما نقلها لي صديقي الشیخ أَحمد حسن طبارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني في بيروت قال : أبلغك نصيحة الشیخ طاهر الجزائري - لما عرج على بيروت في طريقه إلى مصر قبل نشوب الحرب بأيام - قال : انشر للإعزاز كل ما يريدونه في جريدتك ، وقل لصاحب المقتبس ان يجري على مثل طريقتك ، وإذا لم تفعل فأنت مقتولان لا محالة . ولكن حب الکسب غالب على طبارة فنشر في جريدة حوادث لا ترضي العثمانين ، كان يبعث اليه بها أحد قناصل الحلفاء مع اجرتها القليلة أيام النفي العام وقبله بقليل ، وانا عرضت على جريدي مثل هذه التشرات لم ار من الحکمة نشرها ، وهي صادرة عن اجنبي لا اعلم النية فيها ، والدولة في اخرج او قاتها ، فسيق صاحبي إلى عاليه ، وهو من جماعة الاصلاحيين ، وربما كان مع غيرهم أيضاً ، وحوكِم من حکم خُنک عليه بالقتل .

والنصيحة الثانية صدرت عن رجل عرف الزمن وأهله معرفة حصيفة ،  
ألا وهو خلوصي بك والي سوريا ، فاني لقيته في الاستانة مُؤْسَرَـنا من  
جناق قلعة ، وكان استقال من ولاية سوريا لأن جمال باشا عزم على قتل المتهين  
بالسياسة في عاليه ، ولما لم يقنعه ولم يقنع الاستانة برأيه في البقاء عليهم استقال ، على  
بُـدـةـ الحـاجـ رجالـ الـدوـلـةـ بـالـبـقـاءـ . ولـماـ لـقـيـتـهـ ظـهـرـ الـكـدرـ عـلـىـ أـسـارـيرـ وـجـوـيـ ، فـالـفـتـ  
إـيـ وـقـالـ : خـلوـصـيـ حـيـثـ كـانـ خـلوـصـيـ ، فـقـلـتـ لـهـ : يـقـيـكـ اللهـ يـاسـيـدـيـ ، إـنـ مـقـامـ  
سـوـلـتـكـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ دـلـيلـ ، وـارـجـوـ إـنـ تـتـنـعـ بـالـصـحـةـ اـنـتـ وـعـيـالـكـ . وـاـنـاـ اـمـدـ بـقـطـ  
سوـءـ حـظـنـاـ ، فـقـدـ كـانـ اـقـصـىـ آـمـالـنـاـ اـنـ تـنـتـفـعـ بـثـرـاتـ عـمـلـكـ وـتـجـارـبـكـ ، وـقـدـ عـلـمـ مـوـلـايـ  
مـبـلـغـ تـمـلـقـ اـهـلـ سـوـرـيـةـ بـشـخـصـكـ الـكـرـيمـ ، لـكـثـرـةـ مـاـ لـقـوـهـ مـنـ عـنـيـاتـكـ بـأـمـرـ مـ،  
وـغـيـرـتـكـ عـلـىـ مـصـالـحـمـ . وـكـانـ اـهـلـ دـمـشـقـ خـرـجـواـ لـوـدـاعـهـ لـاـ رـحـلـ عـنـمـ  
بـكـونـ وـيـأسـفـونـ . ثـمـ قـالـ لـيـ : اـسـمعـ مـنـيـ ثـلـاثـ كـلـاتـ تـنـجـ مـنـ هـذـاـ الرـجـلـ  
الـسـفـاحـ (ـجمـالـ باـشاـ) لـاـ نـطـلـبـ الـذـهـابـ إـلـىـ الـمـانـيـاـ اوـ الـخـمـساـ ، فـاـنـهـ يـعـتـقـدـ اـنـكـ  
تـحـاـولـ الفـارـ اـلـالـتـحـاقـ بـالـحـلـفاءـ ، كـمـ كـنـتـ طـلـبـتـ ذـلـكـ آـنـفـاـ وـارـتـابـ مـنـكـ ،  
وـلـاـ تـكـثـرـ الـاـجـتـمـاعـ بـالـاهـلـيـنـ عـلـىـ مـاـ كـنـتـ تـفـهـمـ ، وـالـزـمـ دـارـكـ وـاـقـلـ مـنـ الـاـخـلـاطـ ،  
وـحـاـولـ مـنـ حـبـنـ إـلـىـ آـخـرـ اـنـ تـعـدـهـ فـيـ الجـريـدةـ ، وـإـلـاـ فـأـنـتـ مـقـتـولـ .  
وـإـذـاـ رـأـيـتـ نـفـسـكـ فـيـ ضـيقـ ، وـإـيـقـنـتـ بـتـغـيرـ قـلـبـهـ عـلـيـكـ ، فـاـكـتـبـ لـيـ اـنـ  
الـجـريـدةـ لـاـ تـنـفـيـ وـارـدـانـهاـ بـنـفـقـانـهاـ ، فـأـفـهـمـ اـنـكـ اـزـمـعـتـ اـنـ تـنـضمـ بـالـاستـانـةـ ،  
وـاـنـاـ كـلـ سـاعـةـ مـسـتـعـدـ اـنـ اـجـدـ لـكـ وـلـلـدـكـتـورـ عـبـدـ الرـحـمـنـ شـبـيـنـدـرـ هـنـاـ مـنـصـبـاـ  
لـاـ بـقـلـ رـاتـبـهـ فـيـ الشـهـرـ عـنـ خـمـسـةـ آـلـافـ قـرـشـ لـكـلـ وـاحـدـ مـنـكـ . فـوـدـعـتـهـ  
وـكـلـيـ اـسـفـ عـلـىـ فـرـاقـهـ ، وـانـفـذـتـ اـمـرـهـ فـيـ كـلـ مـاـ نـصـحـنـيـ بـهـ ، وـحـفـظـتـ  
اجـلـ ذـكـرـيـ لـاـشـرـفـ وـالـيـ عـرـفـتـهـ مـنـ وـلـاـهـ العـشـانـيـنـ .

---

## أهـارـالـتـرـك

عبد صبر والي سوريه خلوصي بك مني ، لكتـرة ما ذكرت له خلال احاديـتنا اسم الـاتـحادـيـنـ، وـلـقولـيـ لهـ جـمـاءـتـكمـ الـاتـحادـيـوـنـ ، وـعـملـ الـاتـحادـيـوـنـ وـقـالـ الـاتـحادـيـوـنـ فـقـالـ ليـ : أـنـاـ لـسـتـ اـنـحـادـيـاـ وـلـمـنـهـ اللهـ عـلـىـ الـاتـحادـيـنـ . هـ فـتـةـ كـيـرـ بـالـمـلـكـ إـلـىـ الـخـرـابـ ، وـعـلـىـ أـبـدـيـهـمـ سـتـنـقـرـضـ وـتـبـيـدـ . وـلـأـنـيـ مـاـ وـصـلـتـ إـلـىـ هـنـاـ وـإـلـىـ عـلـيـكـمـ حـتـىـ دـخـلـتـ فـيـ كـلـ الـمـضـايـقـ ، وـعـرـفـ تـصـارـيفـ الـدـهـرـ بـأـهـلـهـ . وـأـشـارـ إـلـىـ بـالـكـفـ عـنـ نـسـبـتـهـ لـيـهـمـ . وـقـالـ ليـ يـوـمـاـ : ثـقـ يـاـ فـلـانـ أـنـ بـلـادـكـ خـرـجـتـ مـنـ حـكـمـ الـعـمـانـيـنـ وـيـاـ الـأـسـفـ ، بـفـعـلـ هـؤـلـاءـ الـاتـحادـيـنـ الـمـجـانـيـنـ . وـلـمـ سـمـتـ ذـلـكـ مـنـهـ تـطـلـعـتـ ذـاتـ الـيـمـينـ وـذـاتـ الشـهـالـ خـافـةـ أـنـ يـكـونـ سـمـهـ أـحـدـ . وـخـفـتـ أـنـ يـكـونـ اـصـبـ بـضـرـبـةـ جـنـونـ ، فـمـاـ زـدـتـهـ عـلـىـ أـنـ تـنـافـلـتـ وـتـغـایـتـ كـأـنـيـ مـاـ سـمـتـ وـكـيـفـ لـاـ اـخـافـ أـنـ يـكـونـ اـسـتـدـرـجـنـ لـلـكـلامـ ، وـاـنـاـ كـنـتـ بـوـمـذـ اـحـتـاطـ فـيـ كـلـامـيـ مـعـ كـلـ تـرـكيـ ، وـاـتـوقـىـ اـكـثـرـ اـبـنـاءـ الـعـرـبـ ، فـبـالـأـخـرىـ أـنـ اـحـذـرـ وـالـيـهـمـ ، عـلـىـ مـاـ كـانـ يـبـيـيـ وـيـنـهـ مـنـ صـلـاتـ كـلـهاـ وـدـ وـحـرـمـةـ وـثـقـةـ .

وـوـقـعـ ليـ معـ جـنـابـ شـهـابـ الدـيـنـ بـكـ مـنـ عـلـمـاءـ الـتـرـكـ وـادـبـيـهـمـ - وـكـانـ دـعـاهـ جـمـالـ باـشاـ هوـ وـصـدـيقـهـ سـلـيـمانـ نـظـيفـ بـكـ عـالـمـ الـأـدـبـ الـمـهـوـرـ لـزـيـارـةـ الـدـيـارـ الشـامـيـةـ وـأـوـصـانـيـ بـأـنـ الزـمـهـماـ وـاـكـرـمـهـماـ ، وـنـزـلاـ فـيـ دـارـ صـدـيقـيـ عبدـ الرـحـمـنـ باـشاـ الـيـوسـفـ ، وـقـدـ خـلـونـاـ مـرـةـ بـأـنـفـسـنـاـ فـيـ رـدـهـةـ الـاسـتـقبـالـ ، وـكـثـيرـاـ مـاـ كـنـاـ نـخـلـوـ وـتـسـارـ - وـقـعـ ليـ اـنـ قـالـ مـاـ اـدـرـيـ كـيـفـ اـصـفـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ قـبـضـواـ عـلـىـ زـمـامـ الـمـلـكـ ، وـكـاـئـنـهـ مـسـأـجـرـونـ لـلـقـضـاءـ الـأـخـيـرـ عـلـىـ هـذـهـ الـدـوـلـةـ ، لـهـمـ سـخـفـاءـ اـغـيـاءـ بـجـاهـلـوـنـ اـنـ يـسـتـأـرـوـاـ فـقـطـ بـالـدـعـوـةـ إـلـىـ الـقـومـيـةـ الـتـرـكـيـةـ (ـالـمـنـكـلـمـ مـنـ صـحـيمـ الـتـرـكـ)ـ وـلـاـ يـتـرـكـونـ بـجـاهـاـ لـنـصـفـ سـكـانـ الـمـلـكـةـ

وهم العرب ان يجروا على منالمهم في هذا المضمار . هذه الملكة يا صاحبي لا تعيش إلا كما تعيش امبراطورية النمسا والمجر ، ولا معنى ان اختصانا بالدعوة القومية التركية ، ولا يكون لك انت العربي حظ منها . فاما ان ادعوا انا وتدعوا انت ، وإما ان اكف عن الدعوة وتكتف انت . هذا هو الانصاف .

— قال : حقاً إننا ضعاف في إدارة الشعوب والمالك ، وقد حاولنا فيها ماضى ان نترك الروم فخرج الروم عن حكمنا ، ثم حاولنا بعد ان تركوا الصربي والبلغار والرومان فخرجوه كلهم عن حكمنا ، وحاولنا ان نترك الالبان فزعوا ايديهم من ايدينا ، والآن نحاول ان نترك العرب وسيخرج العرب من سلطاننا . وسألته ما العمل إذا ؟ قال : لا شيء ، قريباً يخرج عليكم الافرنج من البحر فتسقطون في ايديهم غنيمة باردة . نبه على من تحب وتعرف ان يدخل قوتاً في بيته يكفيه وعياله اشهرأ ، فربما طال حصاركم ، ولا تقروا فيها سوى ذلك .

وقال لي مرة « جناب » المشار إليه ، ونحن سارون في بعض ازقة دمشق على الأقدام ، وقد رأى حمل حطب على حمار يسوقه صاحبه مذعوراً ، كأنه يهرب حشيشاً أو أفيوناً . أصحح إن الحطب عنبر في هذا البلد ؟ فقلت له : نعم ، حتى أتنى من ذمدة احاول ان أجلب إلى داري حطباً من قرني وأخشى ان يصادر في الطريق . فاهتز لهذا وقال : اذا كان مثلك لا يقوى على جلب حطب بيته من مزرعته ، فكيف تطلب من العرب أن يحبوا الترك ؟ كل جفاه يبدو من العرب نحونا هم معدورون فيه .

هذه حرية علماء الترك ، وهذه نقوسهم الصافية ، وهذه ثقفهم بالخلصين من إبناء العرب . ولقد بالغ الاديان التركيان لما حللت الاستانة بالحفاوة بي . وكان سليمان نظيف يقول لي : انا هنا اخدمك كما كنت انت تعاملني في دمشق . فأقول له : إن مقامك يا مولا ي عظيم جداً ، فأرجوك ألا تعاملني بهذه

المعاملة . فكان يقول : أنا أتوم بواجب ، وسلطتك على أمّاكن لا عهدك بها في هذه الماصمة ، وحقيقة أطعنني على خزانٍ كتب لا أعرفها وعرفني إلى شخصيات عظيمة ما كنت لولاه أصل إليها . وكانوا إذا حضروا مجلسه يوم الأحد من كل أسبوع يعرفي إلى من لم أكن أعرف بقوله : هذا من أحرار العرب هذا صديقي فلان . ويدعوهم إلى أن يتكلموا بحرية أمامي كأني منهم ، وبذلك عرفت مكانة رجال الترك معرفة يصعب أن يعرفها كثيرون حتى من الترك أنفسهم ، وأوقفني على ما كان يستتر عن الغريب لا محالة ، أهديته لما كان في دمشق اعداداً من مجلة المقتبس فطالعها مطالعة امعان ، وقال بعد أيام لصديقه جناب بك شهاب الدين : طالع هذه الاعداد التي تفضل صديقنا كرد علي وأهداه إياها ، إنما إلى الآن لم نستطع ( اي الترك ) أن ننشر مثلها ومتى طالعها تحكم على العرب . فقلت له : هذا من فضلك وحسن ظنك بالعرب . فقال : هذه الحقيقة وتعرف أني لا أحب النفاق .

وفي الحق أن المنورين من علماء الترك وأدبائهم كانوا يحبون العرب . ويعجبون بالأداب العربية وبتاريخ العرب ، ويشمرون من كل من ينال منهم وبطعن فيهم ، وكان رجال الاستامة مثالاً من هذا اللطف والمطاف .

قلت لصديقي علي كمال بك — من أكبر أدباء الترك وكتابهم ، وكان يحفظ جائباً عظيماً من شعر المتنبي والمعري ويستشهد به في كتاباته بالتركية — عندما دخل الأمير فيصل إلى دمشق وكنت في الاستانة : بلغني ما ساءني من أخبار بلدنا ، بلغني أن شكري باشا الأيوبي عامل الاتراك معاملة نابية عن الإنسانية ، لما جلت الحكومة العثمانية عن ديارنا ، وأنه لم يحسن معاملة النساء خاصة . فقال لي : لا تصدق يا عزيزي ، العرب لا يصدر منهم مثل هذا ، لو دخل الاتراك عليكم ظافرين لعاملوك بهيل هذه المعاملة ، أما أنتم العرب فلا تفعلون ذلك . فتوقف فكري لقوله ، وجاءت الأخبار بعد أسبوعين أن الامر في دمشق كان خلاف ما بلغني أولاً ، وأن الاتراك لقوا عند سقوط دمشق من أخواتهم العرب كل رعاية . فذكرت ذلك لعلي كمال بك فقال : أما قلت

لك ، أنا عارف بطباعكم ، وكان قضى شطراً من حياته في مصر وفي حلب ، وهو الذي من فه الكماليون شر مزق لا وافت جموعهم ضواحي الاستانة ، وكانت لي معه في مصر وفي أوربا مذاكرات ومهماسات . وكان الاتحاديون لا أول نشأتهم غاضبين عليه فقلت لطلمت باشا وزير الداخلية : إنكم تحسنون سنماً إذا استدعите من اوربا ، وكان أمامكم هنا ، وربما سار معكم ، إذا أحسنتم سياسته ، وذلك خير من أن يكتب فيكم وهو أبىد . فاستدعوه وجلوه استاذًا في دار الفنون ثم أصدر جريدة (پام پام) ووقع الخلاف بينهم لأن الاتحاديين لا يحتملون الحرية ولو كان من بدرت منه تركياً من صيم الترك مثل علي كمال بك .

وأنفق لصديقي أحمد جودت بك صاحب جريدة (أقدام) أكبر صحف الاستانة في عهد العثمانيين أن نشرت جريدة مقالة عن الحين فيها طعن في العرب ، فتحمس بعض طلابنا في الاستانة ، وهاجروا ادارة (أقدام) وحطموا الزجاج ، ومرقو الأثاث ، وشتموا صاحب الجريدة . فكتب المقتبس بوجن طيبة العرب ، على ما أتوه مستكراً له واعتذر عن صاحب (أقدام) بأنه قد لا يكون اطلع على المقالة ، ولو رآها لما نشرها . وصحح أن الامر كان كما قدرت ، وصاحب (أقدام) كان آية في أدبه واطلاعه ، ما أحصيت عليه غلطة في باب الطعن بالعرب ولا غيرهم ، وعلى المكس كان يرفع مقام الامة العربية ، وما كان في رجال الصحافة من يعاتله بوقوفه على روح المملكة العثمانية وخصائص شعوبها . وكان لدفاعي عنه في المقتبس تأثير كبير في الأندية التركية في العاصمة والولايات أدركوا به أن العرب يحبون الترك ، وأن عقلاهم يرباون بأبنائهم عن أن يشبووا على المشاغبة والسلطة وقلة الانصاف . وأثبتت أحمد جودت ، ولطالما أثبتت من قبل ، أنه عظيم في ذاته واخلاقه ، ولم يهبط النفس هواها ، وظلَّ على حبه للعرب وتقدير قدر علومهم وأدابهم وحضارتهم . كانت لي صلات عظيمة بكثير من أدبائهم وشعرائهم وعلمائهم ، ومنهم صديقي جلال نوري بك وكان صاحب جريدين يوميتين أصدرها أحدهما بالتركية

والثانية بالفرنسية ، وكان من عظاء المفكرين فيهم ، وله عدة تأليف مفيدة نقل بعضها إلى العربية ، ولم أر في جميع ما قرأته من كتبه ومقالاته كلة واحدة لشعر بالخط من قدر العرب ، وهي المكس كان معجباً بتاريخهم أكثر من العرب أنفسهم ، وقال إن أنه لم تنجب عالماً واحداً يذكر من عيار ابن رشد ولا غيره من علماء العرب وفلاسفتهم .

ومنهم صديقي لطفي فكري بك وهو من الأكراد المتركون ، على ما كان صديقي ديران كيليكيان رئيس تحرير جريدة صباح من الارمن المتركون ، وكان هذا غاية بين كتاب السياسة عند الترك بقلمه وطول باعه ونفسه . وكان لطفي بك عظيماً في حريته وبلغته حتى قال فيه صديقي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ، وكان قد أقرأ مقالاته في جريدة التي كانت تصدر في الاستانة لسان حال المعارضين ، لما سمعه يخطب في حديقة الامة بدمشق : مارأيت مثل هذا الرجل جمع الله له المزايا العجيبة التي قل أن يمن بها على أحد ، فهو كاتب عظيم ، وخطيب عظيم ، جميل الوجه ، جيل النعمة ، قوي الحجة ، واسع الحرية .

هذا إلى أمثالهم من يقل في رجالنا أشياهم ، وقد نقدمونا في الكتابات السياسية والاجتماعية . وكثيراً ما كنت أعارض بين مقالات أرقى جرائدنا وأرقى جرائهم ، فأجد جرائد الترك أرقى كتابة وبحثاً وتوسعاً من جرائد الاقطار العربية ، ذلك لأن دولة الترك العثماني امتازت منذ القديم برجالها في السياسة ، كما امتازت برجالها في الحرب ، ولم تنجب في غير هذين الفرعين ، وأرباب الفرائض عندم كانوا يدرسون كما يدرس أرباب المعرفة من الأفرنج ، بحاولون أبداً اتقان صناعتهم . وكلامي هذا يتناول المملكة العثمانية ورجالها من الترك قبل انتصارات العرب عليهم بعد الحرب الكبرى .

# جمال باشا والبارون أوينهايم

كنت مع جمال باشا في حلب بعد قدومه الشام بعده وجية ، و كنت نازلاً معه في فندق بارون ، وبينما أنا جالس في الصباح على سطح الطابق السفلي مع الشيخ أسمد الشقيري تمازح وتنضاح ، وقعت على رأسه من الطابق المعلوي قطعة من الخبز ، فالتفت فرأيت جمال باشا مع والي سوريا خلوصي بك ، فوجئت الخطاب إلى جماز باشا في الحال وقلت له : دم الخبز تقدفنا به يا باشا ؟ فنعتك علينا داقفة ، يقول المثل العربي (أجمع كلبك يتبعك) وأنتم بحمد الله أشبعتم كلابكم ، وهو يتبعونكم حيث ذهبتم . فأغرب وصاحبه في الضحك وقال : قبحك الله ، لسانك طلاق لا يسكن فأجبته : إذا وجد مجالا للقول قال .

وقال لي الباشا في هذه السفرة : هل تعرف البارون أوينهايم ، فقلت له : أعرفه من مصر معرفة جيدة ، فقال لي : إحدى منه هو رجل دساس فحفظت وصيته وعملت بها . ووافي البارون أوينهايم دمشق لتأسيس جريدة ألمانية عثمانية باسم (الشرق) ، فاستدعاني وتفاوضنا طريقة إصدارها ، وبحثنا في الأشخاص الذين سيؤازروننا ، وما قلته له لنضم إليها يوسف أفندي الميدى فقال : ومن هو يوسف العيسى قلت : صحافي من يافا . فسألني عن دينه فقلت روم أرثوذكس ، فانقبض ، وكان كثيراً ما ينقبض صدره من المسيحيين إذا رأهم أو ذكرروا أمامه ، وذكرت له أن العيسى ما كان من حزبي ولا من أصدقائي ، ولما كتب في الصهيونية أحبيته . فاتفضل البارون وقال : إذا حارب الصهيونية فهو عدو بلاده ، فسكتْ وساد المكوت ، ووقع في نفسى في الحال أن البارون يهودي النحله ( ابن حايم حرفت أوينهايم على ما يظهر ) يؤيد ذلك أنه كثيراً ما سمعته يقول بدون أن يسأل :

Grace à Dieu je suis un bon Catholique .  
الحمد لله إني كاثوليكي تقي .  
وعاد البارون بعد حين يحاول مفاوضتي فأعرضت عنه ، واغضبت عن  
الاجتماع إليه . ورأيته في الشارع مرة فلم أسلم عليه السلام الذي كان  
يتوجه معي . وبعد حين علمت أن البارون قصد إلى جمال باشا في القدس  
وشكاني إليه ، مدعياً إني لم أساعده على إصدار الجريدة المساعدة الواجبة  
لأنني أفرنني التزعة والعواطف ! وهو ألماني ، لا أحب له النجاح في مهمته  
قال : ولو كنت أفرنسيًا لكان عطفه أكثر من ذلك . وقال : إن ديار  
الشام لا تستريح ما دام هذا الرجل حيا ، اقتلوه فإن خيانته لكم لا تحتاج  
إلى دليل ، وأشياء من هذا القبيل انبعق بها ، وهو لا يرى من الباشا  
إلا الابتسم ، وقال البasha على المائدة لرئيس أركان حربه فؤاد بك : جاءني  
هذا الصباح البارون أوبنهايم يسوس لي صحيفة (كرد علي) ويقترح علي  
أن أقتله لأربع البلاد منه ، بدعوى أنه أفرنسي بشعوره ، ولا أنه لم يعاون  
البارون على إصدار الجريدة ، وبالحق إن (كرد علي) كبير في عيني كثيراً  
لأنه أخذ إرادتي ، فأنا الذي حذرته من البارون منذ مدة ، فـ فأنا  
قولي له ، وأم يخرج عن العمل باشراتي .

ومن عجيب الأخلاق أن هذا البارون نبي أو تناهى سعيه في قتلي زمن  
الحرب العالمية ، وباغتفى منذ بضع سنين وأنا في مكتبي الرسمي في وزارة  
المعارف ، فقابلته بتوجههم ، فلم يفهم ما قدمت به ، وألح بطلب تأليف هدية  
لخزانة كتبه ، فاعطيته إياها لأسلمه من إلحاشه ، ثم جاءني هذا الربيع  
(١٩٣٩) إلى داري ، وكان كتب لي كتاباً يطلب مقابلتي فلم أجبه ،  
وقصدني مرة ثانية في داري فلم أقبله ، وأنا في الدار . وبلفني أن دولته  
حجزته من التصرف بأمواله ، لاسرافه فيما قيل في الاتفاق على ربيطة له  
(هو في الثانية من عمره اليوم) والحقيقة أنه من أصل يهودي ، واليهود  
اليوم أعداء ألمانيا الألداء ، ولديه مجموعة من العadiات النفسية يخشوون

خروجها من ديارهم ، وهو ينفق على حفريات بمحربها في أقصى حدود الشام  
بمعرفة علماء ممروفيين من الانسان ، ومنهم من يكتب له الكتب فتصدر  
باسمه ، لأنّه على ما قال لي أحد عذرائهم لا يحسن أن يكتب بلقته كتابة  
لاتفاقه ، وهو من طبقة الموام فيها ، وملوّماته ضئيلة حتى في الفن الذي  
يدعوه ، وهو فن العاديات والآثار ، وقلت لمن يتولى من كتب البارون ما  
يتولى ، ما قاله أحدهم في القديم : اللهم ارزقني حظاً يخدموني به أرباب  
الخطوط ، ولا ترزقني خطأً أخدم به أرباب الخطوط . وكم في المؤلفين المزيفين  
وكم من أغبياء عالمهم فقراء بمقولتهم ومعارفهم .



## أهـار الـعرب

كـت أـبـدـاـ اـحـادـرـ التـبـطـعـ مـقـنـاـصـ (ـوـمـ الـأـجـانـبـ عـامـةـ)ـ فـيـ سـيـاسـةـ الـعـمـاـنـيـنـ .ـ وـكـثـيرـاـ مـاـ أـذـابـيـ إـذـاـ جـالـواـ فـيـ مـشـلـ هـذـهـ الجـولاتـ ،ـ وـكـنـتـ أـوصـيـ رـفـاقـيـ مـنـ يـخـلـفـونـ إـلـيـهـمـ أـنـ يـأـخـذـوـ حـذـرـمـ فـلاـ يـصـرـحـوـنـ بـأـكـارـمـ لـأـنـاـ لـأـنـمـنـ مـنـ أـنـ يـشـيعـ مـاـ يـقـالـ لـهـمـ .ـ وـمـ فـيـ الـفـالـبـ يـدـونـوـنـ مـنـهـ المـهـمـ ،ـ وـمـ كـنـبـ يـتـنـاقـلـ وـلـاـ يـؤـمـنـ ذـيـوعـهـ .ـ وـمـ كـانـ يـخـطـرـ بـالـبـالـ أـنـ تـنـشـبـ الحـربـ الـكـبـرـىـ ،ـ وـيـتـوـصـلـ الـعـمـاـنـيـنـ إـلـىـ أـنـ يـضـعـوـاـ أـيـدـيـهـمـ عـلـىـ أـورـاقـ الـقـنـصـلـيـاتـ وـلـاـ سـيـماـ قـنـاـصـ فـرـنـسـاـ .ـ وـقـدـ اـحـتـاطـ قـنـاـصـ الـبـرـيـطـانـيـنـ ،ـ فـأـحـرـقـوـاـ مـاـ دـلـيـمـ مـنـ الـأـورـاقـ ،ـ وـكـانـ عـنـدـ قـنـصـلـ دـمـشـقـ مـصـورـاتـ وـخـرـائـطـ حـفـظـ النـقـاطـ الـمـهـمـ مـنـهـاـ وـأـحـرـقـ الـأـصـلـ .ـ

وـمـ رـجـالـنـاـ مـنـ كـانـوـاـ لـأـيـخـاطـوـنـ كـثـيرـاـ فـيـ كـلـامـهـمـ مـعـ الـقـنـاـصـ ،ـ وـهـذـاـ سـقطـتـ الـدـوـلـةـ الـعـمـاـنـيـةـ فـيـ أـورـاقـ وـكـلـاءـ الـدـوـلـ عـلـىـ أـسـرـارـ بـاحـ بـهـاـ بـعـضـ أـحـرـارـ الـرـبـ ،ـ وـكـانـتـ مـنـ الـعـوـاـمـلـ فـيـ تـحـجـرـمـ بـعـضـهـمـ وـمـحـاـكـمـهـمـ فـيـ الـدـيـوـانـ الـعـرـفـ ،ـ وـالـحـكـمـ عـلـيـهـمـ بـالـقـتـلـ صـلـبـاـ ،ـ وـمـنـ صـلـبـوـاـ وـهـمـ زـهـرـةـ الرـجـالـ صـدـيقـ عـبـدـ الـوـهـابـ بـكـ الـإـنـكـلـيـزـيـ ،ـ وـلـاـ حـكـمـ الـدـيـوـانـ الـعـرـفـ عـلـيـهـ بـالـقـتـلـ بـكـ سـلـبـ أـعـضـاؤـهـ ،ـ وـلـوـ عـرـفـ أـنـ سـيـحـاـكـمـ وـيـحـكـمـ عـلـيـهـ لـرـضـيـ باـقـتـراـحـ طـلـمـتـ باـشـاـ وزـيـرـ (ـوـسـيـدـ الـدـاخـلـيـةـ عـلـيـهـ ،ـ أـرـادـهـ أـنـ يـهـيـءـ لـهـ سـبـيلـ الـهـرـبـ مـنـ الـاستـانـةـ إـلـىـ الـخـارـجـ هـمـاـعـزـ وـقـالـ لـهـ اـذـاـ طـلـبـتـ إـلـىـ سـوـرـيـةـ فـلـاـ أـسـتـطـعـ انـقـاذـكـ .ـ

وـعـبـدـ الـوـهـابـ بـكـ الـإـنـكـلـيـزـيـ مـنـ الـمـتـازـيـنـ بـعـلـمـهـمـ وـأـخـلاقـهـمـ ،ـ قـلـ أـنـ أـنـفـتـ الشـامـ مـثـلـهـ فـيـ عـهـدـهـ الـأـخـيـرـ .ـ كـانـ مـرـةـ قـائـمـ مقـامـ فـيـ «ـ الـبـابـ »ـ ،ـ مـنـ عـمـلـ حـلـبـ ،ـ وـكـانـ الـأـعـيـانـ عـلـىـ عـادـتـهـمـ يـسـتـحـلـوـنـ أـكـلـ أـعـشـارـ الـدـوـلـةـ ،ـ وـيـقـومـونـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ ذـلـكـ بـجـيلـ مـدـهـشـةـ ،ـ فـزادـ هـذـاـ الـمـالـ بـدـونـ ضـجـةـ

أكثر من عشرين ألف ليرة عثمانية ، فكتب والي الولاية إلى وزير الداخلية بما وفق له قائم مقام الباب ، فكتب وزير الداخلية إلى عبد الوهاب بك مباشرة كتاباً بخطه ، يشكره على عمله الجليل الذي أخبره به الوالي ، وبهته على صدق العمل وحسن الادارة ، وما قال له ، وقرأته بنفي : لو كان عند الدولة عشرة قوام مقام من عيارك لعدت من أرق حكومات العالم . والوزير يومئذ ظلمت باشا الاتحادي المشهور الذي خاف على حياة عبد الوهاب واقرخ عليه أن يهربه إذا كان له شيء يتذرع به لمحاكته فأبى .

ذكرت وأنا ادون هذا برقية وردتني ذات صباح من أنطاكية هذا نصها :

وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظننا كل الفتن ألا تلاقينا سليم الجزائري شكري المсли عبد الوهاب الانكليزي وهؤلاء الثلاثة أصحاب اغتبتو أن اجتمعوا بعد فراق طويل ، صلبهم الاتحاديون مدة الحرب في ساحة الشهداء بدمشق . وكانوا من أخلص أصدقائي ، وهم من أعظم شباننا بذكائهم وذمارفهم واستقامتهم .

وشكري بك المсли كان قائم مقام في الناصرة ، ودرس المسألة الصهيونية واطلع على خفاياها ، ولما انتخب عضواً في مجلس النواب العثماني ، أراد الاتحاديون أن يبيعوا من الصهيونيين ثلاثة ملايين دونم من أرض فلسطين صفقة واحدة ، بعماونة جاويد بك وزير ماليتهم ، وكان مذهبيه مذهب اليهود الصابئة ( دونمة ) ، فكان شكري بك أول من رفع عقيرته في أضرار الصهيونية ، وخطب في الموضوع حتى سقط المشروع . وكان شكري بك هذا سنو عبد الوهاب بك إذا ذكر اسم أحدهما يذكر معه اسم صاحبه . أما سليم بك الجزائري فهو رجل الجيش ، درس علوم التعبئة والمصالفات في المدرسة الحربية بالاستانة ستين ، وأبان عن اقتدار قلًّا أن كان لأنثالة ، وكانت دعوه العربية متجلية فيه ، والارتفاع يصررون له الشر ، فلما قربت كلة الاتحاديين في الحرب قتلوه أيضاً ، وهو من أئمـة من أخرج العرب من رجال الحرب ، وهو ابن أخي شيخنا الشيخ ظاهر الجزائري .

قتل الانحدابون ثلاثة من أبناء العرب بدعوى خيانة الوطن ، حاسين الحرب الماسمة فرصة لا تتح كـل حين لـلخلاص منهم . قتلوا نحو ثلاثة رجالاً ما أظن يستحق القتل منهم غير أفراد قلائل ، هذا إذا ساختنا في فرض المقوبة . مثل ذنب من قال ( شفيق بك المؤيد ) لوكيـل فـرنسـا في القاهرة أقطعـوا بحيـوـشـكـمـ الخطـ منـ الاسـكـنـدـرـونـةـ ، وـنـحـنـ فيـ الدـاخـلـيـةـ نـادـيـ حـالـاـ باـسـكـمـ . هـذـاـ رـأـيـ ، إـنـ صـحـ أـنـهـ قـالـهـ ، وـالـقـانـونـ لاـ يـقـتـلـ إـلاـ مـنـ لـشـبـثـ فـعـلـاـ بـالـشـرـوـعـ بـالـعـمـلـ ، وـظـهـرـتـ نـتـيـجـةـ لـشـبـثـهـ إـلـىـ حـيـزـ الـوـجـوـدـ .

وبعد كتابة ما تقدم قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الفصين وهو من اشتغلوا بالمسألة العربية ان العرب ألغوا ثلاثة جميات سرية عقب انتشار القانون الأساسي ( سنة ١٩٠٨ ) وحرب الطليان في طرابلس وبرقة مع المثانيين وهي جمعية المهندسـ أـفـهـاـ ضـبـاطـ الـمـرـبـ مثلـ سـلـيمـ الجـزاـئـريـ وـعـزـيزـ عـلـيـ وـنـورـيـ السـعـيدـ وـأـمـينـ لـطـيـ الحـافـظـ فـدـخـلـ فـيـهاـ أـكـثـرـ الضـبـاطـ الـمـرـبـ وـالـثـانـيـ أـفـهـاـ طـلـابـ الـمـارـسـ الـعـالـيـةـ فـيـ الـاسـتـانـةـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ عـبـدـ الـكـرـيمـ الـخـليلـ ، وـالـثـالـثـةـ أـفـهـاـ عـبـدـ الـفـنـيـ الـمـرـبـيـ وـهـيـ الـتـيـ أـظـهـرـتـ نـشـاطـاـ عـظـيـاـ فـيـ الـحـربـ الـعـالـيـةـ وـيـقـالـ إـنـاـ انـكـلـيـزـيـةـ التـرـزـعـةـ . وـقـدـ قـتـلـ الـتـرـكـ مـعـظـمـ رـؤـسـاءـ مـلـكـ الـجـمـيـاتـ .

ولقد حاولت أن استمعطف القائد العام على المجرمين السياسيـنـ ، فالتمست من فضله المطف عليهم ، في محاضرة القيتها في سينما جنـاقـ قـلـعـهـ بـدمـشقـ ، محل دار الندوة الآن ، وذلك عـقـبـيـ عـودـتـيـ منـ دـارـ الـمـلـكـ مـعـ الـوـفـدـ السـوـرـيـ ( ١٩١٥ ) وـتـوـسـلـتـ إـلـيـهـ أـنـ يـرـحـمـ وـيرـحـمـ عـيـالـهـمـ ، فـاستـدـعـيـ منـ الـفـدـ فـؤـادـ بـكـ رـئـيـسـ أـرـكـانـ حـربـ جـالـ باـشاـ وـقـالـ لـيـ : إـذـاـ كـنـتـ تـرـيدـ رـضاـ الـبـاشـاـ عـنـكـ فـلـاـ تـذـكـرـ السـجـنـاءـ فـيـ «ـ عـالـيـةـ »ـ بـخـيـرـ وـلـاـ شـرـ ، وـأـنـتـ هـلـ بـذـكـرـكـ أـحـدـ بـسـوءـ ، فـهـاـلـكـ وـلـمـ ؟ـ فـالـتـرـمـتـ الصـمتـ بـعـدـ ذـكـرـ

أما صديقي الشيخ أـسـمـدـ الشـقـيرـيـ خطـيبـ الـجـيـشـ ، وـنـديـمـ أـحـدـ جـالـ باـشاـ ، وـالـمـقـرـبـ إـلـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ بـكـشـيرـ ، فـانـهـ مـاـرـكـ بـاـباـ يـعـكـنـ الدـخـولـ مـنـ إـلاـ وـلـجـهـ ، لـيـقـ قـلـبـ الـقـائـدـ الـعـامـ عـلـيـهـمـ ، وـخـابـ سـبـهـ فـيـ كـلـ مـاـنـذـرـعـهـ

ومن ذلك اشارته على بني البكري أن يقيموا مأدبة بجال باشا في قصره في قرية القابون ، وكان الامير فیصل بن الحسين في جملة المدعوبين ، وهناك خلا الامير مع الشيخ أسد بجال باشا ، ورجاه اصدار عفو عنهم أو حبسهم أو نفيهم فرد قوله .

وكذلك تقدم الشيخ أسد في بيروت وبقتل ركبة القائد جمال باشا في دار عزّمي بك والي بيروت ، يتولى إليه أن يجعل أولئك الجناء في قلعة يمتوتون فيها بآجالهم ، وأن يرجع عن قتلهم لما في القتل من الشُّؤم على الدولة . فتجهم القائد للشيخ الشقيري ، وغضب عليه غضباً شديداً ، وذلك بعشيد من عبد الرحمن باشا اليوسف ، وهو الذي قص على ما وقع ، وقال له : أنت شيخ لا أعرف السياسة فلا تتعذر طورك ، وأنا أعرف إن مثلك إذا خدم مثلي خدم آماله وأفكاره ، وأنت تحاول أن تتدخل فيما لا يعنيك ، كأنك تقصد أن تلقنني مالاً أعلم . وهذه مسائل تتجاوز دائرة تقديرك ، فكف عن تعجيزي بذكر هؤلاء المتقلين .

ودخلت على الشيخ الشقيري في الفندق لاًودعه ، وأنا مسافر إلى بيروت فرأيته مصفر الوجه ، كأنه لم يرقد منذ أيام ، ولما رأني دمعت عيناه وبكي ، وقال لي : يا فلان شنق الجماعة . ومن الفد شنقوا بالفعل في مدینتي دمشق وبيروت . وهذا أهم دليل شنق . وأغريب من هذا أن بعض الأردياء يهتم مثل هذا الشيخ بأنه من زبن جمال باشا شنقهم ، وهو لم يترك حيلة خلاصهم إلا تذرع بها من تلقاء نفسه ولو وجه الله .

كان جمال باشا على ما يظهر يكره الوساطات . كثنته ست مرات أنا والدكتور شهيندر في رضا بك الصلح وابنه رياض بك فكان جوابه لي وله شهيندر آخر مرة يخاطبني : هل تعرف كل شيء ؟ فقلت : كلام . قال : إن رضا الصلح الذي توسط له قد أتى أمراً لو أنه أبني لاغرقته في البحر جماً بإسلامة الدولة ، ثم أقف أبكي عليه بصفته أبي (علمت بعد سنتين أن الرجل كان يتمم بالدعوة لإنكلترا ) وطلب ألا نعود إلى الكلام في هذا المهم ،

وَمَعْ ذَلِكَ رَأَيْنَا أَنْ تُجْزِيَ الْبَاشَا بِالْعَفْوِ عَنِ الرَّجُلِ وَابْنِهِ قَدْ أَفَادَ ، فَلَمْ يَقْتَلْهَا كَمَا كَانَتْ بَيْتَهُ ، وَأَكْتَفَى بِنَفْيِهَا إِلَى آسِيَا الصَّغِيرِ ، وَكَانَ لَاهْلَهُ أَكْثَرُ مَا كَنَا نَطَّلُ بِهِ ، وَمَا كَنَا نَطَّلُ إِلَّا حَقْنَ دَمَهَا وَلُوْ بِالسِّجْنِ سَنِينَ .  
جَئْتُ جَمَالَ بَاشَا ذَاتَ يَوْمٍ مُودِعًا إِلَى بَيْرُوتَ ، وَكَانَ قَبْلَ يَوْمِ مُلْبِرْ  
فِيهَا يُوسُفُ الْمَاهَانِيُّ مِنْ أَغْنَى تُجَارَهَا ، لِتَوْقِيمِهِ يَبْيَانًا بِطَلْبِ فَرْنَسَا لِلْاسْتِيلَاهِ عَلَى  
هَذِهِ الدِّيَارِ . فَسَأَلَنِي الْبَاشَا : مَاذَا يَقُولُ الْقَوْمُ عَنِ الْآنِ فِي بَيْرُوتَ بَعْدَ قَتْلِ  
يُوسُفَ الْمَاهَانِيِّ ؟ فَقَلَّتْ لَهُ وَأَنَا أَتَبَسِّمُ : يَقُولُونَ لِأَهْلِهِمْ تَوَسِّلُوا إِلَيْكُمْ بِأَنْوَاعِ التَّوَسُّلِ  
وَأَقْامُوا لَكُمْ أَجْلَمَ الْمَآدِيبِ ، وَأَنْوَكُمْ بِأَجْلَمِ النِّسَاءِ بِضَرَّعَنِ إِلَيْكُمْ ، وَمَا زَرَكُوكُمْ  
شَيْئًا يَسْتَقْدُونَهُ إِنَّهُ يَسْرُكُ وَبَؤْرُكُ فِي عَوَاطِفِكُمْ إِلَّا فَعَلُوهُ ، وَلَا إِنْسَانًا يَمْنَدُونَ  
إِنَّهُ ذُو مَنْزَلَةِ عَنْكُمْ إِلَّا رَجُوهُ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْكُمْ ، وَمَعَ كُلِّ هَذَا شَفَقَتْهُ ،  
شَفَقَتْهُ ، شَفَقَتْهُ ، فَضَحَّكَ وَضَرَبَتِي عَلَى كَتْفِي وَقَالَ لِي : اذْهَبْ بِسَلَامَةِ اللَّهِ .  
وَلَقَدْ بَلِيتْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ بِعَصِيَّةِ ، فَكَانَ يَطْلُبُنِي لِمُقَابِلَتِهِ أَحْيَانًا ،  
فَأَزُورُ فِي نَفْسِي جَوَابًا أَوْ جَوَابِينَ أَقْدَرُ أَنْهُمَا يَجِزِّيَانِي فِيهَا بِسَأَلَنِي ، فَيَنْفَقُ  
سَأَلَيِّ فِي غَيْرِ مَا قَدِرْتُ ، فَأَجِيَّهُ فِي الْحَالِ جَوَابًا كَجَوَابِيِّ لَهُ عَنِ ابْنِ هَانِيِّ  
الْقَتِيلِ ، يَسِرُّهُ وَلَا يَضُرُّنِي ، فَيَعْلَمُ أَنْ كُلِّنَا عَالَمٌ بِالْتَّرَهَاتِ . وَسَأَلَنِي مَرَّةٌ مِنْ مَنْ  
الْمَشَارِيِّيُّ مِنْ رِجَالِ دَرُوزِ جَبَلِ حُورَانَ ، فَذَكَرَتْ لَهُ مِنْهُمْ مِنْ كَانَ أَسْهَمَهُ  
عَلَى خَاطِرِي فَقَالَ : أَظُنُّ أَنَّهُ فَاتَّكُمْ غَيْرَهُمْ ، فَاسْتَأْذَنَهُ وَسَأَلَتْ مِنْهُ هُوَ أَعْرَفُ مِنِّي  
بِرِجَالِ الْجَبَلِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ جَرِيدَةً بِاسْمِهِمْ دَفَعَهَا إِلَيْهِ . وَكَانَ يَنْوِي أَنْ  
يَسْتَدِعُهُمْ لِأَخْذِ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ قِرَامِهِمْ مِنَ الْجَبَوبِ لِأَجْيَشِ .

وَلَمَّا عَدْتُ فِي السَّنَةِ الْأَوَّلِيَّ مَعَ الْوَفْدِ كَانَ الدَّكْتُورُ شَهِنْدُورُ قَدْ رَكِنَ  
إِلَى الْفَرَارِ لِأَنَّهُ قَرَا فِي وَجْهِ جَمَالِ بَاشَا الْمُضَبْ ، وَأَحْسَنَ بِأَنَّهُ غَادَ بِهِ لِأَحْمَالَهُ ،  
لَا كَانَ ذَلِكَ الْجَاسُوسُ الْأَوَّلُ قُصُّ عَلَيْهِ خَبْرُ اجْتَمَاعِنَا الْآخِرِ فِي قَرْيَةِ الْمَزَةِ  
فَقَبِيلَ سَفَرِيِّ ، وَمَا قَالَ شَهِنْدُورُ وَمَا قَلَّتْ إِنَّا : فَسَأَلَنِي جَمَالُ بَاشَا عَنْ شَهِنْدُورِ ،  
وَقَالَ إِنَّهُ بِلِئَنِهِ أَنَّهُ مُخْبِيٌّ فِي دَمْشَقٍ وَأَنِّي أَعْرَفُ مُخْبَاهُ ، فَقَلَّتْ لَهُ : بِلَغْنِي أَنَّهُ قَدْ  
فَرَ إِلَى جَهَةِ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ ، وَلَا أَعْرَفُ غَيْرَهُ ذَلِكَ . فَقَالَ : أَنْتَ تَعْرِفُ أَمْرَهُ

وتكلم عني ، فإنه خرج من البلد ثم عاد وهو الآن متواجد عن الانظار .  
فأكدت له أني لا أعرف شيئاً عنه ، فاستغرب ذلك ، ولم أنجع من الحاحه  
في استنطاقه حتى قلت له بعد أخذ ورد : إن شهيندر ليس بشجاع فيخرج  
من هذا البلد ويعود إليه ، وهو أيضاً ليس بمحنون يكتب له أن يتزعم بهذه  
من القفص ثم يقف ببابه يتسلل بالرجوع إليه . وبعد أيام عاد فسألني عن  
شهيندر فأجبته أني لا أعرف إلا أنه هرب . فقال : وهكذا تتحقق فاني الآخرة .  
فقلت له : الحمد لله على أنني لم أكذب . وسؤال البasha عن الدكتور شهيندر  
غريب ، فإنه يعلم ما بيني وبينه من صدقة ، وكان عليه أن يعرف خلقي ،  
وقد رأى انه ما سمع مني كلمة كفر أحداً ولا ذكرت أمامه إنساناً بسوء ،  
ولا أفضلت سرّاً عرفته ، طول مدة ارتباطي به ، فكيف كان يريدني أن  
ادله على مخابأ الصديق شهيندر حتى يقتله ، وكنا يومئذ نستر على أعدائنا  
ونعمل لهم ما استطعنا من خير .

ومن أشكالها أن :



## گرہ الازراك للعرب

بدت كراهة الازراك للعرب ، منذ فتح العثمانيين الولايات العربية : أمة غالبة من مصلحتها اختات صوت الأمة المغلوبة ، وأمة مغلوبة تبكي بعدها الصانع ؛ ولا عناء لها إلا ما ترددته السنة بنها من عبارات الامس على ماضيها ، وكان الترك منذ أول فتحهم استأثروا بالمناصب الرئيسية في السياسة والإدارة والقضاء والجندية ، وخرجوا من ديار العرب بعد أربعة عصور من حكمها ، وما أشركوا العرب في سلطانهم اشراكاً فعلياً ، وربما كان بعض افراد من العرب استترّوا وتركوا جنسيتهم ، وذابوا في البوقة التركية ، ودخلوا مع الازراك على انهم منهم ، ولا أذكر انهم ادخلوا في وزاراتهم غير ثلاثة من ابناء العرب ، وذلك في آخر ايامهم ، ولم يوسعوا لهم سوى وزارات لاشأن لها الزراعة والآوقاف .

حسب الأرجح كانت السواد الاعظم من الترك سكان آسيا الصغرى يرون حب العرب من القراءات ، مذ كان الترك ذكر في آسيا الصغرى ، وهم على ذلك الى اليوم .  
والذي رأيته ان حب العرب ظاهر فيمن كان على الفطرة السليمة من الترك .  
ويقلُّ بين طبقة المتعلمين منهم ، أو من كانوا اقرب إلى المشتغلين بالحكم .  
حدثني صديقي الياس بك مطران ، وقد رأيته في بيروت قبل ان تضع الحرب العالمية أوزارها ، وكان جمال باشا نفاه إلى الاناضول في جملة من ابعدهم من اهل سوريا ، قال : وانا أسأله عن حاله في منفاه : إنه ممن جداً من هذا النفي وبشكراً جمال باشا عليه ، لأنَّه عرف الشعب التركي حق المعرفة ، وثبت له انه شعب قل نظيره بأخلاقه و Mizanاته ، وأنَّه مارأه من لطف الترك وطيب قلوبهم يعجز لسانه عن شكره قال : ولقد ودوا مدة مقامي بين اظهرهم الا امشي إن امكن على الارض حرضاً على اكرامي ،

وكانوا يقلدون بدي وعيني دركبي ، ويتركون بي فأقول لهم أنا مسيحي  
فيقولون السنت عريئاً من بلاد محمد (عليه السلام) فابكي ويسكون ! هذا هو الشعب  
التركي الذي اغبطة بأنني رأيته في أرضه ، أفلأ أشكر من شفاني بعد أن  
رأيت ما رأيت .

ومع هذا كان بعض العمال من الاتراك المتعصبين لقوميتهم نصباً اعمى  
يشتمرون كل الاشمئزاز من رجل يتكلم بالعربيـة ، وإذا كان موظفاً عندهم  
عدوا عليهـ من القصـ تكلـه بالـ عـربـيـة ، ورـبـما وـضـعـ الرـئـيـسـ بـجـانـبـ اسمـ عـلـامـةـ  
تـؤـخـرـ تـرقـيـتـهـ ، وـكـانـ كـثـيرـ منـ الـ اـتـرـاكـ وـالـ كـرـادـ وـغـيـرـهـمـ منـ الضـاطـرـ ،  
بـعـرـفـونـ الـ عـرـبـيـةـ وـيـنـكـرـونـ أـنـهـمـ يـعـرـفـونـهـاـ ، لـيـرـضـيـ عـنـهـمـ بـعـضـ اـصـحـابـ الدـوـلـةـ ،  
كـانـ مـعـرـفـةـ الـ لـغـةـ الـ عـرـبـيـةـ جـرـمـ مـنـ الـ اـجـراـمـ .

ومذ تولى أمر الترك مصطفى كمال باشا (كمال آناتورك) انتقل تbagض  
الترك والعرب إلى الطور العملي ، بقطعـهـ كلـ صـلةـ معـ العـربـ وـالـ عـرـبـيـةـ ، (يعـتـذرـ)  
حتـىـ لـقـدـ كـانـ يـضـطـهـدـ كـلـ مـنـ يـتـكـلـمـ فـيـ تـرـكـياـ بـالـ عـرـبـيـةـ ، وـكـلـ مـنـ يـكـبـ  
الـ تـرـكـيـةـ بـحـرـوفـهاـ الـ عـرـبـيـةـ ، وـكـانـ الرـسـائـلـ فـيـ بـرـيدـ زـرـكـياـ تـقـبـلـ  
بـالـ لـغـاتـ كـلـهاـ إـلـاـ الـ لـغـةـ الـ فـرـنـسـيـةـ ، وـيـنـخـبـ الـ خطـبـ فـيـ الجـمـعـ وـالـ اـعـيـادـ بـالـ تـرـكـيـةـ  
وـيـنـادـيـ المؤـذـنـ إـلـىـ الـ صـلـاـةـ بـالـ تـرـكـيـةـ ، وـحـذـفـواـ مـنـ لـقـتـهـمـ كـلـ مـاـ أـمـكـنـهـ حـذـفـهـ  
مـنـ الـ لـفـاظـ الـ عـرـبـيـةـ ، وـاسـتـمـاضـواـ عـنـهـ بـالـ لـفـاظـ اـفـرـنـسـيـةـ وـتـرـكـيـةـ قـدـيـعـةـ .  
وـأـرـادـ دـيـنـيـسـ الـ جـمـهـورـيـةـ الـ اـولـ اـنـ يـتـرـكـ كـلـ شـيـءـ . وـرـأـيـتـ كـتـابـ قـرـاءـةـ  
زـرـكـيـةـ فـيـ الـ مقـائـدـ الـ إـسـلامـيـةـ كـتـبـ بـالـ حـرـوفـ الـ لـاتـيـنـيـةـ ، عـلـىـ طـرـيـقـةـ السـوـالـ  
وـالـ جـوابـ ، وـمـاـ جـاءـ فـيـهـ : وـمـنـ نـبـيـكـ ؟ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ رـسـوـلـ اللهـ . وـهـلـ مـحـمـدـ  
مـنـ الـ عـربـ ؟ مـعـاذـ اللهـ هـوـ تـرـكـ .. وـهـذـاـ مـنـ السـخـافـةـ الـ تـيـ اـشـهـتـ سـخـاقـهـمـ  
فـيـ دـعـوـامـ مـؤـخـراـ أـنـ التـرـكـ هـمـ مـنـ نـسـلـ الـ خـيـنـ ، وـقـدـ أـلـفـواـ فـيـ إـثـيـانـ  
هـذـهـ الـ اـكـذـوبـةـ الـ كـتـبـ وـكـتـبـواـ الرـسـائـلـ وـالـ مـقـالـاتـ ، وـالـ تـرـكـ فـرـغـ مـنـ  
فـرـوعـ التـرـ مـعـرـفـ أـصـلـهـمـ وـمـوـطـنـهـمـ مـعـرـفـةـ أـكـيـدـةـ لـاـ تـقـبـلـ الـ مـجاـدـةـ .  
شـأـتـ الـ مـدـاـوـةـ قـدـيـماـ بـيـنـ الـ عـربـ وـالـ تـرـكـ مـنـ أـجـلـ الـ مـقـامـ وـالـ مـنـاصـبـ ،

والبيوم ذهبت الدواعي لأنوارتها . والبعد بجمور العرب وعقلائهم أنهم لا يكرهون الترك ، ويتهون لهم كل خير ، يفرجون لفرحهم ويتلمون لما سئوم . ولما ظفر الترك باليونان في وقعة سقارية ، وكان الترك قد خرجنوا من الشام ، ودخلت هذه في حكم الحلفاء ، والنفوس لاتزال مملوءة غبطة من استبداد العثمانيين ، أقام أهل سوريا الزينة والمبرجانات فرحاً بهذا الفخر الذي أحرزه أخوانهم الترك ، ولكن سياسة الكماليين أبت إلاقطع كل صلة مع العرب خاصة ، ومع أهل الإسلام عامة ، وكان افتتاح الترکي في العهد الأخير لواء الاسكندرونة من جسم سوريا بدون مسوغ شرعي ، والسوداد الأعظم من سكانه عرب ، مؤلماً لقب كل عربي .

حدثني أحد أصدقائي من قنصل فرنسا ، ونفيت إن كان الميسو بيان أو الميسو اوتافي ، وكان كلامها يحسن العربية ويكتنها كأهليها ، قال : كنت قنصلاً في طرابلس الغرب ، أسمُّر عند الوالي في بعض ليالي الأسبوع ، ويسمر معنا القنصل وكبار موظفي الولاية ، وكان دأب هذا الوالي التركي لعن العرب جهاراً . فاتفق في إحدى الليالي أن كان المجلس خالياً من سواره وقد قذف لسان الوالي لمناته المعهودة ، فالتفت إليه متأنراً من ترداد هذه النسمة وقلت له : ولمَ دولتكم ببغضون العرب إلى هذا الحد ، وتلعنونهم عند كل فرصة ، وهل لهذا من سبب ؟ إذا كان هناك شيء أرجو أن تفضلوا بيئانه . فقال : لا أعرف لذلك سبيلاً ، وهذا ما أفقته من صوري ، وكانته مفروض في قلبي ، وأشار به مع اللبن . فقلت له عند ذلك : أنت على العرب أنفسهم أن يبغضوك معاشر الترك ، لأنكم كنتم السبب في زوال دولتهم ، وعشرم أجيالاً بما أنوكم به من دين ومدنية ، ورکتم كثيراً في الأقطار التي افتحتدها وهي بالحقيقة من فتوحهم . وإنما إذا أنسفنا وألقينا نظرة عامة على ما قام بأيدي العرب من المصانع ، مبتدئين بالآندلس حتى نصل إلى الهند لانجذ فيه يدام التركي ، وهو من صنع علماء العرب

ومنتسبيهم وحكوماتهم . ذهبت دولة العرب منذ أعصار وأعماlem في الحضارة  
بارزة للبيان ، على كثرة ما درستم فيها ، وأتتم إذا ذهبتم غداً من الأرض  
هل تبقى لكم غير تلك الجوامع التي عمرها سلاطين آل عثمان في استانبول ؟  
دعك يا سيدى من غمز العرب ، وتصاون عن بعضهم ، بغض أمة بأسرها  
أو لعن قوم بيته أبداً ، لا يليق بمن كان في مثل مكانتك ومنصبك . قال :  
وما سمعت الوالى بعد تلك الليلة فاه بكلمة **يُشَّتِّمُ** منها بغض العرب ، ورجع  
عن لغتهم على ما ظهر لي .

هذا ما بقي في ذهني من المعانى التي ذكرها القنصل ، وقد وقعت لي  
حادثة غريبة تدل على مبلغ سى الازاك في تمجيد العرب ، وذلك أن  
إسماعيل فاضل باشا ، كان والبا على سوريا ، وأصله من أهالى كريت ،  
وما أدرى إن كان روبي الأصل أو تركيه ، وأرجح أنه من أزاك  
اقريطش ، وكان يدعى صحبي ، ويحاول استئصاله . طلب مني عامل جبل  
عجلون وكان تركياً ، وأظن اسمه سزانى بك ، أن انتخب له ستين معلماً  
لستين مدرسة أهلية ، عزم سكان عجلون أن ينشئوها بأموالهم ، فقضيت  
ثلاثة أشهر أبحث عن معلمين يحسنون التعليم في الجملة ، فلم أظفر بأكثر  
من ثلاثة عشر معلماً ، ومنهم من كان صاحب دكان ، ومنهم من كان له  
كتاب خاص . ورافقتهم إلى الوالى يسلموا عليه ويودعوه ، ولا طلب لهم  
رخصة بالركوب في القطار بنصف اجرة . وكان أول سؤال سألهم إياه  
هل تعرفون اللغة التركية ؟ فأجابوا بغير الإيجاب . فامتنع لونه ، والتفت  
إليه قائلاً : وكيف ذلك ؟ فقلت له أرجو أن يتعمدوا ، والآن سيعملون  
أبناء الفلاحين مبادى القراءة والخط والحساب والمبادات ، وانصرنا من  
لدهن غير موقفين ، فقلت للمعلمين إذا لم يكذب حدي فأتهم غير ذاهلين  
إلى عجلون غداً ، وبعد ساعتين تناولت برقة من عامل عجلون يتسلل إلى

ألا أرسل المعلمين ، بعد أن كان يلتحم بسرعة ليفادم . فلمت أن ذلك كان بإيعاز الوالي ، وأنه قال له : كيف ينتخب فلان المعلمين وأنت ترثام ؟ وأظن الوالي ما عنت أن رفع من عجلون ابن جنسه الذي كان يريد لأهلها الخير . ومضت أيام ثلاثة ، وزرت الوالي في داره بعد الفروب ، وكان احتسى كثوساً من المسكر ، وعيناه تقدحان شرراً ، فأول ما قال لي : يا فلان هل أنت ولد ؟ قلت له : أنا رجل بحول الله ، فقال : كيف لظن أنا نعطي العرب سلاحاً يقاتلوننا به ، العالم سلاح ولا زيد أن نسلحكم إن من سباستنا إلا نعمكم ، فتألمت لهذا ، ودعوت الله في سري ألا يطيل أيام هذه الدولة ، وقلت في نفسي إذا هم منعوا التعليم الابتدائي عن رهابهم العرب ، وهو عثرة الخنزير في التغذية ، كيف تصفو لهم قلوب الخواص منهم ؟ وطلب مني هذا الوالي أن يقضي يوماً في مزرعي ، فقلت لأن عيال القرية اطلبو منه تأسيس مدرسة لتعليم أولادكم ، فأظهر استحساناً لهذا الاقتراح وقال عليكم تقديم البناء ، والمعرفة ترسل إليكم المعلم ، فبرعت لذلك بخمس وأربعين ليرة عثمانية عفي وعن إخوتي ، وترفع أحد الوجوه بالأرض للبناء ، وأخذ الفلاحون يتعاونون الحجارة ويأتون بها من المقلع ، ثم رأيت المhma قد تراخت وأصبح بعض أهل القرية يصرحون بأنهم لا يريدون تأسيس مدرسة ، فلمت أن أحد الدمشقيين من اعتاد ضمان اعتبار القرية والانتفاع من جهل أهلها قال لهم : إن تأسيس المدرسة في قريتهم يسهل على الدولةأخذ أبنائها للجندية ، مع أنهم كانوا كلهم يخدمون فيها أسوة سائر القرى ، والنالب أن أخفاق المشروع كان باعواء الوالي فنفذ سياسته عند العمل ، وكان عند القول استحسنها وأنظر الرغبة فيه .

و كنت في الاستانة أنزل في (قاضي كوى) عند امرأة مسيحية ، وكان زوجها طيباً تركياً في الجندية برتبة عالية فكف بصره ، و كنت أتحدث إليه وألاطفه فعرف أنني من دمشق ، فقال لي : إن ابن أخي اسماعيل

فاضل كان والياً عندكم ، فسكت . ثم قال لي في جلة نائية : إن ابن أخي بحب أن يراك ، هل تأمر بضرب مياد للاجتماع معه ؟ فسكت ونشغلت . ثم ألح في المرة الثالثة فقلت له : قل لابن أخيك إن الذي يحاول أن يبني العرب في الجبل لا أرى أن أجمع إليه وهو يعرف معنى هذا الكلام ، وانقطع الحديث وما عدت أجمع بالدكتور الانعى كالأول .

وأني بالشيء يذكر إن عدوي اللدود ناظم باشا والي سوريا ، وكان يسكن « قاضي كوى » أيضاً حاول غير مرّة أن يكلمني ويتحبب إليَّ فرأيت الابتعاد عنه ، وهذا الوالي حاول قتلي لما كان في سوريا ، وما أدرى بأي وجه كان يود أن يكلمني ، وأنا رأيت ألا أُضيع وقتي معه ، وأسمع اعتذاره وهو من المعروفين بكثرة المداهنة ، والقدرة على الفحش من كل من يواجهه ، وخلاصة ما بيننا أنني حاولت أن أدعوه لاتفاق القوانين ، وتوخى هو أن يفلت منها وأن ينجو من نقد جريديتي بأي حالة كانت .

رجع إلى الاتراك ومحاولتهم إبقاء العرب في الجبل . قص " علي " الشیخ طاهر الجزائري قصة محجية في هذا الباب قال : قال لي كمال بك مدرس معارف الولاية في أحدى العشایا ، وكان كرع كوعوساً من الشراب ، وهو سكران طافح : يا شیخ ما هذا الاهتمام منك بنشر المعارف ؟ ( وكان الشیخ في أول شبابه مفتشاً لمعرفة سوريا ، وهو الذي أنشأ لها مدارسها الابتدائية ، وألف لها كتب التعليم الابتدائي كلها ) أنا أخذت من وزاري كتاباً سرياً بالأرقام تقول فيه إنه تبين أن المعرفة عند المسلمين في سوريا قد ارتفعت إلى درجة كافية فاعمل جهدك على أن تؤخرها لاعلى أن تقدمها . وكان عدد الأميين يومئذ في ديارنا أكثر من سبعة وعشرين في المائة ، وأظن هذه الحادثة وأمثالها مما وقع للشيخ طاهر الجزائري هي التي حدث به على أن يغضن دولته الترك بغضنا شديداً ، وبلقى الله ببغضنا وكراهة سباستها ،

وكان يقول من سوء بخت المسلمين أن الدولة العثمانية استولت على اعمر الولايات الإسلامية وأهمها ، وكان مع هذا ينوه كثيراً بتربية الشعب التركي ، وارتقاء الأسرة وتقديم البيوت ، ووفرة الأدب والتهديب في جماعتهم . وبعد فاتنا بهذه الواقف عرفنا مبلغ حب حكومة الترك للعرب في الدور العثماني ، وكانوا يوسعون عن قصد للعربي الذي لا يجيد التركية تدریس البلاغة التركية ، وللتركي الذي لا يحسن النطق بكلمتين بالعربية تدریس النحو والصرف والمنطق وبلاعنة العرب في مدارسهم الثانوية . وحدث أن أرسلت الاستانة إلى مدرسة تجيز بيروت معلماً أرمنياً لتدريس الدين الإسلامي وكان لما عينه يصرخ قائلاً لهم أنا مسيحي لا أعرف الإسلام ، ويحييه من عينه ، لا يأس يمكنك أن تدرب نفسك ، وهذا ليس بالأمر الصعب عليك . ومثل ذلك كان في دمشق انتدب للعلوم الدينية مسيحي مستتر .

إن من أدرك سر توفر الأتراك على تجذيل العرب يقيم بعض العذر للمسلمين على ما صاروا إليه من التأخر في هذه الديار . وكانوا لبناوهم يرون من الواجب عليهم أن يستكروا عن مساوي الحكم العثماني ، لأن القائمين بالأمر مسلمون . وبهذه الدعوى خدر الأتراك الأعصاب وجعلوا العرب وراء الأمم الراقية . على حين كان جيرانهم من النصارى يرثون سنة عن سنة معمدين في رقبهم على مدارسهم الطائفية ، وعلى ما تفضل الجميات التبشيرية فتبعد به إليهم من المبشرين والمرسلين ، يفتحون لهم المدارس ، ويعلمونهم اللغات والعلوم ، ويدعونهم للكفاح في ميدان الحياة ، والمسلمون لشأنهم يعتصمون بدولة الخلافة ، وتغويهم كاتبوا الإسلام والمسلمين ، ومسانحهم يسيرون أفكارهم باسم الدين ، ومم كانوا من العوامل في تضييعه ، لسكنهم عن الحق وأقاربهم الباطل ، وأصحاب الخلافة التركية يكافؤونهم على قلة دينهم ، وينفلونهم الرواتب والرتب ، ويخلعون عليهم السيم والقصب . وكان الذين يسيرون ذممهم أيام دولة الخلافة هم بأعيانهم الذين أصبحوا يتقربون

الى من جاء بصد الترک ، يتجلسون طؤلاه کا كانوا يتجلسون لا ولادك ، وبصانون القادمين بمثل ما كانوا يدهنون للراحلين ، ومنهم من يعدون أنديهم اليوم فيقبضون من صناديق الاستخبارات ما يسدون به نهشتم ، ويزيدون به راتبا آخر الى رواتبهم ، ويصدعون بما يؤمرون بالدعوة إلى تفريغ القلوب ، وتنزيق الامة شيئا حتى إن منهم من قالوا وما خجلوا الكبير من ساستهم لانهم رأوه في الحلم يرتع في الجنة مع الصالحين من المؤمنين ، ومنهم من قال احمدوا الله على وجود الآجانب عندنا فان بوجودهم حفظ الدين وكان قبل أشهر ينادي بالقيام عليهم من أجل الدين .



## دُعْوَةُ عَمَرِ بْيَهْ

قال لي الشيخ أسد الشيرقي ونحن في المسرك في سفح قاسيون  
أواخر الحرب العالمية . أطلعني أمس جمال باشا على كتاب أرسله إليه من  
الاستانة كاته الخاص فالح رفي يقول له فيه إنه زار منتديات العاصمة بعد  
أن تغيب عنها مدة ، ولتعرف إلى رجال ( ترك يوردي ) ( ترك اوجاعي )  
( ترك درنكي ) فرأهم على شبه الإجماع أن دخول الترك في الإسلام قد  
آخرهم وأخليهم ، واطمع فيهم اعدائهم : جرّدتهم من شخصيتهم ، وأبعدم من  
قوميتهم ، وانزعهم من حجر حضارتهم ، وانهم لو ظلوا على عبادة الكواكب  
كان طوران ما وجد أهل الغرب اليوم سبيلاً إلى محاربة دولتهم ، إلى  
غير ذلك من السخف . وإذا صح قول فالح رفي فيما كان يذهب به  
الأتراك الذين رأى لهم جماعة الانحداريين ، ومن قال قوله ، وتقارب منهم  
و صالحهم من شبان الترك وكهولهم ، ومن هذه الزمرة خرج اناس التحقوا  
بالكماليين ، ومنهم الدكتور رضا نور وزير معارفهم ، فإنه صرّح في كتابه  
تاریخ الترك ان مراد جميع ما صار اليه الأتراك من البلاء يرجع إلى اسلامهم ،  
 وأنهم لو لم يسلموا لكانوا ارق ما هم عليه ، وأنهم غفلوا عن العلم فتعلمت  
المناصر التي كانت تحت حكمهم ، وهم لم يعلموا أبناءهم وكان على العثمانيين  
الآباء تركوا المجال للمناصر غير التركية ان تتعلم .

وإذا جاز هنا الاستنتاج فلنا أن نقول ان مقام به كمال آنانورك من  
القضاء على ما رأى الخير في القضاء عليه من أوضاع الترك والإسلام ، إنما  
قام عن رأي من كان أمامه من انصار كثار مالوه على هذه الافكار الغربية ،  
وكان هو يفكر فيها ، وهو طالب في المدرسة الحربية . فطبّقاً في كهولته  
وهو صاحب قوة . والشروع ملزم كما يقولون ، فلما بدأ آنانورك

بدعوه استجاح لها الطامون في المناسب والمفاجم ، والناس تبع لصاحب القوة  
يقلدونه في كل ما يحب ، ويسيرون على هواه ويتغبون عليه ، وربما غلوا فأعطوه  
أكثر مما يتقادهم . فأصل المسألة إذاً قديم ، وهذه الدعوة أقدم من ظهور  
الاتحاديين أيضاً . وقد أتم الكلاليون ما بدأ به الاتحاديون من قبل ، وجهروا  
بالدعوة ونفذوها ، ولو عاشت دولة الاتحاديين إلى ما بعد الحرب الكبرى  
لدعوا إلى مثل دعوة الكلاليين ، وربما زادوا وأغرقوا . ذلك لأن تلك  
الأفكار كانت مغروسة في طبقة من الفتيان لا يعرفون عن الإسلام شيئاً  
يذكر ، أما عن العرب والشرق بصورة مشوّهة لم يصور الصليبيون أحسن منها .

هذه ، <sup>١٩٥</sup> كانت الدعاية إلى الكفر بالاسلام ، والرجوع إلى عبادة الأصنام ،  
<sup>١٩٦</sup> والأخذ بالقومية الضيقة قومية الترك . الخالصة ، ظاهرة قبل المهد الكالي  
<sup>١٩٧</sup> في تركيا ، وكان توفيق فكرت من أكبر شعراء الترك المتأخرين وهو الذي  
<sup>١٩٨</sup> تصر بأخره ومات على غير الاسلام يحفظ أرواح ناشتهم ، ويدعوهم إلى التجدد  
<sup>١٩٩</sup> من مشيخاتهم القدية ، وما قال وهو ما حفظه المتعلمون من الفتيا عدّم .

ساده توركدن بر حکومت قورئنر لازم کلير  
 بشقه قومي بوردىزدن قوغمنر لازم کلير  
 أسكى زماندىن وار بزم بر مذهب مخصوصنر  
 بت برسيلکدر بدردن مذهبی مورئنر  
 جد مزاول جنکيز عاقدلدر بزم  
 جد من جد الحسينه معادللدر بزم

مناه : علينا أن نؤسس حكومة من الترك فقط  
 وأن نطرد الشعوب الأخرى من حجرنا  
 نرجع إلى ما كان لنا من مذهب قديم  
 ورثناه عن آبينا وهو عبادة الأصنام  
 إن جدنا الأعظم هو المأقل جنکيز  
 وجدنا من عيار جد الحسين  
 أي أن شاعرهم دعا إلى ثلاثة أمور : أن يشيد الترك ملكهم من

أنفسهم ، ويطردوا منه كل عنصر غريب عنهم ، وأن يعودوا إلى عبادة الأصنام مذهبهم القديم المتسلل فيهم ، وعليهم أن يفاحروا بمحدم جنكيز الماقد الحكيم ، فهو مثل جد الحسين سبط الرسول ! يعني أن جنكيز الذي خرب الممالك وآتى على الحضارة ، ولم يمهد مثله فاتح سفك الدماء على وجه الدهر ، هو مثل رسول الله ، وجنكيز هو الذي وضع قانوناً سماه (اليساق) أي المحظور ، حلال فيه المحرّم وحرّم فيه الحلال .

ولم يطبق الترك دعوة توفيق فكرت بالحرف لأنها هذيات وهراء . وكان العرب وكل من لهم صلات بالأتراك من المسلمين يملكون آمالاً كبيرة على رئيس جمهورية الترك الحالي عصمت ابونو ، لما عرف من اعتداله وتدبّره ( وهو مشكوك في جنسيته ) ويعتقدون أنه يعدل بعض التعديل في دستور الترك ، حتى تزعزع الفوارق من بينهم وبين جيرانهم الشرقيين ، فان قانون سويسرا صعب تنفيذه في المجتمع متاخر كالمجتمع التركي . والقوانين لا تخلق الأئم والأنبياء تخلق القوانين .

كانت العرب أكثر العناصر تأديباً بالدعوة التركية ، ذلك لأنهم أصحاب هذا الدين الذي شكا من انتقامه أولئك المارقون ، وأصحاب المدينة التي عاشت دولة الترك يبقاها ، واحتقار لغة العرب وقوميتهم من التغمات القديمة وإليها أشار الشاعر المجاهد أشرف بك لما غضب أحد أدباءهم أديب بك على ما عبّث به بد المراقبة في ديوانه بقوله :

أصول ندر چىزلىر هر أردن بـ طاقىم يـرلر

أديبـ صانـه كـيم سـادـهـ سنـك دـيـوانـي چـىـزـمـشـلـر  
كـچـنـ كـونـ أـنجـمنـدـه يـوقـ إـمـشـ حـيـرتـ

ومنتهـ : من الأصول أن يمحـفـ من كل تـأـلـيفـ عـدـةـ أماـكـنـ  
فيـ أـدـبـيـ لاـ لـفـنـ أنـ دـيـوانـكـ فقطـ هوـ الذـيـ حـذـفـواـ منهـ  
حدـثـ أنـ كانـ مـنـذـ أيامـ حـيـرتـ (ـ اـفـنـدـيـ ) مـتـفـيـاـ عنـ المـجـلسـ (ـ جـمـلـسـ المـعـارـفـ )  
فـظـلتـ الـهـيـثـةـ كـلـهاـ الـقـرـآنـ كـتـابـاـ عـرـيـاـ فـحـذـفـتـهـ

## سُوْرَى مَعِ الرَّجَادِيْنَ

سقطت القدس أو كادت بأيدي الحلفاء ؛ فرأى جمال باشا أن يادر إلى مغادرة سوريا على ألا يعود . وقبل سفره ألقى خطاباً في دعوة أقامها في دار الحكومة بدمشق لا كثر من مائة شخص ، قال فيه إن طاله قضى عليه أن يهد إيمه إزالة العقوبات بأعداء الدولة ، فكان هو الذي تولى في الاستانة قتل جماعة صالح باشا ( ابن الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي ومن أصحاب البيت السلطاني ) كما قتل في سوريا من ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون في سبيل سلامة الدولة ، ونبي أن يذكر أنه قتل كذلك خلقاً في ولائيط اطنة وبفداد للا ولهم . وكان يستحل غالباً اهرافاً كل من يعتقد أن في قتله حياة الدولة ، ويحب كل من يسهل له ذلك . وقبل إيه سمح للضباط خلال الحرب أن يقتلوا بالقرعة للإرهاب ، من يشاءون من الجندي ، بدون حاكمة ولا تحقيق ، ولا اعتقاد صحة هذا الخبر . وعزم مرة على قتل أحد المندسين لأنه أمره أن ينجز طريقاً في مدة عينها هو لها فما أتمه ، ولم يعف عنه إلا لكونه تركياً يافشاً ، فتوسل إليه أصحابه الاتراك أن يتي عليه ففداً عنه بعد التبا واللتبي .

ولما غادر جمال باشا أرض الشام اعزلت رئاسة تحرير جريدة الشرق ، فبعث لي جمال باشا المرسيفي المعروف بجمال باشا الصغير أكبر القواد بعد قائد الجيش الرابع ، وكان معروفاً بحسن السيرة والتاس يحبونه ، وأنه أعاد إلى ما كنت عليه زمن جمال باشا الكبير في جريدة الشرق ، وهو يعطيه راتبي رياضات فضية لا ليرات ذهبية ، اذ نصب الذهب من خزانة الجيش ، نقلت للواسطة : ليست المسألة مسألة فضة وذهب ، المسألة أني استبدت مرة واحدة في حياتي ، ولا أحب أن استبد مررتين ثانية ، استبدني جمال

بasha الكبير لانه حانى منذ وافى هذه الدبار من دسائى الدسائين ، وانا اذكره الاستباد منها كانت صوره ، وارت كفوفلة الحمام انتقل من

### جم الى جم .

ثم تماقت مع بعض التجار وأخذت بملنا من المال اتجرب به في المازيا والنسما ، وسافرت الى الاستانة ، وزارت جمال باشا الكبير فأهل وسهل كثيراً ، وسألني عن سبب مجئي فذكرته له فقال : وأنت لست غائب بالتجارة ؟ كان عليك يا صاحبي أن تمارسها منذ عشرين سنة ، ولو فملت لك اليوم غنياً . وأوعز إليّ أن أقابل سبني بك أحد امناء سر أنور باشا ، وكيل القائد العام ووزير الحرية ، فقابلته مرة ثم وعدني أن أقابلة مرة ثانية فجئته ، وحجبني ربع ساعة فتركته وانصرفت . فسألني جمال باشا بعد أيام عما تم بيبي وبين سبني بك قلت له : قابلته مرة ، وكان في الزورة الثانية على ما يظهر مشغولاً فما اذن لي بمقابلته ، فكلمه بالهاتف وما سمعته بقول له إن « كرد علي » لم يخدم في سوريا جمال باشا ، بل خدم الدولة العثمانية ، ومن العار ان يقول القوم هناك إمّا غيرنا سياستنا . وسمته ايضاً بعيث بسيفي ، ويرجوه منه كلّاً اذا يقبلني للمثول بين يديه فإذا جئته ، وإن يتنازل فيكلعني ، فاني احسن الكلام ، وقال اشياء في مدحني اغرق فيها جداً حتى عرقت خجلأ . وكانت النية ان يعطيوني شاحنة من الورق للجريدة والمجلة وبسبعة آلاف ومائتي ليرة عثمانية ورقية مخصصات سنة كما كنت آخذ في جريدة الشرق ، وان اذهب والصرف كما اشاء في سوريا .

ولما سقطت دمشق هرب جمال باشا وجماعه من الاستانة ، وكان أرسل بطلبي الى مواجيته قبل سفره بثلاثة أيام ، ولم تصليني دعونه إلا بعد أن غادر الاستانة بثلاثة أيام ، وما أدركت ما كان يقصد من مقابلتي له ، وقد قال لي لما سقطت دمشق : إياك أن تعود إليها ، فإن الشريف حسين يقتل ، ثم لقيت جمال باشا المرسيفي على الجسر في الاستانة ، فسألني عن حاله فذكرت له ما كان بنوبه اخوه جمال باشا الكبير فقال : تعال نذهب مما

إلى وزارة الحربية وأنا أعرف سيفي بك فتأخذ ما وعدت به ، فاعتذرت لأنني لم أر من الحق أن آخذ معيتهم بعد سقوط دولتهم .

شخص انور باشا وكيل القائد العام إلى سوريا وزار الحجاز ، فقال للشيخ أسد الشقيري في طريق المدينة ، وكان جمال باشا برفقه في تلك الرحلة : إيه يا أسد افندى دبرت انت وجمال باشا مسألة ( كرد علي ) وانقذناء من القتل ، وما علمنا ان ( كرد علي ) بعد الحرب لا يكون غير ( كرد علي ) قبل الحرب . فأجابه الشيخ : من أنا حتى آنني ما كمزوه دولكم إلى ، سلو ! أحاكم جمال باشا عما ظهر للرجل ، وعما يعمل الآن ، فأجاب جمال باشا : لم أغض عن ( كرد علي ) قط ، وقد استبان لي أنه كان صادقاً للدولة ، كما ثبت بأوراق التفاصيل ، وإذا لم يقنعك قوله فاني مرسل الآت برقة إلى الديوان العرفي في عاليه ، وعنده اضابير المتهين بالسياسة ، ليرسل لها إضياداته ، فتعرف إذا كان داخلاً في جمعية سرية لقلب الدولة ، او له مدخل مع إحدى الدول صاحبة المطامع في سوريا او غير ذلك من الجرائم ، وتعرف انه عرضت عليه رشاوي عظيمة من دولة غريبة فأبى اخذها وفضل خدمة الدولة العثمانية ، ثم إنه اليوم يسير معنا قلباً وقالباً . فإذا كانت السياسة التي اتبعتها في سوريا لا تتعجبكم فأنا اعود إلى الاستانة ، وترسلون إلى هنا من ترضيكم سياسته . وعندها اورد الشيخ أسد آية « إن الحسنات يذهبن السيئات » وترجمها بالتركية ، وقال إن حسنات ( كرد علي ) الحاضرة نحو سياته الغابرة ، فقال انور باشا : يا شيخ أنا امرح واعترف بحسن سياسة جمال باشا .

والغالب أن جمال باشا حادر من شر يلحقني من صاحبه انور باشا ، كتب اليه فأوعز إلى أن أكتب له رحلته إلى المدينة المنورة ، وأن لم أذهب معها ، على مثال ما كتبت رحلة الوفد السوري إلى دار الخلافة وجناق قلمة ، وبذلك استهان قلبه إلى في الظاهر ، وكان الامير شبيب أرسلان من جماعة ( هل صحيح من نعمان ) انور يحبه ويحبه ، وكنت أنا من أخصائه جمال يحبني ويحبني ، والله أعلم

بنيات الاثنين نحونا ، وانا لا أعتقد بأن قلب أمثالها من القلوب التي تحب ،  
وما جبها لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لها والدولة .  
أكدر لي بعض المارفين أن انور باشا كان إذا أراد قتل انسان ،  
وقام إلى الصلاة وأتم صلاته ، ورأى ان امره لم ينفذ ، يأمر بقتل من امره  
بالقتل وتلسكاً ، ثم يقتل الاول الذي كان قضى بقتله ، وكان في آخر أيام  
الحرب يذهب في سجن استانبول نحو مئة ضابط ، لأنهم قالوا إن الاستمرار  
على الحرب لا يورثنا إلا خسارة في الانفس والاموال ، وذلك بتنوع من  
الارهاق لم يروا افظع منها في محكمة التفتيش الديني في المصور الوسطي .  
وكان انور باشا يتظاهر بالدين والمعفة ، ويصلن له في مزارعه أربعة آلاف  
جندى في آخر سفي الحرب ، والدولة في حاجة شديدة إلى الجند يومئذ ،  
وهذه المزارع انتصبتها من رجل روسي فيما احسب ، وصودرت منه يوم  
سقوطه فافتقر عياله .

واشتراك انور باشا ذلك الذي النبي ، مع جمعيته جمعية الاتحاد والترقي  
في تجارة السكر فربحوا عشرات الملايين من الميرات ، في زمن كانت قراءات  
المملكة العثمانية ، وكل اهلها قراء ، يحرمون السكر اربع سنين ، وبيعت الاوقية  
منه عندنا بريال بمعنى أن الرطل الشامي كان يساوي ليرتين عثمانين وربع ليرة ذهباً ،  
ولا أعلم أي دين هذا وأية امانة .

أما صاحبه جمال باشا فقد ذكر لي عبد الرحمن باشا يوسف ، أنه  
ذهب ذات صباح بودع عقبة جمال باشا في المحطة ، وكانت مسافرة إلى  
سويسرا ، فرأى أربعة جنود يرتفون إلى القطار حقائب ثقيلة ، يلهمشون كلها  
حملوا واحدة منها . وكانت عشر حقائب ، فذهب به الظن إلى أنها ذهب  
لا شاهد من تقلها ، وقد رأينا عيال جمال باشا بعد الحرب يشكون الفقر .  
فهل استحال ذلك الذهب ، إن صح انه ذهب ، في مصارف المانيا ماركاً  
المانيا من الورق ام ماذا ؟

وكذلك كان حال بعض رجال الدولة استحلوا الانجذاب بهذا الضرب من

الاحتكار في أشد أوقات الفسق التي اصييت به الامة ، فاغتنى كثيرون منهم في الحزب بمثل هذه الوسائل ، وما بقي لهم ولا لذرارتهم ما جموا . ومن الذين اغتروا سفيرينا حسين حلمي باشا ، فإنه ربح بالسكر مئات الالوف من الملايين على ما أكده المارفون ، وكان هذا الرجل من عظامه المئتين في عصره ، يحفظ القوانين ويحسن الكتابة الرسمية ، وكان مشهوراً بالاستقامة ، وانا ما اعتقدتها فيه ، منذ قص علي عبد الرحمن باشا اليوسف ان جده سعيد باشا شهدان مؤسس يتمم كان يعطي حسين حلمي باشا راتباً مقرراً كل شهر قدره خمسون ليرة عثمانية ذهباً ، مدة مقام حسين حلمي كاتم اسرار ولاية سوريا أو رئيس ديوان الانشاء (مكتوبجي) . ومن يقبض مثل هذا المال من صاحب نفوذ له كل يوم مئات كل ذات شأن مع الحكومة والاهالي يتعدى عليك أن تلمه عنيفاً مستقيماً ، وإن قيل عنه أنه كان ينفق نصف راتبه ويدخر النصف الآخر خلال المناصب التي شغلها ، ولذلك اقصد مبلغاً يبعد ثروة في تلك الايام . وإذا صحت تلوثه بتجارة السكر ف تكون عفته ضرباً من المفهوم الذي لا اعرف كيف اصفها ، فما المفهوم بالاغصان عن المبلغ الحقير وأخذ الكبير ، بل بالزهد فيها على السواء . ومن جاءني بذلك عليًّا بهذا النوع من الاستقامة ، فأنا أفضل عليه قطاع الطريق .

---

## الرثاء والمراء

وشاء ربك أن ينتأ (ي . د .) من بيت يحب ربه أن يهدى إليه .  
وكان قاضيا ، ورجائيا أن يكون من قضاة الجنة لا من قضاة النار . فتنا  
ابنه على حب الاهداء والاستهدا ، ونبي بعد حين عادة الاهداء وأتقن عمل  
الاستهدا . وأهدى صاحبا ، أول نشاته ، صندوقا من التفاح ، وادعى انه  
من حديقة بيته وهو لا يملك يومئذ دارا ولا عقارا ولا مزرعة ، ليوم  
مهديه انه لم يكن استهدا ، بل هو من ماله وصلب حاله . فأجابه صديقه  
بالشكر جواباً داعبه فيه ، فأظهر انه ما أحب منه هذه الدعاية ، وحلف  
الله يهدى غيره بعدها شيئا . اتخذ من مداعبته بما أغضبه حجة لينقطع  
عن الاهداء طول العمر . وخلاصة ما كتب له صديقه : «إني أردت أن  
قابلك على هدبك ، كما جرت عادة الناس ، وطلمت ذات العين وذات  
الشمال في الأرض التي أورثنيها أبي ، فلم أر غير صفين من الحاصلات :  
التبغ والشعير ، وها أجدر بالتقديم إلى البغال والخيول ، وشجيرة القنب ،  
وهو لا يستخدم في غير الشنق والحرق ، فان كنت ترغب في استهدا شيء  
منها فأنما على أتم الاستعداد لا رسول المقدار الذي يلزمك عن طيبة خاطر ».  
ودار الفلك دورته ، وعميل هذا المهدى على بعض بلاد الجزيرة ،  
عرف أهلا ، أو عرّفهم هو بنفسه أنه يحب الاستهدا ، فأهدوه حتى  
كادت لسترن هداياه وتجدهم ، فما هي إلا أشهر معدودة حتى صدر الأمر  
بتقله إلى عمالة أخرى بعيدة ، أرادت الدولة بهذا النقل ألا يفوتو سائز  
عمالاتها عده وإصلاحه ، لانه كان حيث يتزل لا يفكر في الاستهدا بقدر  
ما يفكـر في نشر العلم وفتح المدارس وعمارة الطريق ، وإبطال الرشوة ،  
وامتناع الفلاح بمحفوقة ! ولما آذنت ساعة الرحيل كتب إلى صديقه انه .

أن أهل تلك العالة - التي قضى بين أهلها أياماً عددها من أمتن أيامه ، لانه ما خلا فيها يوماً من استهداه شيء - هم فقراء بالنقد أغنياء بالمالية ، فإذا أجبوا أن بهدوا المؤكل عليهم حذبة يهدونه مما حوت اسطبلاتهم وحظائرهم : بقرأ ، حيراً ، خيلاً ، بقالاً ، خرافاً ، نيوساً ، ميزةً ، دجاجاً ، طيوراً إلى ما شاكل ذلك من الحيوانات والدواجن . وانه اجتمع له من هذه الأصناف قطعان يتذرع عليه نقلها إلى مقره الجديد ، وليس يرى في ناحيته من يشتريها ، ويدفع له ولو ثمناً زهيداً فيها ، ولا تسمح نفسه بارجاعها إلى أهلها ، وسأل صاحبه أن يعنّ عليه برأي يخرجه من ورطته ، ليتفق بما كسبه من المال الحلال !

وعين الله ترعى هذا الفاصل الكامل الذي فاق كل مستبدٍ أو مرتش على اختلاف في الأسماء ، ولشدة ما صرف وكده ، وبذل ما أوتيه من ذكاء ودهاء في اختراع طرق توصله إلى غرضه . وكانت له مزية لا تنكر عليه وربما عددها بعض أتراقه ضعفاً ودناءة ، وما هي إلا تفضل وتساهل . ذلك انه ما كان يحب أن يشق على المهدى ، فان كانت المسألة تحتمل عشر ليرات فتح منه بخمس ، وإن كانت تساوي خمساً رضي منه بنصفها ، لاعتقاده ، وهو من دارسي الاقتصاد السياسي ، بأن الربح القليل من الكثير أعود على فاعله من الربح الكبير من القليل .

حقيقة أن خطب الرجل سهل ونفسه متواضعة . كان مرة محافظاً في أحدى العواصم فوضع بحلاً مقرراً على كل من له علاقة به ، ليحمل إليه ولو إثناء من ابن رائب وعشرين رغيفاً من الرفاق ، وطبقاً من الزبد أو القشدة ، وما شاكل ذلك من المأكول الذي يوجد عندم ، وبخرج من أرضهم ، أو لعمله أبد لهم . يأتي هذا ليجعل للخبز والملح بينه وبين بدير شؤونهم حقوقاً وواجبات ، فانظر بالله ما أطيب هذه النفس !

وكان اذا زاد ما يصرفه من هذه الأصناف عن طعامه يبيع الفضل ويحمله نقداً في صندوقه ، وقادته ان الساقية الحاربة خير من النهر المقطوع ،

وأنه اذا اقتصر على الاخذ من المسائل الكبرى بفوته 'جمل المسائل الصفرى والعدل يتضاهى وهو من أكبر الفئران عليه ، أن يساوى بين الجميع في القضاء والاقضاء . ولو لا ان الله حب إلية المفاسدة في بعض البابا ، وكان يخسر في أكثر أطاليه ، تخلف ثروة عظيمة لا يخلف نصفها عشرة من اقرانه مجتمعين . هذا مع كل هذه الفناعة في الأخذ ، والصناعة في المطاف !

وارتقى هذا البطل المغوار ، وعين الله عليه ، بهذه الصفات النادرة ، واصبح له من السلطان ما يستطيع معه أن يضر وينفع في الأمور الكلية ، فأغلى الجمالة والمجدية ، ورفع ثمن كل قضية . واستنجد به اناس من المشتغلين بالدفاع عن حقوق الناس . كانوا اقضوا بدعوى سوء حاملهم وجهلهم ، فأخذته الشفقة عليهم أكثر مما اشتفق على حقوق هذه الامة ، لأن المجموع في نظره اغنى من الفرد ، فهم لذلك احق بالرعاية ، فعملهم ساعة من علمه اللدني ، وأفاض عليهم من ادبه الكسي ، وارجمهم على بركة الله إلى ما كانوا عليه ، وما اخذ من افرادهم ما يشق عليهم اداوه ، بل كان بمجموعه حسناً بلغ ثمانمائة دينار ، ثم انه أخذته على ان يؤديه كما قال الى رئيسه بتقاسماته ، وكان هو واسطة خير ليس غير ، ورضي أن يخدمهم لوجه الله لأنه كان دائماً يقصد بذلك هذه الخدم وجه الله ! وقد تناول ما تناول وقلبه مطمئن بالإيمان ، ونفسه تحده ، والله أعلم بالسرائر ، بأن ما أقام كان رحمة بهم وبالقضاء ، وفي عمله إحقاق للحق ونصرة للعدل .

ومن عجب امر هذا الرجل المولع بالاستهدا أنه نوع الاساليب في اخذها ، وما زرك فرصة تفلت من بين يديه ، وكل ما يساوم عليه تكون عقباه الانتفاع بشيء يأخذه على سبيل الذكرى لتواضعه ، ومن تواضعه انه لا يجوز كسر خاطر احد يقدم اليه شيئاً منها قليلاً ، فما يعجب بهذه النفس التراوية التي لا تعرف الزهو والكبرياء .

وهو الى هذا يحب أن يظهر بالعلم ، وأن يشتهر بالأدب ، وليس أشق عليه من رؤية أحد يتفرد دونه بشهادة ، او تكتب له مكانة في أندية

العلماء ، ويرى ان تفوقه في هذا الباب لا يكون إلا باستطاع ارباب هذا الشأن ليخلو له الجو ، ويستأثر بالصيت الحميد دونهم . وكان يسره ألا يذكر احد بمحمدة ، ويدعو إلى الاعتدال في تقييم المدحدين ، حتى يكون الناس كأسنان المشط في الاستواء . وهو إذا كان يحب الاقتصاد حتى من اموال مهديه ، فكيف لا يحب الاقتصاد في مدح من يمدح مثافيه . وما ادرى اين تعلم مكارم الاخلاق افي مجالس الذكر عند اخوانه اهل طريقته الدينية ، أم مع اخوانه في المسئونية الذين ارتقى الى اعلى درجات رتبهم ، وبرز آبي تبريز في مخالفتهم . ومن من اياته ان كل مفعول جائز ، وأن للمرء أن يعمل كل ما يريد ، لا يصده عن سبيله صاحب قوة ، ولا مصطلح من عادة وخلق ، وانه إذا جاز سرقة مال الغير فمن أيسر الاشياء أن يسرق أفكار الغير ، وبغير على ألقابه فيتحلها غير خجل ولا وجع :

وعلى كثرة معرفته نسي ان المرء لا يأخذ أكثر من جرمه ، وأن من واجب العاقل ان يقف حيث وضمه الفطرة ، وأن من نجح في ناحية يستحب عليه أن ينجح في جميع النواحي ، وانه إذا قام فرعاً من فروع المعارف البشرية ، بطول الزمن وكثرة التزمن ، يتعدى عليه ان يتعلم مثلاً علم الأخلاق ويعلمه ، وصياد الدينار غير صياد العلم ، وحب الدنيا لا يجتمع في قلب امرىء مع حب الآخرة ومن الصعب الجمع بين طرفين متبعدين ، والاحنياك على سلب الناس ثم النفاق عليهم بالأخلاق الفاضلة .

مسكينة هذه الأمة بليتها بالجهلاء كبليتها بالمتلهفين ، ومصيبيتها بالمعممين «المتجيدين» كمصيبتها «بالمطربين» «المبنطلين» . وربما كانت البلية بالتعلمين أفظع لأن المتعلم يعرف كيف يضر و يؤذى ، وكيف يهدى و يشهد ، وكم في الخلاائق من إذا تأملت فيهم يعجبك ظاهر حالمهم ، وإذا خبرتهم تذهب نفسك ، زام على حسن سمعت و جميل وقار ، و تستمع من أفواههم أنفاظ

م (١٢)

المرودة والشرف والصون فإذا فحشت نفسيتهم فاستعد بالله من الشيطان الرجيم .  
وتقرب بعض المعلمين والمدربين فعاملوني كما عاملوا أكثر أسلافى وأخلاقى  
بالمهديا يقدمنها ، و كنت اردها اليهم ناصحا لهم ألا يمدونا إلى آيات  
مala يليق صدوره من طبقهم ، ومنهم من كنـت ادفع اجرة عن هدبته  
حتى أبعدها إليه . ومن أجمل ما رأيت من ضروب الاهداء هدية أحد التجار ،  
زار المجتمع العلمي العربي واعطاه اعانة دفعتها للأذنين يشترون بها بذلا صيفية ،  
وما جاء الشتاء حتى رأيته يرسل إلى صندوقاً من سمك بحيرة الرياحانية ،  
وكان هو ضامناً لها ، فرأيت بعد التردد الكثير قبولها والمقابلة عليها ، وماذا  
أرسل بدلها ، وليس عندي تفاصيل ولا دراق ، فقام في تفسي أن أهدى بدلاً  
هذه الالطاف كتاباً ورسائل ، وأحببت أن تكون من الجنس الذي يتيسر  
له الاستفادة منه ، وينتسل بيـه آونة فراغه . وكانت هدية السمك تتكرر  
مرتين أو ثلاث مرات في كل شتاء ، وسام الصيـانة ثلاثة سنين ، فكـنت  
في المرات الأخيرة في حرج من قلة الظفر بكتـب تروـق صاحـي وتنـفعـه ، وخفـت  
أن تـنـفـدـ من حـوـانـيـتـ الـورـاقـيـنـ فيـ مصرـ وـ الشـامـ . ولـما اـنـتـمـتـ مـدةـ الصـيـانـةـ  
هـنـاـتـ وـهـنـاـتـ تـفـسـيـ ، وـحـمـدـ اللـهـ عـلـىـ النـجـاةـ مـنـ هـدـيـاـ السـمـكـ اللـذـيـذـ ، وـإـرـسـالـ  
كتـبـ تـلـذـ مـطـالـعـهاـ فيـ مـقـابـلـهاـ . وـسـأـلـتـ صـاحـيـ إـذـاـ كانـ رـجـعـ مـنـ الـاسـمـاكـ  
فـقـالـ إـنـهـ خـسـرـ ، وـعـيـنـ مـقـدـارـ الـخـسـارـةـ ، فـقـلـتـ لـهـ : أـصـلـحـكـ اللـهـ . وـقـعـ  
الـعـجـزـ فـرـبـعـ ضـمـانـكـ لـكـثـرـةـ مـاـ أـهـدـيـتـ مـنـ هـذـاـ السـمـكـ الـذـيـ تـلـذـذـ بـهـ عـشـرـاتـ  
مـنـ اـصـحـابـكـ ، أـهـقـنـتـ فـنـ الـاهـداءـ ، وـمـ تـعـلـمـ كـصـاحـيـ ذـاكـ فـنـ الـاسـهـداءـ ،  
فـكـانـ شـائـكـ مـاـ رـأـيـتـ .

إن كان يقلُّ في الـأـمـ الـمـصـلـحـونـ ، فـانـ فيـ اـمـتـاـنـ يـكـثـرـ المـفـسـدـونـ ، وـإـذـاـ  
كـانـ هـنـاـكـ اـخـتـرـاعـاتـ تـنـفعـ الـأـمـ وـتـنـشـلـ الـدـوـلـ ، فـانـ هـنـاـكـ اـخـتـرـاعـاتـ تـنـضرـ بـالـجـمـاعـةـ  
وـتـدـكـ مـعـالـمـ الـمـالـكـ . وـمـاـ عـهـدـنـاـ عـنـدـنـاـ مـخـتـرـعاـ اـخـتـرـعـ مـاـ يـنـفعـ ، وـلـدـنـاـ عـشـرـاتـ  
يـخـتـرـعـونـ فـيـ الشـرـ فـقـطـ ، يـفـسـدـونـ وـلـاـ يـصـلـحـونـ .

وهذا الرجل طلب صداقتي وأنا لا أعرفه (ي. د) وخدم في على الهد التركي خدمة أتقذن بها من معضلة ، وبت أرقب الأيام لا كاته على جبله ، وسبت لما حانت الفرصة باسناد منصب كبير اليه ، تولاه وهو لا يصدق أنه يبلنه . وكان غاية ما عرفت عنه يومئذ أنه يحسن عمله ، لا يأنى ما يؤخذ عليه ، متوسط الذكاء ، وفي طبقة الموظفين كثيرون منه .

وما تربع في الدست حتى حدثته نفسه أن المسادة اقبلت ، وان من لا يفم الفرص يضيع الحزم ، فشمر عن ساعده الجد ، إلى أقصى حد ، ورجع إلى فطرته ، فأظهر ما كان يكتبه من مذهبها ، وتجلىت فيه عادة الاستهدا ، فأخذ بالكبير والصغير ، فكان له فيه اختراعات ومكتشفات ، واطرح كلة خذ ، وأتقن كلة هات . وساعدته ديوانه أن كان متسلب الجنبات ، كبير الأموال جم الصادرات والواردات ، وكونه عارفاً بصناعته تخرج فيها من البزرة كما يقول الترك ، وأنقذها قبل أن يبلغ الحلم بحكم الضرورة . وعرف بمرور السنين مداخلها ومخارجها ، كما عرف أهلها كبيرهم وصغيرهم . أما معلوماته فما زادت عن معلومات المدرسة الابتدائية ، وكانت بصنع الرزانة ويتمد الوقار ، وبسكت في المجالس ، وبسم كأنه يفهم ما يلتقي فيها ، وهو بعض منسياته ، على حين لا يمتاز عن العامة بمعلوماته ، إلا أنه يتقن عملية الجمع والطرح والضرب والقسمة .

وزعمت لك أنه أتقن فن الاستهدا ، وله فيه ختراعات ومبتدعات ، أما الإهداء فما عرفه ، اللهم إلا ما كان من ورائه رد عادية غريب عنه ، أو الاستشفاع إلى رجل له يد باسطة في تأخير أموره وتقديمها ، أو له سيطرة عليه من بيده أو قريب ، وأحب أن يقوى في ذاته فلم ير خيراً من الاعتصام بجمعية سرية . فانخذلها بجنا بتدرس وراءه ؛ فيدرأ به عن نفسه العوادي ، وأخلص في خدمتها حتى وصل إلى أرقى درجاتها ، ونال أعظم مراتبها وأوسمتها ، واقتراح يوماً على صاحبه أن يدخل في جمعيته توسد إليه

الوزارة بعد أربعة أيام ، فقال له : إنه ما تولى منصبًا باستظهاره بجمسيه ولا بجماعه ، وأولى له ثم أولى إلا يكون شيئاً من أن يدخل في شيء لا يريده للوصول إلى شيء قد يريده وقد لا يريده . وأحب أيضاً إلا يخليه من معاونته فتوسط له باعطائه مبلغاً من المال باسم صحيفه له يشرف عليها ، والترجم له لا يحسن الاهداء إلا إذا كان من مال غيره ، وفي سبيل تلوث سمعة من لم يتلذوا ، من باب ودت الزانية لو كان كل النساء زانيات .

— وأزيدك أن الرجل ما عرف معنى للصادقة طول عمره ، ولا عطف على بائس عائل ، ذلك لأن قلبه ما أحب إلا معبوداً واحداً هو المال . ومن قواعده أن ما دخل عليه من التقد لا يخرج من صندوقه إلا إلى المصارف والخزبي في داره ، ويرى أنه لا يناسب منزلته أن يت Bauer شيئاً من السوق فيأتيه بكل ما يحتاج إليه أولئك الذين قضت الأقدار عليهم أن يصبحوا تحت يده ، يصرّفهم وبتصرف بأمرهم .

ومن اختراعاته في الاستهداه أنه إذا جاء لاستلام منصب جديد يرسل منشوراً إلى من هم تحت إشرافه من العمال في الإرجاء يقول فيه إن بيته يحتاج في ستة إلى ستة صفاعع من السمن ، ويرجو أن ترسل إليه مصحوبة بقائمة ثمنها : فيأتيه السمن هدية من كل مكان ، حتى شخص داره بما ضمن من الصفاعع ونحيي بسمها أغنى مما يملك منه تاجر كبير .

هذا إلى ما يطلبه من كل مأمور من الحاجات الأخرى ، وهو على رأس كل سنة وفي الأيام الأولى من كل موسم يجدد طلب السمن ، ويطلب الصفاعع منه ، ومرءوسه يديرون صحائفهم معه بأن يدرروا عليه كل ما يطلب وما لا يطلب من حنطة وخراف وأوز ودجاج وطيور وأسماك وزباد وعسل وبيض وفاكهه ويقول . فإن فاض ما عنده منه عن حاجته ، وحاجته منه قليلة جداً ، انجر بما اخترته ولا يعرضه في السوق على أيدي سمسرة بررة إلا عند ارتفاع الأسعار ، والخوف على الفقير من الجوع . فيبيمه نكبة بالحانفين من التجار والمضارعين !

وصاحبي هذا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويُمارس من اركان الاسلام ما لا يكلفه مالاً ، يصلي ويصوم ، اما الزكاة والحج فلا ، ويُعتقد الى هذا بنعيم الآخرة الا انه يفضل عليه نعيم الدنيا . ولدؤام هذا النعيم تراه يضن بالدائق لا يبذرها كيف اتفق . وما وصل الى سعي انه دعا احداً الى طعامه ، ويفضل ابداً ان يتناول من طعام غيره ، وكيف يعمل حتى تشكر له المآدب ، ولا ينقطع سندها عنه ولو في الاسبوع مرة او مرتين ؟ ولبلغ ذلك هداه ذكاوه الى اختراع كان من جملة ما يُسجل من اختراعاته . ولما كان يستطيب طعام الناس اكثر من طعام بيته رأى ان يعود مرسوسيه الكرم فأنما يدر بهم عليه ، ويستطيعهم بأن يقول لا أحدم : إن اهل بيتك يا هذا يحيدون طهي الصنف الفلاني . ومن الغد يطبع له فيدعى إليه او يحمل إلى داره مع أطباق اخرى لذبحة يقدرون انه يستطيعها . ونقول الآخر :

بلغني ان الصنف الفلاني من الطعام يحسن حريقك تحضيره . وأنت يا فلان  
«من كان الحجاب بيته وبينه مكتوفاً بعض الشيء» مقى تدعونا الى دارك  
ثانية ، فقد طال المهد باخر أكلة اصبتناها من طمامك الشهي . ومنهم من  
يكلفهم أن يخرجوا به إلى الحدائق والمنتزهات أيام العطلة مع ثلة من اعتاد  
قبول دعوتهم ، فيجثم الداعي نفقات تدخل الضيم على وفره ، إلى غير  
ذلك من ضروب التطفيل والتدرجيل .

الصوص يرقون على الاكثر في الليل من يحاولون سرقته ، وهذا  
سرق ليه ونهاره ، وقربيته لا تفتأ تعلق عليه اختراعات في هذا الباب .  
وهو لا يبالي بما يقول فيه مستخدموه في سرهم من التغالي في هذه الدناءات  
ويملئونه في قلوبهم .

وما انتهت مهمة هذا العامل الجيد حتى كان قد استرهن من المغاريات  
والجوهرات الشيء الكثير ، ووظف أمواله في أعمال رابحة ، وكثُرت صفقاته  
المالية حتى كادت تماطل بتنوعها وتفرعها أعمال مصرف من مصارف الرهونات .  
وفي خزانته الخامسة من الاحجار الكريمة المرهونة التي يصعب فك رهنها  
ما لا تجد له مثيلاً إلا في قصور الملوكة . اغتنم شدة عوز الناس فاستنصر  
أمواله بالربا الفاحش واحتال على الذهب بالأصل المرتهن ، وهو كلما زاد  
الراهن عجزاً عن الأداء في الميعاد أقدم على ضبط عقاره وحليه .

وسألت بعض المارفين عمن أخذ هذا المحتال دروسه الأولى فقال إنه  
أخذ عن أستاذ له كان أعظم لصوص عصره ومصره . كان هذا قابضاً  
سنين طويلة بيد من حديد على ادارة فيها كل أسباب الاستهداه وأخذ  
الاموال ، وكان مخترعاً أيضاً إلا أن اختراعاته محدودة بمحظي ، بضروب قليلة  
منها ، يتربع بها كثيراً ، وما وفق لا طلب إلا بمشاركة رؤسائه في المقام  
وتهبته لهم كل ما فيه مباح حياتهم . وبينما كان الموظفون لا يتناولون في  
الدور الجيد روائبهم القليلة بصورة مطردة ، وبينما كان أرامل المتقاعدين

وبناءً لا يأخذون ما يتلفون به كانت رسول له نفسه أن يقطع من رواتبهم  
مقداراً معيناً يعرفه الصيروف . وإذا كان في نساء المتقاعدين ذات الحال  
يشغف لها حسناً فيف عن راتبها ولا يف عن عرضها . ومات وخلف ثروة  
كبيرة ماجع مثلها أعظم الخائنين ، وقد أنفق في حياته وأسرف في اتفاقه ،  
وعاش عيش الملوك ، وارتكب كل حرم ، واحتسب كل انم .

هذا الاستاذ البارع خلف ذاك التلميذ الابرع ، وما مات من خلائق ،  
وكلامها لم يترك ذكوراً يذكرون بالرحمة ، وخلف مئات مئات منهم  
يمارون إلى السماء ، في كل صباح ومساء ، ألا يبارك الله له فيها أخذ  
وأقطع ، وأكل وبلغ . وكانت عاقبة الأول تبديد كل ما جمع ، وستكون  
مثلها عاقبة الثاني إن شاء الله .



## غابات من بياعاتي

زرت أوروبا أربع مرات (في سنة ١٩٠٩ و ١٩١٣ و ١٩٢١ و ١٩٢٨) وكانت النهاية من رحلاتي تجديد مارث من قوافي ، وترويض الجسم ، وكسلبة الروح ، والتعرف إلى مدينة الغرب ، ودرسها في أرضها درساً عملياً ، بعد صرف جانب من الوقت في درس النظريات . وما كنت أدخل بلدة قبل أن اطلع في وصفها كتاباً أو كتباً ، حتى أتلذذ بما أشاهده ، وأستفيد من زيارتها استفادة حقيقة .

زرت فرنسا وإنكلترا وإيطاليا والمانيا وسويسرا والنمسا وال مجر والصرб والبلغار واليونان والبلجيك وهولاند واسبانيا ، ومنها ما زرته أكثر من مرة مثل إنكلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا ، وأخذت فكراً إجمالياً عن أوصافها وشؤونها وعاداتها وميزاتها . والاشتغال ب موضوع خصائص الشعوب رياضة ذهنية إذا قيس بالنصب الذي يلقاه من ينصرف إلى الأعمال الملمبة الجافة ، ويصرف ساعات عمره في تحليل المركبات .

كنت في فرنسا وفي الجزء الفرنسي من بلجيكا وسويسرا كأنني في أرضي وداري ، بين معارفي وأحبابي ، وذلك لـكان اللهة ، أما في سائر الملك فقد كنت شبه متطفل عليها ، أدرس حالتها في الكتب ، وأستعين بالترجمة وبأصحابي الشرقيين والمستشرقين على النفوذ إلى روح تلك الشعوب ، عرفت الأولى مباشرة وعرفت الأخرى بالواسطة . وشنان بين ما حققته بنفسك حتى استسقته وتقلته ، وبين ما حققه لك غيرك ورويته عنه . وما أدركت سر هذه الحضارة الغربية في الجملة ، ولا تذوقتها بعض تذوق إلا في ربع سويسرا . والغالب أن البحث في الأمر الصغير المنظم أسهل من درس الكبير المنتشر . أدركت ذلك في رحلتي الثانية ، وفي الرحلة الأولى لم

أعثر في فرنسا ، على معرفتي بتاريخها وأدبها ، على ما أتلقف به حضارتهم ، وإن كتبت في مدینتها كتاباً وشرته .

استفنت على التفصي والبحث بما كنت أبذل من دراهم قبلة ، قد يضن بها بعض أرباب الرحلات ، فكنت أستميل قلوب الترجمة بدعونهم إلى تناول الطعام معي في بعض الوجبات ، فآخذ عنهم ما يسوغ استخدامه من المعلومات ، ومنها ما كان يجلي أمامي شيئاً من حقائق تلك الأمم ، وألغائي عما يعود على الترجمة من فائدة مادية . فقد يقترون على زيارة بعض الأماكن وشراء بعض الأشياء من محل كذا ، وأنا عارف بأن ليس لي من وراء ذلك كبير أمر ، وأعرف أن الترجمان يأخذ قسطاً مما أنفق .

قال لي ترجمان في مدينة قرطبة من أرض الاندلس ، وقد صرفت في تلك المدينة الجميلة بضعة أيام : إني احترف هذه الحرفة حرفة الترجمة في هذا البلد منذ أربع عشرة سنة ، رافقت خلاها مئات من أجناس البشر ، ومنهم عرب من شمالي إفريقيا ، ومن بلادكم مصر وما وراءها ، فما دعاني واحد منهم إلى تناول طعامه ولا قهوته ولا شرابه فقط ، كما فعلت أنت ، وكانت تحرص طول المدة التي قضيتها هنا ألا افارقك ليل نهار ، تزيد أن توأكلني حتى في فطور الصباح ، عجبت من صدور هذا منك ، على حين يظهر من حالك أنك لست غنياً ، مما السر في كرمك هذا الذي استفربته ، فأجبته : السر في ذلك أن أهل بلادنا اعتادوا أن يأكلوا الصديق عند صديقه ، وقد تأصلت فيما هذه المادة على الأيام ، ومنا اليوم من إذا لم يكن في بيته من يوأكله يقف على بابه يتقطط رجالاً يدعوه إلى مشاركته في طعامه . فتمجب من هذه المادة ، وما عرف إني أقصد بدعونه أولاً أن أزيل عن وحشة الغربة ، وأن أستفيد منه أشياء لا تعرفها الكتب ، وأنني أفع ، باتفاق زيادة طفيفة على نفقاتي المقررة ، على فوائد يصعب تلقيها بغير هذه الصورة ، وهي في نظري لا تقدر بثمن لأنني أحب ساعة كل غريب . كثيراً ما كان يمدلوني بعض أصحابي على استفناقي عن مرافقه أحد في

رحلاتي ، والواقع أني من يصعب عليهم أن يقيدوا أنفسهم وبقيدوا غيرهم ، وما دمت في مهمة أريد القيام بأعباءها أولاً وبالذات من الصعب أن يتيسر لي انتصاحاب من يواافقني على تحقيق مآربني كلها . وأكثر من يرحلون منا إلى الغرب تكون رحلاتهم للتجارة أو لزيارة . وهذا الصنفان من أرباب الرحلات لا يوافقاني على ما أريد الدخول فيه . فالناجر لا يهمه أن يجتمع إلى عالم مشهور ، ويسمع كلامه ويحمل فوائد ، ولا أن يدرس مخطوطات عربية في خزانة كتب ، ولا أن يبحث عن الآثار النادرة ، بقدر ما يهمه أن يقابل أصحاب المعامل ، وبقاضي ساعات مع وكيله وعميله ، وكذلك الذاهب لغرض السباحة والزيارة ، لا يهم إلا الاطلاع على ماتحمله المدنية الفريدة من المباحث . ومَّا الناجر الاقتصاد في النفقه ، والمتنزه يهون عليه التوسيع فيها ، ومثلي قد يؤثر التوسط في ذلك . ومن المتذر الجم ين المطالب المتباينة . على أني كنت في معظم البلدان ولا سبأ في الرحلتين الأخيرتين أتعنى لو كان معي وريق من ثمي ودمي أفرع إليه فيؤنسني ، وأبوج إليه بذات صدرى ، فيسري عنى همى ، ومتنادر ومتضاحك ، ولكن كنت أقول إن كل ما في الترافق من حسان يزول ساعة يخالف انتصاحبان ، ويستقد أحددهما ان صديقه يعتدي على حقوقه ، ويستائز بالوقت او بالنفقه دونه ، ويححف به ولا يعرف له قدره .

أكثر ما كنت ارتاح إليه مقبلة علماء المشرقيات ، فائهم لقربهم من منازعنا ، ومعرفتهم بعاداتنا ، ودوففهم على غارتنا وحاضرنا ، اقرب بينما من معظم من في الغرب من اهل المدارك ، وبهم كنت العرف إلىسائر الطبقات ، فهم بلا جدال همزة الوصل بين الشرق والغرب . ويبالغ المستشرقون باكرامك في بلادهم إذا توقعوا منك بعض الفائدة لهم او لامتهم ، لدن عودتك إلى وطنك ، ومنهم من يدعوك إلى داره مع فقره الظاهر ، وذلك لمعرفته العادات الشرقية . أما م فقد وقفوا عليهم قبل كل شيء على خدمة دولهم .

دعاني أحد المستشرقين في باريز على غير معرفة قديمة به ، فجابت هذه الدعوة وسألت أحد أصدقائي من لهم الصال بالداعي عن سر دعوتنا فلم يعرف ، وحضرني على الحضور . وكانت الدعوة جامدة اباب السرور ، وفيها أكثر من اثني عشر مدعواً ومدعورة ، وانصرفنا في ساعة متأخرة من الليل شاكرين لحفاوة الداعي ، ولطف من دعا من الاولئ والمقائل . وما إن عدت إلى دمشق حتى تناولت كتاباً ضخماً من طريق رسمي ومهما اضباره كبيرة ، كأنها مسودات كتاب ، وإذا بصاحب الدعوة المحظوظ سرعاً ، يدعوني أن أكتب له معلوماتي عن القباب في سوريا ومن رقد تحتها من الأولياء والقديسين ، فوضعت مقترنه في إحدى جلسات الجمع العلمي فقال بعضهم : إن هذا الموضوع يحتاج إلى درس خمس سنين ، وقال آخر : إنه يحتاج إلى خمسة اشخاص ، يدرسون ويبحثون خمس سنين ، وقال آخر غير ذلك . واستقر الرأي على أن هذا البحث ليس من اعمال الجمع ، وعمله لا يتعدى اللغة والادب . وعند ذلك فهمت سر تلك الدعوة ، وزال عجبي من حاول باطعامي وجبيه من طمامه أن أضع له تأليفاً بعض اسمه الشريف عليه . وبديهي أن الكتاب الذي يتطلبه لا يكتب في خزانة الكتب ، ولا في مكتب مؤلفه ، بل يحتاج إلى التنقل في ارجاء سوريا ليدرس قبة قبة ، ومنها ما يتعدى الوصول إليه ، ولا تسأل عما يحتاج ذلك من اوقات ونفقات ، والكرم الحاتمي الذي ظهر من صاحبنا المستشرق هذا يمد من التجارات الرابحة التي تربع منها عشرة آلاف .

وفي الحق إن ما لقيته من كرم إخوانني علماء المشرقيات في انكلترا وهولاندا وألمانيا واسبانيا وفرنسا وغيرها صادر عن عاطفة شريفة وليس فيه ما يؤخذ عليهم . وللكرم عند الغربيين كسائر عاداتهم اصول وحدود ، فلا تتوقف عن لا تعرفه ، وليس بينك وبينه حقوق سابقة أن يكرمنك ، ولا تستغربن إذا زرت احداً ولم يقدم لك فنجان قهوة ولا كأس شاي ولا كوبأ من المرطبات فإن ذلك لا يقدم لك إلا إذا دعاك صاحب الدار ، وعندئذ

يختلف بك كثيراً إذ يكون على استعداد للقاتك . وإذا دعيت يجب عليك أن تحيب بالإيجاب أو تعتذر إذا كنت تردد التخلف . وإذا أكلت طعام الدعوة وجب عليك أن تزور أصحابها بعد أيام الشكر . وإذا دعيت إلى تناول كأس من الشاي كان عليك أن تكتبه بالقبول أو الرفض ، وشكراً ربكم على كل حال . والخلاصة فان لكل شيء في الغرب قيمة وقاعدة ، ويأوبيل من لا يعرفها . وعليك أن تلاحظ أن الوقت في أوروبا أثنا عالياً أكثر من بلاد الشرق ، فإذا أعطاك الغربي من (وقته ساعة) فكانما أعطاك الشرق (عشر ساعات)

اشتغلت في خزانة الأمير ليون كابتناني في رومية شهراً كاملاً (سنة ١٩١٣) ولما أنجزت عملي قدمت له بعض مجلدات من مجلة المقتبس هدية ، واستأذته بالسفر إلى سويسرا ، وشكرت له فضله على قبولي للبحث في خزانته العظيمة ، فقال لي وهو مرتبك : ولم هذه السرعة في سفرك ؟ أرجو هذا ل أيام آخر ، فقلت له : قد ضاق صدرني في رومية من عدم فهم اللغة الإيطالية ، وإن كان الخاصة كلهم يكلمونني بالفرنسية وكذلك في النزل فان الكلام فيه بالفرنسية أيضاً على المائدة ، لأن تلقاء من أجناس مختلفين من أهل الأرض ، ومع هذا فأنا مستوحش وأريد أن أسمع كلام الشعب ، ولا يتيسر لي ذلك إلا في سويسرا الفرنسية ، وفيها أنوي أن استرجع شهراً ، وهذا غير ميسور لي هنا ، وأنا من الصعب علي أن أعلم لغة في برهة قصيرة ، مع سهولة تعلم الإيطالية على من يحسن الفرنسية . وربما كان سبب ارتباك الأمير لما استأذنته كونه ذكر حالاً أنه لم يدعني إلى داره ، ولا عرفني إلى أهل بيته ولا إلى أصحابه ، وقد قضيت منه ثلاثة أيام ، وأيقن أن هذا مناف للهُرُف ، وهو يعرف حفادة الشرقيين بالغربيين في بلادهم . وقد كتب لي إلى سويسرا بدعوني ثانية لأنني لأنني لا نجاح عملي ، ويقول إن وجودي عنده يحدث له سروراً عظيماً . وقال لي أحد أصحابي الإيطاليين إن الأمير ذكرني في أحد كتبه بخير . ولما نشروا

قائمة خزانته التي أهدتها لجمع لنشأي العلمي في رومية قدموا لها المقالة التي كتبها في الأمير بالمرية وترجموها إلى الإيطالية .

كان الأمير خلال مقامي عنده مشغول الفكر أكثر الأيام بانتخابات مجلس النواب . سأله نائب ( رافنا ) في جنوب إيطاليا ، وكان نازلاً معي في منزل ، عما أعمل في رومية ، فقلت له : إني أبحث عن مواد تاريخية حفظت في خزانة الأمير كابتناني صورها الشمية ، فعجب لمعرفتي به ، ولاحتواه خزانة على هذه المجموعة ، وقال لي أبلغه سلامي ، وذكر لي إشارة يمرفها الأمير وقت في المجلس النبالي ، ثم قال : إن الأمير اليوم يحاول أن يعاد انتخابه في هذه الدورة نائباً في مجلس النواب ، وما إخاله ينجح ، فهو منكم وبينكم ، أي أن عواطفه مع الشرق والعرب . وقال : إنه خطب في مجلس النواب وذكر أن ما أقدمت عليه إيطاليا في الاستيلاء على طرابلس وبرقة لا يليق يامة كانت ببعث النهضة في العالم ، وأن الاعتداء على شعب آمن مطمئن في أرضه بلا مسوغ شرعي أشبه بعمل قرصان بحري منه بعمل دولة شريرة . قال : وما أكتفي بذلك بل كتب في الصحف الإيطالية والإنجليزية يصبح عمل الحكومة ، مما اظنه يفلح في الانتخابات هذه المرة ، وكان الأمر كما قال . أخفق السيد كابتناني مع أنه أنفق في هذه السبيل عشرة الف جنيه ذهباً ، وأنفق منافسه خمسة وثلاثين الف جنيه فاحرز الأكثريية وتغلب عليه .

ولقد شهدت الأمير مدة الانتخابات يغيب عن مكتبه في الصباح ساعة أو ساعتين ، وكان من قبل يواصل النهار وزلطاً من الليل في عمله ، فسألت أحد أمناء سره السيد جوبيدي الصغير ( ميكيل الجلو ) عما يشغل بال الأمير هذه الأيام فقال : مسألة تجديد انتخابه عضواً في مجلس النواب ، فقلت له : قل له أرجو ألا ينجح في الانتخابات ، فإن عند إيطاليا مئات يصلحون للنبوة عن أمتهم ، وليس عندها غير واحد من عيار كابتناني في علم المشرقيات ، والنبوة لا تشرفه كما تشرفه تآليفه واعماله العلمية ، والاجدر

به ان ينصرف إلى ما اشتهر به . وقال لي جوبيدي بعد أيام : أقد استجعنت دعوتك ، إن الأمير لم ينجح في الانتخابات .

كان الأمير ينفق في السنة على العالم فقط عشرة آلاف جنيه ، وكان غنياً جداً يقدرون ثروته يومئذ بستة ملايين لير أو بخمسة ملايين جنيه إيطالي ذهباً عدا ثروة زوجته . وهذه الثروة الضخمة تبخرت كلها بعد الحرب الكبرى بفعل الأيام التي لا تبني سعيداً في سعادته ولا تشيباً في شفائه ، تنخفض العالى وتعمى من سفل .

قلت إن الأمير كاباتاني وحب خزانة كتبه لأحد مجتمع ايطاليا المهمة ، وقد رأيت أحد علماء الشرقيات في اسبانيا الاستاذ ريبيرا عن علية ان تفرق كتبه بعد وفاته ، فأوصى بها تلميذه الاب آسين بلا-بيوس ، على أن يستغل بها طول حياته ، ويفتح بابها لطلاب الاستشراق ، ثم يتذكرها لمن يرى فيه الكفاءة للاستعارة بها بعده . فان لم يظفر به يجعلها في أحد دور الكتب العامة في اسبانيا . وفي هذه الخزانة جزازات السيد ريبيرا في ترجم ثلاثين الف علم من علماء العرب وأدبائهم في الاندلس وهي من الاعمال المظيمة في خدمة المدينة الإسلامية ، وناربخ المسلمين في الاندلس خاصة .

وباهداء الملماء بجموعاتهم في الغرب إلى دور الكتب العامة اغتنى خزانتهم ، فتجاوزت في الامم الكبرى أعداد الكتب في خزائن عواصم البضعة الملايين . وللخزانة الكبرى والصغرى قوائم وسجلات لستطيع أن تجد فيها ما تميل للكشف عنه في دقائق قليلة ، وأكثرها من حيث الانتفاع بالسرعة العجيبة خزانة المانيا فيما رأيت . والاعمال مشهورة بتدقيقها ، ومعرفة استخراج الفوائد ، والانتفاع من كل مادة الانتفاع المطلوب ، وعلماؤهم من أكثر الأمم اشتغالاً ودؤوباً ، وصفتهم بذلك مدام دي سال الأدية الفرنسية العظيمة في كتابها (المانيا) وقالت إن علماء شمال المانيا – في القرن الماضي – يشتفلون ست عشرة ساعة في اليوم . وكنت في أكسفورد في مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) أسمع المنادي بنادي مستشرق كل أمة لمقابلة

نائب الملك ، فلما نادى جرمانيا جاء نحو ملايين مسترقاً ، و كنت أسامي صديقي العلامة ثوان الفرنسي فقال لي وقد حاله ما رأى من الحنة قاتلهم : أرأيت الحنة ظهورهم إنه ليس من طول السنين بل هو من كثرة الاشتغال . رأيت روح الجماعة والمجتمع ترفرف على كل شيء في الغرب ، لذلك تم بعض الأئم الفقيرة بالقليل الذي جمعته واحتست استخدامه أعمال بستجعل على الأفراد أن ينجزوها ، ضاعت بها ماتم في الملك الكبرى . قلت لترجماني في لنдра : اجتهد أن تتناول طعام الظهر وطعام المساء كل مرة في مطعم جديد حتى ترى مختلف المطاعم والتزيينات فيها . وبمد يومين قلت له : كأنك نسيت أن تنوع في المطاعم ؟ وأراك لم تصحبني إلا إلى مطعم واحد فقال : إنما مدخل إلى مطعم دخلناه من قبل ، قلت : وهل اشتقت المطاعم التي دخلناها كلها على طراز واحد . قال نعم ، هذه شركة رأس مالها ثلاثة مليون جنيه أشت في لنдра سبعين مطعماً كلها من طراز واحد وذات ثلاث طبقات ، فعجبت لهذه المشاريع الضخمة التي تم عن غنى القوم وثقة بعضهم بعض .

أجمل ما كان يطربني في أوربا بلاد الريف ونشاط الفلاحين فيها ، وما فيها من عناية ظاهرة وما هناك من غابات وحقول ومنزارع ومسابقات ليس لها مثيلاً في الشرق . وأكثر الاصناف الاوربية لا فرق فيها بين المدن والقرى إلا إسبانية ، فان الفرق فيها ظاهر بين الريف والمدن ، والغالب ان إسبانيا كسر اكتفت بذلك المناعة بالمدن وغفلت عن القرى ، فجاء الفرق واضحاً بين المدنيين والريفيين . المصور الوسطى جار حكمها إلى اليوم في مصر وأسبانيا وكذلك القرن المشردون بما فيه من رفاهية .

ظاهرة غريبة تتمثل لعينيك في بلاد الانكلترا وهي إنك تدفع الخوان (البخيش) في المطعم والفنادق لا إلى يد من يريد اكرامه من الخدمة والخدمات ، بل تجعله تحت طبق الأكل فيجي الخادم او الخادمة الموكلا بذلك الخوان يلتقطه في سرّ بعد ذهابك ، وهو يرفع الأطباق والصحاف

والكتؤس المستملة . وإذا دفست حلواناً لأحد غلام الفندق او اعطيت الحال او الحوذى او ايما كان من اصحاب هذه الحرف درام لا ينظر فيها ويضمه في جيه ولا يزيدك على كيله شكر ، وانت بالطبع تعرف واجبك فتضطليه ما يجب ان يعطى . وفي المانيا ينادون غلام التهوة او المطعم او الحانة يا سيدى الخادم ( هواوشا ) مبالغة في الاحترام كما يبالغ الانكليزي فيختم كتابه بقوله ، عبدك الخاضع ، وقد يكون في كتابه ما فيه .

اما في فرنسا فقد يهينك غلام المطعم او غيره من ارباب هذه الحرف إذا استقلَّ ما اديته له ، وقد يساومك على المقدار الذي يستطيع ان يستخلصه من جييك . وليس في طول فرنسا وعرضها شيء يقضى بغير هبة ، واهل هذه الطبقة لا روابط لهم في الحال التي يعملون فيها كالفنادق والمطاعم والمقاهي والحانات ، وربما قاسهم من يستخدمونهم ارباحهم ، ويزيد ما ينفق في هذه السبيل عشرة في المائة . وانت لا تأمن ساعي كلام قاس ، إلا إذا كنت في مطعم او فندق يزيد على القاعدة نفقة الخدمة عشرة في المائة فيربح قلبك . وكثيراً ما كنت ادفع الحلوان سلفاً في النبواخر والفنادق حتى انصح وعند مغادرتي الجمل ادفع ايضاً ما نيس . ورأيت البلدان الانكليزية السكسونية في هذا المعنى اقرب إلى المقول من الملك اللاتينية .

ومن القواعد الشاقة في الفنادق الكبرى والبواخر الفنية أنك تضطر الى أن تلبس في الظهر كسوة غير كسوة العشاء مراعياً فيها قواعد الأزياء الرسمية . وهذا التشدد على امه في بريطانيا وفي بواخرها . ويتشددون كذلك في جميع السهرات والمجتمعات . ومن دور التمثيل كالاوبرا في باريز ما اذا كانت كسوتك لا تناسب مصطلحهم وأنت في الدرجة الاولى ، يخرجونك من محلك ، ولو كنت حاصلاً على ذكرية دخولك من قبل ، واذا جئتهم بكسوة عادية لطلب مكاناً رفيناً يأتون عليك ذلك ولا يدخلونك . والحاصل قان لشد الاوربيين في الرسميات مما يصعب على الشرقي الخوض به وتطبيق برامجه المقيدة . والشرقي الذي عاش في الفوضى مضرره في الغرب الى ان ينفق جزءاً من وقته ليسير الأزياء .

والخسنة في الظاهر غالبة في بريطانيا العظمى والحكومة لا تترى رسمياً  
بوجود أماكن الفحش ، والحرية في الديار الالاتينية أوسع وبياح كل حرم  
إذا بعد عن الانظار بحسب مارسته القوانين . الانكليزي يتستر ويبالغ في  
التستر أكثر من غيره من الأمم والحياة يغلب عليه ، وقد يفتح الالاتيني ممك  
حديثاً إذا ابتسمت له وكلته ، وربما مازحك وتتوسع معك في القول ، وربما مازحك  
ويسخر منك . . وهذا لا تراه في الأرض الانكليزية ، وإن كانت الدعابة  
لغلب عليهم كما تغلب على سائر اجناس البشر .

لكل امة في الغرب مصطلح ، قد تختلف فيه جاراتها تختالفاً لا يدرك  
مداه إلا الذي يطيل المقام بهم ، وللحرارة والبرودة ، والبعد من سرت  
الشمال والغرب من الجنوب دخل كبير في تكوين الرجال والنساء ، فالشابة  
في بلاد الانكليز لا تبلغ الحلم قبل الثامنة عشرة على حين ترى في جنوب إيطاليا  
جدة لا تتجاوز سنتها الخامسة والعشرين ، ولا يختلف المهواء بين  
جنوبي جزائر بريطانيا وشمالها ، والمسافة لا تقل عن ثمانمائة كيلومتر .  
ورأيت شمالي فرنسا وألمانيا وإيطاليا أرق من جنوبها ، وجنوب إسبانيا أرق  
من شمالها . وشاهدت البلاد البروتستانتية أرق من الاصناع الكاثوليكية ،  
كما هو مائل للعيان في سويسرا ، وأيقنت أن الأمم الأوربية كلها لا تعرف  
الفرق والاسلام والعرب معرفة حقيقة ، وقد استثار بهذه المعرفة علماء  
الشرقيات في كل امة وقليل ما هم .



# علماء المشرقيات والاسلام

أشرت في الفصل السابق إلى أثر بعض علماء المشرقيات من أهل الغرب في التقارب بين الشرق والغرب . و كنت كلما مدحthem أمام جماعتنا ، يتأفون من سماع كلامي ، لأنهم من الصنف الذي لا ي العمل ، ولا يحب أن يصرخ لأحد بأنه يعمل . وقد رأيت أن أنشر هنا مقالتين في هذا الباب كنت نشرتهما في جريدة (البلاغ) المصرية<sup>(١)</sup> قلت :

بدأ علماء المشرقيات بطبع كتب العرب والاسلام يوم اخترعت الطباعة في الغرب خلال القرن السادس عشر من الميلاد ، وما زالوا يبالغون بالعناية فيها يطبعون ، ويقربون منا له على الباحثين بما يعارضون عليه الكتب من النسخ ، و يحملونها به من الفهارس ، وقد طبعوا من هذا التراث العظيم إلى الآن ما تألف منه خزانة عظيمة في مختلف العلوم والفنون ولو لا عنائهم لبقيت أمهات كثيرة من كتب السلف مهملا لا ينتفع بها ، ولعميت علينا أسرار عظيمة من كنوز مدinetنا .

أما الشرق الاسلامي فلم يشرع بطبع كتبه إلا بعد قرنين ، من هذا التاريخ . وقلما جوّد الطبع ، وعُني بالتصحيح والتعليق ، ووضع الفهرستات ، ذلك لأنّ معظم من عانوا هذه الصناعة صناعة الطبع والنشر كان قد صدر الرابع لا الخدمة العلمية ، خلافاً لعلماء المشرقيات من الغربيين ، فأنهم يتوخون بطبع كتبنا الفائدة العلمية قبل كل شيء .

---

(١) راجع بحثاً الطول (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في المخارة العربية) في المجلد السابع من مجلة الجمع العلمي العربي .

كنا على عروتنا نخلط ونركب الفاحش من الأغلاط ، وكانوا على عجمتهم يجيدون ويحودون ، وما خلونا مع ذلك من دعوى عريضة ، وظلوا هم على تواضهم ، يزبدون ما ينشرون تحجيداً الحقيقة بعد الحقيقة . وجدنا فلم تقدم إلا قليلاً .

في مصر اليوم أكثر من مائة مطبعة ، وفيها ألف من الدارسين والعالمين ، ومصر تبيع مطبوعاتها من العالم الإسلامي ، ومع هذا ما زلنا تتوقع عنابة علماء المشرقيات بنشر ما حوت خزائن الشرق والغرب من أسفارنا ، تنتظر ما ينشرون ، ولا تخفظنا الهمة إلى تناول ما تناولوا وتقليله فيه ، وهم الغرباء عن هذا اللسان ، والدخلاء على هذه المدينة . ولو قدر فقط لعلماء الأزهر ودار العلوم منذ خمسين سنة أن يختص كل واحد منهم بنشر شيء من مخلفات علماء الإسلام لما بقيت الوف منها ، لو طبعت لغيرت من طرق تفكيرنا ، وأجزاء مادتنا من البحث والنظر .

نحن لو رزقنا جانباً من هم المستشرقين ودؤوبهم ما احررت وجوهنا خجلاً عند ارادة التنظير بين ما يفعل الغريب بحال غيره ، وما يفعل القريب بمحده وترائه . وفي الحق إن من شهد بروح الاخلاص بما قمنا به في هذه السبيل ، وقابله بما تم على أيدي أولئك الأعاجم ، لا يسمه إلا أن يبالغ في الثناء على ما يذلوه من خدمة العلوم والآداب ، فأحيوا ما كان مدفوناً ، وعرفونا بما كان عندنا بجهولاً ، فخدمونا بالعرض وخدموا العلم بالذات ، جزام الله عنه خيراً .

أماي الآن مجموعة من أمهات كتبنا القديمة في الدين والتاريخ واللغة ، شرعاً مؤخراً ثلاثة من علماء المشرقيات من الأئمان . الأول كتاب (مقالات المسلمين واختلاف المصلين) لابي الحسن الأشعري جامع مذهب أهل السنة ، نشره في مجلدين العلامة ربطة وهو اليوم ينشر (الوافي بالوفيات) للصفدي . ونشر العلامة برزل كتاب (التيسير) في القراءات السبع و(القناع) في رسم مصاحف الأمصار وكلامها للداعي المتوفى ٤٤٤ وقد أتم

في مصر طبع كتاب (طبقات القراء) لابن الجوزي في مجلدين وكان بدأ بطبعه العلامة برجستازر ، فلما مات أتم تلميذه ما بدأ به الاستاذ .

ونشر العلامة كرينسكو (جمرة اللغة) لابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهرسته في مجلد ضخم ، و (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجـر المسقلاني في اربعة مجلدات ، وكتاب (الثيـجان) لـ وهـبـ بنـ منـبهـ ، و (أخبار عـبـيدـ بنـ شـرـبةـ) و (حـمـاسـةـ ابنـ الشـجـرـيـ) وطبع وبصـحـحـ كتاب اعـرابـ مـلـاثـينـ سـوـرـةـ لـابـنـ خـالـوـيـهـ والمـجـلـدـاتـ الـلـاـثـةـ الـاـخـرـةـ منـ (التـارـيـخـ الـمـنـظـمـ) لـابـنـ الجـوـزـيـ وطبع معـجمـ الشـعـراءـ للـعـزـرـبـانـيـ وـ (ـالـاؤـنـلـفـ) لـلـآـمـدـيـ وكتـابـ (ـنـحـاةـ الـبـصـرـةـ) لـالـزـيـرـافـيـ وكتـابـ (ـالـجـاهـرـ فـيـ مـرـفـةـ الـجـواـهـرـ) لـابـيـ الـرـيحـانـ الـبـيـروـنـيـ إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـاـ يـطـبـعـهـ مـنـ كـتـبـناـ فـيـ الـهـنـدـ وـمـصـرـ وـالـشـامـ وـالـجـزاـئـرـ . وـهـوـ يـحـذـقـ الـمـرـبـيـةـ ، تـعـلـمـهاـ كـالـفـارـسـيـةـ وـالـهـنـدـيـةـ بـدـوـنـ اـسـتـاذـ ، عـدـاـ مـاـ يـعـرـفـهـ مـنـ لـذـتـ اوـرـبـاـ ، فـكـانـ هـذـاـ الـكـاملـ المـاـمـلـ بـجـمـعـ عـلـمـيـ بـرـأسـهـ .

هـذـاـ مـثـالـ مـنـ عـنـيـةـ الـغـرـيـبـيـنـ بـالـعـلـومـ الـاسـلـامـيـةـ ، وـتـفـانـيـمـ فـيـ شـرـ أـصـوـلـهـاـ وـفـرـوعـهـاـ ، وـلـوـ اـرـدـنـاـ انـ تـمـثـلـ لـذـلـكـ بـاـمـثـلـةـ أـخـرـىـ مـاـ عـزـزـهـ عـلـىـ الـبـاحـثـ اـيجـادـهـ ، فـهـلـ بـلـفـنـاـ مـسـاـمـةـ أـوـلـثـكـ الـجـهـابـذـةـ الـاعـلامـ ، أـوـ وـصـلـنـاـ إـلـىـ نـصـفـهـمـ أـوـ رـبـعـهـمـ ؟ وـنـحـنـ اـصـحـابـ الـبـيـتـ زـهـدـنـاـ فـيـهـ وـبـعـاـ فـيـهـ ، فـأـنـتـقـلـ إـلـىـ مـنـ حـرـصـ عـلـىـ بـقـائـهـ وـالـاـنـتـفـاعـ بـعـاـ حـوـاهـ ، فـنـظـمـهـ عـلـىـ أـحـسـنـ نـظـامـ وـتـرـيـبـ ، وـوـقـاهـ الـعـوـادـيـ وـالـبـوـاتـقـ . عـنـيـتـ أـنـمـ اـورـبـاـ بـلـفـتـنـاـ حـقـ فـنـلـنـدـاـ وـالـسـوـيدـ وـاـنـدـرـوـجـ ، وـبـذـاتـ جـهـودـاـ غـيرـ قـبـلـةـ لـنـشـرـ آـدـابـنـاـ وـعـلـوـمـنـاـ ، وـنـحـنـ مـتـنـاوـمـونـ عـمـاـ نـسـمـ وـرـىـ ، كـانـ الـاـمـرـ لـاـ يـعـيـنـنـاـ . وـلـثـنـ كـانـ لـنـاـ بـعـضـ الـمـذـرـ فـيـ الـمـاضـيـ لـتـخـلـفـنـاـ فـيـ مـيـدانـ الـقـاـفـةـ ، فـهـاـ عـذـرـنـاـ الـبـوـمـ وـقـدـ تـمـثـلـنـاـ كـثـيرـاـ مـنـ طـرـائقـ الـقـوـمـ وـأـسـالـيـبـهـ ، وـجـارـيـنـاـمـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ مـظـاـهـرـهـ ، وـلـكـنـاـ عـلـىـ مـاـ يـظـهـرـ لـمـ نـحـنـ تـقـلـيـدـمـ فـيـ تـسـلـلـ اـفـكـارـمـ وـنـشـاطـهـمـ ، وـرـعـابـهـمـ لـلـنـظـامـ ، وـلـوـعـهـمـ بـالـتـرـيـبـ . وـقـسـارـيـ الرـجـلـ مـنـ أـنـ يـوـسـعـ عـلـيـهـ فـيـ الرـزـقـ فـاـذـاـ نـالـ مـاـ لـطـمـعـ فـيـهـ نـفـسـهـ فـكـانـهـ حـازـ السـعـادـيـنـ .

قال لي أمس عظيم من عظاء مصر «إن الطلبة الذين خرجهم محمد علي في مدارس الغرب قد انتجووا انتاجاً نافماً للعلم ، مع أنه ما كان يدرُّ عليهم في اليوم غير ثلاثة فروش ، اختارهم من النابحين من طلبة الأزهر إذ ذاك ، وأدار شؤونهم وهم في باريز ومصر إدارة عسكرية فأفلحوا ودافدوا . وأن الأزهر لما كان العالم فيه يتبلغ براتب لا يتجاوز في الشهر ثلاث جنيهات أو أربعة أو خمسة كان يفيد المسلمين أكثر من العهد الذي زيدت فيه الرواتب حتى أصبح الاستاذ يتقاضى ثلاثين جنيهًا أو أربعين أو خمسين ، وإن المدرس في هذه التوسيعة عليه انصرفت همة إلى رفاهيته ، وكانت من قبل مصروفة إلى الافادة والاستفادة» .

في هذا القول كثير من الحق لا يسع المضف إلا اقراره . وسر هذا الوناء استحكام داء التوظيف في الدينين والدنياويين ، سرى إلى من وكل الله إليهم أمر دينه وخدمة شريعته ، وكان المأمول أن تبعد بهم مواهبهم الكسبية والدينية إلى مدى أرفع من المنافسة على المناصب ، والطمع في تسلق المراتب ، وأن يجعلوا لهم غاية نافعة غير المادة يتوجون إليها بعقولهم وقلوبهم ، وكان بعض الطلبة من المرء اليوم ، على استمتاعهم بحرياتهم والتتوسيع عليهم في اداراتهم ، لا يطمعون في غير احراز شهاداتهم ، حتى إذا حازوها كان التوظيف في دواوين الحكومة ومقاصير القضاء أقصى ما يطمع فيه نفوسهم ، لاعتقادهم أن الموظف يعيش آمناً مطمئناً في حياته ومهنته ، فإذا تم لهم ما أرادوا لروا وجوههم عن المقاصد العالية ، وما لهم ولها بل ما لها ولهم ، وهم قد بلغوا ما طالوا إليه من رفيع الدرجات .

كلا قلنا لأنفسنا الدينين والدنيويين إن علماء الغرب من يخدمون العلم أجل خدمة هم من طبقة الفقراء المفلوكيين ، قالوا ونحن أيضاً صالحوك مفاليس ليس لنا مال يساعدنا على ائام أمر ، ولا حكومات تعطف على ما تتوفر على اخراجها ، ولا جميات منتظمة لضم شملنا وترعاها ، كلام من يقر على نفسه بالعجز المطلق ، وحجاج من ماتت فيهم المسم فاعتذرنا عن

كسلهم وقصيرهم اعتذاراً لا يؤديه الحق . هذا ونهضة الغرب ما قام  
لأول عهدها إلا بأيدي ابنته لا بأيدي حكوماته ، وأبناؤه هم الذين أكرهوا  
ساداتهم وكبارهم على السير في طريق سعادتهم ، فانشأ الأفراد الصالحون  
الحكومات الصالحة .

ـ أظنتنا لم نشهد رجلاً جود شيئاً ولم يظرف عن بعوانه على تحقيقه . وشهدنا  
من قدرت بهم الحمة عن أيام عمل جدي ينتظرون أن تضمن لهم منه  
الماءيات من أول يوم ومن يعتقد منا أن كل عام أو أديب أو مخترع أو  
مكتشف في الغرب ينال كل رعاية منذ اليوم الذي ينكرون فيه عمله تكون  
الجنين في بطن امه ، وأنهم كلهم من أصحاب الآلوف وعشرات الآلوف  
 فهو مطالب لنفسه ولاته . فما كل حرفة في الغرب لمني صاحبها ، ولو لا  
النرام بالمنوبيات كحسن الذكر والاثر ، وعظيم الاجر والفرح ، ما قام دين  
ولا سلطنت دنيا . ولو لا هذه العوامل ما بهرتنا هذه المدنية الحديثة وغزتنا  
 بكل ما فيها من قوة وابداع ، ونحن عما يصلح لنا منها غافلون .

ـ لو لا تفضيل المعنويات على كل أمر ما قام علماء الاسلام في الدهر الفابر  
بعا عقت الايام عن تحقيق عشر مشاره اليوم على أيدي من خلفوم .  
وقرأنا سيرة أمّة المسلمين ما رأينا الموسوع عليه منهم غير أفراد في كل عصر ،  
وأيقنا أن الاصل في جماعتهم الفقر . وهذا لم يمنع العاملين منهم من الضرب  
بسهم وافر في كل ماعانوه من أدب وعلم .

ـ ليت شعرى ماذا أصاب هذه الامة ، وهو اتها هواها ، وسهواها  
سماوها ، وأرضها مازالت تلك الارض التي سار على أديعها الآباء والجدود ،  
ونحن نرى اليوم أدوات العلم والعمل موفورة ، والعلماء غير مقتدر عليهم  
كما كانوا في سالف الاعصر ، يستمتعون بمحربتهم ، والمبر تأثيرهم تترى في متذرون  
عن القصور والانكال بما لا يقبله المنطق ولا يقرره العقل .

ـ ومن هي الحكومات حتى نتعجب بها ونجعلها معقد آمالنا في كل شيء ؟ للحكومات

فروض غير التي تتطلبه منها ، إن هي أحسنت القيام عليها فليس من الانصاف أن تقاضاها غيرها . الحكومات لا يتطلب منها غير احراق الحق ، والقاء السلام ، وضمان حريات الناس ، وما عدا ذلك فهي إن لم تر من مصلحتها التنشيط فلا يسمها التشبيط .

الحكومات هنا ولنا ، فهل سمعتم بحكومة قام فيها عقلاء من بنبيها ، ومذروا للقيام بشروع مفيد فحالات بقوتها دون انبعاثه ؟ هل حاربت حكومة أولئك الأفذاذ من رجالنا لما أجمعوا على تأسيس الجماعة الخيرية الإسلامية وجمعية المروة الودق وبنك مصر ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومشروع القرش وغير ذلك من المشاريع العلمية والاقتصادية والصناعية ، أم شهدناها تأخذ بأيدي القائمين عليها ، وتفاخر بهم لما آثمرت جهودهم .

لا أحد يضمن لأحد في هذا الكون نجاحه ، وما وقف بشروع قط إلا بضعف في تراكييه ، ونحوه في عزيمة القائم به ، وليس في مقدور أحد أن يشغل مكان غيره ، يستصفيه هبنا لينا ، ويتصدر فيه من دون صاحبه إن لم تؤهله له نفسه ، والماقل العاقل يشق أبداً بذاته طريق نجاحه ، ولا يتمدد على غير جده وكمده :

انظروا قليلاً في سيرة نوائع مصر لعهدنا هل ترونهم توقفوا في أول أمرهم على أحد ، أم ذللوا بأنفسهم لأنفسهم ما اعترض سبيلهم من المقبات ، وراحوا ينسجون بأيديهم أسلاك مجدهم ، وينشؤون بدؤوبهم صرح سعادتهم ، حتى إذا تمت أدوات الفضل فيهم ، صفت لهم أمتهم وهلت ، ومضت نشي وراءم طائعة مختارة .

قل للعام الازهري ، إن ما يتطلبه منك دينك ومجتمعك كثير ، وعليك وحدك تبعة عملك . وقل للعام المدني إن اكتفاءك بأخذ المناصب وتوقع الترقية في صالح الحكومة صنيع من سقطت هممهم ، وأمنتك ترجو منك أكثر مما تقوم به ، وقل لمن يتعلمون ، لو تلهمت العلم لاعلم ، وأمنت أن العلم يقصد لنفعه ولذته ، وقلم بواجبكم من دون جلبة ، سهل البكم علمكم شيئاً من الماديات

أيضاً . أما أنت فكونوا على مثل اليقين أنكم مضمون لكم العيش إن  
عَلِمْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَعَلِمْتُمْ ، وَنَسْطَمْتُمْ وَمَا وَنَيْتُمْ وَلَا تَهَامْتُمْ .  
قل للدّينين كم من كتاب لشرتم فحلتم به غاصباً ، وجلوتم بمضامينه حقيقة  
قل لهم إن العلم النظري وحده ، وحفظ الدساتير جيماً ، لا يفنيان الفناء  
المطلوب إن لم يقرنا بالعمل المتج .

قال أحدم لشیخ الاسلام ابن تیمیة إن فلاناً حفظ صحيح البخاري  
فأجابه : زادت نسخة اخری في البلد . ومن الحکمة أن لا تزيد عدد النسخ  
من البخاري بل أن تستخرج منه ما نتفع به ونفع . . . . .  
وقل للمدينین لو فکر كل واحد منکم في موضوعه حق التفکیر ،  
وخدم صفتھ ما وسّته الخدمة ، ونشر للناس تحقیقاته ومبتدعاته ، لامضحت  
الخزانة المربيّة في جيل واحد غنية بمطالعکم وأبحاثکم ودراساتکم ، واستفق  
قومنا في الآداب والفنون عن الكتب الاجنبية .

داء الشرق الانگل ، وداء الشرق قلة الاحتفال بالكافاءات الموجودة ،  
وداء الشرق إهمال التنظيم وعصيان القانون ، وداء الشرق قلة الدّلوب والملل  
من الاتقان . فهل تصح ياتنا على معالجة هذه الادواء لنشتوى امة رشيدة  
يكون لها الحق في الحياة على اختلاف مظاهرها ، وهل تتعلم أن البكاء  
لا يجدي ، وأن التمجيد بالباطل لا ينفع ، وأن المظمة الحقيقة بمارسة العمل .

---

## مع مواطنينا

كان المستخدمون من النصارى في الحكومة على المنهج المنهجي قليلاً عدم في الشام ، فلما خرجت من حكم المنهانين أخذوا يتقددون اعمال القضاء والادارة والمدارف والامن العام والاشغال وغير ذلك . وكان منهم وزراء العدل في بعض السنين ، ووزير العدل يعين قضاة الشرع : وقد كثراليوم عدم في الدواوين بالنسبة لنفوسهم ، يدخلون منها الصالح وغير الصالح ، وقد يغضن الطرف عن السارق المرتشي منهم أكثر مما يغضن عن كان مثله من المسلمين ، ويتسامح مع من تقل مؤهلاتهم في التعيين ، على مالا يجد مثله غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى .

ألفت الحكومة في الحرب الأخيرة مجلساً للميرة فكان رئاسته ومرؤوسه من النصارى ، فزار أحد الظرفاء مكتبه في دار الحكومة ، فلما وقع نظره على المستخدمين قال هذه بيعة للنصارى لا ينقصها إلا ناقوس . وقال أحد المفكرين من رجال السياسة لأحد أرباب السلطة العليا أن تسعه وكسين وثلاثة أرباع من بنية الخطبة في سوريه هم من أهل الاسلام أما كان من الانصاف أن تنصبووا عضواً واحداً منهم في مجلس الميرة مع مواطنיהם النصارى ، وذلك نزولاً على اعتبارات ما زلت أنتم ترعاونها ؟ وقد جرت عادة كبار النصارى إذا وسد اليهم أمر من أمور الحكم لا يصطدموا غير أبناء مذهبهم ، يستكثرون من استخدامهم في مختلف درجات الاعمال ولا يسيرون المسلم إلا كارهين . قال أحد أعيان الكاثوليك وهو يمدح بعض رجال الاتداب منهم كبار الضباط وأنا أواقته على حدبيه ولكن هنالك عشرات من المستخدمين منا ينفق الواحد منهم خمسة أضعاف راتبه ومنهم الذين يكتبون زاجم الناس في جرارات ، فهو لاء ليس من مصلحتهم أن يدلوا على أرباب الشرف

والزاهة وسمى أناساً من تجارة المسلمين من أهل الخير والمرودة .  
والفالب أن دولي الانتداب في الشام لم ترها من مصلحتها إلا الاعتماد  
على غير المسلمين في الادارة فقد قيل لي ان احصاء الموظفين في فلسطين  
هكذا : ٦٠ في المئة من المسيحيين ( وهم لا يتجاوزون مائة وخمسين ألفاً )  
و ٣٠ من المسلمين و ١٠ من اليهود وأما حكومتها الانتداب في سوريا  
ولبنان فما اعتمدت إلا على المسيحيين في الترجمة وأغرقت الدواوين بسادم  
في لبنان وإلى اليوم تحاول اغراق دواوين الشام بهم .

وحدث مرة أن جاء ضابط افرنجي يستلم قلعة دمشق ، فاستلم منها  
السجنه ، وعرضت عليه قوائم بأسماء المحبسين بسائل سرقات واحتلالات ،  
فسأل عنهم ، فأجيب هؤلاء المفسرون وأكلة أموال الدولة . فقال : أَف  
ما أقل الأمانة في هذه الدولة ، وعُرِضَ بال المسلمين ، فقال له كاتب جريدة  
الأسماء : ولكن يا سيدني إن معظم الموقوفين غير مسلمين ، فبعث الضابط  
وقال : هذا يؤيد ما كان يقال لها في أوروبا من أن أخلاق المسلمين في  
الشام أرق من أخلاق غيرهم من الطوائف .

وبعد فإن انصراف المتعلمين من النصارى في سوريا ولبنان وفلسطين  
إلى التوظيف مبدأ فقرهم ، وإن ارتأوا بحسب ما يظهر الآن . وقد كانوا في  
متاجرهم وصناعاتهم أسمد حالاً ، والموظف منها كانت درجته لا يخرج عن  
كونه عبداً بأجر زهيد يفقى في غيره ، ولتضليل ارادته ويموت فقيراً  
معدماً ، إلا من نهب وسلب .

كان المسيحيون يتعلمون الفرنسية لتعاطي التجارة والصناعات الحرة ،  
فلما كان الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان كانت الفرنسية لممأداة التوظيف  
في مختلف الدواوين ، على نحو ما أصبحت الانكليزية في فلسطين . كتب  
إليه الاستاذ فارس الخوري من حيفا أول الاحتلال الانكليزي يقول :  
« اللسان الرسمي في هذا الأقليل هو لسان الدولة المحتلة ، ولذلك أصبح  
لا يلين بالوظائف إلا من كان عارفاً بهذا اللسان ، فاتحتمها علمان المدارس

وراجحة السياح ، واحتلوا القسم الأعظم منها ، وناهيك بخبرتهم وتجربتهم وأخلاقهم دليلاً على بُحْرِيَّة الادارة والعقل الذي برافق الانعام ، . ومثل هذا يقال في بعض من لعلوا الفرنسيّة واستخدمتهم حُكْمَة الانتداب في لبنان وسوريا .

يحاول النصارى في هذه الديار أن يكونوا ، كما كان المسلمون فيها على المهد التركي ، لا ارتباط لهم إلا بالدولة القائمة ، وكان من الثقة التي وضّتها فيهم حُكْمَة الانتداب أن اعتنوا بعض الشيء بتوفّرها على كليم أولادهم ، وبنوا القصور ، وعمروا المزارع هذا ما كان من حلمهم وما يشيّهم ، أما إذا وقع حدث عظيم فأنهم ينحازون أبداً إلى الفريق الذي فيه أهل دينهم ، وإذا جاء دور المفانين تقدموه فأخذوا حصصهم ، وقد يطلبون زيادة على حقوقهم ، يدعى المسلمون إلى الكريهة وهم يدعون إلى السعادة ، وانهم لم يرهُ فيها ينفعهم وانقاء ما يضرهم ، ولا شك أنهم سبقوا المسلمين إلى التعلم والتحدُّن ومنهم كثير من أهل الفضل والعقل الراجح ، وقل مع هذا أن رأينا من قام ببناصر المسلمين في مطالبهم الوطنية الالهيّة إلا أفراداً يعدون على الأصابع وبتحرّكون في دائرة مبنية لا يغامرون البتة ، فإذا زال الخطر تقدموه أول المتقدمين يطالبون بحقوقهم المفصولة ، ولم نر في المؤرخين الفلسطينيّة والسوّرية منهم سوى أفراد قلائل جداً اشتراكوا فيها بالفعل ، وتولى المسلمين كبارُ الثوريّين وقتلوا بالثبات والاثلوف من

في اليوم الذي انهزمت فيه فرنسا أمام المانيا في النصف الاول من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ نسبت الطوائف البابوية وفي مقدمتهم الموارنة أفضال فرنسا عليها منذ اجيال وراح بعض رجال الدين منهم يفاوضون ايطاليا لتكون القيمة عليهم ، فدهش الفرنسيون لهذا التبدل الفجائي يائين من حسوم وعَدَّوْم حزبهم الصادق في الديار الشامية . أرادوا أن يبدوا السبب الكاثوليكي بسيدة كاثوليكي آخر . عجب الفرنسيون لهذا وزاد عجبهم أن رأوا المسلمين على اختلاف طوائفهم يشارطونهم مصالحهم وبمحفظون من

آلامهم وشهدوا أناساً كانوا بالظاهر من المنحرفين عنهم ، وربما كانوا من المضطهدرين منهم ، يحيثونهم يوم محنهم ويواسونهم ويأسفون لما حل بأمتهم . وقد ادرك بعض المنتديين أنهم كانوا مخطئين في حكمهم على المسلمين وأنهم باعتمادهم في الأخبار على الترجمة أضلوا الصواب وكانوا على غير هدى منذ ملأوا الوظائف بغير الكفاءة من غير المسلمين ولا سيما في المعارف والجهاز والبريد والامن العام حتى لقد حاول بعض الانتمار منهم أن يستأذروا بالوظائف في دواوين كثيرة ليجعلوها كدواوين المالية في مصر وقفوا على الأقباط .

رأيت علاقتين النصارى مع أخوانهم المسلمين منذ نحو خمسين سنة اقرب إلى الاخاء والصفاء من اليوم ، فان توهם بعضهم أنه صار لهم عزة وقوة حرك فيهم نزغات غريبة ما كانت لظهور من قبل ، كتب غوستاف لبون الفيلسوف إلى أحد رجال الاسلام يعتقد بأن التربية التي بلقها الكاثوليك خاصة لا يتأنى منها الا ان تخرج أناسا يكرهون المسلمين . وإذا كان بعض أهل الذمة يذكرون شيئاً من العبث بحقوقهم على العهد العثماني ، فليس هذا من قانون الاسلام ولا من صنع المسلمين أبناء هذه الديار ، بل هو من كانوا يحكمون ولا راد لهم حكمهم أهل السياسة يومئذ ، فهم الذين كانوا يسوقون الرعاع لامتهان بعض الطوائف أحياذاً ، ويزينون بعض اذنابهم أن يعملا على التفرقة بين أبناء الأمة الواحد . وعهدي بالنصارى والمسلمين في القرى يتحابون ويتساندون كائتهم أبناء بيت واحد ، أكثر من هذا العهد الذي قد ينظر المواطن فيه إلى مواطنه شرراً ، ويختقره في باطنها على ما يضر بمصلحة الطائفتين .

لما اعز القوت في لبنان أيام الحرب الكبرى ( ١٩١٤ - ١٩١٩ ) منح جمال باشا قائد الجيش الرابع مقادير وافرة من الحنطة حلت إلى الجبل من الإرجاء المجاورة ، فما كان من بعض المطارنة والاعيان هناك إلا أن انفقوا على أخذ نصف القمح وانجروا به لحسابهم ، وخلط النصف الآخر

بالتراب ، فأكل الفقراء منه وهم ينكحونه . وكان ذلك عراؤي من بطريرك الموارنة يومئذ . وأشاروا أن القائد لم يمد اجاعة الجبل ليملك أهلها لأن أكثراً من نصارى ، ولو نفذ البطريرك تعاليم دينه لما انتظر اعانته من أحد ولباع بعض أملاك الكرسي البطريركي وصرفها في اطعام أبناء الطائفة ، وأملاكه لسفر ربع لبنان ، وبذلك كان يتيسر له أن ينجد قومه زمن السرقة ، ولو كانت الرحمة وجدت طريقاً إلى قلبه لهذا على الأقل حذو الجامدة الأميركيّة في بيروت فان رئيسها السيد دودج لما نفذ ما عنده من المال زمن الحرب ، ولم يذر عليه جلب شيء من أميركا لاطعام الفقراء ، رهن أملاك الجامدة واستلف مالاً اطعم به البائسين والموزعين حتى عقدت المدنية ، وكانت الرئيس الأميركي فهم من النصرانية ما لم يفهمه منها البطريرك العربي . !  
وكأن بعض الملتهبين للجيش من أهل لبنان يجذبون مزاج الدقيق بالرمال والرماد فاكتشف أمرهم ، وحكمت عليهم الدواوين العرفية باحكام مختلفة ، وعملتهم هذا لا يرضي به الاسلام ولا تقول به النصرانية . وبعض النصارى هنا على الأغلب تجار وتجاررة خلقوا فإذا صار لهم شيء من الأمر عملوا فيه بأخلاق التجار لا يستهدون غير الرابع ويعرفون كيف تصل أيديهم إليه .  
كانت الطوائف الاسلامية كالشيعة والنصيرية والاسعفالية والدروز اخوان الكثرة الكاثرة من أهل السنة في الشام ، وكانوا يرضون بكل ما يعطونه من حقوق ، فلما جاء الغريب اتفضوا كما اتفض المصفور بلله القطر ، وقاموا يطالبون بحقهم المزعوم ويدركون حوادث افرادية وقت في الدهر النابر ، ويقع منها بين أبناء الأُب الواحد ، ولا يفتاؤن يرددون نسمة الإِحْقَاد القديمة ، وود أصغرهم عدداً لو أحسن دولة برأسها ، وأن يجعل كياناً خاصاً بقصة الوف . وأعظم ما يبعث بمعولهم الجهل وقلة الحساب للمستقبل ، ويعرف المقلاء منهم حق المعرفة أن نار الْكُثُرية أحسن في

القي من جنة غيرهم .

من غريب أمر الطوائف في المنشأ ان الكاثوليكي يغض الارض وذكري أكثر مما

يغض المسلم ، ويعتقد كفره وهلاكه ، فاذا كان للباباوي مصلحة ينحاز إلى الارنوذكي ويترك المسلم . ورأيت المسيحيين لا يتبايعون على الأغلب إلا مع أبناء دينهم ، ولا يستخدمون إلا أبناء طوائفهم ، وهذه الخلة المضرة راسخة في الأرمن أكثر من غيرهم ، ولو عاملهم المسلمون هذه العادة المضحكة ، وقاطعوهم مدة لاتوا جوعاً ، واضطروا بعد حين إلى الهجرة ، ولكن ساحة الإسلام أكثر مما يصور لهم بعض قسيسهم الذين سمعت أن من مواعذتهم لابناء طوائفهم أن المسلم إذا كان مسكاً يجب على المسيحي إلا يضمه في عبه . وأرجو أن يكون هذا الكلام غير صحيح .

وعهدى بالسلم في مدينة دمشق يوصي مسيحيًا بأولاده بعده ، وكذلك المسيحي مع مواطنه المسلم . وأعرف جماعة من النصارى وجل أصدقائهم من المسلمين ، وهم كأبناء أسرة واحدة ، وأعرف مسلمين لا يألدون إلا المسيحيين ولا يتعاملون إلا معهم . وما ينتقد على المسلمين وعلى المسيحيين فهو أثر عصور الظلمات ، خلقته الحكومات ونختها وغذتها ، ثم جاءت مدارس المبشرين فأذكّرت نار التباغض . وكان الروم الارثوذكس يميلون إلى سياسة إسلامية ، وقال لي أحد مندوبي فرنسا في دمشق : إن الروم الارثوذكس لا يسيرون إلا معكم فهم منكم فقلت له : لنا الشرف بذلك .

وأختتم هذا الفصل بقصة مضحكه وقعت لي مع دجل من المنتسين للإِدب  
ومن أعضاء المجمع العلمي العربي . ذلك أنني تغيبت مدة في أوربا بعض  
السنين ، ولما عدت رأيته قد قرّظ كتاب مختصر تاريخ سوريا للأَب  
لامنس اليسوعي ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، وبالغ في الثناء عليه ، وأنا  
أعرف من هو لامنس وما يكتب ، وما رأيه في الإسلام والعرب . فطلبت  
الكتاب فرأيته لم يشق أوراق صفحاته ، فقلت للقرؤظ الزميل هل تعرف  
الفرنسية ؟ قال : لا . قلت : كيف تقرؤظ كتاباً كتب بالفرنسية في مجلة  
جلبة الشأن كمجلة المجمع العلمي ، على حين لم تقرأ الكتاب ، ولا تحسن  
هذه اللغة ، ولا ترجم لك مترجم ما يحويه . فكان جوابه : أليس الان

لامنس مشهوراً بتأليفه وعلمه ، فكتابه من الطراز الذي يصدر منه ؟ .  
وقرأت كتاب لامنس فكانت لمروني هزات ألم عند تلاوته ، لما أرى  
من غمطه حق العرب والمسلمين ، والبحث بالتاريخ والحقائق ، ولما أسمته  
كتبت فيه نقداً لأنشره في مجلة المجمع ، وأحببت قبل أن أدفعه للطبع أن  
أقرأه على بعض زملائي ، فلم يستحسن المعنوان المسيحيان ، وقالوا إنه بنم  
عن تعب ، أما السيد لامنس فله أن يقول فيما شاء ، ولا ينبع إلى  
التعصب ، ومن الساحة أن نسكت عما يهيننا به من أقواله ، وارتئى هذان  
الزميلان أن أطوي النقد ولا أنشره فأبى . وخرجت من المجمع قاتلني  
أحدها برجل من أصحابي المستخدمين كانوا في دار الكتب . يعرض عليَّ  
ألاًَ أنشر النقد على كتاب لامنس . قلت له : لا بد من نشره مهما كلف  
الحال ، فقال : إن المفوض السامي هو الذي أمر بتأليف هذه المحاضرات  
التي جعلها لامنس بعد ذلك كتاباً . قلت له : إن المفوض السامي أمر أن  
يحاضر لامنس بتاريخ سوريا ، ولم يأمره أن يطعن بالعرب والمسلمين ،  
ولا أن يحرف تاريخنا ويسقط رجالنا . ثم التفت إليه وقلت له : هل يستطيع  
المفوض السامي أن يقتلني كما كان يفعل جمال باشا مع من يغضب عليهم من  
أعداء الدولة ؟ قال : لا . قلت : غاية ما في الامر أن يكتب إلى مندوبيه  
في دمشق يقول له : أوعن إلى « كرد علي » أن يستقيل من رئاسة المجمع العلمي ،  
فاستقيل ضاحكاً وأقع في داري ، ولني فيها ما يشغلني أكثر من عمل  
المجمع والله وأطرب .

ونشرت نصيبي ، ورد الأبواب لامنس عليه ردًا ضيقاً ، وأراد أن  
يدخل المهاارات في مناقشته لما مكتبه . وكان من نتائج هذه المناقشة أن  
صدر الامر برفع الكتاب من المدارس ، وكانت النية ادخاله في المدارس  
الإسلامية والنصرانية . وهو كتاب إذا قرأه التلميذ المسلم ينشأ على بعض  
أبناء دينه وبمحترم ويجهل الإسلام وإذا قرأه الطالب المسيحي يكره المسلمين  
والإسلام والعرب واللغة

وبعد فأرجو ألا يحمل كلامي هذا على غير محله من ارادة الخير لمجموع هذه الامة ، على اختلاف الملل والنحل ، وأن يعرف من لم يعرف أن الاديان جاءت للسلام ، ولطمیر النفوس ، وهي متحدة في جوهرها ، فالنصرانية بين الرحمة والمحبة ، والاسلام بن العمل والاحسان . فدسّ بعض من تلقوا هذا انترات اشياء ليست من متن الدينين ولا من صلبهما ، ووضعوا من عند انفسهم هرائما ازل الله به من سلطان .

اضحكتني جملة وردت في جريدة تونسية هزلية مررة ، وقد جاء دمشق رجل من ابناء تونس اسمه صالح التونسي درس في جامع الزبيونة ، وكان من التعبّر على جانب عظيم ، فعزم ان يظهر علمه بالقاء درس عام في الجامع الاموي ، فأسفر درسه عن قيل وقال ، كاد يؤدي إلى هلاطم وتلائمكم ، فكتبت تلك الجريدة فصلاً ، عنت له ما معناه ( فساد التعليم في جامع الزبيونة احدث فتنة في دمشق ) ونحن نقول من الواجب اصلاح التعليم عند النصارى والمسلمين ليخرج المتعلمون المواطنون ازواجاً متحاينين ولثلا يؤدي فساد التعليم إلى ما لا تحمد عقباه . قرأت في تقاييدي أن سائحاً ألمانياً عاشر أهل العراق نحو عشرين سنة ، واطلع خلاهـا على علومهم وأحوالهم ، فألف كتاباً قال فيه إن الاعم الشرقية آخذة بالانفراط لرداة التعليم بين أظهرها وخمود أفكار بنها .



## مع العامة

ربما خفي على كثيرين عذري في الاعراض عنمن لا يستحقون صداقتي ولا عداوتي . الناس درجات في الصدقة ودرجات في المداواة . فنهم معارف قضت حالة من الحالات أن تعرفهم قلبيس لك مع هؤلاء أن تزعم أو يزعمون لك أن ينكلها صدقة . ومنهم من عرفتهم فراقك ستهن ، فصحبتم سحبة وقنية لم تدخل في الصميم . ومنهم من كانوا لك بثباته الآخر والوالد والولد . وهكذا يقال في العداوات ، فنها عداوة من اعراض عنه لا تحب أن تصاحبه ، ومنهم من قد تضطرك الحال إليه ، وكلاً كلاماً يكن لصاحبه عداوة ، فأنت لا تتحابان ولا تتعاديان علينا ، ومنهم من تجاهره ويجاهرك المداواة لاتبالي به ، لأن أقل ما يبيته لك مما يسوءك ، وأدنى ما يضرمه ثمك وسلبك .

كنت مرة في الشمال وعزمت أن أذهب إلى أحد الأقضية لافتتاح مدارسه ، ففرض على العامل الأكبر هناك أن يصحبني فقبلت . وأخذ في خلال الطريق يسألني عن رئيس الوزارة وعمله ، وعن علاقته بالسلطة وعن الوزارة وطول عمرها وقصره . أسئلة ما أظن وزيرًا يسألها عن وزارته ، وكنت كلما وضع سؤالاً من أسئلته أبسم ولا أجيب . وبعد أن أتم كلامه قلت له : يهني أمر المدارس والكتائب قبل كل شيء ، ولا أعرف علاقة الرئيس بالمتدين ، ولا ما يكون منه إلا في الرسميات ، والرسوميات معروفة لكل أحد ، ثم حدقت النظر فيه وكلته بنعومة في البيان ، وخشونة في المغزى قائلاً : ظلمي من عينوني وزيرًا ، لأن لي خلقاً من الصعب أن يلتصم مع حكومة من الحكومات ، أما أنت فقد خلقت لنكون مع كل حكومة ، لأنك تأخذ أخباراً ونأتي بأخبار ، ومثلك ينفق على من عينوه أيا كانوا .

هذا الرجل من الأذكياء ، وبعرف الادارة بالنظر والعمل ولا يفسر  
كلامه إلا بأنه يريد أن يستدرج وزيرًا أكبر منه مقامًا وتجربة ليتحقق من  
لأنه الأخبار ، بأسلوب يوم أن الوزير تجوز عليه طريقة في استدراج  
بعض المستخدمين في ديوانه ، إذا حاول كشف مخبآتهم . ولقد كانت  
برقيات هذا العامل تترى في تهنتي في الأعياد والمواسم ، فلما تركت الوزارة  
انقطعت تهنتاته برقائه ، لأنّه كان يهفي الكرسي ، و يريد دوام صداقته  
الكرسي ، وعلاقته بالكرسي لا بصاحب الكرسي . ومعظم من يدهنون  
لأرباب الدولة هم على هذه الشاكلة ، أصحاب لهم ما داموا في الكراسي ،  
فإذا تخلىوا عنها فكان لهم لم يتعارفوا ساعة اليهم .

وتشكر ود المرء في لحظ عينه ولتعرف عقل المرء حين تكتبه  
مضت أعوام وكانت في مأدبة حافلة فتقدّم ذاك العامل بمحبتي وعدّي  
لإضافتي ، فأعرضت عنه مظهراً أني لا أعرفه ، وأحب أن يكلّمي فتصامت ،  
وزرّكته محلي ، فعدا ورأي ، وأنا لا أزيده إلا تجاهلاً ، فلا لاحظ أحد أصحابي  
ذلك ، وسألني لماذا أحول الابتعاد عن هذا الرجل على هذه الصورة ،  
فقلت له : إنه من لا يحبون إلا الكرسي ، ولا يحترمون إلا الكرسي ،  
وذكرت له ما وقع منه معي فقال : لك الحق ، وغريب منه أن يحاول  
استخبارك واستدراجك .

قالوا خص بالبلاء من عرفه الناس ، بل خص بالبلاء من عرف الناس .  
وكيف لا نهزاً بـرجل لا يسأل عنك إلا إذا كان له مقام يحاول أن تبنيه  
على أخيه ، أو فائدة خبيثة يتوقع استحساناها ، وهو يدعى صحيتك ،  
وتغطي السنون ، ولا يراك ولا يسأل عنك ، إلا إذا واجهك بالعرض في  
الطريق ، أو في أحد المجالس ، ولا يزورك إلا في وقت بختاره ولا يناسبك  
وقد يستغرب أنه لم يجدك ، وأنت ليس بينك وبينه موعد ، كان مقامك  
يقتضي عليك أن تكون تحت الطلب ابداً لترضيه وترضي غيره . وعندى أن  
من كانت هذه حالة هو أحد رجلين : إذا كان متعملاً مهذباً يعامل غير

معاملة الجاهل الذي لم يتهذب ، وهذا يضحك من عقله ويقال له ما قاله الشاعر :

إذا ما تعمسي أراك مفاسخاً فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب  
جاءني مرة رجل من جيرانى لم أره جياني ، كان أهلى وأهله أصدقاء .  
قلت له معاناً : إني أسكن في جوارك منذ سبع سنين ، والآن تسأل  
عني مع معرفتك بصداقتي أهلاً ، ثم علمت أن زيارته كانت تجارية ، بحسب  
أن يستجدني لا أكلم له مدير الشرطة ، ليعيد الحراس الذي كان يقف  
 أمام داره . فتفاوضت وقلت له : لن أكلم مدير الشرطة ، وأننا ليس لي  
 مال أخاف عليه اللصوص ، ومن كان غنياً فليس هو ليحرسه الحراس ،  
 وكان من الأغنياء الذين لم ير أحد ما في داخل دورهم .

هذا خلق يلومني عليه أيضاً بعضهم ، ذلك انهم اعتنادوا أن يدهن  
بعضهم البعض إذا تراحت الوجوه ، وأن يلعن بعضهم بعضاً في الفنية ، وأنا  
أمقت هذا الخلق الوسيع وإن علمت أن العالم يكرهون من يجده عن  
مصطلحهم مما بلغ من سخف ، ويسخرون في سرهم من سار على قواعد  
مقولة وضعها لنفسه فراحته .

ما يؤلمني أن يتسلق العامة إلى مقامات الخاصة ، وإن يحاول الجهلاء  
أن يكونوا سادة العلماء ، وهذا ناشيء عن تخاذل الخواص ، ألقوا الجبل  
على النارب ، وما أهتمهم غير أغراضهم الموقنة ، فترك المجل للحج الرعاع .  
وربما كانت لهؤلاء رابطة تربطهم أكثر من الفريق الآخر الذي منه يؤمل  
الخير العام . يقول أبو حيان التوحيدي في طلب الخاصة رضا العامة :

ان التصدي للعامة خلقة ، وطلب الرفعة بينهم ضمة والتشبه بهم نقية ،  
وما تعرّض لهم أحد الا أعطام من نفسه وعلمه وعقله ولوئته ونفاقه وريانه  
أكثر مما يأخذ منهم من اجلائهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم .

يهمن كثيرون أنني ضئيل بجمالي ، لا أشفع لكل من يقصدني ، ولو  
بالكتاب عليه . حقيقة أنا لا أشفع لكل أحد ، ولا أحب التوسط لمن  
لا أعرفه ، فالشفيع مسؤول عن شفاعته ، فكيف أشفع لمن لا يُعرف ،

وشفاعتك شهادة فيه . واطاللا توسطت بعض أهل هذه الطبقة التي يفتش  
 أصحابها لتشهد لهم الزور ، ثم ندمت على ما أقدمت عليه ، وقد ثبتت لي  
 بعد أن ليس لهم حق في شكواهم ، وأنهم كذبوا عليٌّ ولم يصدقونك  
 حقيقة أمرهم . ثم إن من تعتقد أنهم يتحققون ما ترجوه منهم ، قد لا يحيطونك  
 إلى طلبك ، إما لأن المسألة عقيبة متذررة ، أو لأنهم يأبون التزول على  
 مطلبهم منهم ، ولذلك علمي الدهر ألا أوصي بهن بمحاولأخذ وصاني ،  
 واكتفي بأن أقدم طالب الوسادة للموصى عليه فقط ، وهو وشأنه ، ولو  
 كانت القراءين نافذة على الكبير والصغر لما احتاج هذا الصغير أن يتوسط  
 أحداً في الحصول على حقه . والظاهر أن خمسة في المائة من يطلبون الشفاعة  
 هم محقون فقط . وهذه المسائل زوج على الأكثري في الحكومات التي  
 تعلم شكلين ، وبين أمة جاهلة لا تعرف مالها وما عليها .

وصعب أن يحب الخلق من يبدو لهم بهذا الخلق ، فالرعونة تغلب على  
 صاحب الحاجة لا يهمه غير قضائهما ، وكثير من هذا الضرب من البشر  
 يفرعون بابك بعد أن يكونوا قرعوا أبواباً كثيرة وما نجحوا . وصاحب الشرف  
 يرى من الفضاعة أن تهمل وصاته ، أو يستخدمها من تكتب له حجة يخرجها  
 ذات يوم يتبعج بها .

دعاني أحد أصدقائي في القاهرة إلى التزول في داره ، وأقيمت لي  
 مأدبة كانت الصحف تذكرها ونذكر أسماء من يحضرها ، فكثر المراجعون  
 لي ، لما عرفوا أن لي علاقات مع رجال الحكومة المصرية ، ومنهم أصدقائي  
 فكان بعضهم يقصدني على غير معرفة سابقة ، ومنهم من يحاول حل مشكلته  
 القديمة مع زوجته ، لأن ولها صدقي ، ومنهم من يطمع أن يتقدم في  
 درجته ، وثالثة تود أن ترقي وظيفتها وراتبها في التعليم ، ورابع يود أن  
 يدخل ابنه بجاناً في المدرسة ، وباعي من أجورها لفقر حاله ، وخامس  
 اختار أن يبيعني مدحه ، وسادس أن اتباع إطاراً كتب فيه قصيدة يمدحني  
 بها ، وكلهم ظنوا أنني أصبحت في مصر ، أقدم وأؤخر في دفع ألم التأملين

وجلب الاحسان إلى البيوت وادخال السرور على القلوب ، واحقاق الحق ، وازهاق الباطل . وضاق صدري من الحالة التي صرت إليها ، فلم أر أحسن من أن أكتري لي غرفة في منزل يوناني ، وكانت اسم متزلي ، وتواربت عن الانظار حتى آن الرحيل من مصر ، وبقيت معظم السنين أرتاد لي متزلا لا يعرفي فيه إلا الخلص من أصدقائي ، مخافة أن أضيع أوقاتي في الشفاعات ، وأخجل من أحبابي في الحكومة وينجلون مني ، إذا لم يستطيعوا أن يحيوا طابي فيما تسته مهتم لارضاه من لا أعرف .

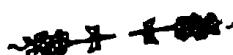
كثيراً ما سمعت من استاذي الشيخ طاهر الجزائري أنه في اليوم الذي يجمع الناس على جبه يعتقد نفسه ساقطاً ، ذلك لأنّ مني الاجماع أن المدوح ينافق كلّ انسان ، لا ينكر منكراً ، ولا يدعو إلى معروف ، وصاحب الاصلاح ، في العادة يعنته فريق ، ويرضى عنه آخر ، ومن أراد تطبيق ما يعلم ، يتآلف منه السواد الأعظم .

ولقد نصحني استاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحة وَفَتْ أوقاتي من الغياع ، وفكري من البلبلة ، وكان ذلك لما بدأت بتحرير جريدة « الشام » قال : إذا أحببت النجاح في هذا البلد فلا تلق باذنك لما قال فيك من خير وشر ، وارم ببصرك فقط إلى الهدف الذي يمنيك الوصول إليه ، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال ، وإذا وضع لك واضع حجرأ في طريقك فتح عنه ، وعد إلى سلوك محجتك .

تقبلت هذه النصيحة ، وما عدت بسماع أقوال المبطين ، ولا يصادف المداهين ، وعرفت مع الزمن أنّ أصوات أهل هذه الفئة تفزع في الهواء كالهباء ، وانهم كالي لا يعملون ، ويشق عليهم ان يروا أحداً يعمل ، وما كنت أرد على من ينادياني ، ثملاً أدخل فيأخذ ورد ، فان كان ما قاله مما ينفع أقوله وأنشره وأشكريه عليه ، وإن كان من المراء المتاد أنحول عنه ، ولا أشغل الوقت بما كتب . وأكثر من جروا على هذه الطريقة إنما يكتبون للشعب ، والكشف عن المساوي ، والظهور على الأقران

وكل صلوك منور يحاول في المادة أن يشتهر بالليل من هم أفضل منه .  
وما أفلح من ساروا على هذه الطريقة ، ودخلوا في الاعتراض ، وبعدوا  
عن الاشتغال بخوبية أنفسهم ، التزمارون الطامون يقضون أعمارهم في حسرة  
ولا يأنون ما ينفعون به أنفسهم ولا غيرهم ، ورأيت منهم جمادات ماتوا  
بغيظهم ، وكان من نجحوا من الفريق الذي يقلل من الاعتراض .

ونصح لي استاذي لما أصدرت مجلة المقتبس في القاهرة إلا أنت إلى  
الشاغبين ولا أكثر بهم ، وإن جلوسا ، فان الحكيم من يسمى إلى عام  
القصد وأقل ما يستفيد الشاغبون إضاعة وقت من أكثر بهم ،  
وإن قلَّ فالوقت ثمين . قال أقبل على شأنك واعرف مقتضى زمانك ،  
ولابعنفك تكتب المكتبين من تنبهك على غلط فرط منك فيما سلف ،  
وكما عزرت على شيء من ذلك في عدد فتبه عليه فيما يلي فان ذلك أقرب  
إلى الاعتماد على ما نكتب . وأكثر العلماء الذين اتفع الناس بكتبهم كانوا  
على هذه الطريقة ولم يتكتبوا الا الحشويون ومن نحا نحوهم . وقال : أعرض  
عمن يبحث عن تفضيل بلدة على بلدة ونحو ذلك فان مثل هذا من مباحث  
الخشوية . قال وقد سألفي منذ أيام أحد السياح عن حد المصري والصوري  
فقلت له : المصري من ينفع مصر والصوري من ينفع سوريا ، وكل من  
ينفع بلدة فهو منها طبعا ، فالمصري الذي ينفع سوريا المصري صوري والصوري  
الذي ينفع مصر صوري صوري ومن لا ينفع لديه لكتبهما فهو ليس بصوري  
ولا صوري . وقد انتهت أمريكا لهذه الحكمة الكبرى فجعلت كل من ينفع  
أمريكا نفعاً ما أمير كبا فنجحت



## قيم الارتباء

قال لي أحد أصدقائي من أساتذة كلية الآداب بمصر : ألا تكرر قلوبنا إذا رأيناك تلقي في الجمعية الجغرافية الملكية ، تحت اشراف كلية الآداب ، نماذج محاضرات في الادارة الاسلامية ، كان البحث مائلاً فيها ، وتكون المكافأة عليها خمسين جنيهًا ، في حين التي السير دينيسن رُس ، مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ثالث محاضرات على منبر تلك الجمعية نفسها ، لم تتمَّ عن شيء من المنابع ، الاهم إلا ما كان هناك من قصص أضحك السامعين ، فلما انجز محاضراته دفعت إليه الحكومة مئتي جنيه فلم يرض وعبس ، ثم زادوه مئة أخرى فسكت ، وما أظهر رضى ولا شكر . فقلت : لا تأسف يا أخي فإن القوم لا يعطون على الفناء ، ولا على قدر العناء ، وإنما عطاوهم قائم على الارضاء ، وعندكم من ذلك نماذج كثيرة في الجامعة وغيرها في تفضيل الغربي على العربي . إن بلادكم مأخوذة بأكبار اصحاب القبعات ، ولو كنت أفرنجيًّا لنظرت إلى حكومتكم غير ذلك النظر . وأظنهما مع هذا لا تراني بالعين التي ترى بها العربيَّ الغريب ، لسابقتي في خدمة مصر ، ولا من خدموا هذا القطر بأخلاق يضارع أخلاصي قلائل ، ومن خدمها كان موظفاً يعيش بغيرها ، ومن مصلحته أن يجعل لها . ولما منح وزير المعارف هذه المكافأة القليلة قال لميد كلية الآداب : إن هذا لاجل (فلان) فقط ، وإياك أن تأتيفني بأحد من فلسطين أو غيرها .

لما صدرت ارادة الملك فؤاد الاول عليه رحمة الله بتأليف بجمع اللغة العربية الملكي ، وكان اعضاؤه عشرة من المصريين وخمسة من الاقطارات العربية وخمسة من المستشرقين من أهل الترب رأى وكيل وزارة المعارف يومئذ أن تكون نفقات إقامة الغريب من العرب في مصر أقل مما يخصص لنفقة إقامة

الضمون العربي . ورأيت هذا القرار ماساً بالكرامة ، فعزمت أن استقبل من عضوية المجمع الجديد ، لهذه التفرقة التي لا موجب لها بين العربي والغربي ، لو لا أن الملك لم يرجحا لهذا التحيز بين الأعضاء الإنجانب على اختلاف أسلوبيهم وأجناسهم .

وأقمت أن مشروع المجمع الذي عرضه زميلي الاستاذ فيشر على بجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة ، وتأليفه ونشره يكلف الحكومة المصرية الوفا من الجنيهات ، لو أتي بعنه مؤلف من أبناء العرب لانها الصحف تضر به وتدميه ، وتسرخ منه وتقع فيه ، ولكن صاحب افرينجي ، والإفرينج عامه لا يقولون عيناً ، ولا يضعون من التأليف إلا ما يفيد ، ولا يرسلون مثلنا القول جزاً . وهذا مما يثبت قاعدة ان الاشياء تعظم بعض مصدرها .

حقيقة أن من نشأوا من أمة صغيرة لا ينظر إلى أعمالهم منها عظمت بالعين التي ينظر بها إلى من جاؤوا من أمة عظيمة . ومن كان على حال كحالي مثلاً لا أمة لضدته ، ولا جامعة يرتبط بها ، ولا مجتمع يأخذ بيده ، كثير عليه ل عمر الحق مات على يده ، ومستغرب منه ما انتجه . ورب مشروع أردت أن أبدأ به موئلاً فيه الخير للعلم والآداب ، ولهذه الامة العربية التي شفتها أشياء ، فأخرني عن المغامرة فيه قلة الظهور والنصر . واني لا استحي من هذا التصرّع ، وارجو ألا تؤثر هذه الشبهات في نفوس الناشئين على عهدي ومن بعدى .

لأنكم أني اغتنطت بما صار إليّ ، وقلت وما زلت أقول إني ثلت من المظاهر فوق ما كنت أرجو ويرجو من كان في مثل حالي ، وأن عشرات من الأقدماء والمحدثين لم يحصلوا على بعض ما حصلت عليه ، وإنما ما كنت أعد طول حياتي من المؤسرين ، ولكنني ما كنت أعد من المؤسرين . وكنت أرى من التوفيق العظيم ، إذا طبعت الكتاب ورددت على نفقاته فقط بعد سنتين ، أو نشرت مجلة أو جريدة وما خسرت شيئاً بذكر على نشرها . ذلك

لأنني أقدر الحال والموقع ، وأعرف أن من يقرأ الكتب والصحف في أمري لا يتجاوز بضعة الآلاف ، في حين بعد من يقرأون الكتب في الأئم الكبارى لمهدنا يمدون بمئات الآلاف . وما توقت ربحاً مما كتبت ونشرت فقط ، وربما كان ملئ قدر له أن يكتب مقدار ما كتبت إن بحني فوائد مادبة كثيرة ، وإنما ما خلقت تاجراً ، وللتاجر منازع غير منازعي . ومن طبعي إذا أقبلت الدنيا إن لا أسر بها ، وإذا تحططني لا أستاء . وكيف أسر وأكتب وإنما عارف طاقة أمري ، ومبليغ معرفتها ودرجة نهضتها .

لو كان في امكاني ، وأنا أرى الفقراء لا يقدرون على اقتناء الكتب ، على حين هم الذين يقرؤون ويستفيدون ، لطبعت من إسفارى وأسفار غيري الوفا وزعمها عليهم مجاناً . ومن عظيم الأسف أن المقدرين على ابتياع الكتب إذا هديت اليهم أخذوها ، ومنهم من لا يشكرك على هديتك ، على ما تقضي بذلك قواعد اللياقة واللباقه ، أما أنهم بطالونها ويستفيدون منها فهذا علمه عند ربى . ورأيت منهم من يبيع هذه المدابا ويكتفون بثمنها مع استئثاره عنه ، وذلك قبل أن يقص ورقها ، او ينظر في صفحة منها ، وبؤسفني أن تعاور الأيدي بعض النسخ من الكتب ، وقد يتناولها المقدرون على اقتنائها ، لكنهم مثل أكثر الجمهور في هذا الشرق الفقير ، يعدون الكتب من الكبابارات ، خلافاً للأفرنج فإنهم يعدونها من الحاجيات ، فترى الواحد منهم يقيد في مذكرته الشهرية من الكتب والصحف كما يقيد نفقة الخبز واللحوم والمشروب والملبوس ، واجور حضور التمثيل والسينما والتزلة .

فأمة كامتنا هذا مقدار سخاهم على العلم ماذا يرجو منها المشتغلون بالتأليف ؟ ومتى يأتى بقدر لا بنائهما وبنائهما أن يولعوا بالمطالبة ، ويعدوها حاجة من حاجات النفس ، لا غنية عنها لفداء الروح . ام الغرب بما بلنته من درجات الرقي هي التي يعيش منها ، بما تبذل في سبيل العلم ، الوف من المؤلفين لا صلة لهم بجامعة ولا بحكومة ولا بمجمع ، ولا يطلب منهم

إلا أن بجوداً عمليهم فقط ، وينتجوا انتاجاً مطرداً ، فتناه عليهم الأرباح ، وقد يثيري المتنازون منهم الذين كتبت لهم شهرة كأن يثيري ملوك الفولاذ والحديد والنفط في أميركا .

نلم نعلم قيمة الأشياء إذا صدرت من إنسان كان لا يمتهم قيمة في الوجود وقد كان الملوك والأمراء والإغبياء عند العرب في الدهر القابر يتولون الأخذ بأيدي المؤلفين ، واليوم ظاهراً هم في الغرب الجامعات والجامعات والجامعةات . ورأى عندنا أعمال الأفراد ضئيفة على نسبة ضعف اوضاع ديارهم والمؤلفون بمعزل لا يؤبه لهم ، وأكثر من يصنفون الكتب مما هم من طبقة الموظفين في الدولة ، وممظم ما يؤلفونه كتب للمدارس طبعاً بربحها المضمون ، أو قصص للعامة لا يملأ عن مستوى عقولهم ، يقبلون على مطالعتها فلا تقيدهم كبير أمر ، ويستفيد منها المؤلف والطبع أكثر مما تقيد المتصفح والمطالع . القراء من وراء ذلك لا يتناولون إلا ما يعرض عليهم باللحاج ، ولا يدركون غالباً بالجيد الذي يكتب وينشر .



# هزل مصر والسام

تشهد في مصر ما شهد في الملوك الكبارى من مظاهر الحياة . ففيها الجد على أتم حالاته ، وفيها الم Hazel على غاية من الاتزان ، وبطريق جدها وهزلا ، وأنا في مصر مصرى وما أنا بعصرى ، فلئن تخطتني جنسيتها ، فما حرمته الفطرة . شاركة أهلها في عواطفهم وشعورهم ، وكثير من أطوارهم . كانت إقامتى في مصر متقطعة ، فلم أر أن اعرض لسياستها إلا بقدر معلوم ، وما عنتي المناية الالزمة بالوقوف على تراجم أهلها ، وتوجيت أن أعرف بمحلات عنهم ، وذلك انشسب أطراف موضوع لا يعزز فيه إلا من تحضن له وانقطع إليه . واحتاج على الأكثر أن أعرف من رجال مصر تراجم العلماء والأدباء ، أما تراجم السياسيين وغيرهم فشرح بطول .

من الطبيعي أن يتآلف المتشاكلون في الفكر والثقافة . وفي القاهرة من ذلك ضروب وألوان ، ولا يصعب كثيرةً على النازل عليهم أن يصل إلى الطبقات المتنوعة ، إذا كان أدلةً مهرة ، ما دام المصريون معروفين بهذا الظرف وهذا اللطف . وبعض سكان عاصمتها كأهل المواصل في الذالب قد يصعب عليهم فيها عن الاقتدار فيما تفكرون فيه الناس في العادة ، من مثل الوفاء ولهمد الصاحب ، فيصدق عليهم أنهم من الطبقة التي لا يسرها من حضر ، ولا يسوها من غاب ، أو أن هذا من خلق عدم البلاهة المتأصل في بعض أفرادهم .

مصر من البلاد التي يعيش فيها الغريب خمسين سنة ، ولا يفتأ كل حين يقع فيها على شيءٍ جديد ، ويظفر بموضوع طريف ، ما كان له به عهد بالأمس . غرفت صديقي وحيد بك الأبوبي وهو وأنا في ميزة الشباب وكان من أبناء الأعيان المفكرين المثقفين ، وتفارقنا زماناً ثم التقينا قبل انتي

عشرة سنة ، وإذا به رئيس جماعة جهريّة سماها اسمًا غريبيًّا (الْبُمْكُوكَ) وبمكوكة الناس مجدهم على ما في القاموس . كانت هذه المكوكة تشم كل ليلة في قهوة متواضعة من منهطفات شارع ابراهيم باشا ، ثم انتقلت إلى قهوة السلام في نفس الشارع . وبدأ اجتماع أعضائها من بعد العشاء وينصرفون في ساعة متأخرة . وتتألف من حامين وأطباء ونواب وموظفين ورؤساء دواوين ومؤلفين وصحافيين وأعيان أصحاب أطيان موسرين وغيرهم ، ولا يقل المواظبين منهم عن ثلاثين رجلاً ، ما فيهم إلا الممتاز بأدبه وفضله . فإذا اجتمعوا تجردوا عن مظاهرهم ، وكانت اجتماعاتهم للمرح والتناول وسماع الأخبار . ويبحرون بأن بمكوكتهم فوق الأحزاب وفوق السياسة ، ولا غاية لهم إلا الضحك والاضحك . والرئيس وحيد بك الأيوبي ، ونائب الرئيس ادوارد بك الفصيري من أكبر الحامين في مصر .

هؤلاء الجماعة من رجال الاعمال ، فإذا اتدوا كل ليلة — وقد يزورهم في بمكوكتهم أخوان لهم من حين إلى آخر — فللمترويج عن نفوذهم ، وللخوض في لهو الحديث . ولذلك أن نصف جماعة المكوكة بأنهم مجردون في أوقات الجد ، وهازلون في أوقات الم Hazel ، وياما أحيلوا اجتماعاتهم ، وأوقع في الآذن أصوات حاضرائهم ، وسرّ في الرئيس بضمي إلى جلتهم ، وأمرني أن أنشئ بمكوكته مختلف إليها أخلص الأصدقاء . ولكن إذا شاهد خلاني بما كتبه دمشق أخوازي بما كتبه القاهرة في دراساتهم وثقافتهم ، فلن يشاركون بخفة أرواحهم وتنكيمهم . بلاد الشام سهلية جليلة معتدلة يغلب التقىاص على أهلها ، ولبلاد مصر سهلية حارة يغلب المرح والطرب على أهلها .

ولله ما يجري في هذه المكوكة المصرية ، فإن كل أعضائها ، والرئيس على رأسهم ، يصنعنون المرح ويلتمسون الضحك ، وناهيك بجمعيّة فيها مثل الدكتور محجوب بك ثابت المشهور بعلمه وخفته روحه وحضور نكته

وأذكُر أني عدت من الشام في بعض السنين ، و كنت متلهفًا شوفاً إلى أخياني المكوكيين ، فقصدت إلى المukoكة لاستطلع طلع أحوالهم ، فرأيت بعضهم مكتبًا ، والرئيس مقطبًا ، فسألت عن السبب فقيل لي إن الرئيس مصاب بضعف بعض الأعصاب ، والاعباء في حزن من جراء ذلك ، وكل منهم يكدر قريحته ، ويستوحى علمه ، لا يجاد علاج يمهد إلى الاستاذ نشاطه وصحته ، ويتنا夙ون في هذا الشأن ، ولا تنافس وزراء السلطان ابراهيم العثماني في ايجاد مقو لضعفه ، مع الفارق بين أعضاء المukoكة وأعضاء وزارة الفاجر ابراهيم . وفي الحقيقة أن أعضاء المukoكة كانوا يجدون في شفاء رئيسهم مخافة أن يصاب المرؤوسون بقتل مأسيب به رئيسهم . ولا تسأل عما ذكر خلال تلك الأيام من نكات وحكايات وأشعار وآثار ، وأكثرها مما يضحك النكلى ويسلي الحزين ، التزم فيها جانب التوربة والتعریض ورعاية آداب الاجتماع .

رجعت إلى الشام وكتبت كتابين مطولين في فترة قصيرة إلى الرئيس أذكر له بعض مافتح الله عليّ من أدوية لدائه ، فلما قرأها الرئيس على الأعباء تجددت لهم عنابة بمعداوته ، وبقي القوم يهتمون بذلك أشهرًا ، لا تخلو ليلة من الالامع إلى سير مرض الرئيس وإلى مظاهر من الأدوية ، وإلى ما وافقوا لمعرفته من طلاسم وأدعية إلى غير ذلك مما ينبع في شفائه الرئيس يشكو ، وهم يخفون عنه آلامه ويسلونه ، ولما عدت في الشتاء التالي إلى القاهرة سألت الرئيس عن حاله ، ففضحك وقال : وأنت أيضا صدق ما زعمته لكم ، أني ادعيت هذه الدعوى لأنصحكم ، وقد حصل المقصود من هذه الفرية حولاً كاملاً ، وأنا بحمد الله ليس لي ما يشكو منه مما ذكرته لكم . فمجيئ وأكترت صفات الرئيس وجبه لمرؤوسيه ، كما كنت أتعجب بكرمه على كل بائس مملق . وقت له إن انتسابي إلى mukoكة أحب إلى نفسي من كل لقب انتسب به ، ومن كل بجمع علمي

شرفني بعضويته ، فمع جماعته السلوى والمرور ، ومع أولئك كد الذهن ، وكرب الجد .

يكتب رئيس البمكوكة في الاحياء في جريدة الاهرام قطعاً لطيفة في الله والادب والسياسة . وجاء البرق ذات يوم ينقل كلام أحد رجال السياسة ويقول إن الانكليز يراطون بمحشهم في مصر لحرب الاستقلال ، ومن الفد كتب الرئيس بقصة أسطر في الاهرام يكبر هذه القتابة بامر مصر ، ويقول ان عندنا الآن إذاً احتلال واستقلال ، فماذا نسميها ؟ نسميتها ( الاحتلال ) نأخذ من الأول حرفين ومن الثاني ثلاثة . وسئله مكاتب النيل في القاهرة ، وماذا تسمى ذلك بالافرنجية فقال على البدمة Indépendance Occupation مأخذة من الاستقلال . وكثير السائلون الرئيس عن هذا الاسم الجديد ، وعما إذا كان له أصل في اللغة ، وهنأوه على توفيقه للثبور على هذه اللفظة الجميلة وعيشاً حاول أن يقنعهم أنها لفظة وضـها وضـها ، وما كان يرضي بعضهم إلا أن يكون وجدها في معجمات الله .

ورئيـساً يعطـف على كل من يـعدـه الناس نقـيلـاً الظلـ ، فـإذا سـمعـ بنـ هذه حالـه اـحتـضـنه وـبرـه . وقد يـصـحبـ أحدـ الصـمـالـيـكـ المـدـمـيـنـ إـلـىـ مـطـمـ الكـوـنـتـنـتـالـ يـغـدـيـهـ اوـ يـمـشـيـهـ . وقد اـعـتـرـضـ عـلـيـهـ مـرـةـ فـائـبـ رـئـيـسـ البـمـوكـوكـ قـائـلاـ لهـ : إـنـ فـلـانـاـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ (ـبـنـطـلـونـ)ـ فـسـراـوـيـلـهـ مـنـزـقـةـ ، وـانتـ شـفـقـهـ عـلـيـهـ فـيـ الـوـجـةـ الـوـاحـدـةـ ماـ يـزـيدـ عـلـىـ الـأـرـبـعـينـ اوـ الـخـمـسـيـنـ قـرـشـاـ صـحـحاـ ، اـعـطـهـ ثـلـاثـيـنـ قـرـشـاـ يـشـتـرـ يـهـ بـنـطـلـونـاـ بـعـشـرـيـنـ وـالـشـرـةـ يـنـفـقـهـ عـلـيـهـ . فـأـجـابـ الرـئـيـسـ : سـبـحـانـ اللهـ يـاـ دـوارـدـ بـكـ ، أـلـاـ كـمـلـ اـنـيـ إـذـاـ عـاوـيـهـ عـلـيـهـ اـبـيـاعـ بـنـطـلـونـ جـديـداـ كـوـنـ قدـ غـيـرـتـ مـعـالـمـ وـابـدـلتـ شـكـلـهـ ، وـاظـنـ الرـئـيـسـ يـقـصـدـ باـسـتـصـحـابـ الـفـقـارـ إـلـىـ مـطـاعـمـ الـأـغـنـيـاءـ لـيـقـولـ لـهـ لـؤـلـاءـ بـلـسانـ الـحـالـ إـنـهـ لـاقـيـةـ لـمـاـ تـعـاـظـمـونـ بـهـ مـنـ الـانـفـاقـ ، وـأـنـ الـفـقـيرـ قـدـ يـشـاطـرـمـ هـنـاءـمـ بـذـلـ عـرـضـ قـلـيلـ .

وعقل رئيس المكوكه ، والحق يقال ، ليس من القول المحدودة ، عقله مستكر مبتدع ، فقد اصدر في صباح ثلات جرائد في وقت واحد بأسماء مختلفة ، ومديرين ومحررين متوعين ، جملها كلها لمقاومة الاحتلال ، وجعل لها كتاباً ورسائلين ومحررين ، وكان يصدرها في اوقات مختلفة . وليس لها كلها ادارة غير حبيب الرئيس وقطره ، يكتبها أو أكثرها وينشرها على أنها ثلات جرائد مختلفة الوضع والطبع ، متعددة المزع و والنهاية . ولم تكشف هذه اللعبة إلا بعد مدة ، وله من هذه الالعاب اشياء تسر ولا تضر ، يمنعك منها و يضحك .

ف مصر اليوم عدة جماعات وبمجتمعات ظفر في بعض حواشيه بأفراد منازين مختلفون إلى المقاهي ويزهدون في الاجتماع في بيتهم ، وكذلك الحال في الشام ، وكانت فيها الاندية الخاصة او اليمانكيك في كل حي من احياء المدن والقرى الكبيرة . ولـي جماعة في « بار اللواء » امام ادارة جريدة الاهرام بالقاهرة ، وهم بقايا صالحة من ارباب الثقافة المالية ، والوطنية الحقة الصامتة . ومنهم صديقي القديم الابر محمد بك علي المهندس . وقد وقع لي وأنا اسير معه في بعض الشوارع ، وهو اسود البشرة محمود الصفات - وامه شريفة من اسرة الاسدي في اسيوط - خدم السياسة المصرية بما يخدمها به الرجل الشريف اعوااماً طويلة ، وما طلب على خدمته وطنه مكافأة ، ولا طمع في مظهر من المظاهر التي يطمع فيها التجرون بالوطنيات - وقع لي ان لاقت على الجادة صديقاً لي آخر اسمه صالح افتدي السوداني ، وهو مزاحم محمد بك علي بلونالسود ، وهو من ارباب الاقلام المخلصين في خدمة مصر ، فقلت لها : خطرت بيالي الان قصة وقعت لي في بلدي ، وانا في صدر الشباب ، وكان لنا جار ، وهو اخي من الرضاع ، اسمه رشيد الهيل من ابناء البيوتات القديمة ، خلف له اهله زوجة جيدة ، وكان اسود اللون قائمها مثلثاً - ولثلاً المثل الاعلى - وكنت يومئذ اركب الخيل وعند والدي وعنده ما نفطيه عند الاصيل ونخرج إلى التزهات

والبساتين ، فقال لي والدي يوماً : إنك يا بني ثبتت كل يوم حسن فوتك ، أما رأيت في هذه المدينة الكبيرة أجمل طلعة من جارنا ابن الميل تصعبه إلى نزهتك ، ودعا لي بالتوفيق والنبطة . وانتفت إلى الصديقين وقلت لها من باب مطابقة الحديث للترجمة : أليس قول والدي يصدق عليَّ الآن ، ولاشك أن الناس هنا أدق شموراً ، فبغضحكون إذ رونني يسألاً فضحكنا ضحكاً كثيراً . وناله إني لا أفضل هذين الاسودين بما فيها من صفات غرَّ على كثريين من البعض أصحاب الصحائف السود .

كان الشيخ طاهر الجزائري كثيراً ما يحدثنا بأخبار الدكتور حسين عودة نزيل صيدا ، يلقinya علينا مزوجة بهزيل وغير خالية من جد . فامتلاط الرؤوس بأخبار صاحبه ، وود كل واحد منها لو يطير إلى صيدا ، فيتعرف إلى هذا الطيب . وما كتب لأحد من جماعتنا أن يقوم بهذا الفرض قبل صاحب هذه المذكرات . فاني قصدت إلى صيدا لأنني فيها جامع شتات الفضائل بلدينا حسين عودة ، فأقبل غليل شوقي إلى رؤيته .

واريد ان يمرف اولاً من هو الدكتور عودة . ولد الدكتور في دمشق والتحق في صباح بمدرسة القصر العيني في القاهرة لأخذ الطب . فرسب لشدة ذكائه عدة سنين ، وما زال يرسب في صفة ، حتى جاء مصر الامير عبد القادر الحسني الجزائري يوم فتح قسم من ترعة السويس سنة ١٨٦٣ وقد رجاه أهل حسين عودة ان يكلم الخديوي اسماعيل ليسهل على ابنيهم أخذ شهادة الطب ، فصدر الامر من منحه شهادته ، فاغتنبط واختار السكنى في صيدا ، زاهداً في نزول بلدته الاصلية ، لثلا يكون موضع سخرية عند ارباب المهزل من اهل دمشق ، لأن خلقته وقيافته لضحكان حقيقة ، فهو مجدور وفي عينه الواحدة شتر ، وفي رجله عرج . ووفاة مدرسته لم يرض ان يخلع بزتها طول عمره ، فكان إذا بلي المعطف ، وقد كتب على ازاراته ( تلميذ القصر العيني ) اوصى على معطف جديد من نعشه وذلك كل عشر سنين مرة ، ورفع الازرار عن المعطف القديم ، واناطها بالبذلة الجديدة ، يذكر الناس بأنه خربعج كريم ، من ذلك المعهد العظيم .

كانت هدايا الدكتور تترى إلى صديقه الشيخ طاهر الجزائري بدمشق بحملها المكار كل مدة من عاصمة الفينيقين إلى عاصمة الاموريين ، أمدون ما كانت تلك الهدايا النفيسة ؟ كانت قصاصات من جرائد مصرية وسورية قديمة وحديثة ، أقدمها لابن زيد على بضعة أشهر ، وعمر أحدهما شهر واحد فقط . وكان يقطع من كل جريدة مارقة وبجمع الباقى وبضمها في كيس نظيف أبيض ويخبطه جيداً حتى لا تنتد الأيدي إلى السرقة منه . وقد اتحفى المهدى إليه مرة بشيء منها ، فلما رأيتها قد عجت استعجلت منأخذ حصتها في الدفعة الثانية ، وأحببت أن أخص بها من يحبون الجرائد ، ولو كانت قديمة بالية .

كان الدكتور حسين عودة مولماً بالحشاش ، يطب مرضاه بهما على الدوام . وقد ملاً المجالات الطبية في عصره بفوائدها ، فأول ما وقفت عيني عليه في داره بجموعات عظيمة من هذه الحشاش مرتبة مصففة بمحفنة ، جعلت على مناضد ومقاعد ، وكتبت اسماؤها عليها ، مثل ماترون من نوعها في متاحف البناء ومعارضها ، وألقيت نظري على الحائط فإذا به عال جداً ، لا يقل علوه عن اثني عشر ذراعاً ، فسألته ولمَّا هذا الحائط شاهق إلى هذه الدرجة ؟ فقال : لأنَّ النظر إلى البحر يوعزني ، ويحمل الكرب إلى قلبي ، ولذلك كان هذا السور نعمة على " لانه يحول دون نظري وما يذكره !

كان الدكتور يطب الاغنياء في بيته بفرش ونصف فإذا زاروه في عيادته أخذ منهم ربع قرش ( مثاليك ) أما الفقير فان قصده أو ذهب هو إليه بنفسه ، لا يقبض منه شيئاً ويعطيه ثمن الدواء ، والدواء بالطبع بعض تلك الحشاش . ولذلك بعد الدكتور عودة من أسر الاطباء يسميه الذي افسنه يوم خرج من المدرسة الطبية إلى مدرسة الحياة . وسررت مع الدكتور في أسواق صيدا وضاحيتها ، فرأيت أهل البلد كباراً وصغاراً ورجالاً

ونسامم اطفالهم وبناتهم يعرفون الدكتور ويعظمونه ويسألونه في الطريق  
علاج اسقامهم ويدعون له بطول العمر .

ودعـتـ الدـكتـورـ وـقدـ شـفـتـ النـفـسـ مـنـ المـعـةـ بـهـ تـلـاثـةـ إـيـامـ ،ـ وـكـنـتـ  
ناـزاـلاـ فـيـ الطـبـقـةـ الـثـالـثـةـ مـنـ فـنـدـقـ المـطـرانـ فـقـيلـ لـيـ بـعـدـ الغـرـوبـ ثـلـاثـ اوـ  
أـرـبـعـ سـاعـاتـ أـنـ الدـكتـورـ آـتـ لـزـيـارـتـكـ ،ـ فـعـجـتـ وـخـفـتـ لـاـتـلـقـاهـ عـلـىـ السـلـمـ  
وـقـلـتـ لـهـ مـاـذـاـ لـصـدـعـ نـفـسـكـ يـاسـيـديـ ،ـ وـقـدـ وـدـعـ كـلـ مـنـ صـاحـبـهـ فـيـ النـهـارـ ،ـ  
فـقـالـ :ـ هـذـاـ وـاجـبـ أـقـومـ بـهـ ،ـ فـشـكـرـتـ لـهـ اـدـبـهـ وـتـفـضـلـهـ .ـ وـرـأـبـهـ فـيـ هـذـهـ  
الـزـيـارـةـ الـلـيـلـيـةـ بـحـمـلـ «ـ نـبـوتـاـ »ـ ،ـ اـطـولـ مـنـهـ ،ـ وـفـانـوـسـاـ صـفـيرـاـ ،ـ وـيـلـبـسـ فـيـ رـجـلـيـهـ  
قـبـقـابـاـ عـالـيـاـ .ـ فـسـأـلـهـ بـأـدـبـ ،ـ لـمـ يـلـبـسـ الـقـبـقـابـ بـالـوقـتـ سـيفـ ،ـ فـأـجـابـيـ بـمـاـ  
مـعـنـاهـ :ـ إـنـ دـبـبـاتـ الـأـرـضـ كـثـيـرـةـ ،ـ وـلـاـ يـأـمـنـ السـارـيـ فـيـ اللـيـلـ مـنـ شـرـهـاـ ،ـ  
فـلـكـيـ يـكـوـنـ بـعـامـنـ قـرـصـهـ يـحـمـلـ هـذـاـ الـمـصـبـاحـ يـسـتصـبـحـ بـهـ ،ـ عـلـهـ بـرـاهـاـ  
قـبـلـ أـنـ تـصـلـ إـلـيـهـ ،ـ فـادـاـ اـقـرـبـتـ مـنـهـ ضـرـبـهـ بـالـعـصـاـ ،ـ وـإـذـ حـاـوـلـ الصـعـودـ  
إـلـيـهـ كـمـدـرـ عـلـيـهـ الصـعـودـ إـذـ يـقـتـلـهـ قـبـلـ أـنـ تـصـلـ إـلـيـ رـجـلـهـ ،ـ وـكـانـ فـيـ قـوـلـهـ  
جـادـاـ ،ـ وـكـانـ جـادـاـ كـلـهـ ،ـ وـهـذـاـ وـجـهـ لـطـافـهـ .ـ

وـمـنـ جـمـلةـ جـدهـ أـنـ كـانـ يـسـقـدـ أـنـ يـمـيـشـ الـعـمـرـ الطـبـيـعـيـ ،ـ وـالـعـمـرـ الطـبـيـعـيـ عـنـدـهـ مـائـةـ  
وـخـمـسـ وـثـلـاثـونـ سـنـةـ ،ـ أـوـ مـائـةـ وـارـبـعـونـ لـاـ أـدـريـ ،ـ وـلـاـ كـانـ هـوـ عـلـىـ غـاـيـةـ  
مـنـ التـقـوـيـ وـلـمـ يـبـيـ استـعـيـالـ قـوـتـهـ قـطـ ،ـ فـانـهـ بـالـغـ بـحـولـ اللهـ هـذـاـ الـعـمـرـ لـاـ محـالـةـ .ـ  
أـمـاـ هـوـ فـعـاشـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـلـ الـلـطـيـفـ نـحـوـ تـسـعـيـنـ سـنـةـ ،ـ وـمـنـ اـخـبـارـ جـدـهـ ،ـ  
وـهـوـ مـعـتـقـدـ بـمـاـ يـقـولـ وـيـفـعـلـ مـاـ حـدـثـ لـهـ مـرـةـ ،ـ وـهـوـ يـتـزـهـ عـلـىـ شـاطـيـ الـبـرـ معـ  
صـاحـبـ الشـيـخـ طـاـرـ،ـ وـقـدـ لـقـ بـهـ أـحـدـ الـطـلـبـةـ ،ـ وـكـانـ هـذـاـ لـاـ يـخـلـوـ مـنـ جـذـبـ ،ـ  
عـلـىـ مـاـ يـظـهـرـ ،ـ فـضـتـ أـرـبـعـ سـاعـاتـ عـلـىـ اـجـتـهـاـهـ السـيـمـاـ نـمـ التـفـتـ إـلـيـ الدـكـتورـ  
وـقـالـ لـهـ :ـ يـاسـيـديـ الدـكـتورـ أـرـجـوـ أـلـاـ يـكـوـنـ فـيـ حـضـورـيـ مـاـ يـنـفـصـ عـلـيـكـ  
خـلـوـتـكـ إـلـيـ الشـيـخـ ،ـ فـأـجـابـهـ الدـكـتورـ بـدـوـنـ تـوقفـ :ـ يـاـ بـنـيـ نـحـنـ لـمـ نـحـسـ أـنـكـ  
مـعـنـاـ ،ـ إـنـاـ فـيـ شـاغـلـ عـنـكـ ،ـ نـحـنـ الـآنـ نـدـرـ أـمـرـ تـلـاثـةـ مـلـيـونـ مـلـيـونـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ .ـ

## اللطف الخفي

ما تطلعت إلى ما في أيدي الخلق ، ولا حسدت ذاته على نسمته ، وكانت تقسي راضية كلّا أغضبته الأيام ، ضاحكة مستبشرة منها قسّت الازمات . اضفت أول شبابي ، وكانت أعمول أسرة كبيرة مؤلفة من بنات وأطفال صغار ، والمتظور البينا بين قومنا وفي حيننا أنا من الأغنياء . وكان موئلنا في معاشرنا على مزرعة لنا اذا اكدى ريمها بعض السنين نضيق ، فلا ارى غير الصبر على الشدة ، مع اني استطيع ان افترض ما اتوسع به بالنظر لما كان تحت يدي من ملك ثابت يقدر يومئذ بنحو عشرة آلاف دينار عثماني . فكنت اجانب الاستدامة خافة ان اعجز من قابل عن الاداء ، فتضطرني الحال إلى الرجوع الى الاصل ، ويخشى ان يتزعزع من يتنا بعض ما نملك ، وبذلك حفظ ما ورثناه وزاد ولم ينقص .

ولما انشأت الجريدة والمطبعة ، كان بعض المارف يفرضوننا ما يلزمونا من المال ، علماً منهم بأننا نرجع إليهم ما اخذناه منها كانت الحال ، واعتماداً على ما نملك ، فنعملنا بهذه الثقة ، وما أزعجتنا الازمات الاقتصادية كما ازعجت غيرنا ، وما اسفنا لتناول شيء لا يحمل لنا ، وما وقفت اعمالنا من قلة . قال لي صديقي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ، وكان رحمة الله من رجال المال والاعمال ، قوله على عطف كبير : إنك اخذت من جمال باشا الف ليرة ، فلم لا تبتاع او تبني لك داراً ؟ فقلت له : قد بنيت في دمشق اربعين داراً ، فقال وكيف ذلك ؟ قلت : كنت مدينا لاربعين شخصاً فدفعت اليهم ديونهم كاملاً ، وأمسكت ولادين على ، فسارت اشعالي بانتظام . فسكت ثم قال : وفاء الدين قبل كل شيء . ومعظم من وفيتهم ما كان لهم على من دين في تلك الأيام المدطمة (سنة ١٩١٤) ، وقد امتنعت المصارف من اداء ما عندها لمعاملتها من أموال ،

كانوا يقولون إن ليرة واحدة يوم افترضنا تساوي بعض ليرات يوم ارجاعها  
وكانوا جد مسرورين ومتعجبين .

حدث في بعض السنين ان تأخر أكثر المتركتين عن دفع ما عليهم  
لادارة الجريدة في أوقاته ، وكانت سنة رديئة الغلات ، وأنى الشتاء قاسياً  
بتلوجه حتى انقطع الطريق بين دمشق وبيروت أربعة وأربعين يوماً . فتأخرت  
الادارة على خلاف المادة عن اداء المباومات والماهرات ، ل نحو ثلاثة  
عاملاً من عمال الجريدة والمطبعة ، وغلت أسعار الحاجات ، وكان الورق  
قليلاً في متودع الجريدة ، وأخذنا نتابعه بالشمن الفاحش ، وبالطبع كفت  
وشقيقـيـ الذين يستغلان مـيـ على تلك النسبة من الضيق . وكـنـتـ أحضر  
إلى ادارة الجريدة فلا أجـدـ مكانـاـ أجلسـ فـيهـ ، لـكـثـرـةـ ماـ سـاقـطـ منـ ثـلـجـ  
ومـطـرـ علىـ السـطـوحـ ، فـلاـ أـصـلـ إـلـىـ تـلـفـيقـ الجـرـيـدةـ إـلـاـ بـشـفـةـ زـائـدـةـ . وـفـيـ  
تـلـكـ الحـقـبـةـ جاءـنـيـ الرـجـلـ الـذـيـ كانـ يـحـاـولـ انـ يـرـشـبـنـيـ لـأـخـدـمـ دـوـلـتـهـ وـأـطـلـبـ  
ماـ أـشـاءـ ، فـرـدـدـتـ بـلـطـفـ ، وـنـظـاهـرـتـ بـالـغـنـيـ ، وـلـمـ أـقـصـ ماـ وـقـعـ لـيـ مـهـ  
إـلـاـ عـلـىـ اـسـتـاذـيـ سـلـيمـ اـفـنـدـيـ الـبـخـارـيـ فـقـطـ ، فـقـالـ : نـهـاـ عـمـلـتـ ، وـفـيـ  
الـلـهـ الـعـوـضـ عـنـ هـذـاـ مـالـ مـهـاـ كـانـ مـقـدـارـهـ .

ومـفـتـ أـيـامـ وـنـحـنـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـالـ صـابـرـونـ ، لـاـ نـعـرـفـ لـاـ نـحـنـ فـيـ مـخـرـجاـ ،  
وـدـيـوـنـتـاـ عـنـ الـمـشـرـكـيـنـ لـاـ تـقـلـ عـنـ أـلـفـ لـيـرـةـ عـمـاـنـيـةـ ، لـاـ نـسـتـطـعـ اـسـتـيفـاءـ  
شـيـهـ مـنـهـ ، فـاـذـاـ بـأـزـمـنـاـ تـنـفـرـجـ بـطـرـيـقـةـ مـاـ خـطـرـتـ لـنـاـ بـيـالـ . وـافـانـاـ عـالـمـ مـنـ  
أـقـاصـيـ كـرـدـسـانـ اـسـمـهـ بـدـيـعـ الزـمـانـ عـازـمـاـ أـنـ يـطـبـعـ رسـائـلـ وـكـتـبـاـ فـطـبعـنـاـهاـ  
لـهـ بـسـرـعـةـ ، وـكـانـ اـجـرـتـهـ حـسـنـةـ ، وـأـخـذـتـ تـرـدـ عـلـيـنـاـ مـنـ وـكـلـانـاـ فـيـ الـدـيـارـ  
الـشـامـيـةـ وـغـيرـهـ سـفـاجـيـ مـنـ مـالـ هـيـ بـعـضـ مـالـنـاـ عـنـدـمـ فـكـانـ جـلـنـاـ كـبـيرـةـ .  
وـوـضـعـتـ قـائـمـةـ بـهـاـ وـرـدـ عـلـىـ الـادـارـةـ فـيـ شـهـرـ وـاحـدـ مـنـ مـالـ ، وـفـيـنـاـ بـهـ جـيـعـ  
مـاـ عـلـيـنـاـ لـلـمـسـتـخـدـمـيـنـ ، وـعـاـشـتـ بـيـوتـنـاـ وـالـجـرـيـدـةـ ، وـلـمـ يـبـقـ عـلـيـنـاـ ذـمـةـ لـأـحـدـ ،  
وـأـطـلـمـتـ اـسـتـاذـيـ الـبـخـارـيـ عـلـىـ هـذـهـ قـائـمـةـ فـسـرـ . جـدـمـ وـقـالـ لـيـ : أـمـاـ قـلـتـ  
لـكـ إـنـ فـيـ اللـهـ الـعـوـضـ ؟ وـهـاـ قـدـ عـوـضـكـ مـاـ كـانـ مـاـ تـأـخـرـاـ مـنـكـ ،

ولم تلوث ذمتك بمال فيه كل الشبهة ، ولو كنت تناولت ذاك المال العظيم الذي عرض عليّ لقتلني الاتحاديون أول يوم عثروا فيه على أوراق قنصل فرنسا ، وقد عشت بحمد الله بعد ذلك أعواماً ، وذمت بالحياة ، وقطفت ما كان حسراً وحراماً كله ، وقد أصبح طيباً حلاً ، وعمرت داراً وعمت وعيالي بعاهج الحياة ، وريت أولادي الستة وزوجهم كلهم ورأيت أولادهم . وهذا من اللطف الخفي الذي لا اعرف تمليله .

أنت علينا أعوام قدّرت فيها البركة فكان يلذ لي الصبر على الصائفة ، ويزيد عنائي إذا أبقيت أني ما استدنت لاتوسع في النفقة بحارة لا قراني وجيراني . عرضت عليّ في أول نشأتي قطمة أرض في قربتي مساحتها فدانان ، وقللت لشريك أنا لست مستعداً لابتناعها ، وغاية ما أستطيع أن اقتضيه مبلغ كذا ابتع بـه الأرض الفلاحية ، وهي أقل من نصف مساحة الأولى فقال لي : خذ هذه أحسن لك ، وستطيع أن تقلب المبلغ المرهونه لقاءه عند المصرف الزراعي إلى حسابك ، وتدفعه مقططاً على سنين ، فأجبته إني لا أحب التعامل بالربا دائناً ولا مدييناً ، وابتسم الأرض الصغيرة فائزـتها وزرعـتها وبـعـت منها أشجاراً الوقود ، فجمعت نحو ضعـفي ثمنـها في سنتـين . واضطررتـ غير مرـة إلى ابـتـياع أـرـضـ من مـزـرـعـتنا من أحد الشرـكـاء فـاشـترتـ بالـربـا ، فـما رـأـيـتـ البرـكـةـ فيهاـ ، وـربـماـ وـقـتـ عـلـيـ بـعـدـ حـسـابـ الفـائـدةـ التيـ أـدـيـتـهاـ بـضـعـ سـنـينـ إـلـىـ الصـيـارـفـ أوـ المـصـرـفـ ضـعـفيـ ماـكـنـتـ مضـطـرـاًـ لـاـخـذـهاـ بـهـ ، وـمعـ ذـلـكـ لـطـفـ اللهـ بـيـ .

ووقع لي أن عرضت حياتي للخطر مرات ، ونجوت على أحون سبيل ومن عادني إلا آتوني كثيراً ( ومن التوفيق عدم الافتراضي التوفيق ) وأستمد الرأي من أصحابي إذا وقـتـ في مـأـزـقـ ، فـهـمـ يـشـيرـونـ وأـقـبـلـ مشـورـتهمـ وـأـنـحـملـ بـهـمـهاـ وـحدـيـ . وـكـانـتـ مشـورـاتـهمـ سـدـيـدةـ أـبـداـ ، وـإـذـاـ مـرـضـ الطـيـبـ المـاـهـرـ بـحـاجـ إـلـىـ بـطـبـهـ . وـماـ وـقـتـ فيـ يـدـ خـصـوـيـ قـطـ ، وـمـنـهـ مـنـ كـانـ يـلـيـتـ لـيـ القـتـلـ ، وـبـتـطـلـعـ كـلـ حـيـنـ إـلـىـ اـهـانـيـ ، وـلـمـ أـجـبـسـ وـلـمـ أـقـفـ ،

وكنت أهادن الخصم وأتغفل ، وأرجو الحلة عليه إلى وقت تكون فيه قوى المدافع والهاجم متكافئة بعض التكافؤ .

ومن اللطف الخفي أن المصلحة اقتضت بياهز المنتدين أن يقام معرض الصنائع الفرقة برياسقي ، بصفتي وزيراً لل المعارف والفنون الجميلة في مدينة دمشق ، وفي قاعات الجمع العلمي العربي ، وكان هواة العادات وبعض بيوت دمشق وغيرها متاثرين من السلطة لأنها أخذت عدة من صناديق من النفائس إلى معرض مارسيليا عارية مستترجمة ولم تُعدها إلى أربابها . وفي هذه الحالة الروجية نحتم إنشاء المعرض فأعلنـت أنـي آخـذ عـلـى عـهـدـتـي وـحـسـابـي النـاس جـمـيعـاً ما يـعـرـضـ منـ الآـنـارـ ، مـدـةـ اـنـقـادـ المـعـرـضـ ، فـقـبـلـ بـذـلـكـ حـتـى جـمـاعـةـ مـنـ الـفـرـنـسـيـنـ ، لـأـنـ الـحـكـوـمـةـ كـانـتـ فـقـدـتـ ثـقـةـ الـاـهـلـيـنـ بـهـاـ . وـكـانـ مـقـدـارـ مـنـ عـرـضـ آـنـارـهـ وـمـصـنـوعـاتـهـ ٨٦ـ شـخـصـاـ وـعـرـضـتـ فـيـهـ (٦٢٧ـ)ـ قـطـعةـ مـخـتـلـفـةـ ، وـزـارـ الـمـعـرـضـ أـرـبـمـوـنـ أـلـفـ اـنـسـانـ مـنـهـمـ ثـلـاثـةـ عـشـرـ اـلـفـ اـمـرـأـ (١٥ـ حـزـيرـانـ ١٩٢٨ـ)ـ وـكـنـتـ فـيـ مـدـةـ الـمـعـرـضـ فـيـ قـلـقـ عـظـيمـ مـنـ تـهـديـ هـذـاـ لـاصـحـابـ الـآـنـارـ وـالـمـيـمـيـنـ عـلـيـهـاـ ، مـثـلـ اـدـارـةـ الـاـوـقـافـ ، كـنـتـ أـخـشـيـ السـرـقةـ وـالـحـرـيقـ وـغـيـرـ ذـكـرـ مـنـ الـمـصـابـ ، فـنـَّـ الـمـوـلـيـ بـعـرـورـ هـذـاـ الـاـسـبـوـعـ وـلـمـ يـفـقـدـ شـيـئـاـ وـلـمـ يـعـطـبـ شـيـئـاـ ، وـمـاـ عـرـضـ اـعـيـدـ لـأـرـبـابـهـ سـالـماـ . وـرـبـحـ تـجـارـ الـاقـشـةـ أـرـبـاحـ طـيـةـ ، وـمـاـ خـجـلـتـ أـمـامـ الـمـوـاطـنـيـنـ وـلـاـ أـمـامـ الـمـنـتـدـيـنـ .

---

# أهباب الانكليز

كان لرضا باشا الركابي سطوة أوائل الاحتلال الانكليزي بعد الحرب الكبرى ، عينه المارشال النبي حاكماً عسكرياً في دمشق . وكان عند المئتين برتبة عالية في الجيش ، فاستقال باعلان النفي العام ، قيل لمرض أصحابه . وأصاب الانكليز باعتمادهم عليه ، وأنبتو أنهم قد يحسنون الاختيار ، فائز كابي من أقدر من تولى الاحكام في الشام بعد انتزاعها من أبيدي المئتين . ومع أنه جندي أتقن طرقاً من القوانين ، تعلمها لما ولي ولابة البصرة بالوكالة ، ومحافظة المدينة بالأمسالة وهو من فئة قليلة وقفت على روح الجمادات يشتند ويلين عند الاقتضاء ويتجاهل ويتجابي .

قلت له يوماً : أرجو أن توعن لفلان أن يواكب على عمله في المجمع العلمي ، فإنه هناك الكاتب والمحاسب ، ولا يأتي إلى عمله غير مرة أو مرتين في الأسبوع ، والقبض والصرف في يده ، وبتخلفه تتأخر الأشغال . فقال مستفهماً جاداً : ومن هذا ؟ فقلت له ، بأسلوب من التهكم شديد : هو قريبك الذي وضمه عندي بدون علمي ، وفرضته عليَّ فريضاً ، ما هذا التجاهل يا باشاً ساحك الله ؟

وله أمثال هذا كثير كان يصدر منه فأنكره ، وأذكره له فيقطب أو يتكلف التبريم ، وكأنه يقول في باطنها لا يجروا أحد علىَّ مثلك . وكنت للصدقة القديمة يتنا ذكر له ما يحضرني من غلطاته الإدارية ، حرساً على مصلحة الحكومة الجديدة ، فكان يشق عليه ساع كلامي ، وقد يكون ما بدا منه مواعزاً إليه به من مقام عال ، وهو لفريط مهاراته يوم من يوم أن ما يأمر به كله من بنات أفكاره .

كان الركابي يستمد على الغرباء في إنشاء حكومته ، أكثر من اعتماده

على أبناء البلد . وكثير شاؤه على مدير الشرطة الفلسطيني ، وما كنت أجيء بحلوة ولا مرة ، على نحو ما كان يبدو منه اذا ذكرت انساناً بخير أمامه ، كان يسكت وينظر الى وجهي ، كأنه لا يوافقني على قولي ضمناً . وأقبل الركابي مرة من منصبه فزرتنه ، فوجدت داره محاطة برجال الشرطة السرية ، فقلت له : والله لقد شئت بك ، وأناأشهد الساعة الجوايس يقفون في مدخل دارك وخارجها ، وما جاءوا إلا بأمر مديرهم صبيتك ، فأنت الآن تتال جزاءك لاعمادك على مثله ، كأنك لم تجد من أبناء البلد من يقدر أن يكون مدير شرطة في هذه المدينة ؟ ويكون أكثر ادارة من هذا الذي أضجرتني بثنايك عليه . فسكت ، كأن الكلام غير موجه اليه .

قال لي يوماً : قل لأصحابك فلان وفلان أن يمتدلو و إلا عناتهم ، فقد بلغني أنهم يتتجاوزون في الخروج على القوانين ويفسرون الحقوق . فقلت له : إن هذه الملاحظة إذا صدرت منك يكن لها الواقع الذي تتوخاه ، فانهم أصحابك مثلـي ، وأنت الذي أتيت بهم إلى الحكومة ، والأجدر بي الا تكون سفيرك اليهم بذلك . ولو كان ينوي عن لهم حقيقة ما توقف عنه ، كما فعل مع من لم ترضه حالتهم وأراد انقاد الحكومة منهم ، فنحاجم بطرق له غريبة ، فيها كثير من الدهاء والذكاء .

كنت أقول للركابي باشا : انكم تارعون إلى تعيين الموظفين من الفلسطينيين وفلسطين فيما أحسب ستتفصل عنا ، فانـ كـنا نـجـها فـلـتـرـكـ لها رـجـالـها ، وـنـحـنـ هنا في غـبـيـةـ عـنـهـمـ وـعـنـدـنـاـ مـنـ عـيـارـمـ كـثـيرـ ، وـالمـصـاحـةـ أـنـ نـوـظـفـ مـنـ كـثـرـتـ شـكـوـامـ مـنـ حـرـمـانـ الـوظـافـ ، وـالـأـولـىـ بـنـاـ أـنـ نـتـخـدـمـ الشـيـانـ وـنـعـرـنـهـ لـنـتـنـفـعـ بـعـواـهـبـهـ ، فـكـانـ يـشـقـ عـلـيـهـ قـوـلـيـ . وـماـ أـدـرـيـ إـنـ كـانـ هـذـهـ خـطـةـ مـدـبـرـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ أـوـلـيـاءـ الشـائـنـ حـتـىـ يـخـلـوـ الـوـطـنـ الـقـوـمـيـ الـيهـودـيـ الجـدـيدـ مـنـ الرـجـالـ ، وـيـعـلـمـ الـيهـودـ فـيـ أـرـضـ الـيـمـسـادـ مـنـفـرـدـيـنـ لـتـأـيـدـ سـلـطـانـهـ عـلـيـهـ .

وقال لي الأمير فيصل في هذا الصدد شيئاً فقلت له : قلم لنا أو قالوا ستكون الولايات العربية كلها دولة واحدة ، فاغبطننا وفرحتنا ، ونطوع أبناؤنا في خدمة السلطان والدك لتحقيق هذه المأبة ، ثم قلم سينتقل الحجاز وحده ، وسورية وحدها ، وال العراق وحده ، فرضينا مرغبين ، والآن نحضر الرجال كلهم في سوريا ونخلي فلسطين من أبنائنا ، فنقولون إنكم وفلسطين سواء . فأكيد لي أن مصير سوريا الجنوبية وسوريا الشمالية واحد ، وعلمه كان يعني أن يكون لها اندابان مختلفان فقلت له : اللهم استجب ، وأكيد ظفي أن هذا الكلام كان مما لقنه من الذين كانوا يوحون إليه من وراء ستار . وعلمه كان لمن حرس كثيراً على جلب الفلسطينيين إلى سوريا الجنوبية ، دخل في نقل حديبي إلى من يعنفهم الشأن . فكان درس الأمير فيصل الذي القاه عليًّا فصل الخطاب في هذا الباب . ارتقى الركابي مرأة أن يصالحي ، وهو معزول عن منصبه ، فقال لي أثناء زيارته لي في داري : وقد استقبلته في مكتبي ، وأنا وراء منضدي : أرى أنه سينبعث علم كثير من هذه الغرفة ، فشكرت لطفه ، وما كان يصدر منه بعض هذا المدح لو كان قابضاً على زمام الأمر . لأنه تتبدل نفسه وهو في المنصب تبدلاً محسوساً على ما كنت أراه .

بدأ له أن يعرّب الحكومة والأهالي ، فكان لا يسمح لأحد أن يتكلم بالتركية أمامه ، ولو كان لا يعرف غيرها ، وينفر من كل من يلفظ لفظة واحدة منها ، وقبل انه استدعى مرة ترجاناً ليترجم له كلام رجل تركي وينقل له كلامه بالتركية ، وهو يعرف التركية كالأنراك ، قضى جل عمره لا يتكلم بغيرها ولا يكتب سواها .

ولما عاد الركابي من شرق الأردن ، وقد أقبل أو استقال من رئاسة وزارتها ، حدثته نفسه أن يكون مع الفرنسيين كما كان مع البريطانيين ، لأنّه خدم الفرنسيين خلال الثورة السورية كما قيل ، فأقبل يتودد إليهم ،

وما أدرى أي خبيث وعده بمعاضدة الفرنسيين ، إذا خاض المعركة النهاية ، فتورط ودخل الانتخابات ففشل ، وكان كل رجائه أن يعود إلى رئاسة الوزراء في سوريا ، وأنخذ لذلك عامة الأسباب ، واستكتب الصحف والكتاب ، ناسياً أن التجليل لا يمداد ، وأن من الصعب التمنع بالحظوظة في دورين .  
نحي السيد الركابي مرة فجمع له عبد الرحمن باشا اليوسف أعيان البلد ، وأصرّ عليه أصراراً شديداً أن أرافتهم إلى الأمير زيد لتشفع بالركابي فنبذه إلى عمله . ولما استمع الأمير إليهم ودعهم ، وأشار إلى بالخلف عنهم ، وقال : وأنت أيضاً يا استاذ تشفع للركابي . كأنك لا تعرفه ؟ أندرون مازاً كانت مكافأة عبد الرحمن باشا من الركابي ، لما عاد فاستلم زمام الحكم ؛ كانت مكافأته أن آثار عليه فلاحه في البطيخة ودياب على ما نقل إلىه . ولما نار عليه فلاحه خسر مزارعه هناك ، ونمنها لا يقل يومئذ عن مليون ليرة عثمانية ذهبية .

وتكلل لي أنه دخل عليه أثناء جلاء الترك مبلغ من المال عظيم أعطاه الأتراك أيامه ليستخدمه في أمور ميساوية لمصلحة الدولة التركية ، وقيل إن البدو سلبوه أيامه ، والذي عرفته أنه يكره المرتشين والسارقين ، ولو صح ما يتهم به بعضهم لكان له في آخر أيامه مال يترفه به ، وقد رأيناه مقترناً عليه على كثرة الرواتب التي درت عليه ، والهبات التي وصلته ، والنفقات المستورة التي كان إليه صرفاً ، وهو غير متهم برببة ولا يقامر .

لما دخل الفرنسيون دمشق ارتأيت أن يؤلف وفد من شبان المسلمين الذين يحسنون الفرنسية لزيارة الجنرال غوايه ، وقلت في تقسي إن ما حبه العقلاء قد وقع ، والعاقل من يخفف الشر ما أمكن . والراجح أن يظهر شبان البلد بمعظمه الكرامة . فاتفقت مع السيد صبحي الحسبي على الاشتخاص الذين يدعون إلى الذهاب ، على ألا تكون مهمهم . وكان الركابي دخل الدار ، وأنا خارج منها ، فسأل عن سبب مجئي فذكر له ابن الحسبي

ما عولنا عليه من دعوة الشبان لزيارة القائد ، فقال : إنه يطمع في أن يستغلكم . كان بيبي وبين الفرنسيين حاجزاً لا يزيله غير هؤلاء الفتية ، وكانت النتيجة التي كنت أتوقعها أن المستديرين لم يتعرفوا إلى شبان دمشق وأتوا بغيرهم ، وسدوا إليهم الوظائف ، فكان أعظم عظيم مما يحجبه المستخدم اللبناني ( الذي جرى التعويل عليه ) الساعة وال ساعتين لا يبالي به ، وظهر للداخلين أننا أمة لا تعرف مصلحتها . وكل ذلك بفضل نصانع الركابي واسامة ظنه بي .



## تأثير الميّاه

لندن ما أشعر في مصر اني غير ما أنا في الشام ، وفي الغرب غيري في الشرق ، وفي القرية غير ما أكون عليه في الحاضرة ، ولذلك أعدت بعض من لسته بهم يشتم ، فتصدر عنهم آراء مستقرة متضاربة ، ولا أعنف من يطلق المنطق الصحيح ، مما كان البلد الذي ينزل فيه ، والمنحلة التي ينتحلها ، فالمنطق واحد في كل جبل وقبيل ، وفي كل مصر وقطر .

حدَّت شهرة الشهوة والإغراب صاحبِ أمين الرَّيماني اللبناني (١) على ان يظهر مرة في مظاهر مؤرخ ، وما كانت عُرف بغير الكتابات الأدبية ، وممظم تاريخه في نجد كان املاء صاحب نجد على ما روى الرواون . فاقتبس من كتابي (خطط الشام) السَّيَّرات التي رافقه وجسمها ، وألبسها ثوباً من خياله ، ونشرها في كتاب سماه « النكبات » حمل فيه على بعض رجال الإسلام ، وزيف ما قاله المنصفون فيهم ، وليأْلى قاعدة « خالق « نعرف » وما نصح به المسلمين أن يتركوا التناخي برجالهم وتاريخهم ويتبعوه ، وما أعرف إلى أين ؟ ولعله يقصد أن يتحققوا به ليتعلموا ملته ، وكان جابر كثيراً أنه خرج عليها ، وإن كان جبها مما أشربه قلبه ، وهو معدور في ذلك ، فان من المعتقدات ما يتوارد مع الدِّم على ما يظهر . وغريب هذا القول من يدعي

(١) كتب هذا قبل أن أُبعِّج بفقدنه ، وسكنا منه تعارفاً يحب أحدنا صاحبَ عبة أكيدة ، ثم طرأَت بيَّنا اختلافات في الرأي ، أهمها جرأته على انتصري بتأريخ العرب والخزرو ، برجال الإسلام . وكان على ما يظهر صاحبُ أحوال ، مأخوذاً بالحال ، وعشر ما كتب لا يفهم ، وآخر ما كتب جلة مصلحة في رثاء الدكتور عبد الرحمن شبندر ، أرسنالي فـ « آخر » معمياتها ، وذمتها إلى الاستاذ فارس الخوري فتلاها ، وهو أيضاً لم يفهم منها شيئاً وأوصى الرَّيماني أن يدفن على طراز لا يشعر بدینه فأُنفِّلت من ثأثيرات رجال دينه في الحياة وفي الممات .

الفلسفة ويلقب بـ*فیلسوف الفُرَیْکة* — والفریکة مزرعته التي ولد فيها — وننته بالفیلسوف سواء كان من صنمه او من صنع أحبابه جيد وعجب . والريحاني إذا حاول كتابة التاريخ الإسلامي ، وهو فارغ الذهن منه ، مثلثي إذا تخيّلت أن أدون مناقب قدسه وشفيقه مارمارون ، أو بطل لبنان يوسف كرم الذي غلا بعذبه شجاعته غلوّا مفعلاً ، ليقولوا للناس إن جبلهم الأشم أبغى الإبطال كما أبغى الفلاسفة . إن الريحاني ما تخلّى على مارأته من قاتل البيئة ، وإن قال بالفلسفة ، ودعا إلى حرية الرأي ، وغاية ما أرجو له ومنه ألا يخرج عن المنطق .

كان الريحاني مرّة عندى في الدار هو والسيد فارس الخوري يتفاوضان ، وأنا ومن حضر في ناحية بحثت لسماع كلامها ، فكان مما قالاه إن النصارى في الديار العربية بأسرها لا يكاد يتجاوز عددهم المليون والنصف المليون ، تخدمه أوربا آلة لسلب حق الأكثريّة في الاستقلال ، فالاولى بنصارى الشرق أن ينتحرلوا الإسلام ، أو يهاجروا إلى أميركا أو غيرها ، وبتركوا العرب يؤلفون دولتهم الجديدة ، وهم لا يقلون عن ستين مليوناً . ومن كان يقول بهذا القول عاد بمنصّه لل المسلمين أن يتركوا تاريخهم ويتبعوه .

أشرت غير مرّة على منشيء جريدة هزلية أن يرعى رجال المسلمين قليلاً ، ولا يهزأ بهم ويسخر منهم على الدوام ، وقلت له إن الانصاف يقتضي عليه إن كان لا بد من الضحك والاضحك أن يشرك معهم مواطنهم من أبناء دينه ، فكان يبسم لقولي ، ومن مصلحته ألا يسقط أحداً من أبناء نحلته ، وقاعدته وقاعدة امثاله أن يرفع أبداً من شأنهم ، وإن كان بعضهم موضوع كل سخرية .

ورأيت صحفاً لبنانية تتجاهل أن في العالم شيء اسمه التهضة المصرية ، وما أوّلت ذلك إلا أن هذه التهضة عربية إسلامية في ذاتها ، ويسوء المتعصبين أن يعترفوا بما وصلت إليه مصر من الرقي ، وأن ينسب لنغير أبناء دينهم شيء من التهوض ، وكان بعضهم إذا اضطروا إلى ذكر امر عن مصر ،

بذكر ونه باختراز وتفزز ، وهذا من اشنع اصناف التصب ، يحمل في مطاویه ، المکابرة في البدیهیات والمحسوسات . وما إخال هذا التقویه بخطی حنی على السنج من سکان مزارع قم لبنان .

لي صدیق من اعيان الموارنة وأغناهم المثقفين ، سافرت معه مرّة بحراً من بيروت إلى مرسيليا ، وعدنا مما من مرسيليا إلى بيروت وكنا طول الطريق تتصارح وتتبادل الأفكار ، وتناقش مناقشة جميلة ، وكذلك كان دأبنا كل عام منذ خمس عشرة سنة تفاوض في السياسة الوطنية . فكان إذا ذكرت له سوريا اتقبض صدره ، ويزيد اقباضه إذا ذكرت له الوحدة السورية ، ويبيّن له فوائدتها الاقتصادية والقومية ، وكان يدعى أن النصارى يذوبون في الوحدة السورية إذا تمت ، لأن الأكثريّة تكون بيد المسلمين ، ويصبح النصارى أقلية ، وليت هناك من يسأله ولم يذهب النصارى تحت حكم المسلمين خلال ثلاثة عشر قرناً في هذه الديار ؟

وكثير ما صرخ فقال: إنكم (أي المسلمين) منحطون ونحن (أي النصارى) أرقينا إلى درجة لا نستطيع منها أن نعيش معكم ، وإلى اليوم لم تأتوا برهان على ترقيمكم ، ومني كشفم حجاب نسائكم على الأقل تثبتون أنكم تعدتم ، فكنت أقول له إن رجالنا اليوم أحسن منهم أمس ، وإن الحجاب يزول بطبيعته على ما شهد ذلك في مصر وبعض حواضر الشام ، وإن الحجاب اليوم مفقود تقريباً من القرى . ورجوته غير مرة أن ينزل على ضيفاً في داري ، لاجمعه إلى مختلف الطبقات من المسلمين فيسمع كلامهم ، وبمحكم بنفسه أنا أرقينا ، وأن إنساناً كائناً متعمصون شيئاً لا يقيم للحضارة وزناً .

وقال لي غير مرة : لو كان كل المسلمين مثلك لدخلنا في الوحدة معكم ، فكنت أقول له : إنك أطلب المستحيل لو كان كل المسلمين مثل لي لا تقرضوا ، وعجبت من هذا المنطق المقلوب ، والتقویه الذي لا يجوز على حقـل .

وذكر لي مثلاً على إثبات قضيته وقع له في محکمة لبنانية رئيسها مسلم ،

وخلصة ما قال ان له اراضي كان أبوه يملكتها من قبل ، لم يحكم له المحكمة بها لانه غير مسلم ، وبمحض عن هذه الأرض فلمنت أنه حكم له بها في محكمة البداية ، وكان الرئيس مسيحيا . ثم أخذ هذا الرئيس واودع السجن مدة لما ثبت عليه من الرشوة ، وسألت القاضي الذي لم يحكم في الاستئناف وهو صديق لي قديم ، فعرفت ان مساحة تلك الاراضي واسعة جدأ ، تبلغ عشرات الآلاف من الافدانة ، قامت عليها مزارع وأحياء وجوانع وكتائب ، وهي اليوم تساوي بضعة ملايين من الليرات ، وكان أبوه ادعى ملكيتها ومحه سند تملك مزور ، وأرادت الحكومة المئانية القبض عليه فهلك قبل أن يقع في قبضتها ، فانظر إلى هذه الأهواه الشخصية التي مرتبت الخصوصيات بالمعوميات ..

أبحرت مرة من بيروت قاصداً مرسيليا ، وكان رفافي في الدرجة الأولى زمرة من أعيان نجاح اللبنانيين المسيحيين من زلاط أميركا الجنوبية عادوا بعد أن تمهدوا لهم ووصلوا رحهم ، ونشقوا هواه مساقط رؤوسهم ، فتعرف إليهم وحصلت في الحال معهم ألفة ، كأننا كنا أصدقاء من القديم وما كنت عرفتهم من قبل ، وبعضهم غرف اسمى من الصحف والكتب ، وكان معنا على ظهر البالخرة آنسة فرنسية راقية تصحبنا طول الطريق ، لا تكاد تفارقنا إلا في ساعات النوم ، فعجبت من هذا الحب المائل يبتنا وهذه العواطف التي كنا نتبادلها ، وقالت لي : عجيب تحابب السوريين ، قلت لها : صحيح أننا أبناء وطن واحد إلا أن أول تعارفنا كان في هذه البالخرة ، فزاد عجبها ، قلت لها : نحن السوريين على ذلك إذا كنا خارج أرضنا ، بعيدين عن المؤثرات الطائفية والمنعرات السياسية .

فتح لي أولئك الوطنيون قلوبهم ، وكانوا يأسفون لتزيف سوريا إلى دول صفرى ، ويودون لو تمت الوحدة العربية ، ليكون لهم كيان في أرض المجر ويغزوا بقوميتهم ، على ما يرون أقل الأمم شأنًا يفاخر أبناؤها بحسبائهم . ولم أعمل كلام رفافي الأفضل ، وكانوا بتكلمون عن عقبة

لا رياه فيها ولا تدجيل ، إلا لكونهم عاشوا في أرض حرة ، وأدر كوا فيها معانى الوطنية والقومية ، وسلموا من عسلطات رجال الدين ، وكضيلات الكهنوت الغربي . وما كانوا كالذين يدعون الفلسفة وأعمالهم على خلافها ، ولا كذلك الصحافي يضحك قراءه على حساب المسلمين ويستنق من السخرية عمدًا أبناء طائفته ، ولا كذلك الوجيه المارء في الذي يطبع أن يستولي على أرض تبلغ مساحتها مساحة ناحية كبيرة بطريقة غير شرعية ، وإذا لم توافقه المحكمة على رغبته فالمسلمون أغبياء أرباب لعصب وأصحاب أغراض ، وليسوا أهلاً لتولي الأحكام . نعم أدرك أو تلك التجار الأذكياء من اللبنانيين أن بلادهم لا تنفع إلا إذا اتحد أهلها ، وتحابوا على اختلاف تحليم وأصواتهم وقصوا على من ويلات رجال الدين قصصاً لا يوح بها إلا أمثالهم من المنورين الأحرار ، وما كانوا بحاجة إلى أن يصانونني ، ولا أن يصانوا غيري ، والذي يظهر غير ما يحيط قد تدرك حقيقته بالنظر إلى وجهه .

ثوب الرياه يشفّ عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري  
ولطالما قلت مع القائلين إن جماعة الانفصال عن سوريا من أهل لبنان لا يلغون خمسة في المئة ، وأكثرهم من يطمعون في حلب العتزة ، وأن يتولوا الوظائف ويستمروا لبنانيتهم ، والباقيون ومم السواد الأعظم لا يرون غير الوحيدة مخرجًا ، لما يتوقعون من ثمارتها الجنية ، بقطفها المواطنون على السواء . وكلهم لا يصورون المسلم شخصاً مرعباً ، كما يصوّره رجال الدين والسياسة والمستوظفون جرياً وراء أغراضهم .

حدثني صديقي لبيب الرياشي من أدباء لبنان النصاري ، وهو الذي وضع كتاباً في الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال : سأله أحد قضايانا في جوبية عما أكتب في النبي العربي ، فقرأت له فصلاً من فصول كتابي ، فاستمع إليه وهو واقف موقف الخشوع والتأدب . فسألته لم يقف على هذا الشكل ؟ فقال : إن من عادتنا أن نقف أجلالاً من زرى أنهم كبار

أفلا ترى لاعظم عظيم في العرب الذي هدى لثمانة مليون من البشر لعبادة  
الخالق . ونحن وإن كنا نصارى فلواجب علينا كمعظمه لأنّه رسول العرب  
وتحنّ منهم . فانظر إلى هذا الأدب وقسّ بما صدر من مسيحي آخر يوم احتل  
الفرنسيون دمشق بعد Woche ميلاد قال لصاحب المسم ، وهو أخوه في  
الماضية ويتخل الكثلكة : يا فلان هل بقي لكم شيء تستطيلون به علينا ،  
أسيحتم أنتم ودينكم ونبيكم وكبئكم تحت أقدامنا . وكان هذا الرجل وأبوه  
وجده من عاشوا بنعمت المسلمين ، وما رأوا منهم إلا كل رعاية . فكان  
هذا شعوره الذي أوحته إليه بيته ، يوم رأى أعلام الفرنسيين ترفرف على  
سورية ، فأهان الإسلام وصاحبه هذه الإهانة . وكان الجيش الفرنسي لله  
الصل به يومئذ ما ينبعث من أفواه بعض المتعصبة ، فنشر منشوراً علّقه في هذه  
الكنائس جاء فيه أن كل من يذكر الإسلام ورسوله بسوء يقتل بالرصاص  
حالاً ، فسكنت ألسن المتعصبين والحمد لله رب العالمين ، رب اليهود والنصارى  
وال المسلمين ، ورب الحجوس والبراهمة والموذفين .



## عَظِيمَانْ عَمْرَ ابْنِ عُثْمَانْ

ألا من حدثه نفسه أن يمرف كيف يحظى الحظ بعض الخاملين في رففهم إلى مرانب النابحين في الحكومات الاستبدادية فليسمع ما قصه علي والدي : (كنا بضمة تجارة من الشاميين في استانبول ننزل في خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة ، وكنا نتألف ونشترك في النفقه والسرير . وكان يزورنا درويش شاب أسمى اللون ، جهوري الصوت ، تبدو إمارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعمّ بمثزر ، ويكتسي عباءة وقططاناً ، ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم . وما كان يشاركتنا في النفقه ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة . وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي وليد قرية خان شيخخون من عمل حلب .

«وجرنا الحديث في إحدى العشاءيا إلى البحث عن أفضل من مشى على الأرض بعد رسول الله ، وذهبت بنا الآراء كل مذهب ، وأخذ كل منا يدللي بما يراه ، فصرح أبو الهدى برأي لم يرض عنه الجماعة ، وعدده تهجاً على الصحابة الكرام . قال إن نقطة واحدة أهربقت من دماء آل البيت أفضل من كل من مشى على الأرض بعد الرسول ، فقال له مناقشو : فائن إذاً ياجاهل يبقى أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وكبار الصحابة والائمة ، وقام أحدم ولطم أبي الهدى على وجهه ، وحاول أن يزيده صفاً ، فحلت بينها ، متذرأً عن أبي الهدى بأنهم لم يفهموا قصده ، وأن لو أكلتمه تأويلاً ما كان يرمده .

في غضون ذلك لبعض الشاميين مسألة افتضى أن بكلم بشأنها ناظر الضبطية (المن العام) فانتدبني أخوانني للقيام بهذه الوساطة ، بدعوى أنني أعرف

قليلًا من التركبة ، وصورتي مقبولة ، وأني جسور اعتدت مقابلة الكبراء ، فذهبت إلى النظارة ، واستأذنت على الناظر ، ولما فتحت لي ستارة البو ، كان أول ما وقع عليه نظري ذاك الصاحب الذي افقدمه من الصفع يوم الخات ، شاهدته قاعده في صدر المجلس والناظر جالس بين يديه جلسة الصفير مع الكبير . وأدركت في الحال أن الشيخ أبي المهدى أصبح ذات مظاهر جديدة حتى صار مثل ناظر الشِّحنة على رفعه مقامه يقعد منه مقدم الحديث المتوات . ولم ألبث أن عدلت على رأس عمami ، ورددت طرف جيبي على قامي ، وتقدمت بأدب نحو أبي المهدى أسلم عليه أولاً ، وأنظهرتني أن أحوال تقبيل يده . فلما شاهد أبو المهدى حركت هذه انتصب قائمًا وخف للسلام على ، وعانقني بلطفة عناق الآخر أخي ، وأخذ يسألني عن صحي وأعمالي . وافتت إلى الباسا الناظر يعرفي إليه تعريفاً جيلاً ، وينهى علي النساء المستطاب ، قائلاً هذا فلان من أعيان دمشق وكبار تجارها ، وهو على جانب عظيم من الأدب والفصاحة ، ثم تكلمت في المسألة التي جئت من أجلها فانحلت في الحال .

« وبعد مغادرة النظارة علمت أن السبب في تقدم أبي المهدى هذا التقدم السريع هو أن امرأة الناظر هذا أصبت بعرض أعجز الأطباء ، وكان يجدها جاً جماً ، فتنزع بكل مافي وسمه لشفاؤها ، ولما كاد ييأس من عافيتها وصفوا له أبي المهدى الصيادي ، وما يكتب من حجب ونعائم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه ليطلب حبيته بما عنده من بضاعة المشابخ ، بمد أن عجز الطب الحديث عن برها . والغالب أن الشيخ لم يقطع ترتيب الطبيب ، وترك السيدة تتناول ما وصف لها من أدوية وعقاقير فبرأت بعد أيام . فعظم مقام الشيخ في عين سيدها وشاع بذلك ذكره في دار الملك ، وكثير قصاده والمعتقدون به ، وجمهور الترك يحسنون ظهم عن يائتهم من طريق الدين بما بلاشم عقليتهم ، وبسارعون إلى تصدق من يعتقدون فيه الخير . « ولم تمض أيام حتى أصبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني

بمارض بشبه عارض امرأة الناظر ، فعلم الوزير بالأمر وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي المدى مع زوجه ، وقال فيه كل خير حبيه إلى السلطان ، فاستدعاه لمداواة حظيته بأدعنته ، فجاء يداوتها بما داوى به امرأة الناظر ، فشفيت الجارية بعد أيام . وأعقب ذلك الصال أبي المدى بالسلطان عبد الحميد . أقبلت السعادة على الشيخ الصيادي فتقتصها ، وسيق إليه المز بعد المحول .

فاصبح مستشار السلطان ، وأحد الرجال الممتازين في دولته ، يستأنره في المسائل العظمى ، ولا لصبر نفسه عن فراقه زمناً طويلاً ، وكان من أعماله مكافحة الذهب الوهابي لثلا يتسرب إلى العراق والشام ، لأن السلطان كان يخاف على ملوكه في ديار العرب من الوهابيين وصاحبهم . وقد يعتمد الشيخ أحياناً اظهار الغضب على السلطان ، فينقطع عن غشيان قصره مدة ، فلا يرى السلطان بدأ من أن يسترضيه بالهبات المظيمة ، ليعود إلى ما كان عليه منه من التواصل ، وأصبح صاحب الكلمة العليا حتى بين أرباب الدولة ، والشيف الصادق الذي لا ترد شفاعته ، يشير على السلطان بنصب من يرضى عنهم من الرجال ، وينصب حتى (الصدور المظالم والوزراء الفخامة) وبعمله هذا أصبحت الوزارات أو بعضها رهن إشارته في كل ما يطلب إليها .

وكان من سياساته أن يحمل سلطانه على الاعتقاد أنه صاحب الغزو الأكبر في الولايات المربيبة ، رضا العرب وغضبه عليهم ، وأن عرب السلطنة العثمانية في قبضته ، يحرر كهم ويسكنهم كما يشاء . واقضته هذه السياسة أن يتخذ لها من الدرائع السرية والجهرية ما بلجأ إليه بعض الماكرين من السياسيين الماهرين ، ويعتدي بلوغ مقاصده بكل مأواتيه من ذكاء ودهاء . ولقد رأى من مئمات هذه السياسة أن يفتح بابه لكل طالب ، فشخص إليه أرباب المصالح من الأقطار العربية ، يتسلون بمحاجاته للحصول على رغائبهم . هذا يريد أن يتولى القضاء أو الافتاء ، وهذا يرغب في ترقية درجته في دائرة ، وهذا ينشد عملاً يعيش به في بلدته ، وهذا تحلى شفناه لاحراز رتبة وقلد وسام ، وهذا يكتفي بأن يثبت له نسبه ويصادق عليه ، وهذا يطبع

في الاستيلاء على وقف عظيم ، وهذا ينزعه جاره أو شريكه في أرض ويحاول هو استئصالها كلها ، كل هؤلاء ومن على شاكلتهم يفدون على السيد أبي الهدى فينسلهم من الفقر ، ويسودهم على الدهر .

وعلى ما بلغ الشيخ من مقام سام ، ظل محافظاً على ما كان عرف به أول أمره ، فلم تله مباحث الحياة ولا القرب من خليفة الترك ، ولا ما كان يمتنع به من جاء عريض ، عن ممارسة طريقته ، والولوع بالانشاد كما كان ينشد ليالي الخان مع مواطنه الذين ماعرقوه قدره . فأقام إلى جانب قصره لهذا الغرض زاوية ، ينزل بنفسه إلى حلقة الذكر فيها ، مرتين في الأسبوع ، وينشد ، وهو يضرب على الطار ، ما طاب له أن ينشد . ويترنم بقصائد كان يؤثرها ويقول إنها من شعر شيخه الرواس ، زاعماً أن هذا الشيخ كان بغدادي الأصل ، تعلم في أزهر مصر ، وأنه وافاه في آخر عمره إلى قرية خان شيخون ، وأعطيه الطريق ودفع إليه شعره ولقبه سره . وقد بقى الصيادي لشيخه زاوية في مدينة السلام ، وفأله لقبه عليه ، وتكررها باسمه ، وتنوتها بتقواه ، كما بقى منها في أماكن من ديار العرب ، رأى حاجها ماسة إلى نشر طريقته . أما الشيخ الرواس صاحب الشعر الذي كان محياً إلى قلب أبي الهدى فقد حدثني إثنان أنه شخص موهوم ، وما عرف رجل اسمه الرواس صاحب طريقة وشاعر مقبول الشعر . سرّ من الأسرار لم ينكشف لأحد ،

يقول بعضهم إن أبي الهدى لم يكن على شيء كثير من العلم والأدب أول ظهوره ، فلما خطمت شخصيته جلب معلمين لأولاده ، فكان بحجة أنه يلاحظ دروسهم يستمع لما يلقيه الأساتذة ، وبذلك تعلم ما قوي به على وضع بعض كتب في التصوف والأدب بلغت نحو أربعين رسالة وكتاباً . وقيل إن بعض خواصه نحله بعضها ، وأنه ما كان ينظم ولا ينشر ، والنااظرون والناظرون بعض قاصديه وعفاته . على أن من زاروا الشيخ في أواخر أمره كان يسمونه بجميل حديثه ، وسعة حفظه ومكارم أخلاقه ، وشدة عطفه على العرب من دون ساز العناصر المنهائية .

وأبن الشيخ في الانقلاب العثماني (١٩٠٨) أهانة لا يليق صدورها من أولياء الأمر يومئذ ، سلطوا عليه الرعاع ، وهم يحملونه مريضاً إلى الحبس وهو شيخ مصر ما كان مع السلطان في مقام المتجلس ، بل في مقام الناصح المرشد ، دلت على ذلك تقاريره التي عثر عليها في جلة ما ظفروا به من اضيارات السلطان المخلوع . وأكد المارفون انه ما خاطبه مدة الصاله به إلا بما فيه نفع للدولة ، حتى لقد قال كبير حزب الاتحاد والترقي لجماعته ، لما عرّتهم الدهشة مما في هذه الأوراق : اكتموا الأمر ولا تنشروها ، وإذا فطتم كملو منزلة أبي المدى في النفوس ، وربما عاد القوم فقدَّسوه و-tierكوا به ، فتزيدون ولها آخر إلى أوليائكم .

هذا بجمل ما يقال في أولية السيد أبي المدى وخاتمه ، وهو لم يتلوخ في معظم ما أثاره إلا رضاء السلطان لتدوم له نعمته ، وما كان في الواقع غير رجل وصل إلى ما وصل إليه بمواهبه وجربته . وما كان لنفمة الاصلاح مكان في نفسه ، ولا لتوسيد أعمال الدولة للكفاءة شأن عنده ، بل كان هواه في تكثير عدد أنصاره ، وارضاء المرتزقة الذين دأبوا في كل زمان أن يعيشوا على عاتق الملة حلمة طفيلية تختص الدم ولعنة المظالم . والمصلحون أفراد في كل امة ، وأبو المدى ما ادعى أنه منهم ، فهو قد نشأ على حب الطريقة ، والتغنى بالجمال ، والغرام بالخلوات ، وبقي طول الصاله بالسلطان لا مـ له في الظاهر إلا بـ دعوته واثبات نسبته . سعي لما فطر عليه وأخذ من نفسه ، ولا ينفق الإنسان إلا مما عنده .

---

بعد أن استمع أبو المدى بالحظوة لدى ابن عثمان أعواماً ، وخدم السلطنة العثمانية بمحاربته الوهابية ، جاء رجل آخر من أبناء العرب نفق عليه بأسلوب خالف فيه أسلوب الأول ، وخدمه في سياساته الداخلية والخارجية ، وكان من عادته أن يبدد أوهامه ، ويجربه على ساسة الغربيين ، وبقيه على أحابيلهم ودسائسهم ويقول له أبداً : إن دول الغرب إذا وقع

انفاقها على الدولة فلا رجاء في بقائها ، أما وهي متخالفة فعلى السلطان أن يسرح ويمرح ، وألا يلتفت إلى ما يلقيه بعض رجاله في رُوعه بخويفه غضب رعاياه وغضب أوربا ، فهذه مسائل ليست في الحقيقة مما يجب أن يأبه له أمير المؤمنين .

هذا الرجل من أهل دمشق يتسب إلى قبيلة الموالي المربيه ، جاء السلطان العثماني بمجهاز لا يأس به من لفات ومعلومات حقوقية ومالية ، واسمه أحمد عنـت العابـد ، من أسرة ذات وجاهة سابقة في خدمة الدولة . وكان أيضاً نادراً الذكاء ، واسع الخبرة ، أوصله إلى الملك أحد كبار مقربيه ، وكان من قبل في منصب عال في الاستابة ، فاختبره السلطان ثم جمله موضع ثقته ، وانخذل منه رجلًا يرسله في المظاائم ، وي موّل عليه في الخطوب .  
كان اسم وظيفته الرسمية قرين الحضرة السلطانية والكاتب الثاني في القصر الملكي ، وعمله في الحقيقة من أم الاعمال . كان ينظر في الإرادات السلطانية ويرى فيها رأيه ، وقد يوقف نشر بعضها بعد صدورها إذا وقع فيها على نقص ، أو ما يلاحظ منه ضرر يعود على السلطان أو السلطنة ، فتعاد الإرادة لتلبـس قـالـباً ثـانـياً ثـم توـسـح باـلـاسـمـ السـلـطـانـيـ ، أو يـصـرـفـ النـظـرـ عنـهاـ بـالـمـرـةـ . والـسـلـطـانـ يـحـمـدـ ذـكـرـهـ مـمـتـمـدـهـ وـيرـغـبـهـ ، لـاعـتقـادـهـ اـخـلاـصـهـ عـنـهاـ بـالـمـرـةـ . وأـكـدـ العـارـفـونـ أـنـ كـانـ كـانـ عـرـضـ للـسـلـطـانـ فـيـ اللـيـلـ عـوـارـضـ وـمـرـفـتـهـ . وأـكـدـ العـارـفـونـ أـنـ كـانـ كـانـ عـرـضـ للـسـلـطـانـ فـيـ اللـيـلـ عـوـارـضـ لـفـطـرـبـ لـهـ أـعـصـابـهـ فـتـصـدـرـ بـعـضـ اـرـادـاتـهـ فـيـ تـلـكـ السـاعـةـ خـدـاجـاـ نـاقـصـةـ . فـتـرـلـةـ أـحـمـدـ عنـتـ باـشـاـ فـيـ القـصـرـ كـانـ إـذـاـ مـنـزـلـةـ الـمـسـتـشـارـ الثـقـةـ وـصـاحـبـ الـخـبـرـ الـأـمـيـنـ .  
تفاني ابن العابـدـ فـيـ حـبـ مـوـلـاهـ ، وـكـانـ يـهـونـ عـلـيـهـ أـنـ يـخـمـلـ ضـرـوبـ الـاهـانـاتـ ، وـأـنـ تـشـهـ صـحـيقـتـهـ عـنـدـ الـخـواـصـ وـالـعـوـامـ إـذـاـ كـانـ فـيـ ذـكـ رـضاـ سـلـطـانـهـ ، وـرـبـماـ كـانـ مـنـ أـمـ اـعـمـالـهـ مـرـاقـبـةـ أـحـوـالـ الـوـزـارـةـ وـمـاـ تـنـقـضـهـ وـتـبـرـمـهـ ، وـكـثـيرـاـ مـاـ يـلـقـيـ مـنـ ذـكـ عـنـتـاـ إـذـاـ كـانـ رـئـيسـ الـوـزـارـةـ أـوـ أـحـدـ وزـرـائـهـ حـرـمـ أـيـاـ كـاـ وـقـعـ أـنـ هـجـمـ عـلـيـهـ مـرـةـ رـضاـ باـشـاـ وزـيرـ الـحـربـ وـضـرـبـهـ بـالـكـرـسيـ عـلـيـ رـأـسـهـ فـأـدـمـاهـ ، لـمـاـ دـخـلـ عـنـدـ اـنـقـادـ بـلـقـادـ مـجـلسـ الـوـزـراءـ ، وـلـيـسـ

من حقه أن يدخل إليه ولا أن يتكلم فيه ، وكان الوزراء يتفاوضون في ثورة انقلع عليها في اليمن وبشكلون بارسال حملة نطفتها .

نعم كان يجعل من نفسه جنباً مدرأً به عن سيده ، فيحصل دونه تبعة أعمال سياسية خطيرة . ووقع له لما خبراً في جيشه برقيات أنت من قائد الحملة اليونانية ، لأن مولاً كان يحاول التسويف في اعطاء الجواب ، ولا يحب في باطنها أن يدخل في حرب مع اليونان ولا مع غيرهم . فرضي ابن العابد أن يطعن به الطعن الشديد ، ويُفضِّل رجلاً الدولة ، وكانوا يرون اشهار الحرب على العدو ضربة لازب .

ربما لم يتحقق الآثراك على أحد من أبناء العرب الذين شاركوه في الحكم مثل حقهم على ابن العابد ، جاهروه بالكراء الشديدة ، وكراهتهم له نائمة من استشاره بقدرات المملكة ، وببعض النساء التي كانت وقفاً على أفراد منهم ، ولا مور كانوا يعنونها إليه تتعلق بالأعراض . وحدثني أحد من اخنطوا به كثيراً أن حب قوميته كان ماثلاً فيه كل المثل ، حتى ليجهز بقوميته أمام أعرق الآثراك في التغنى بقوميته ، ولطالما أظهر لهم الوشم الذي طبع على معصمه الأيمن ، وهو يوقع الأوراق الرسمية ليريم أنه فخور بعربيته ، وأن أصحاب الدولة في حاجة ماسة إليه ، على طول استشارهم بأمور الملك ، ولكن هذه الفصول أشبه بالهزيل منها بالجد . ولو كان على أخلاق فيما زعم لآتى بدليل حسي على حبه قومه ، ومن يهوى أمته وكان في مثل مقامه ينهض بها ويدفعها على الطريق السوي ويتحقق لها أمنية من أمناني المصلحين . وإذا جئنا مدرس أخلاق المترجم له فلا نجد لها تخرج عن أخلاق سائر المتعلمين من أبناء السلطنة في ذلك العهد ، يتقنون لغة الدولة لاتسلق إلى المناسب ، ويتتقنون فيها يلزمهم من العلم ، ليجدوا السبيل إلى تسديد أعمالهم ، ويجمعوا أموالاً من طرق يستحلونها . ولم نسمع أن أحداً من أبناء العرب على العهد الأخير بذل لقومه من ماله وجاهه ما ينفعهم حقيقة ، ومنهم من كانوا إذا خلوا بالآثراك يرثون من قوميتهم ويتشمون قومهم . أما أبو

المدي الصيادي وعزمت العابد فقد أرضيا الناس بالقصور ، وقد تكون مرأة ومصرة أحياناً ، فأعميام بالمناصب والرتب والأوسمة ، وحمل حالات من الموظفين على رقاب الأمة حتى ضجت بالشكوى من مظالمهم واستباحتهم كيد الصغار . كان من دواعي تقدمها كونها من أبناء العرب ولم ينفعها من تقدما على حسابهم بشيء يذكر . وكان السلطان يصطنع العرب وغيرهم من المناسرين ليقوى بهم على الترك ، وهؤلاء كانوا يغضونه وما زالوا به حتى خلموه . كان عزمت العابد مثل رجال السلطة في أخلاقه ، ولا يتيسر أن تكون سيرته أطيب من سيرتهم في مملكة غابة ما يقال فيها أنها بجموعة عناصر متشاكسة ، نصف أهلها على النصف الآخر جواسيس ، كما قال أحد الظرفاء ، وفي عهد سلطان حيث أتاه الوسایات حتى أصبح ابن يتجسس على والده ، والمرأة على زوجها ، وهو لا يرى سلامه مملكة إلا إذا كان رجاله مختلفين ، وأمهاته متذمورة متابغضة ، كأنه كان يجب أن يحكم رعيته بالدسائس لا بالعدل والاحسان .

وبينا كان الشيخ الصيادي متوفراً على تأييد نفوذه في ارض العرب ، ودعوه اناسيد وطارات ، وخوانق ورباطات ، كان أحد عزمت باشا يجد لانشاء الخط الحديدي الحجازي من حيفا إلى درعا ومن دمشق إلى المدينة ، لترتبط جزيرة العرب بآسيا الصغرى رباطاً محكماً ، وإليه يرجع الفضل بعد اعوانات العالم الإسلامي في تحديد هذا الخط العظيم ، وقيل إنه ما انتفع بشيء من أمواله . ولو تأخر سقوط عبد الحميد عامين آخرين لالصل الخط المحكم ثم بصناعة .

لهم عزمت باشا بتجهيز الشام والجاز بالـ<sup>الـ</sup>كهرباء ، وخطوط الحديد والترام ، كما لهج مناسنه بعمل كل ما يؤثر في أفكار أهل الأمصار ، ومن الطرق إلى ذلك ارضاء قصاده ، وكان يعاني من شقائهم ما لا يكاد يتحمله انسان . وخدم عزمت باشا مولاه أيضاً في المسائل المرية ، وكان ملائماً بها لأنّه طاش زمناً في الشام حتى بلغ الكهولة ، فصرف نفسيه العرب

أكثر من رجال القصر السلطاني ، ومعظمهم لم يخرجوا من فروق إلى بعض الولايات إلا على سبيل الرزوة أيامًا معدودة . والغالب أن سلطان المماليك صرف كبار رجال سلطنته أمناءً صنفوا منهم احتفظ به لخدمته في العاصمة وأخر أرسله إلى الولايات . وابن العابد جمع تجارب أهل الفاسية والداشية من رجاله .

كان عمل المربيين المظليين عند السلطان متشابهاً من وجه ، ومتخالفاً من آخر ، وهو سدق السلطان عن الاخبار ، وكانت المنافسة بينها على أنها ، قضت سياستها أن يمرف ( ولـي النعم ) أنها عدوان لدووان ، فكان أحدهما يتكلف الطعن بالآخر ، ويظهر كأن واحد مساوي قرينه ، وبتزيد في بغضه له .

مات أبو المدى فقيراً ، وكان متلافاً مسرفاً ، وهالك زميله غنياً موسراً ، ضاماً إلى ثروته الأصلية من رواتبه الضخمة والإنعامات السلطانية المتواترة عليه ، عشرات الألوف من الليرات ، أخذها من الامتيازات والشركات وغيرها ، فبعدت ثروته بمئات الألوف من الدنانير ، وكان جد عارف باستهانة الأموال واتهاز الفرص للاثراء ، وهو إلى هذا مقتصد انتصاداً و البخل بعینه .

كان الأول قروياً من بيت فقير ، وكان الثاني مدينياً من بيت غني .

على الأول شيئاً يمت في ظاهره إلى الماد ، وهي الثاني بما يحتاجه من القراءين وعلوم السياسة . فكانت تربية الأول تربية قديمة ولأك أن تقول أنها تربية ابن القرن الحادي عشر من الهجرة ، وتربية الثاني تربية ابن القرن التاسع عشر للبلاد . حاول الأول أن يعيد الخلق إلى ماض خيالي لانفع منه ، وحرض الثاني أن يدفع بياده إلى الآباء بعمرانها ومدنيتها . استفاد الأول في حياته منه من أحسن اليم ، وما نفعه يوم سقوطه ، واستفاد الثاني ما كثرت به أمواله فـكان عملياً في حياته ما أهله المدح ولا القدر ، ولا نقاء صحيفه ولا قول شاعر . عشق الشيخ المعنويات وهام البالشا بالمالديات .

# الرجال الذين غير فتream في مصر

دخلت مصر لأول مرة (سنة ١٩٠١) وبدأت أنترف إلى رجالها ولا سيما رجال الصحافة منهم وكانت كثراً هم القاهرة يومئذ من أبناء سوريا ولا سيما من لبنان . وكان الشيخ عبد الحميد الزهراءي الحموي نزيل دمشق ألف رسالة في الفقه والتصوف وطلب مفي أن أطبعها له في القاهرة ففعلت . وعرف باسم الطابع من البريد ، لأن الرسائل الواردة من مصر تفتح كلها . وعمل الجوايس من هذه الرسالة موضوعاً يتقررون به إلى ولادة الأمور ، فكان طابع الرسالة كمؤلفها من المفضوب عليهم . فاضطررت إلى البقاء في القاهرة وبينما لسكن العاصفة وبينما الذنب الذي اقترفه .

وكان جريدة (مصاحف الشرق) أرقى جريدة أسبوعية صدرت ، يحررها محمد بك الموبلحي ويؤازره فيها أبوه إبراهيم بك من أكبر كتاب ذلك العصر ، وقدرهم على كتابة المقال في الجد . ويطبعها في المطبعة العمومية بشارع عبد العزيز حيث يطبع «الرائد المصري» الذي بدأ أحرر فيه في الشهر الثاني من نزولي مصر .

ومن أجرؤ على التعرف إلى الموبلحين ، وخصوصاً الآباء ، وتبعاً له لما رأيته بنال كثيراً من استاذي الشيخ محمد عبده ، ويقول عليه ما لم يقله ، ويصنع عليه أموراً لم يفعلها ، ويقال انه كان مدفوعاً إلى ذلك من معلم عال . وأنا كنت يومئذ أعيش الشيخ ، وأفتخر بالانتساب إليه ، وأعجب بيلاعنه والقائه ، وأدهش بسيرته وحربيته . وكنت أحضر دروسه في التفسير مرتين في الأسبوع في الرواق العباسي في الأزهر . وأغنى مجلسه الخاص في داره بمدين شمس مرة في الأسبوع . وسمت أحد الحاضرين في بعض مجالسه يقول والمجلس غاص بأصحاب الشيخ : أرى إبراهيم

المولحي في هذه الأيام ساكنًا عن مولانا الاستاذ . فقال الشيخ : أنا أ Ahmad  
أحمد الله على ذلك ، ولو لا أن الأسد مصاب بالنسان لافترس جميع الحيوانات .  
أو ما هذا متناه .

لقيت من الشيخ محمد عبده أول تعرفي به عطفاً استبدني به ، ولقد  
قال بمحاضته ساعة اجتمعنا أنه قرأ ما كتب في مشروع الملك الحديدية الحجازية  
 ولم يدرك النهاية منها ، ولا تخيل عظم هذا العمل ، ولما قرأ ما كتبه ،  
 وأنصار إلى ، في بحثه المقتطف ، وقع في مقالتي على مالم يقع على مثله في  
الجرائد الأخرى . فضلاً عنها شخصت الإبصار إلى ، وقد عرفني إلى جماعته  
 بما قال لمربيًا مقبولاً نعم في ، وما أظنه كان يقصد بالتنويه بعملي إلا الأخذ  
 بيد شاب مغمور إلى طريق الشهرة . وبالفعل كان من حسن حظي أن عرفت بعد  
 هذه الجلسة إلى كثير من الرجال ما كان يتيسر لي أن أعرف أمثالهم في  
 أشهر طوبلة . وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم وأسطورة لمعرفة  
 طبقات مختلفة من أعيان الامة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم .

كان الشيخ إلى علمه الواسع رجل سياسة عظيم ، يستخدم الأساليب  
 لأجل الأهمية السياسية لفخ الامة . رأيت الشيخ محمد شاكر ، وكان من أذكي الأزهريين  
 وأسرع الترح في عصره ، يحمل في بعض الصحف على الشيخ بامضاه مستعار . وما راعني  
 وأنا عنده في عين شمس جالس في المجلس وما كان أتى أحد من الزوار ،  
 إلا والشيخ شاكر يحضر ويسلم على الشيخ نسيم حب وتعظيم ، ويقبل  
 راحة الشيخ من قفاحها وباطنها ويبلغ في احترامه ، فاستقررت ذلك ، وكان  
 الشيخ لاحظ هذا مما زادني على نظرة باتسامة وعلمت بعد ذلك أن الشيخ  
 هو الذي أشار إلى الشيخ محمد شاكر أن يغزو في الأحايين ، ويظهر  
 للملاء أنه من خصومه ، ليقنع القصر أنه واباه على طرف تقىض . ذلك  
 لأن الشيخ كان يريد اصلاح مهد الاسكندرية ، وما كان يرى من رجال  
 الأزهر من يحسن الاضطلاع بذلك غير الشيخ شاكر . واعتقد أن  
 الجناب العالى لا يرضى بالشيخ شاكر لهذا العمل ، إذا كان موصى عليه

من الشيخ محمد عبده . فأوزع إلى الشيخ شاكر أن يظهر الخلاف عليه ، فتم له ما أراد من اصلاح المهد الاسكندرى على يد الشيخ شاكر . وكان الشهور أن الشيخ شاكر من أخصاء الشيخ ، وهو الذي اقترح على لورد كرومر أن يجعله قاضي قضاة السودان ، لكتفائه وبعد هته .

كنت أعلم أن الخديوى عباس كان يعجب بالشيخ محمد عبده ، ويستمد على رأيه ويستشيره في الأزمات ، ثم غضب عليه فتقدمت بعض الصحف تناذى بأساقطه . وقيل إن سبب غضبه منبعث من كونه قاومه في بعض مسائله الخاصة في الأوقاف ، وكان ذلك مبدأ المداواة . وكان العث بآموال الأوقاف على ماروى لي صديقى عبد الرحمن بك فهمي ( وكيل وزارة الأوقاف سابقاً ) السبب الأكيد في جعل وزارة الأوقاف وزارة برأسها كسائر وزارات مصر تابعة لمجلس الوزراء مستقلة في موازتها .

كان الفضل في تقديمى إلى فضلاء المصريين في رحلتي الأولى إلى مصر لصديقي رفيق بك العظم والسيد محمد رشيد رضا وكان من أعظم أمنان النفس أن أعرف إلى علماء القطر وادبائه ، فقررت الدين منهم بنفر ثم أشهد مثلهم في أرض الشام . ولا سيما جماعة الشيخ محمد عبده وجامعة دار العلوم ، وهم أيضاً من أصدقاء محمد عبده يفتخرن بالنسبة إليه . وكان شوقي اليهم لا يوسف بعد أن غادرت القطر في الرحلة الأولى على ألا أعود إليه ، لكثرة ما كنت متبرماً بالعيش فيه . فلما أقت شهراً في بلدى عاد الحنين إلى مصر وأهلها . وما أعظم تبدل الحالات النفسية .

كان أصحاب الشيخ المفتى بحكم منصبه أخلاطاً ، المتخرجون في دار العلوم نظماً واحداً . ولقد اجتمعات هؤلاء كل مساء في قهوة مناتيا أمام حديقة الازبكية ، وإليها كان يختلف الشابخ والأفتديه والبكتوات والباشاوات : محمد المهدى . أحمد الاسكندرى . محمد الخضرى . عبد العزيز شاويش . حسن توفيق العدل . سلطان محمد . حفى ناصف . أحمد ابراهيم . حسن منصور . محمد دياب . محمد عبد المطلب . وكلهم تلاميذ دار العلوم وأكثراهم يدرسون

فيها أو في مدارس أخرى ، وكان يرأسنا الدكتور عثمان باشا غالب مدير القصر العبي، وهو عالم بالطب والمواليد الثلاثة ، وله تأليف جليلة وثقافة إفرنجية ، يحسن هذه اللغة كما يحسنها أدبها . وبختلف البنآ شاعر النيل حافظ إبراهيم . ولا يُنكر عن روعة ذاك الحماس ، وإن كان أكثر من فيه من الشبان ، ولكن شبان ولا كاشبان ، وبجلهم في الحقيقة بجمع علمي في مقتني ، لسمع فيه من كل فن خبراً .

هذا عد من كان يختلف إلى هذا المقتني من رجال العلم والأدب ، وكان يجتمع على غير اطراد . أمثال عالي بجهت ، اسماعيل رافت ، مصطفى لطفي المنفلوطى . محمد لطفي جمة . احمد مفتاح . وبصورة مستديعة أمام العبد الشاعر . ويجيء إلى هذا المجلس بعض الصحافيين ، وإن كان عشرين في قبوة اسبلتد بدار في شارع إبراهيم باشا . وهناك تلقى محمد مسعود . حافظ عوض . داود برگات ، يوسف الخازن . أحمد الأفني . صادق عنبر . نجيب شاهين . اسكندر شاهين . محمد السباعي . ولـ الدين يكن . إبراهيم سليم التجار . خليل زينية . سليم سركيس . علي يوسف الكريدي . الياس قياض . طانيوس عبده . سامي قصيري . توفيق حبيب . يوسف يكن . يوسف البستاني . مصطفى الدمياطي . احمد حلبي . ومن علماء السوريين وأدبائهم الرائين في هذا المقتني . سليمان البستاني . رفيق العظم . شibli شمیل . عبد الرحمن الكواكي . خليل سعادة . رشيد رضا . خليل مطران . داود عمون . وبعد حين انضم إليهم الشيخ طاهر الجزائري ، ولاجله كان يحضر أحياناً أحمد تبور بك وأحمد زكي بك العلامان المشهوران . ويتعدد إليها كثير من رجال القضاء والإدارة أمثال محمود رشاد . اسكندر عمون . سعيد شقير . نعوم شقير . إبراهيم مصور وهناك كثير من الأدباء والعلماء لا يختلفون إلى المقاقي كثيراً ويقصدهم من يريدهم في بيتهم ومكتباتهم أمثال قاسم أمين . فتحي زغلول . حسن عاصم . محمد فريد . محمود سالم . محمد محمود التركزي الشنقطي . إبراهيم اليازجي . يعقوب صروف . فارس نمر . محمود سامي البارودي . اسماعيل صبري . أحمد شوقي . عبد العزيز فهمي .

أحمد لطفي السبد . جرجي زيدان . علي يوسف . مصطفى كامل . أحمد كمال .  
اسهاعيل حسين . محمد البلاوي . عبد الحميد المكري . عبد العزيز محمد .  
عبد المحسن الكاظمي .

ولم يكن يذكر في مصر يومئذ من يتولون زعامة الآداب والعلوم اليوم  
مثل محمد مصطفى المراغي . علي مسعود الزنگلوني . محمود أبو الميون . طه حسين .  
علي شرقه . سليم حسين . ابراهيم الملاوي . عبد الرزاق العنوري .  
محمد حسين هيكل . مصطفى عبد الرازق . عبد الرحمن الرافي . أمين الرافي .  
مصطفى صادق الرافي . أحمد أمين . أحمد زكي . علي ابراهيم . عبد القادر حمزة .  
منصور فهمي . عباس محمود العقاد . ابراهيم عبد القادر المازني . انطون جيل .  
خليل ثابت . عبد المعم رياض . محمود شلتوت . محمود عزمي . أحمد حسين .  
صادق جوهر . محمد توفيق دباب . عبد الحميد حمدي . أمين سرور . اسعد لطفي .  
سعيد لطفي . أسعد برادة . أمين مملوف . أحمد نسم . محمد المراوي . أحمد  
الكافش . أحمد حرم . علي فؤاد . محمد رياض . عبد الحميد المبادي .  
عبد الوهاب عزام . عبد الرحمن عزام . أحمد حسن الزيات . محمود الزناتي .  
محمد عبد الوحد خلاف . عبد الوهاب خلاف . زكي محمد حسن . أحمد عاصم .  
محمد عوض محمد . عبد الرحمن البرقوقي . عبد العزيز البشري . احمد فهمي  
المعروفى . أحمد ضيف . أحمد المواتري . علي الجارم . أحمد فريد الرفاعى .  
حسن ابراهيم حسن . محمد أحمد الفمراوى . أمين موسى قنديل . توفيق  
الحكيم . مصطفى زيادة . أحمد عبد السلام الكرداني . وجد الايوبي .  
ابراهيم مصطفى . عبد الحميد نافع . حسن الشريف . حسن السندي . محمد  
بدر . محمد عبد الله عنان . علي فكري . اميل زيدان . امين الخولي . شفيق  
غربال . صبري أبو علم . محمد فهيم . محمد أحمد جاد المولى . محمود تجور .  
محمد فريد أبو حديد . أحمد زكي أبو شادي . محجوب ثابت . أحمد عيسى .  
جرجي صبحي . ابراهيم رمزي . طنطاوي جوهرى . أحمد خليل . فؤاد  
صرف . محمد هاشم عطية . عبد الرحمن الجزرى . الدمرداش محمد . ابراهيم

مذكور . أحد مصطفى المراغي . كامل كيلاني . راشد رستم . محمد أمين حسونة . عبد الوهاب حمودة . أمين واصف . نسيم صبيحة . يوسف كرم محمد صبري . مظفر سعيد . أمير بقطر . عبد الله عفيفي . فكري أباظة . حسين شفيق المصري . أحمد وفيق . سلامة موسى . محمد الصادق حسين . محمد الدين الخطيب . ابراهيم حلال . صالح جودت . عبد العزيز أحمد . محمد عبد الفقي حسن . توحيد السلاحدار . أمين عثمان . أحمد الشايب . حافظ رمضان . ابراهيم دسوقي أباظة . فؤاد أباظة . علي أدhem عبد الحميد السنوسي . مصطفى نظيف . حسن القاياني . محمود محمد شاكر . أحمد محمد شاكر . محمد بدران . عزيز خازكي . حنفي محمود . عبد الحميد بدوي علي توفيق شوشة . هؤلاء الذين عرقتهم في الدور الآخر من العلماء والآباء ، وقرأت كتبهم ومقالاتهم وعاشرتهم وجالستهم وهو جيل جميل ، وأكثرهم بين الأربعين والخمسين وقليل منهم تجاوز الستين . وبعدهم سبقونا إلى رحمة الله . ولعل هناك من يعاتلهم في القطر لم أحظ بلقائهم وأعرفهم من كتبهم أمثال أمين سامي . محمد فريد وحدي . أو هم من شغلتهم مناصبهم عن اظهار علمهم واسهروا في ناحية أخرى وهو في حقيقتهم علماء مفكرون ، مانسوا خدمة الآداب على كثرة ما لديهم من الشواغل . عرفت منهم حافظ عفيفي . أحمد شفيق . علي ماهر . بهي الدين بركات . طلعت حرب . محمد علي علوة . محمد حلبي عيسى . نجيب الملالي . صبري ابو علم . محمد المشاوي . علي الشمسي جعفر ولی . محمد رياض . علي زكي المرا比 . سفن اللقاني . سليم حسن أحمد فخري . عادل غضبان . السيد احمد صقر . شوقي ضيف . عدا من نسبتهم ولم يبقوا على خاطري .

أخرجت مصر في العهد الآخر عظامها في معظم الفنون والعلوم ، وكغير نظام الأزهر فأخذ يخرج من دار العلوم والجامعة طبقات من الآباء والباحثين ما كان لمصر ولا للشرق العربي عهد بامثالهم ، فنبغوا وساعدهم على بنو غ THEM كونهم من أمة متألفة منذ عهد محمد علي الكبير ، وكان لهم

ما ندر ديارم من أخلف الرزق ، ويفيض فيها من معن الفن ، أكابر  
معوان على التثقف والتعلم . يضاف إلى ذلك ما خص به المصري من ذكاء  
فطري ، وما امتازت به أرضه لقربها من أوربا ، فكان احتكارهم  
بالقربيين أكثر من جميع أمم الشرق . ولا يكاد يجول في الخاطر فن إلا وتجد  
فيه اليوم أخصائيا أو عدة أخصائيين ، وأكثر ماغلب عليهم من العلوم  
علم الحقوق والطب وهندسة الري . وع متأخرؤن في التجارة والصناعات ،  
لا يضاهون في مصارحها الرومي والارمني واليهودي والطلباني والسورى من  
سكان حوض البحر المتوسط .

قال لي أحد أصدقائي في القاهرة منذ بضع سنين إن فلانا يريد أن  
يتعرف إليك ، فقلت له : أرجو ذلك الآن . وسألني عن السبب الذي من  
أجله استنكفت عن الاجتماع إلى صاحبه . فقلت له إن من عرقهم من الرجال  
في هذا البلد قد شغلوني عن غيرهم ، واستهواوني لطفهم وأدبهم عن أن  
استكثروا من الصحابة . وللصداقه قواعد لا بد من مراعاتها ، وهي مشاركة  
الصديق صديقه في فرحة وزرمه ، وفي كل حالاته ، لا بد له من ذلك  
في السفر والحضر ، فإذا كثروا على المرء عدد الأصحاب ، فله أن يختار حالاً  
من حالين ، إما أن يصرف شطرًا من وقته في تعهدم ، والقيام بواجباته  
نحوهم ، وإما أن ينصرف إلى عمله فيضعف عن وفاء حقهم . إنكم كلكم  
معاشر المصريين نحبون بما فطرتم عليه من حسن المشرة ، ورقة الحصول ،  
وحضور الذهن ، وجيل الأدب ، فإذا كبرت جريدة من أعرافهم منكم  
اقتضى لي أن اقطع من وقتي جانباً لتفقه في خدمتكم وتعهدكم ، وليس لي  
كاتب سر يعاونني وبخفف عن حمل عب الجزيئات لأنها يشق الكلمات .  
ورجل واحد لا ينهض بواجبات كثيرين ، ومعالب الحياة وافرة ، وشهوات  
النفس لا تقف عند حد ، ولا بد للمرء من تحقيقها ، وال عمر قصير ، والزمان  
غادر غير قادر .

درجت على بعد عن رجال السياسة ما وجدت إلى بعد عنهم سبلا ،  
وكنت أنظر إليها بأنها علم واختار تحميما في العمل<sup>(١)</sup> ، وما عرفت من رجال  
السياسة إلا من قفت الأحوال بعرفته بدون تقصد . وزهدني في بعضهم  
أني لحظت أن منهم من يترفون عن الناس ويسمخون بأنوفهم ، وقد تغير  
أخلاقهم إذا جلسوا على منصة الحكم . ومن الصعب أن تألف من روحه غير  
روحك ، ومن غaitه في الحياة غير غaitك . وكيف تخالل من يعتقد في  
باطنه أن يبنك وينته فوارق ، وأنى تحب من يرفك ويسترضيك ما دام يؤمل  
منك منعا ، ويتبعك إذا ظهر له أنه في غنية عنك . من عادة رجل  
السياسة خصوصاً أن يحاول الانتفاع من كل قوة تعرض أمامه ، وإنما  
لا أحب في الجلة أن استشر .

عرفت بعض أمراء البيت المالك في مصر فأكبرت فيهم ادبهم وفضلهم ،  
وصادقت منهم الأمير عمر طوسون ، والأمير يوسف كمال ، فرأيت من تفانيها  
في خدمة مصر ما عظم موقعهما من القلب والعين ، ولو كان كل أمير في  
الشرق يقوم بواجبه كما يقومان لتغير ولا جرم وجهه ، ولزادت بين الأمم  
قيمة أهله . كان من مما أن جعلا ما هما فيه من نعمة سابقة وقفا على خدمة  
مصر ، وشغلا ساعات الفراغ في تدوين الابحاث ووضع الكتب . فآخرجا  
من ذلك بجموعات مفيدة جداً ، يتذر على كل مؤلف أن يصل إلى مثلها .

(١) كتب إلى الأمير شكب ارسلان من لوزان يوم ٣٠ نيسان ١٩٢٨ مانصه :  
ما ذكرته لي عن مصر والشام وأحوالها السياسية كله معروف ومُؤسف ولكن المآفات الشخصية  
وحب الظهور والرئاسة وما يتبع ذلك هي التي تبلي الأوطان بهذه الأمور ، وأكثر ما يقع منها  
يكون بلية على الذين بدأوا بها وجلوا دينهم من أول الزمان السعيد زيد والدس على عمرو  
والارجاف بحاله ظناً بأن هذا هو الذي يقطع الجميع فتبي هنالك رئاسة واحدة لا تزاع فيها ...  
نعم إن الذين سروا هذه اللة حداً من عند أنفسهم وكانوا يعتدون على الناس الذين ما تعرضا  
لهم طول الحياة بأذى مم الذين وقروا اليوم في الحفر التي طالما حفروها لنفريم ، والله تعالى يصلاح  
الأحوال ويلهم الناس عزم الأمور وان كان لا بد من فاذورات السياسة في البلاد فالأولى بالحازم  
الرشيد ان يلغا الى قنة العلم ويترك هذه القاذورات لمن يترغون فيها اه .

## الدعایات الـ جـنـیـهـیـةـ

كثُرت رحلات الاجانب قبل الحرب الاخيرة إلى الشام ، ولكل دولة من الدول ينتها ظهراً ولكل مذهب سياسي جديد أو عتيق متبعون . فبعضهم يعمل للديموقراطيات ( حكم الشعب ) وآخر يعمل للديكتاتوريات ( حكم الفرد ) ، وآخر يصل للشيوخين المنطرفين ، او الاشتراكيين المتداين ومنهم من يمجّد الازراك السكالين ، وآخر يدعو للملك ابن السواد أو لامير عبد الله بن الحسين إلى غير ذلك .

جاءني منذ خمس سنين أحد نواب ايطاليا يحمل من استاذه صديقي العلامة نلينو وصا ، يقول إنه يحب أن يدرس حالة التعليم الابتدائي في سوريا وفلسطين والعراق ومصر ، لتطبيق حكومته من هذه الانظمة ماترى فيه فائدة لأهالي طرابلس وبرقة ( ليبية ) وطلب مني أن اذكر معلوماتي في هذا الشأن ، فاعتذررت بتغيير بعض نظم التعليم بعدي ، وأرسلته إلى الوزير السيد سليم جنبرت مع كتاب مني . وعاد من الفد ورفيقه الذي معه ، وهو ايطالي ولد في سوريا ، يقول إنه يكتفي بما لدى من معلومات عن التعليم وان كانت قديمة ، وأشار إلى أن الوزير الذي أرسلتها إليه لا يعرف شيئاً من أمور المارف ، فقلت له : إن من عنده من الموظفين يمرون ، وكان عليه أن يطلب منهم ما يلزم ، فقال رفيقه : نحن نكتفي بمعلوماتك فقط ، وعرض بأني أحلتها على وزير عامي .

واما ذكر النائب الابطالى أن فرنسا في سوريا على ما رأى ، عنيدت فقط بتزيين المدن وأهللت القرى . فقلت له : إنها أنجذبت في القرى أشياء نافعة ، وطدت الامن ، وعبدت بعض الطرق ، وخففت الضرائب ، ومنت السخرة ، ورفعت سلطة المقربين على المستضعفين ، وزرى اليوم اضعف الملاحين بقيم

على أكبر أرباب النفوذ من المزارعين وغيرهم قضية ويرجحها إن كان حقاً  
إلى آخر ما قلت . فاقتصرت على أن اذهب إلى رومية لأنني حاضرات ،  
والتي باصحابي المستشرقين ، فاعتذر عن الرحلة (لأنني ذهبت إلى رومية مرتين )  
لتعاقدت مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة لانقاء حاضرات فيها ، خلال انعقاد  
جلسات بجمع اللغة العربية الملكي التي أنا مضطر لشهادتها بصفتي عضواً فيه .  
وقال لي إذا زرت طرابلس وبرقة ، وأجور السفن رخيصة جداً ، تشهد  
ما تم فيها من الاصلاح على يد الحكومة الفاشية ، وما أنساناه من الطرق  
والجواجم وعمرنا من الدساكر والقرى . وقال إن من سياسة إيطاليا  
الاستمارية أن تحمل بيت العربي إلى جانب بيت الإيطالي حتى يمزجا على الأيام .  
وذكر ما نحرص عليه إيطاليا من اسكان ابنائها في ليبية ، وما تهيء لهم من  
سبيل التسويق لذلك .

ثم صرّح بأكثر من هذا وقال : لماذا لا تذهب إلى إيطاليا ؟ واحببتك  
فيها كثار وهل تحسب لاصحابك هنا حساباً (يعني الفرنسيين ) أم هم بمحولون دون  
ذهابك ؟ فقلت له : إبني لا أخشم ، ولا ميّن يحظرون على السفر إلى الجهة التي اختارها ،  
على أنني لا أرى إن صح أنهم لا يرضيهم ذهابي إلى إيطاليا ، أن آتي ما يغضبهم .  
ولم أغضبهم وإنما لم ألق منهم إلا كل رعاية منذ وافوا هذه الديار ،  
فقد أدخلوني الوزارة مرتين بدون علمي ، ورفعوا مقامي بين إبناء قومي ،  
وتعاونت معهم فما اختلفنا ، كانوا يقنعني فأسير معهم ، أو أقنعهم فيسرون معي .  
وأتفق أن اختلفت مع مستشاري فعززت إليه أموراً حفقوها ورأوا صدق فيها ،  
ما لبتو أن نحّوه عن عمله ، واستعاضوا عنه بمستشار من اصحابي ، وأوسوه  
أن يسير معي سيراً حسناً . وكان لهم اثر ظاهر في مظاهرتي على تأسيس الجمع  
العلمي العربي والمتحف ودار الكتب ، مما لم ألق بعده من الحكومات الوطنية  
نفسها . فـتـ يـعادـيـ يـعادـيـ لـسـبـ ، وـاـنـاـمـ اـجـدـ سـبـاـ لـمـادـةـ المـتـدـيـنـ .  
أما الفرنسيون عندنا فهم من طبقة الموظفين ينفذون فقط ما يؤمرون به . ولـيـ  
فيـبارـيزـ اـصـدـقاـءـ اـعـزـةـ عـلـيـ لـاـرـىـ اـنـ يـجـولـ فـيـ خـواـطـرـهـ أـنـيـ اـنـتـ مـالـاـ بـرـضـيـمـ ،

وإن كان أدبهم ينبع من التصريح بشيء من ذلك ، فليس بيفي وبين الفرنسيين إذاً إلا الثقة المتبادلة .

ومن الغد لقيت في ساحة الشهداء أحد أصحاب الأخبار ، فسلم عليَّ ، وقال لي باشئماً جدأ ، إن نسيبه ( الرجل الذي كان مع النائب الإيطالي ) حدثه أمس بمحديني مع النائب بمذافيده ، وبالطبع هو نقله إلى من يشتعل لهم في البمثة ، وما كنت أعتقد أن الأمر بجري كاجرى ولا ان رفيق السائح الإيطالي هو إيطالي متبدل في ديارنا وله فيها أقارب .

وبعد مدة عرضت عليَّ محطة باري اللاسلكية في إيطاليا أن أوافيها بخمس عشرة محاضرة في الموضوعات التي اختارها ما عدا السياسة فقدمت ، والقيت المحاضرات باسمي . وقال لي أحد أصحابي ان قبولك بمحاضرة المستمعين من محطة باري اللاسلكية هو خدمة إيطاليا من طريق غير وعلى مرأء مباشرة . فأجبته إنها خدمة العرب من طريق مباشر ، والمواضيع علمية أدبية تاريخية فكاهية . فالعرب هم الذين أنواعي نفعهم ، وهم الذين يستمدون منها ، ولو طلبت مني سائر المحطات العربية في الغرب أن أوافيها بعثل هذه المحاضرات ما تأخرت عن إجابة طلبها ، ما دام الذين يستمدون إليها هم قومي . أما خدمة سياسة إيطاليا أو غير إيطاليا فلها أشخاص غيري يحسنونها أكثر مني .

وكتب إليَّ في هذا الربع ( ١٣٥٩ - ١٩٤٠ ) المستر باربر المستشرق الانكليزي أنه وسدت إليه خدمة في محطة الإذاعة اللاسلكية في لندن وطلب مني أن أوافيه بأحاديث تاريخية وادبية لتنق باسمي من تلك المحطة ، فاخترت له عشرة أحاديث من مذكراتي الخاصة ، وقدرت أنها بما يلزمه ساعه ، فاستلمها وأكدر لي أنها ستحوز القبول من كل بد عند اللجنة الموكول إليها النظر في أحاديث المحدثين . وأشارت إليه أن له الحرية أن يحذف من أحاديثي ما يشاء ويبي على ما يشاء ، فترجمها بعد مدة متدرأ ، وما قال في كتابه ( وعندنا أنكم اذا جمعتم هذه الأحاديث في كتاب عن مذكراتكم فإنه ولا شك يصادف قبولاً عظيماً ، لا من العالم العربي ، بل من هؤلاء

الانكليز المتهين بشئون الأقطار العربية ... وعلاوة على ذلك فانها ككل المذكرات الشخصية تتضمن بعض اشارات الى شخصيات بارزة بعضها لا يزال على قيد الحياة ، والبعض الآخر قد اختاره الله تعالى إلى جواره . ومع أن هيئة الاذاعة البريطانية هيئه متنقلة فتشعر بأن اعتقاد الجمهور أنها على صلة بالحكومة الانكليزية (كذا) قد يعرضنا للنقد إذا نحن أذعننا مثل هذه الأحاديث ، وأنظن محطة الاذاعة اللندنية استفتت أيضاً أضاربي ، مما رأني على الأرجح حرياً بأن أستعن بثفهم ، والله يعلم السر وأخفى . والمستر باربر الذي تفضل وطلب إلى أحاديث للمحطة اللندنية ، كان زارني منذ سنين يحمل وصاة من الدكتور أحمد سامح الخالدي من رجال التعليم في فلسطين فأهلت به ورحت ، ورأيته مسترفاً مستفرياً ، وقد كتب كتاباً بالانكليزية في التمثيل العربي في مصر ، وهو من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، كان مراسلاً لجريدة التيمس فاستقال ، وهو على جانب عظيم من التهذيب ، سألت عنه أحد رجال فلسطين فقال : هو كما قال لك الخالدي من أحباب العرب ، وخبرناه بالاشتغال معه فكان صادقاً في قوله وعمله . وتباحثنا ساعات طوبلة في سياسة الانكليز مع العرب ، وفي الوحدة العربية ، وفي اغلاق الحكومات الانكليزية في هذا الباب . وقلت له : إن العرب احروا الانكليز مما قابلهم على حبهم لهم بحب مثله ، وما شرط من يحب إلا ان يحب . وبمحاجتنا في انحطاط المسلمين ، وفي ثورة فلسطين ، وفيما ارتكبه البريطانيون من الخطأ مع اهلها . وتحدثنا في تحزبهم الظاهر للصهيونيين ، وبشرني في قدمه ثانية ان حكومته قررت ان تغير سياستها في فلسطين ، وقال إنه ألف كتاباً في القضية الفلسطينية ، وما جاء فيه انه طلب إلى رئيس حكومته ان يختار محلاً في ارجاء الامبراطورية الانكليزية يؤوي اربعة وعشرين ألف مهاجر اشوري ، فكان الجواب انه لا يوجد مكان في الامبراطورية يتسع لهذا العدد . فعقب على ذلك بقوله : إذا كانت هذه الامبراطورية الكبرى ليس فيها مكان لاستيعاب هذا العدد من المهاجرين ، فهل في قدرة فلسطين الصغيرة

المستراب  
الندن  
لندن  
لندن  
لندن

الرقة ان تؤدي سبعة عشر مليونا من اليهود <sup>وسموه ساهرون</sup> وقال في محاضرة له في فلسطين القاها في بريطانيا وارسلها الى مطبوعة في كراستون : إن الصهيونين كانوا عرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني ان يبيعهم فلسطين ببلغ عظيم فأجابهم إن فلسطين وان كانت الخليفة ليست ملكي ، وهي ملك من <sup>هو أهلها</sup> <sup>لهونه</sup> <sup>عجمت قربتها بدمائهم</sup> .

اقترح عليّ أناس من العرب والافرنج من المتعلمين بالملك ابن سود صاحب الحجاز ونجد أن أذهب لزيارة في الحجاز ، أو أن أحج في الموسم ، فكنت أعتذر . ودعى مرات متعددة عشر سنين إلى زيارة بعض أمراء العرب فاعتذررت ، لأنني لا أريد أن أخدم سياسة أحد . وإذا قضى عليّ ذات يوم أن أخوض غمار السياسة فيكون ذلك لما أعتقد فيه مصلحة الجماعة ، لا أخدم شخصاً بعينه ، ولا دولة برأسها . ولو كان لي مثل هذا المأرب لكان مصر أولى الدول بالتطوع في خدمتها ، والأشياء فيها موفورة لي أكثر من كل قطر .

قصدني في العهد الأخير كثير من علماء المشرقيات من الامان والروس والدانمركيين والاسبانيين ، وبعض المندوبين المسلمين وغيرهم . وكلهم كتموا المهام التي جاؤوا لأجلها ، وأعتقد أن أكثرهم يخدمون سياسة أنفسهم . أو السياسة التي استخدموهم . ومنزحت مع رجل نمساوي جاء ليؤلف كتاباً في سوريا ، فقلت له : كأنني بكم يا معاشر النمساويين تستيقظون ذات صباح فترون على حدودكم مئتي ألف جندي ألماني يريدون ضمكم إلى بلادكم ، فقال : إن الأمر لا يتوقف على مئتي ألف جندي لأن خمسة دسمين في المئة مما يريد الانضمام إلى المانيا . ومنزحت مع جرمانى سوبرى وقلت له : إن الكلاوة ملايين المانيا سوبرى ، وهو ثلاثة اربعين سكان سويسرا سينضمون إلى المانيا مما هن لقولي ، وقال : لا زيد ذلك لا زيد ، وهذا أمر لا يتم .

وجاءني مرة انكليزي موظف في وظيفة عظيمة في العراق يحمل لي سلاماً من صديقي الاستاذ مارجوليث المستشرق الانكليزي ، وسألني رأي

في الوهابية فذكرت له مذهبهم ، وقلت له انهم تخلصوا من الخرافات بعض الشيء ، وممّا أشبه بالبرستانت عندكم . قال : هذا لا يهمني بل احب أن نذكر لي رأيك هل في مذهبكم أن يقوموا بدعوة سياسية ؟ فقلت : إذا ورد البرطانيون ذلك . ثم قال : والمحجاز ألا يرجى الخير منه للعرب ؟ فقلت له : إن المسلمين يستقدون أن كل خير جاءهم كان من رسولهم محمد بن عبد الله ، ولما كان من عقידتهم ألا يقوم بي بعده فالخير لا يتوقع من المحجاز . وتلخمنا في الثورة المصرية وقال إن القائمين بها شباب لا يقدرون التبعيات فقلت : إن أكثر الثورات في العالم قالت بأيدي القتبان ، وثوار مصر أخطلوا بالنسبة لصالحهم وأحسنوا لأهليهم . وتلخمنا في تقسيم الديار النامية وفي أراضي الانتدابين الفرنسي والإنكليزي . وبعد أشهر ذهب ابن سعو إلى المحجاز وأخذ الملك حسين إلى قبرص .

وجاءني المستر لايس مدير مدارس فكتوريا بالإسكندرية سابقاً ، وكان قضى بضع سنين في دمشق ليحكم الله العريقة ، ونقل إلى لفته ديوان الحاسة لأنبي عام شعراً فيها بلغفي ، وكان غالباً فاضلاً ، وسمته سمعت العلامة وآخلاقه فيغاية من التهذيب السكوني البديع . فقال لي : إن سكان نجده جديرون بأن يكون لهم نصيب من عنايتكم في التعليم ، وإن تفتح لهم المدارس ، فالآمية غالبة عليهم ، فقلت له : يا صديقي كيف نطالع إلى تعليم غيرنا ونجن من اعوز ما يكون إلى من يعلمنا ؟ إن عدد الأميين في ديارنا أكثر من كسمين بالمائة ، أو لسنا أحرساه بأن نفكروا ولا في ابناءنا ثم نفعل الخير بغيرنا ، فنفكر في تعليم أهل نجد ! فاقتنع .

وكنت أهديت المستر لايس نسخة من كتابي (غرائب الغرب) فجاءني بعد ثلاثة أشهر يقول انه طالمه بامان وبشكري على هدبتي ، وسألني عن أحمد فارس - وكنت اقتبس من كلامه فصلاً في الأخلاق الإنكليزية - فقلت له هو أحد علماء الله ومن أوائل رجال النهضة الأدبية عندنا فقال : هذا لا يعرف الإنكليز ، وكذلك الحال في بين Taine الفرنسي فإنه لا يقدر

البريطانيين قدرهم بل هو عدوم ، فقلت له : هذا فيلسوف ، والفيلسوف لا يقول إلا ما يعلم ، ومن الصعب زحزحه عن الحق . فقال لي : أتريد أن تعرف أخلاق الانكليز على حقيقها وتكتب فيهم كتاباً ؟ قلت له : نعم . قال : تكتب إلى صديقك الاستاذ براون في كبردبج بيكتري لك غرفة في جواره ، ونذهب بنفسك تقضي ستة أشهر هناك تدرس الانكليزية ، وأنت بالنظر لتكلنك من الفرنسية تحكم الانكليزية في هذه المدة ، وتدرس خلاطها أخلاق الانكليز وعاداتهم ، وندوّن منها ما يروفك . وقال : أظن ذلك يناسب أصحابك هنا أي الفرنسيين فقلت له : أنا اذا اعتزمت أن أقوم بهذه الرحلة العلمية لا يقف أحد في وجهي ، ولكن شب عمر و عن الطوق ، وصب علي في هذه السن أن أدرس لغة أجنبية ، ووقي لا يسمح بمغادرة بلدي هذه المدة الطويلة . وأظن هذا الكتاب الذي اقترح علي وضعه في الأخلاق الانكليزية سيكون له وقع كبير عند حكومة بريطانيا العظمى . سأله أحد أصحابي صديقي لاياس هذا عن رأيه في حاضراتي في المجمع العلمي العربي ، فقال إنها جيدة ليس عليها اعتراض ، إلا أنه اعطي الاوليين فيها فوق استحقاقهم ، وبالغ في وصف حضارتهم ، وسألته أو زيره لا أدرني على التحقيق عن حاضرات أحد الاعضاء فقال : ما خرجت عن وعظة في كتبة انجليزية ، وسأل بعضهم عن آخر فقال : بحاول أن يضحك الحاضرين وأكثـر نـكـاته بـارـدة .

---

## عزمت بآما العابد

أربعة أزاب نشأوا في القرن الماضي من حيٍ واحد في دمشق ، وتحرّجوا  
بعلم واحد في مدرسة واحدة ، فجاء منهم أربعة منتفعون . طاهر الجزائري ،  
سليم البخاري ، أبو الحسن عابدين ، أحمد عزت العابد . قرأوا على الشيخ  
عبد الرحمن البوسني في المدرسة الجقاقية ، وكان مريضاً عظيماً ، فلقيهم  
مباديء العلوم ، وأصول اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية . وانقطع  
الثلاثة الأولون إلى دراسة العلوم الإسلامية ، فكانوا علماء فقهاء ، وشدّ  
 عليهم تربم الرابع فانصرف إلى اتقان التركية والفرنسية ، وأجاد الكتابة  
بالعربية والتركية ، ونظر في القوانين وأتقنها ، ودخل في خدمة الدولة ،  
فساعدته وجاهة والده هولو باشا على قطع المراحل إلى المناصب المالية  
سرعاً ، حتى صيره السلطان عبد الحميد الثاني العثماني قريباً له نم كانياً  
ثانياً في الملايين وكان خادم السلطان الأمين نحو ثلاثة عشرة سنة وما سقط  
إلا بسقوطه .

وحاول أحد عزت باشا العابد بعد أن صار السلطان عبد الحميد في أسر  
الاتحاديين في قصر الابتي في سلانيك ، وانقضى عهد الحكم المطلق ، أن  
ينتخب عن دمشق عضواً في مجلس النواب ، فقاومته في جريدة (المقبس)  
لأننا كنا نريد أن ينوب عنا الشبان المتعلمون ، ومن لم تسعفهم مصبة  
الاستبداد بليلها الحالكة السوداء ، وكنا نعتقد أن أنصار الحكومة الاستبدادية  
لا خير فيهم في العهد الدستوري ، وهم طالما زينوا للسلطان عبد الحميد أن  
يعضي في اضطهاد الحرية والأحرار ، والرجل الواحد من الصعب أن  
يقلع في دورين متافقين .

وجس عزت باشا النبض ، وسبرنا عمبارة ذكائه ، فعرف ما تمنى تحقيقه

إذا خدمناه فيما يحب ، فوعد إن نحن سمعنا في انتخابه أو لم نقاومه على الأقل ، أن ينشئ في حي الميدان ، محلة أهل القدية في دمشق ، مدرستين ومستشفيين المذكور والآفاث ، وأن يعلم خمسة أولاد من ابناء سوريا العلوم المالية في جامعات الغرب إلى آخر ما وعد به . ولم أرض أنا وجماعتي إلا أن يضمن لنا القيام بمشاريعه فأمن عايهما أولاً ثم نطوع لعونته ، وأردنا أن نتمد على شرفه فينفذ ما عرض علينا ، فخفنا أن تكون وعوده وعود بعض البابسين فأينا ، وما استطاع الدخول في مرحلة الانتخابات لا يقانه بالفشل .

وكنت وأصحابي نملأ آمالاً كبيرة على ما يجري من الخير على يد هذا المثري العظيم ، اذا استمع لصانحنا فلما رأينا أنه ليس من بيته أن يمنع أمته شيئاً أعرضنا عنه ، وقلت لشقيقه مصطفى بك : قل لشقيقك إن وطنه يتضرر منه أموراً ليس بالصعب عليه تحقيتها ، ولا تنقص كثيراً من ثروته . وبغير بها ترجمته في الدنيا ان كان يحب الدنيا ، وتشفع له في الدار الآخرة ان كان يعتقد بها . إن بعض ما ناله من الجاه كان لنسبه للعرب ، فما باله يتأنى عن خدمتهم ، وهو قادر على الأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة ؟ وإن الفرد من أولاده ليعيش بنصف مليون ليرة كما يعيش بخمسين ألف ليرة ، على أن لكل واحد من ولديه ثروة خاصة لا يحتاج سعها إلى ثروة أبيه ليعيش . ( وأنطن عزت باشا أوصى بピضة ألف ليرة عثمانية لتأسيس مدرسة في دمشق أخذتها جمعية الاسعاف الخيري لإنشاء مدرسة الابيات ) .

ولما جاء عزت باشا إلى دمشق ، وكان المجمع العلمي العربي قد بدأ النساء يحتاج إلى معاونات كثيرة ، ليقوم بفرضه المظيم ، وموازنته ضيقة لا تتسع لكل ما يحاول تحقيقه ، قرر أعضاؤه أن ينتدبوا منهم أربعة ، فيهم أقرب الناس إليه ، تربه سليم افندي البخاري وصاحباه سليم بك عنخوري وفارس بك الخوري وصاحب هذه المذكرات . وأردت أن أستفي من هذه المهمة فاضطروني إلى السيد مهم بصفتي رئيس المجمع العلمي ، وأرادوا

بهذا الوفد أن بهزوا أربحاته لغاية بمحهم . فبعد مفاوضات ومهامات احررت لها الوجوه ، وعرقت الجياع والرؤوس ، تبرع الباشا بعثة ليرة سورية ، وبالطبع الجديدة من دائرة المعارف البريطانية . وعاد على<sup>١</sup> البasha من الند في المجمع العلمي ، وهو بثوب الثامة ، يقول إنه لم يتم من الليل أمس لأنّه رأى في دار الكتب الظاهرية مصحفاً شريراً يخط جيل ، قبل له إنه ابقيع ثلاثة ريالات ، وأنه مسروق من أحد خزائن المدينة المنورة ، وهو مستند لأن يدفع لنا ثمنه وبأخذه يرميه إلى مكانه الأصلي . فيبيت له أن المصحف دخل خزانة دار الكتب فأصبح في حكم الوقف ، ولا سبل إلى أخراجه ، ولا فرق بين أن يحمل هنا أو يكون في المدينة . وقال أحد الخبراء : ولمل البasha كان يشوي أن يعرض ما دفعه المجمع العلمي ، فإن المصحف ينبع من المتألف **الكبير** ، أو دور الكتب في العاصم الشهيرة ، بما لا يقل عن مئة وخمسين جنبها . والله أعلم بالنيات . وقال لي البasha ، وأنا أودعه على الباب ليحضرني بوعده ممسول : إن له نحو سبعة عشر ألف ليرة في ذمة حكومة سورية من أصل ماله من الديون على الدولة العثمانية فإذا قبضها يعطيها منها أربعينآلاف ليرة ، فما قبض ولا قبضت . وكان ما وصل المجمع العلمي هو كل ما سمح به نفس أعظم غنى في الشام .

# أول رئيس جمهورية في سورية

خلف أحمد عزت باشا المابد ولدين علمها في باريز لعلها رافياً ، أحدها عبدالرحمن بك درس هندسة المعادن ، واشتغل بالمسائل المالية والتجارية ، واثاني محمد علي بك وهو الاكبر درس الشرائع وصار مشاوراً للحقوق في الباب العالي مدة ، ثم جعل في اواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني سفيراً للدولة العثمانية في واشنطن ، واشتغل أيضاً بالمسائل المالية ، وكلاهما اغنى في حياه أبيه .

وأنى محمد على بك إلى دمشق يفتح بيت أبيه وجده ، ويحرس على تحسين سمعة أبيه . وصار مرة وزيراً للمالية ثم انتخب أول رئيس للجمهورية السورية . فكان بنفق من ماله الخاص علاوة على راتب الرئاسة مبلغاً في كل عام ، ليظهر بلاده أمام القريب والبعيد بالظهور اللائق بها . وهو أعظم رجال سياسي عرفته الديار الشامية في دورها الأخير ، وأول وأخر سفير عثماني من أبناء العرب ، استوفى شروط الرئاسة لمعرفته التامة بالشؤون السياسية .

وكانت اجتماعي به قبل الجمهورية وفي خلالها استغرق الساعات ، وهو يتفضل ويطلب مني موافقة الاجتماع ، وأنا اعتذر باشغالني ، وأنتحامي صرف وقت كبير منه ، على ما في مجلسه من مناع للنفس ، ولطالما قال : أريد أن تكون وأنا في الجمهورية ، كما كنا قبلها ، وكنت أسمع منه فوائد في التاريخ الحديث ، وسياسة الدولة العثمانية ، وأحوال عظاء الأرض ، لم أسمها من غيره . ولا عجب أن يعرف هذا ، فقد كانت بيته من أرقى البيوت في الاستامة ، أيام صولة والده ، كتب له أن يجتمع الى عظاء الدول ، وعلماء الأئم ، على ما لم يكتب لأحد من رجالنا مثله . فكان حديثه عن الشخصيات والجماعات والدول والماليين والسياسيين والمترفين والمرفرين ممتعاً جداً ، إذا بناه غيره

على مطالعاته ، فقد كان هو يبنيه على مشاهداته ومطالعاته ، وكان ذا معرفة ثاقبة بتاريخ أمنه ، يعجب برجالها الماضين ، وذاكرته قوية ، وكان كثيراً ما يتلو علينا قطعاً من الأدب الفرنسي والأدب العربي حفظها أيام الصبا ، وكان إلى هذا على جانب من الظرف . وما أصدق ما وصفه به صديقي الاستاذ خليل مردم بك بقوله إنه مارأى رجلاً اسمه اصغر من حقيقته مثل محمد علي بك العابد .

وهو لا يخلو من ضف ارادة . سام كثيراً مدة رياسته فلم يرض عنه حتى من سالميه ، وذكر مرة بسوء أيام جمعية الأمن تأثير مما قيل فيه ، وهم قد ظلموه وما أنصفوه ، وما احتاج ولا غير من معاملته . وحنق أصحابه لما وقع عليه ، واعتدوا اهانته موجهة للسوريين في شخص رئيسهم الأول . وفرضوا عليه أيام رياسته أن يتولى الشيخ تاج الدين رئاسة الوزارة مرة ثانية ، ومع كرهه الشديد له لم يترض على هذا التعيين الاعتراف اللازم ، مع مافي هذا من التعدي على حقوقه . وارد الشيخ أن يذهبها معاً إلى حلب ، والنفوس ممثلة من الشيخ ، فلقيا اهانة شديدة من الشعب ومن طلبة المدارس ، وما كان الرئيس مقصوداً بها ، وشطب الرئيس الصغير على الرئيس الكبير وهو يفوقه علمًا وسنًا وزنة ومقاماً ، فكان في هذه الرحلة يتقدم عليه في كل مكان . ولما عاد الرئيس من رحلته عرض عليه أحد كتابه مجموعة ما كتبته الصحف فيه وفي رئيس حكومته ، وما لقياه من الاهانة فقال : إن كل ما قاله صحيح : رحلة كان منها اهانة الحكومة واهانتنا ، أغلقنا فيها المدارس وملأنا السجون .

والغالب أن محمد علي بك كان يحسن الفتن باوضاع الغرب ، ومن ذلك أنه جعل معظم ثروته أسلهاً مالية فخسر نصفها في العهد الأخير فكان في ذلك قبره ومرضه . وكثيراً ما كنت أزبن له ان يتبع المزارع وينهي المغارات في بلده ما كان بري رأبي . ولطالما عرضت عليه ان يبني داراً

فخمة تلقي به فكنت أشعر أنه بربد أن يسكن في أوربا بعد انتهاء مدة ارياسته ، وهكذا فعل .

كان أعداء السبب العابد يتهمونه بالامساك وما كان في الحق ممكناً على ما صوروه ، كان يطعن الفقراء كما يطعن الأغنياء ، ويتصدق ويعطي من يراه أهلاً للعطاء ، ولكن الفوضى كانت منتشرة في بيته ، بنفق على الغالب بلا نظام . وكان من أثر ذلك أن رُسِي بالشح ، وأظن حсадه وخصومه كانوا يريدونه أن يخرج عن كل ماله ليعدوه في الكرماء ، فيرمي مثلهم سلوكاً معدماً وهذا أمر لا يعقل ، ولا يطلب من رجل يقدر قدر المال .

وكان مع علمه بالمواضيع المدنية والمصطلحات الجمورية ، وكشده في الحافظة عليها ، لا يتلماً عن الاستمتاع بمحبته في غير الأوقات الرسمية ، يزور أصحابه كما يزورونه ، ويعاشرهم معاشرة الأخوان ، ويكون في يومهم ويكونون في بيته ، كواحد منهم ، لا فارق بينهم ولا تغيير ، وكثيراً ما كان يقص عليهم من الفكاهات والنوادر المستطرفة ما يقصد به سلبيتهم واضحاً كتهم ، أو مشاركتهم في مرآحهم ، وجلب السرور إلى قلوبهم ، في معظم في العيون والقلوب ، ويدعو العقلاء إلى الاعجاب بنبله وفضله .

وكان لف्रط أدبه يتحمل مني أحياناً قسوتي في خطابه وجوابه ، ويفضي لما يعرفه من حبي له وحبه لي ، عن توسيبي في اتقاد أعماله ، وهو موقن أن ما أقوله أقوله بما لي عليه من الدالة ، وما أكنه له من الحرج ، وغيره مني على مصلحته ومصلحة البلد . قال لي وقد عدت من مصر بعض السنين : إنه ذكرني وذكر غيري من أصحابه وأصحابي ، لتتسد إلينا مقاعد في الوزارة الجديدة فقلت له : أخطأت خطأ عظيمًا ، ألا تذكر أنني أقسمت لك يوم كنا تتره بين درس والهامة في السيارة ، وأنت تأسف لعدم مشاركتي لك في الحكم ، أنني لا أحب الدخول في شيء من أعمال الحكومة مهما كانت درجة ، واني زاهد حتى في رياستك هذه ، وان صداقتنا قامت على التنازل في الفكر والمحبة المتبادلة ليس إلا ، فلماذا تذكرني

للمفوض السامي وانت تعرف أن الوزارات بعد أن تقلدتها العوام ووصل  
إليها مثل (غ . ل) لم تهد لها تلك الروعة ، ولا ذاك أشرف الموهوم !  
وسب الآن على من كان له مثل أخلاقي أن يقوم فيها بما يرضي وجده انه  
وأمه . فأرجوك بعد الآن ألا تذكرني للمفوض ولا لغيره . وقد أدرك  
أنه مادام ذكر اسمي ولم يوفق لاغمام رغبته ، فلا معنى لأن يعن "علي"  
فيقول إنه سمي وأخفق ، وأنا لم أطلب منه شيئاً .

كتبت هذا ، وأنا اقول : "ترى هل تجتمعنا الا أيام بصدقتي محمد علي  
بك العابد فأقرأ عليه هذا الفصل ليلاحظ ما قد يلاحظه عليه ، وطوبت  
ما كتبت ، وصعدت الى غرفتي أقيل ، وإذا بالندباع يبني هذا الصديق الامر  
من جنة فأومضني فقده ، وما زال الدهر يفرق بين الحبيب وحبيبه .



## سورية والجزء الأول

ذهبت وصديقي عبد الرحمن باشا اليوسف إلى سوق الغرب في لبنان آخر سنة من سني الحرب المشؤومة (١٩١٨) لنقضي أياماً هناك ترفيحاً للنفس، وكان لا يخوض في السياسة الحاضرة مع كل أحد، وبخاف مثل من التسطع مع كل إنسان حتى من أخيه وأبناء أخوانه، فما وجد آمن لنا من أفق سوق الغرب ثبات في الإسرار، فقال: إن جمال باشا قال له ولهمد باشا العظم، وقد بدا عليه اليأس من نتيجة الحرب: إن الانكليز سيستولون على سوريا، فهل تظنان أنني أترككم هنا، تتممان بقصوركم ومزارعكم، سأسوقكم أمامي إلى الاناضول، تفتقران كما تفتقر، وتشخذان كما تشخذ. قال ابن اليوسف هذا، ومسجد على الأرض قائلًا: يا رب اقرض هذه الدولة التي أذلتنا وأهانتنا. وشاءت القدر يوم حم القضاء أن يعي جمال باشا على وجهه لا يلوبي على شيء، وظل أهل هذه الأرض في أرضهم.

---

قال الجنرال غورو أول مفهوم سام في سوريا ولبنان لحبيب باشا السعد الوجيه اللبناني: إذا كنت تعتقد أن دولة من الدول بها شخص لذاته، منها بلغ من مكانته أكثر من اهتمامها بمصلحتها، فأنت على خطأ. إن فرنسا تفادي بعثة رجل مثلك إذا كان لها من وراء ذلك أقل فائدة.

---

قال الميسو بونسو المفهوم السامي في سوريا ولبنان للشيخ تاج الدين رئيس دولة سوريا: حقيقة إن الرجال تتفاوت، فقد عرضنا على وزارتك وعلى الوزارة اللبنانية مشروع حصر الدخان، فما أطلع أحد على ماناقشة فيه، ولا انتشر خبر عن المشروع الذي عهد إليكم النظر فيه. أما في لبنان فقد

تناقلته الألسن ثانية يوم دفتناه لوزارتها ، وفي اليوم الثالث كان نص المشروع منشوراً برمته في بعض الصحف الــيروتية . ولما عوتب صاحبها على نشر هذا المشروع قبل أوانه ، وكان من أعضاء الــوزارة ، قال إنه غفل عن ثيابه ، وكان يخجاً نص المشروع في جيـه فرق منه ، ووصل إلى الجريدة فنشرـه ، فأين وزارة من وزارة ، ورجل من رجل .

دخل على مستشار المــارف ، وأنا في مكتبـي بالــوزارة ، ظاهر الفضــب على محرر جريــتنا المقــبس انتــره في الجــريدة لــمرــضاً بعض رــصــافــي الــوزــراء ، خــدــمة لــأغــراضــ من يــخــدمــهمــ من حــزــبــهــ ، فــســأــلــيــ المستــشارــ عن غــضــبــيــ عــلــ خــلــافــ عــادــتــيــ ، فــذــكــرــتــ لهــ الســبــبــ فقالــ : لا أــعــرــفــ كــيفــ أــعــلــلــ هــذــهــ الــاخــلــاقــ فــيــكــ ، لــســقــطــوــنــ أــبــدــاــ رــجــالــكــ مــنــ الــاعــيــنــ ، وــرــجــالــكــ قــلــيــلــوــنــ مــهــاــ بــلــغــ عــدــدــمــ لــاــ يــتــجــاــزــوــنــ الــمــثــلــ ، فــإــذــاــ أــســقــطــتــمــوــهــ كــلــهــ ، فــنــبــقــيــ لــكــ يــخــدــمــكــ فــيــ الســرــاءــ والــضــرــاءــ ، وــيــتــفــعــمــ بــاســمــهــ وــمــكــانــهــ .

كان استاذــناــ الشــيــخــ طــاهــرــ الــجــزاــئــرــيــ ، وــهــوــ عــلــ ســرــيرــ الــمــوــتــ ، يــقــولــ لــمــ حــوــلــهــ مــنــ أــصــحــابــهــ : أــذــكــرــواــ مــنــ عــنــدــكــ مــنــ الرــجــالــ الــذــيــنــ يــنــفــعــونــكــ فــيــ الشــدــائــ ، وــدــوــنــواــ أــســاءــهــ فــيــ جــرــيــدةــ لــثــلــاــ تــنــســوــهــ ، وــنــوــهــوــاــ بــهــمــ عــنــدــ كــلــ ســانــحةــ ، وــاــحــرــســوــاــ عــلــيــهــمــ حــرــصــكــ عــلــ أــعــزــ عــزــيزــ ، وــأــظــنــهــ عــلــ كــثــرــةــ مــاــ كــدــوــاــ حــافــظــهــ وــذــاــ كــرــتــهــ ، لــمــ يــعــدــوــ أــكــثــرــ مــنــ خــمــســيــنــ رــجــلاــ . وــكــانــ يــقــوــلــ لــنــاــ : تــجــاــزــوــاــ عــنــ ســيــاثــهــ ، وــاتــفــعــوــاــ بــحــســنــاهــ . وــشــيــخــنــاــ هــذــاــ قــضــىــ عــمــرــهــ فــيــ الســيــ إــلــىــ الــاصــلــاحــ وــالــجــددــ .

لمــ اــجــتــمــعــ بــالــمــفــوــضــ الســامــيــ الــمــســيــوــ بــوــنــســوــ الــذــيــ وــقــاــهــ أــصــحــابــ الــاــخــيــارــ مــدــةــ مــنــ مــقــاــبــلــيــ إــلــاــ يــوــمــ زــرــتــهــ مــعــ رــصــافــيــ الــوزــراءــ لــنــشــكــرــهــ عــلــ اــخــتــيــارــناــ لــالــوزــراءــ ، وــقــالــ لــيــ هــوــ وــأــمــيــنــ ســرــهــ الــمــســيــوــ موــغــراــ ، كــلــ مــنــهــ عــلــ حــدــةــ ، : اــنــ صــدــيقــكــ الــمــســيــوــ مــاــســيــيــوــنــ (ــأــســنــادــ كــوــلــيــجــ دــيــ فــرــانــســـ)ــ يــمــجــكــ كــثــيرــاــ وــيــقــوــلــ فــيــكــ الــخــيــرــ ، فــقــلــتــ لــلــمــفــوــضــ إــنــهــ صــدــيقــيــ مــنــ الــقــدــيمــ ، وــاــنــ صــدــاقــتــناــ

قامت على تبادل الأفكار وخدمة العلم ، فمعطف أحدنا على الآخر عاصف  
المبيب على حبيبه ، وهو لا يرى عيوبي ، ويبالغ بمحسنتي . وأنا مثل غيري  
لا أخلو من عيوب ، ولكن ( عين الحب رمداه ) كما تقول العرب في  
أمثالها . فعرفت من هذا الكلام أن صديقي ماسينيون هو الذي اقترح  
على المسيو بونسو أو على وزارة الخارجية أن يضمن إلى الوزارة ،  
وليس لرئيسها يد في هذا الشأن ، فان الرئيس قبل سنتين من وزارته  
هذه أراد أن يؤلف وزاره ائتلافية ، على عهد المفوض السامي المسيو  
دي جوفيل ، وكان هذا صديقي وقد نوه بي في جريدة الماتين مرة ، وكان  
من رؤساء تحريرها : فاقترح عليه أن يأخذني وزيراً للمعارف في وزارته  
فأبى وقال : أنا لا أعمل معه ، ولم تؤلف الوزارة يومئذ ، ودخلت في  
الوزارة الثانية بدون ارادة الرئيس . وكان يوهنني أنه هو الذي اختارني  
لوزارته ، وأواعز إلى صديقه السيد جيل الاشلي وزير المالية أن يضمني  
بأن الشيخ هو الذي وقع اختياره عليّ وليس لأحد عليّ منه إلا له .

دعوت صديقي السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي لزيارة الشام ،  
وكان له صلة ود بالمسيو بونسو المفوض السامي منذ كان في تونس ،  
فأنزله في قصر الصنوبر بيروت حيث يسكن . ولما جاء دمشق سأله عن  
وزارتنا قلت له : إنها ستنقض بعد حين ، وبمحض رئاسته ، ووزارة  
جديدة ومجلس نواب . فسألني عما أصير إليه قلت : لا أدرى ، ولا يعرف  
ذلك غير صاحبك المسيو بونسو ، فهل ترى مانعاً ، اذا حضرت لك مناسبة  
عند عودتك ، أن تسأله عما يكون من أمري بعد الوزارة الجديدة .  
ومضت أيام ولم ألق صديقي التونسي إلا بعد زهاء سنتين في المجمع اللغوي  
الملكي في القاهرة . فقال لي : لا لظنن يا صاح أنني أنسنت ما عهدت إليَّ  
السؤال عنه ، سأله عن مصيرك المسيو بونسو ، ونحن نترى في حدقة  
القمر صباحاً ، فلم يحيط على سؤالي إلا أنه قال إنه يعرف ما يكتنا من

صداقة ، ومن الند قال ، ونحن في نفس البقمة التي كنا فيها أمس : يا سيد عبد الوهاب ، ثق أن من الصعب جدًا حكم هذه البلاد ، ما قصدني رجل من أهلها إلا طعن بغيره ، فاذا استخبرته عما يجب أن يُعمل يقول : لو تخيرتني للحكم لأُرثيك العمل السديد . وصاحب السيد (كرد علي) مارأته يوماً يطعن بأحد ، ولا أتاني في أمر خاص به منذ عرفته ، وهو حقاً رجل جدير بالاحترام ( وقال أكثر ذلك من المدح ) فأننا لا أرضى له الرياسات لأنها متيبة ، ولا تعود عليه بخیر . وصدقني لفطرت حزمه لم يكتب إلى بما جرى مخافة أن يقع كتابه في يد أحد المناوفين .



# المجمع العلمي العربي

لما عدت من الاستانة بعد هدنة الحرب العالمية (١٩١٨) جاءني صديقي  
القديم رضا باشا الركابي الحاكم العسكري في دمشق يسلم عليَّ في داري  
ويطلب إليَّ قبول رئاسة مجلس المعارف . فقلت له : إني أنوي العودة إلى  
إصدار الجريدة والمجلة ، ونشر كتبِي المأهولة ، فوعدهني بأن أمانِي تتحقق  
كلها مع القيام بالعمل الذي يطلب قيامي به . وقال : إنَّ قبل هذه الوظيفة التي  
ستكون وزارة فيها بعد ، فليس عندي غيرك للقيام بها . فاعتذررت وما  
قلت في الاعتذار إليه إني لم أربُّ قفي لا كون موظفاً ، ولو أحببت  
التوظف ، كما تعلم ، لكتلت اليوم في أرق المناسب . وأصرَّ عليَّ كثيراً  
وقبض بيده على لحيته وقال : أكراماً لهذه . فأخذلني فقبلت ، على شرط  
أن يماونني معاونة فعلية مدة وجوده في الحكم ، فإذا تنحى عنه استقلت منه .

وبدأت رئيساً على جماعة من الشيوخ ، منهم من درس العلوم الدينية ، ومنهم  
من شدا شيئاً من الأدب ، والتجانس فيهم قبيل . وبعد مدة كتبت  
للاستاذ ساطع الحصري الحلبي في الاستانة أريده على الشخص إلى دمشق  
ليتولى اداره داري المعلمين والمعلمات ، فلم يجيف على كتابي ، وقام له تلاميذه  
بدعاهة واسعة النطاق ، فاضطرر الركابي بأمرهار بعض الاحزاب أن يرضى به  
مدبراً عاماً للمعارف . فلزمت عندئذ داري ، وكان ما تم على غير إرادة  
الركابي وقال لي : أنت الذي جنحت على نفسك بامتداحك الرجل واستدعائك  
له . وكم يعني ما جرى على عادة السياسيين في التكتم ! وقال في النهاية :  
إني لا أعتذر . ولو صرخ بما جرى على جلتيه لعذرته من أول ساعة .  
يد أن الركابي أكثر علىَّ من الالحاح في البقاء ، وزعن للأعضاء  
ماقتعي ، فكانوا يتسلون إلىَّ أنواع التوصل ، ويصرحون بأنني إذا لم

أقبل بالبقاء فالحكومة تصرفهم من الخدمة ، فأكون السبب في قطع ارزاقهم  
ومم أرباب عيال يجب عليّ أن ارعاهم وأرحمهم . وعند ذلك قلت للركابي :  
إذا كنت تخرس على بقائي في الحكومة ، فانا أرضي على أن ينقلب هذا  
المجلس برئيسي وأعضائه بجهاً علمياً مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة ، قبل  
وصدر المرسوم بذلك .

رأى الركابي باشا دعاية كبيرة لساطع بك الحصري ، فنزل على رغائب  
الدعاة ، وتركني وشأنني . فلما قبلت برئاسة الجمع العلمي ، وكان أعضاؤه  
مقي في مجلس المعارف ، وفيهم أخصاؤه وأقرباؤه سري عنه ، وظننت انه  
يماونني بالفعل كما وعد . ييد أنه عاد إلى التجلبي عني ، وصدع بأمر الحكومة  
لما ارادتأخذ الخصصات الموضوعة في الموازنة للجمع العلمي الجديد ،  
وما كان منها ! نفق أكثر من ثمانمائة جنيه من كتب وآثار وترميم المدرسة  
العادلية مقر الجمع ورواتب الموظفين ، وصرف أيضاً الرئيس والأعضاء ،  
وأبقى عضوين اثنين أحدهما صاحب نوادر يسلبه في داره ، والثاني ينظم  
له قصائد يمدحه بها . وقضى هذان العضوان شهراً لم تحدثهما النفس ان  
يفتحا البريد اليومي فضلاً عن ان يتم على يدهما شيء من الاعمال اللهم إلا  
إذا كان يُعد من ذلك قراءة الصحف ، وتبادل النكات والحكايات ، وتناول  
اكواب الشاي والقهوة . فأصيب الجمع لأول شأنه بهذه الصدمة . أما  
مؤسس الجمع الذي نشر دعوته بين علماء الشرق والغرب ، فأولوه تقديرهم  
وصفوا له ، وهو طفل ، فقد باه بالتججل ، وقال خصوم العرب : إننا  
قوم لآفات عندنا ، والدليل أنا أفسدنا بيدنا ما أحسننا قبل ان تظهر عمرانه .  
قلت للركابي وهو يعذلي على لمجي في شراء الآثار والخطوطات وغيرها :  
إن من الامور ما يجب عمله بسرعة ، ومنها ما يتخم الترثي به ، وشراء  
الآثار والخطوطات من الامور التي تستدعي العجلة ، لأن تجارها آخذون  
بتلقطها من كل مكان ، فلا يبقى الا النافه بعد برهة قصيرة ، ونحن عازمون  
أن نؤسسي متحفاً ودار كتب تليقان باسم دمشق التاريخي . وذكرته الى

ذلك أني دخلت خدمة الحكومة بالحاجه ، مشترطاً أن يعاونني ، حق اذا خرجنا الى بيوتنا كان لنا من عملنا الطيب ما نتعزى به أمام امتنا . وقلت له ، وقد أغضبني عبوسه : إن هذا الكرسي الجالس عليه - في مكتبه بدار الحكومة - لا يقي لاث ، وهزته هزة عنيفة ، فأعنى أعمل في هذه الفرصة السانحة ، وأموال الدولة تبدد ، واحسب ما يأخذ المجمع من بعض ذاك الاسراف ، ثم لشهد النتيجة .

وفي الواقع إن المجمع العلمي لم يلق تشبيطاً يذكر من السلطات المحلية منذ إنشائه ، وأصحابه من مقاومات أرباب المقامات ما لا يشرف الاسم العربي ، قال لي مرة الأمير فيصل بن الحسين : ألا تخاف الله ، نحن في سدد تأليف جيش وتنظيم حكومة ، وأنت بما لك من التفوذ على أعضاء مجلس الشورى تأخذ الالوف من الجنديات للمجمع وداري الآثار والكتب ، وأسرف في اتفاقها ، حتى لقد كبدت الدولة خمسة آلاف جنيه أتفقها على بضعة أحجار جلبتها من ندرس . فضحك ، فقال : بالله ، قل لي كم صرفت في هذا الباب ، فقلت له : ليس مقدار ما صرفت على ذكره من الآن ، وعلى كل ما أتفقته أقل من هذا المبلغ الذي ذكرته سوكل ، وأرى أن تنفصل ولستamer رئيس حكومتك . فسأله عند اتصاري من لده ، فكان الجواب إنه صرف في هذه السبيل نحو خمسة وعشرين جنيهاً فقط . واستحب الأمير فيصل أن يعود معي الى موضوع المجمع وإسرافي غاله ، عقلي وقوفه على حقيقة ما أتفق ، وما خفت الله فيه .

وفي غضون تلك المدة تفاوضت وناظر المالية صديقي سعيد باشا شقير في أمور المجمع فعرض شراء الآثار ، وقال إنه ليس من الحكمة أن يصرف في جلب حجر مثلاً خمسة آلاف جنيه ، والحكومة تحتاج إلى مسائل ألم يكتثير الآن فلم افهم مراده ، لأنه لم يصرح بأنني أنا الذي اتفق خمسة آلاف جنيه على أحجار ندرس ، وكانت المناقشة بعيدة المرمى ، عبارة عن درس مالي صدر عن رجل مقتضى الى رجل قد يوصي بالاسراف في

اموال الدولة . وما عدنا الى المناقشة مع صاحب المال في هذا الموضوع ، والنالب أن وزير المالية كان بلغ مسامعه اسرافي هذا ولم يرجع إلى الكاتب وما كتب في حساب هذه المادة .

نعم لم يلق المجمع العلمي من السلطات الوطنية تشططاً بل اتي تنبيطاً ، فلامير الذي له الحق أن يفاخر بأن المجمع انتهى . في أيامه خذله بهزل المازلين وارباب الاحزاب ، والرکابي ضربه ضربة تقاد نقضي عليه ، وضرب رئيسه ، وكان قبل أشهر يتسل اليه أن يبقى في الحكومة بالصفة التي يختارها . ولما توقف المجمع بصنع أرباب الأعراض عرضت وزارة المعارف لأنحة على مجلس الوزراء لاطراد أعمال المجمع فطرحها وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن شهيندر بدعوى الاقتصاد . واراد الملك فيصل أن يتلافى ما فرط ، ووعد أن يوعز إلى حكومته باعادة المجمع إلى سالف حاله ولم يبر بوعده .

عاد المجمع إلى سيره في ظل الانتداب الفرنسي وعدت إلى رئاسته ، وجرى التبدل في أعضائه والزيادة عليهم . وكان أكثر أعضاء الشرف يبتعدون عن أخلاقهم ، ومعظمهم من الموظفين ، عملوا هي بدون أن يتوقعوا مكافأة على عملهم فخدموا العلم والآداب أجل خدمة ،

وآذى المجمع السيد فائز الخوري ، فخطب في مجلس النواب في عدم فائدة (١) ، فألفى القسم الأعظم من مخصصاته ، بموافقة وزير المالية السيد شاكر نعمت الشعباني ، وهذا رجل لا يعرفني ، ولا يعرف ما هو المجمع العلمي ، بحسب أصوات أعضاء المجمع وهم يصرخون أن أعمال بجمهم معطلة ، ولا يصح أن يبقى أعوااماً بدون رئيس ، والكتلة لا تستجيب إلى النداء وتحاول أن

(١) النالب ان مدعي السيد فائز ندم على جرأته في المجلس وكأنه اعترف بما وقع منه وعرف انه ليس من النالب ان يقف السيد فارس الخوري بين ممثلي المجمع العلمي العربي وشققه ولكن الغرم عليّ كان في هذه المائة وذلك اني حرمت راتب المجمع العلمي بضع سنتين بمجموعها ثلاثة الف ليرة سورية تعادل بأسعار اليوم مئة الف ليرة سورية .

ترضيم بالكلام وأنا أقول ، وكانت تحاول الا تغضبني : لا أود العودة إلى الرياسة ، وإذا وسد المحل إلى الكفء أعاونه ما ساعدتني صحتي ووقتي دون أن أنحمل تبعة رسمية . وبلغ الأدب بالوزير عبد الرحمن الكباري مرة أن أخذ يسامعني في جلسة المجتمع على راتب الرئيس وذلك لانتازل عن بعض مخصصات الرياسة ليعطي الفضل لعضوين رضي عنها . فقلت له سواء كنت أنا أو غيري في الرياسة ، فعلى عائق رئيس المجتمع واجبات لا بد له من القيام بها ، ومحصصاته التي لا ترضون باقرارها مستكثرين لها أقل من راتب سائق سيارة رئيس الجمهورية ، وهكذا كانوا يرفعون أقدار المهام .

والحَّ علىَ الْأَمِيرِ مصطفى الشهابي لما نولى وزارة المعارف الحاخاً شديداً لقبول الرياسة ، فلما رضيت ورضي بشروطي أشار إلى أنه لم يستطع أن يخالف ارادة الكتلة في اقصائي عن الرياسة .

وحمل الوزير الكباري صديقي خليل مردم بك أن يكتب إلى وأنا في مصر بقبول الرياسة ، وأكده لي أن الامر تم من كل وجه ، ولم يبق أدنى عائق ، فلما أجبته بالإيجاب قال : إن القوانين لأنبيح الجمع بين راتب التقاعد ومحصصات المجتمع ، مع أن من أعضاء الكتلة البارزين من جمع بين رواتب كثيرة . واقتراح السيد جبل مردم على ابن عمه الاستاذ خليل مردم أن يقبل برئاسة المجتمع فأبى وقال : إن الأعضاء الدمشقين لا يقبلون أن تكون الرياسة إلا لرئيسه ومؤسسه .

وظهرت بعد ذلك نية الكتلة وقال لي الْأَمِيرِ شَكِيبُ أَرْسَلَانُ إِنْهُم عرضوا عليه رئاسة المجتمع في أوربا فأبى قبولها وقال : إن الأولى بها رئيسه ، فأكدوا له أنني تقاعدت وذهبت في سبيلي . وكان السيد جميل مردم في ذلك الأسبوع فاوض ابن أخي بسام في باريز وقال له مرتين : أكتب إلى عمك انه لا يكون رئيس المجتمع غيره ، ونحن نعرف بعلمه وشهرته الخ . هذا ولم يطلب منه أحد هذه الرياسة ولا توسل إليه متسلل لتقليدتها .

وادعوا بعد حين يرشحون المرشحة الامير شبيب ارسلان فاتخبت  
اول المتخعين ، وأشارت الى رصافي باتخابه ، وقلت لهم إن الامير خدم  
العرب والاسلام أعواماً طوبلاً أجلَّ خدمة فخرى بالامة وهو الآن في  
شيخوخته أن تكافئه هذه المكافأة القليلة على جهده الكبير ، فاتخباً وعيّن  
وهو في اوربا ، فكان نصبه عندي من حسنات الكتمة الوطنية . ولما هبط  
مصر لباتجاع سفره الى الشام حدث الانقلاب المظيم في الاوضاع السياسية  
في سوريا ، فرجع أدراجه الى سويسرا . وبقي المجتمع العلمي معلقاً في  
القضاء كما كان منذ بضع سنين خلت ، والعامل الاول في تأخره فائز الخوري .  
شاكر نعمت الشعبي ، جميل مردم ، والسيد جميل هذا كان بدأ وهو  
وزير المالية فأتفق موافقته ، وحاول أن يبقيه مدة وزارته بلا رئيس .  
زارني بأخره صديقي الملامة فارس الخوري بصحبته صديقائي الشامران  
المطبوعان فؤاد الخطيب ، خليل مردم بك ، ففتح قصة رياضة المجتمع العلمي  
وقال إنه اعجب بما صدر بي ، وسممه باذنه من لسانه في داري وداره  
في اوقات مختلفة ، من حبي للامير شبيب ارسلان وتعاونه على احراز  
الريادة قلت له : لالعجب ، ولا يشتد عجبك اذا صدر مفي غير ذلك .  
اعلم ياصاح ان للحماره والحوذية رابطة فمن باب أولى ان يكون للملامه  
مثلها ، وبئس اللم علم لا يؤثر في أخلاق صاحبه : اني صديق الامير منذ  
سبعين وأربعين سنة ، مالقيت منه الا كل خير وود ، فكيف لميري  
لأعوانه ، وقد خدم العرب والاسلام طول حياته ، وما إخال أحداً يعرف  
قدر الامير شبيب كما أعرفه ، ولا أحد يعرفني كما يعرفني شبيب . ثم  
ما هو هذا الراتب الذي خص له فيحدد عليه ، وعندي أنه تقل الالوف  
لشبيب ، ولو خبرت لاخترت أن أخصه بعض راتبي ، وأنا قد عرضت  
عليه هذه الريادة منذ توليت وزارة المعارف في المرة الاولى على أن أكون  
معه كاتم سر ، وتكون له الريادة دوني .  
وقلت أيضاً : وذكر يا فارس أنني قلت لك أمام الامير شبيب في فندق

« أوريان بالاس » اني زاھد في ریاسته المجمع العلمي ، وإنی أفضل أن أكتب  
کراسة واحدة وأطبعها على تولی ریاسته المجمع سنة كاملة ، ولكنني لا أحب  
أن أضرب من قفای ، ولا أن أسقط في شرك الدسائس . إنكم عرضتم  
هذه الرياستة على الأمير ، فقال لكم إن رئيسه أولى به ، فهو موزعه والمعرف  
بخفایاه ، فقلتم إنه تقاعد ، وأشارتم الى أنکم ترغبون في أن تخصصوه بهذه الرياستة .  
وتقصو عن تولی وزارة من الوزارات أو ریاست من الرياستات . وأنا ليس  
لي بعده كل هذا إلا أن اعتب على من كان يريد أن يبعث برجل خدم هذه  
الاًمة خدمة علمية لم يخدم مثلها أحد من أقرانه . وأنا اذا كنت بعد اشتغالی  
بتاريخ الحاضر والنثار وبحثي في تراجم الناس دهراً طوبلاً لا أعرف من  
هو فلان وعلان فلن يعرف ؟

وقال السيد خليل مردم في هذه الجلسة إن الأمير شکیب كان كتب  
إليه سراً قبل أن يوافق على قبول ریاسته المجمع العلمي أن يطالعه اذا كنت  
أحرص على الرجوع اليه ، فأجابه يومئذ بدون أن يذكر لي ذلك ، أنه  
جرى هذا البحث في حضوره غير مرّة فكنت أقول : شکیب أحق الناس  
بالرعاية ، وأني ما فهت إلا بما يبنيه بمظيم حبي له وإكباري لعمله ، وإنی  
كنت فرحاً بقرب عودته الى هذه الديار ، فكيف يسألني رأيي في هذا  
الصدّ؟ وقد سمع ما انطوت عليه جوانحي من الاعظام والاحترام له وقال  
السيد الخوري : اني بتنازلي عن الرياستة حللت المقدة ، وفرجت الكربة .

ومن قام المجمع من الأفرنج المیو اوستاش دی لوري مدير المعهد  
العلمی في دار اسعد باشا العظم ، فان هذا الرجل لم يترك باباً للتدخل  
في شؤوننا إلا ولجه ، حاول أن يأخذ ما جمعناه من الآثار فأخفق ، وكان  
 المصيره الفشل في كل ما حاول ، دام على هذا سنين حتى منته نظارة  
خارجية فرنسا من التدخل في امورنا وقالت له إنه ليس بالمستشرق فليحسن  
علاقته مع علماء يملون لأنهاض لفهم وخدمة تاريخهم ، وأوعزوا اليه أن  
يجعل علاقته مع المجمع ولا سيما مع رئيسه . ومن الثد جاءنا يرجو أن

نضع ايدينا في يده ونأمره بأمرنا . فاغضبته عنه حتى رفعته دولته بخيانته لها ، وذلك أنه اشتري ديناراً قدماً وباعه من بريطانيا المظمى بمبلغ عظيم ، وكان عليه أن يعرضه أولاً على حكومته ، فكفيتنا شره ، وكفى تجارة الماديات ضره ، لأنّه كان أبداً يهدّم ويتوعّد ، ويبتاع منّهم بضائعهم بآمان بخسّة ، ويتجرّ بها وهو موظف ، وكانت سأله وكيل المندوب السبّد شفلاً إذا كان يجوز للموظف عندم أن يتجرّ بنفس البضاعة التي وكل إليه أمر ادارتها ، فقال إن للرجل نزوة خاصة وهو يتجرّ لحاجاته .

لقيت الاُلاقِي من الحكومات السورية في سبيل هذا المجمع العلمي ،

كانه كان بعض ملكي . وكان الأرديةاء الحسنة يعرّفون حرصي عليه فيضربونه ليضربوني ، ويعثثون بصلحته ليؤذوني . ذلك لأنّه قام قبل أوائل على ما قال أحد رصفاني وكان لا يصدق أن في دمشق بحثاً علمياً يتعلّق ويفيد بالنظر لما يمْرُّ من فلة الاستعداد له في هذه البيئة الضيقـة . على أن من قصـدنا فأثـدـنـهم كانوا راضـين كل الرضـى ، ولا سيـما طـلـاب المـدارـس والطبقة المستـيرـة من الـأـمـة . وكان لـخـاضـرـانـه أـحـسـنـ وـقـعـ في نـفـوسـ السـامـعينـ ،ـ بهـ الـأـفـكـارـ إـلـىـ مجـدـ الـأـمـةـ :ـ وـعـلـمـهـاـ تـارـيخـهاـ وـأـدـبـهاـ ،ـ وـعـرـقـ النـاشـةـ إـلـىـ آـدـابـ ماـ كـانـواـ يـعـرـفـونـهـاـ مـنـ قـبـلـ ،ـ وـأـسـمـهـمـ نـغـماتـ فعلـتـ فيـ أـفـدـنـهـمـ ،ـ وـهـيـاـهـمـ لـلـهـوـضـ لـهـ وـكـانـتـ مجلـدـهـ عـلـىـ مـاـ أـجـمـعـ عـلـىـ ذـلـكـ عـلـمـاءـ الشـرـقـ وـالـغـربـ منـ أـرـقـ المـجـلـاتـ النـافـعـةـ ،ـ قـلـ أـنـ صـدـرـ مـثـلـهـ ،ـ وـنـاهـيـكـ بـمـجـلـةـ بـؤـازـرـهـاـ نحوـ ثـلـاثـيـنـ عـالـمـاـ وـأـدـيـاـ مـنـ عـرـبـ وـمـسـطـرـيـنـ مـنـ عـلـمـاءـ الـشـرـقـيـاتـ .ـ وـقـدـ عـنـ الـجـمـعـ بـوـضـ الـفـاظـ لـكـثـيرـ مـنـ الـكـلـاـتـ الـأـفـرـنـجـيـةـ فـيـ شـوـؤـنـ الـحـيـاةـ وـمـصـطـاحـاتـ الدـوـاـيـنـ وـغـيـرـهـاـ ،ـ وـدـلـ الـكـتـابـ عـلـىـ مـفـالـطـهـمـ ،ـ وـمـؤـلـفـيـنـ عـلـىـ تـقـصـيـرـاـتـهـمـ ،ـ وـالـمـحـورـ الـذـيـ كـانـ يـدورـ عـلـيـهـ تـقـيـيفـ النـاشـةـ بـالـأـدـبـ الـعـرـبـيـ وـالـأـدـبـ الـفـرـيـسيـ وـشـبـدـ اللهـ أـنـيـ كـنـتـ اـفـكـرـ فـيـ أـنـجـعـ الـطـرـقـ لـانـجـاحـهـ لـيـلـ نـهـارـ ،ـ مـدـةـ تـولـيـتـهـ ،ـ وـمـاـ رـأـيـتـ بـاـيـاـ يـوـصـلـنـيـ إـلـىـ الـهـوـضـ بـإـلـاـ طـرـقـتـهـ ،ـ وـلـطـالـاـ بـذـلتـ مـاـ وـجـيـيـ لـأـنـاسـ مـاـ كـنـتـ اـنـتـازـلـ لـلـسـلـامـ عـلـيـهـمـ مـنـ قـبـلـ ،ـ حـتـىـ اـسـتـهـدـيـتـ

له الخطوطات والعاديات ، وكتت اقصد من موازته القليلة مالاً أدخله . لا مُور تنفعه في المستقبل واحاول اعلام مكانته بين علماء الشرق وعلماء المشرقين . وكان من أثر حرصي عليه الابتعاد به عنسياسة ، فاصبح المعهد الوحيد في جميع ارض الانتداب ي العمل حراً لا رقيب عليه ، ولا مستشار له على من فيه ارادته . وكان الفرنسي في الشام سيداً في كل مكان إلا في المجتمع العلمي العربي ، فانه كان يزوره خاشعاً متواضعاً حقاً لقد قال المفوض السامي الميسو بونسو وهو يزور المجتمع مع المفوض السامي في فلسطين كلاماً في هذا المعنـى وان الفرنـيـين في سوريا يـعـلـمـونـونـوـفيـالمـجـمـعـالـعـلـمـيـيـتـلـمـعـونـ . وقال بعض المفكرين : إن المجتمع اتي كل معاونة من المتدينين ، فما زرـكتـهـ فـتـرـتـ هـمـتـمـ عنـ مـعـاـونـتـهـ مـعـاـونـتـهـ فـعلـيـةـ ،ـ وـلـوـ شـاؤـاـ لـأـعـادـوـهـ إـلـىـ سـافـ عـهـدـهـ .ـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ بـمـاـ هـنـالـكـ .ـ

وبعد فقد صبرت الصبر الجميل في هذه السبيل ، ومن علامـمـ الصبر صـبـريـ علىـ أـخـلـاقـ بـعـضـ منـ عـاـشـرـتـهـمـ فيـ دـارـ المـجـمـعـ حـتـىـ أـمـهـ كـلـ عـقـبةـ تحـولـ دونـ اـبـعـانـهـ .ـ دـخـلـ أـحـدـ أـعـيـانـ طـائـفةـ الرـوـمـ ذاتـ يـوـمـ يـزـورـنيـ فيـ مـكـتـبـيـ بـالـجـمـعـ ،ـ وـكـانـ عـنـديـ بـعـضـ الـأـعـضـاءـ ،ـ فـلـمـ رـأـوـهـ أـخـذـوـاـ كـلـهـمـ يـتـكـلـمـونـ مـعـاـ ،ـ يـعـيـيـ كـلـ وـاحـدـ أـنـ يـظـهـرـ أـمـامـ الزـائـرـ بـعـظـيرـ يـعـجـبـهـ ،ـ فـاسـتـغـربـ هـذـاـ وـخـرـجـ وـلـمـ يـفـهـمـ شـيـئـاـ مـنـ حـدـيـهـ ،ـ وـلـاـ وـدـعـتـهـ إـلـىـ الـبـابـ سـأـلـنـيـ مـاـ هـذـهـ التـرـثـةـ ؟ـ فـقـلـتـ لـهـ :ـ الـحـالـ كـمـ تـرـىـ .ـ فـقـالـ :ـ إـنـ كـانـ أـحـدـ يـدـخـلـ الـجـنـةـ فـأـنـتـ أـوـلـ الدـاـخـلـيـنـ إـلـيـهاـ لـطـوـلـ صـبـرـكـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ أـعـانـكـ اللـهـ عـلـىـ هـذـهـ الرـفـاسـةـ .ـ وـنـجـدـتـ هـمـةـ بـعـضـ أـعـضـاءـ المـجـعـ فيـ اـوـلـ سـنـةـ ١٩٤١ـ لـأـعـادـهـ إـلـىـ سـابـ عـهـدـهـ ،ـ وـنـشـطـوـاـ لـتـحـقـيقـ غـرـضـهـمـ لـاـ رـأـوـاـ زـيـادـةـ فيـ وـفـرـ الدـوـلـةـ بـعـضـهـ مـلـاـيـنـ لـيـرـةـ سـوـرـيـةـ اـقـصـدـتـ بـفـضـلـ حـكـوـمـةـ بـجـلـسـ المـدـيـرـيـنـ .ـ وـكـانـ بـعـضـ الرـصـفـاءـ كـثـيرـاـ مـاـ يـعـرـضـ فيـ الـعـهـدـ الـأـخـيـرـ أـنـيـ بـالـقـاءـ الـجـبـلـ عـلـىـ الـغـارـبـ قـدـ أـهـلـتـ المـجـعـ حـتـىـ كـادـ يـقـضـيـ عـلـيـهـ أـبـدـ الـدـهـرـ ،ـ وـانـ نـفـرـتـيـ مـنـ بـعـضـ الرـصـفـاءـ تـبـعدـ المـجـعـ مـنـ الـوـصـولـ إـلـىـ هـدـفـهـ الـأـسـمـيـ فـنـزـلتـ عـلـىـ اـرـادـتـهـمـ وـأـزـلـتـ الـخـلـافـ وـدـعـوتـ الـأـعـضـاءـ كـلـهـمـ وـدـعـوتـ مـعـهـمـ صـدـيقـيـ المـيـسـوـ لـاـ فـاسـتـرـ مـنـدـوبـ المـفـوضـ

السامي ومساعده ومدير المعارف العام . وبعد أيام فاوض رئيس مجلس المديرين الاستاذ بهيج الخطيب صديقي الاستاذ عبد اللطيف الشطى مدير المعارف في ممفى اعادة المجمع وتقرر ترقية مفاوضتي فجاء الاستاذ الشطى بزورته في داري وبعرض عليّ إذا كنت مستعداً إلى الرجوع لرئاسة المجمع فأجبته بالإيجاب فجرى الانتخاب وانتخبني رصافى بالإجماع المطلق ، وعدت فاستلمت الزمام يوم ١٦ آذار سنة ١٩٤١ . وقلت للسيد بهيج الخطيب في معرض شكره على هذه العناية بالجمع إن أصحاب المعالي والسعادة عملوا في هذا الباب ما لم يعمله أصحاب الفخامة والدولة ، أي إن الوزارات القانونية وال المجالس النيابية قاومت الجمع أما مجلس المديرين فاهم بارجاعه لاعتقاده النعم منه . وكنت على ان استقيل من رئاسة الجمع في صيف سنة ١٩٤١ لما أصرَ وزير المعارف السيد محسن البرازي على اختيار شخص من الأعضاء لا اريده فأبى رئيس الحكومة إذ ذاك صديقي السيد خالد المظنم قبول مقترحي واعتنى إلى وزيره باختيار الاستاذ خليل مردم بك لهذا المنصب لأنَّه موضع ثقتي . وجرت امور في خلال هذه الازمة الجمعية . لا لشعر بتجرد كان ينبغي ان يصدر عن العلماء قبل كل الناس ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي بعض دورات المجلس النيابي تقدم السيد جوزيف ليان نائب حلب بالطعن بالجمع العلمي العربي وذكر عدم فائدته وكثرة ما ينفق عليه من مال الأمة فرد عليه اولاً نائب دمشق السيد نجيب الرئيس ردًّا محكمًا ثم قام رئيس الحكومة السيد سعد الله الجابري فعدد ما قام به الجمع من الفوائد للغة وقال ان الجمع يمثلنا في العلم ودمشق هي الدعامة الاولى في نهضتنا . وفي جلسة اخرى طلب الاستاذ الرئيس إلى رئيس مجلس النواب الاستاذ فارس الخوري بصفته من أعضاء الجمع العلمي منذ نشأته ان يقول رأيه في الجمع فقام بعده ما قام به من الاعمال للغة والتاريخ ، وابان ماله من الافر الجيد في تحسين سمعة البلاد وما له من المكانة في علم العلم وبين المستعربين من علماء الشرقيات . فكان قوله فصل الخطاب . وثبتت رجال الحكم الجديد غيرتهم على العلم والأدب .

## أربع شخصيات الأولى

هو من الافراد الذين يحسنون الضرر والنفع ، وتفهمهم أكثر من ضررهم كان حازماً شديداً في ادارته ، يفضل ان يكون معاونوه من يعف عن اموال الراعي والرعية ، واذا عن له انقاد الخلق من ظلم ظالم يمرف كيف بلقيه في شرك لا يخرج منه سجيس الديالي . واذا كان الفاسد على شيء من المزايا ويرجحى الانتفاع منها ، وكان من يخشى سلطة لسانه لا يتم اصلاحه معه الى النهاية ، ويهدده بأساليب له يظنهها نافعة حتى يرعوي ويفك من شره .

كان يعرف السياسة المكافيلية ، ويعمل برباطة جأش ويسعى لضبط نفسه ،  
يداوي بالسکوت مالا يحب الجهر به او يتسم بابتسامة صفراوية عندما  
لا يحب التصريح ، يعرف ما يفعل وما يعمل له ، ويعلن ارادته على الكبير  
والصغير ، واذا كان صاحب السلطة غرماً مستبدأ يخفف من غلوائه بالبرهان ،  
فإذا عجز عن ذلك تتحقق الشادة بينما لأنّه لم ينفذ له المقصود وغير المقصود  
من رغائبه ، وهو من ألغوا مراعاة القانون ، وله مشاركة كافية في بعض  
فروع ادارته ، والظاهر من حاله انه تحت الطلب خدمة أرباب الدول  
ملا فند ولا شهط ، حسناً للنصب وما يتبعه من ظهور وسطوة .

يؤله النقد اذا كان في الخدمة ، ولا يهش كثيراً للمناقشة ، ويفضل أن يأمر فيطاع ، وألا يسأل عن سر امره . ويظن ان كل من برى م كالجند في كتيبته ليس عليهم غير الطاعة . تمثل فيه الفطرة والفلذة وحب الانتقام ، وأنظنه لا يحب غير أولاده ، ويقل جداً المخلصون في حبه . كان بارعاً بالتجاهل تجاهل المعرف ، وبالتجاهلي تجاهلي العاقل ، وأنفق

هذا التجاهل وهذا التغابي حتى لتلعن انه يعتقد النهاية بكل من بلقاء  
وطريقته هذه اذا سكت عنها من يخافون شره ، فان من لا يبالون مظهره  
يدركون له عيوب ادارته في وجهه . أما الوفاء فما عرف لفظه ولا معناه ،  
اما الصدقة فصب عليه القيام بهمودها ، والعالم من الاذل لا يحبون  
إلا من ينفهم ، او يستقدرون انه ربما يتفهم ، وكان قومه يرعبونه اذا  
كانت له سلطة ، فإذا ساواهم اشاحوا بوجوههم عنه ، لأنّه من الشخصيات  
التي لا تحب اذا جردت من الحكم ، فلا هو حسن العشرة ، ولا منع  
الحديث ، ولا يخرج مع جلسائه عن احاديث العامة . والمناصب تمطّي شيئاً  
من الرونق لمض الرجال .

كان من سياساته أن يدخل في أحزاب وجمعيات مختلفة المنازع ، ويقسم  
ها كلها أن يخلص لها ! حتى إذا نجح حزب منها كان في مقدمة المتصدرین  
في الكراسي الامامية ، وأول المطالبين بالمقام الاعظم ، وهو كمظمه رجال  
السياسة مولع بالوقوف على الدقيق والجليل من أسرار الشعب ، هو من  
العمال الذين لا يهشون ولا يبشون إذا كانوا في دست الحكم ، ناعمين  
بالغز ، متعفين بالقوة ، فإذا <sup>نحو</sup> راحوا يسيدون ما كان لهم من صلات  
بقوتهم ، ويفزعون إلى الله فلا يسمّهم إلا الصف الاول بين المسلمين في  
المسجد الجامع ، وترامهم أبداً والسبحة في أيديهم ، يستفرون ويدمدرون  
نم تشهدم في زمان العزل يتتوسون في حرثيهم ويفرطون وبخاولون أن  
يبرزوا على الاٌحرار من كانوا بالأمس يعقتونهم ولا يقربونهم وقد يحملون  
من اخطارهم لعدوهم ما لا يليق صدوره من كبير ، وتقوى فيهم ملكة التقد  
دم عنز من سلاحهم ، وكانوا من قبل مهما علا الصياح من المظالم  
ساكين . هو مثال من الشخصيات التي تغير اربابها المناصب ، ويتلونون  
في اخلاقهم منصوريين ومعزولين ، ويكتسون في كل حال كسوة الممثلين  
الحاذقين ، ولكن بوقار كثير وفي غير تبذل .

زاه إذا كان في حاجة إليك يلقاك صباح مساء حتى تخجل انت منه

ولا ينجل هو منك ، وإذا واته السادة فأحرز مقاماً لا ينفع ان يرفع وجهه إلى السماء ، ويحوله عن السارين على الأرض . دخلت إلى بيته أموال كثيرة في عهدين ، أموال سرية وجهرية ، فبددها مع غيرها في امور لا يحسها ، فأعوز في شيخوخته ، وأكبر الظن انه لم يتناول شيئاً ليس له فيه وجه حلّ .

## الثاني

تخرج في ارق مدارس الدولة العثمانية ، وخدمها خدمات كان فيها تابعاً لا متبوعاً ، ووصل إلى ارق الدرجات أيام حكم الفريب ، وعرف بالاخلاص له زمن قوته ، وهو على جانب من الذكا والجرأة ، يظهر الفيرة على صالح الرعية ، ويخدم صاحب السلطان ، ولا يرد لفحة الضياف والمظلومين . هو من طبقة العمال التي ترى السلامة في المسألة . يحرص على إرضاء أصحاب المواقع ، ولو بالكذب أو الموعيد أو المعارض ، وبيفان هذا من حسن السياسة والكياسة ، ولا بهم لدفع المجتمع خطوة إلى الأمام ، وبهمه أبداً الاحتفاظ بهدوئه وطمأنينته ، ولذلك يتتجنب إلى أرباب الحول والطول ، شأن الضيف في ذاته يستمد قوته من غيره ، فإذا تخلى عنه صاحب القوة حر وخار . فيه رقة حاشية ، وجمال عشرة ، وتكلف رزانة ، وحب للتجميل ، وبذل إذا كان في البذل ما قد يحفظ المظاهر ، ومع انه عصرى في مناصبه ، بتدرع بالاتصال إلى الشرف ، وسخونة وجهه وسخنات آله تنادي بأن دعوه في ذلك غير صحيحة . هزة يهز بالكبير والصغر ، ولا يستثنى من سخريته إلا أصحاب القوة ، وهؤلاء يفرق في بحالمتهم ومصائرهم . ويبعث عن يدعون إلى الإصلاح ، ويضحك حتى من عقل من جمل دأبه نشر العلم ، ويقول جازماً إن كل جهد لا يعود على صاحبه بفائدة عاجلة باطل وعبث . يخبل اليك من حركته أنه يعتقد البلاهة في كل من يلقاه ، ويتوهم انه بروغاته يخفي عنهم ما آتى في سر . كان من صميم الانحاديين حزب الدولة ، وفي فهم قفلدوه الحالات

وأنجذبوا على اسرارهم، فلما دالت دولتهم ، تبرأ منهم وأنكر أنه كان في جملتهم .  
وكان في مقدمة الانتدابيين أيام انتدابهم على بلاده لا يعتقدون ان أحداً يدانيه  
في أخلاقه لهم . وكان من أكبر زعماء الماسونية واخباره في مجلده شائعة  
ذائعة ، ومع ذلك كان يحاول أن يبرئ نفسه من الاتصال بهم .  
هو يحب السالم من المذاق ، ويدخل مع كل من يضمن له راحته وهناءه ،  
ومن طبيه الابتعاد عن القيل والقال ، ومن دهائه إذا شعر أنه سيطرح  
على مجلسه موضوع يتوم أنه لا يرضي القوم اقراره ، ويلفظون فيمن كان  
من الموافقين عليه ، يتغيب عن البلد ، وإذا لم يمكث من قبل ما يعرض  
في الجلسة وطرح فيها ما لا يوافقه ، يصاب في الحال بوجع في بطنه ، وينذهب  
إلى الخلاء ومنه إلى داره ، ولا يعود إلى ديوانه حتى يقرر زملاؤه ما يقررون ،  
كانه يتناقض راتبه لينظر في المسائل السلمة التي تروقه ، أما الصعب منها  
فله أن يلقى على كواهل غيره . وهذا من جملة عبته ، يبحث حتى برصافاته  
ولدانه . كان منذ فارق المدرسة إلى أن ذرف على الماءين يلهم بالعطاف  
على من كان لأنّه شيء من المجد ، يشير من طرف خفي إلى أن من كان  
أجداده نبلاء يحمل في نفسه شيئاً من النبل يؤهله للتصدر ، ويكتبه بما تتحمّل  
به الفئات المختلفة ، من جاء عريضاً ، ونمة سابقة ، والنبيل الذي يعنيه  
أن لم يكن على صفات تُنْذَّلَه لا يشرفه جدوده ، وربما كان أسلافه من  
أضاعوا بأيديهم بخدمهم ، وهم من أكلة أموال المدارس والجواجم والأوقاف ،  
او من خدام الدولة البائدة اشتهروا بسرقاتهم وجاسوساتهم ، او من غير  
تلك الطبقات الشريرة ، في يوم انهم كبار في عينه ، وما م في الواقع إلا سفار ،  
وإذا حاسبناهم حساباً يسيرأ خرجوا وليس لهم من مزايا الرجال قليل ولا كثير .  
إن من لم يرزق صفات تؤهله للظهور والتجلّ لا يجدي البكاء عليه ،  
وأولى له أن يذهب من طريق من نشأوا غير نشأته ، ويترك المجال لمن جاروا العصر  
وما جدوا ولا انكلوا ، ولا وقفوا عند حد التفاخر بالعظم الرميم .  
وما شرف الانسان إلا نفسه أكان ذووه سادة أم موالي

دأب هذا السياسي يبني على كبير كان مقدماً في الدور البائد لتوسيعه بعض طلاب الوظائف ولإ يصلحهم إلى ما ينتهي من المناصب والمراتب ، ولعله كان هو من جملتهم ، ولا يبعد السوق إلا من ربع . ولطالما زعم له أنه نفع العرب ، لأن الوظائف هي كل شيء في نظره . ومع أن الرجل الذي يتفق بمحامده قد اضطر بالدين والدنيا ، وأنف ما يقال فيه أن صنانه كان أكثرهم سبة على الإسلام ، هذا أمر لا يهمه ، ولا يفكر بأنه كان الواجب على صاحبه أن يخفف من مصائب الدولة ، لأن يزيدوها بلاء على بلاء .  
والى هذا يمتد باذن سيرة أكثروا القضاة كانت سبعة ، و منهم الجهلاء الذين لا يصلحون لشيء ، لأن معظمهم ما عرفوا القضاء إلا آلة للكسب ولقد بدا لمدحت باشا وإلي سورية العظيم أن يمرن الشاميين على الحكم فطلب أن يختاروا له أربعة من أبناء العائلات ، فلما ولام عسوا الشعب فخجل التوسطون لهم أن رأوا أولئك المتصرين يقطنون الوظائف غبية يتغنى بها من يتولاها . كأنه لاجناح على ابن العائلة أن يخالف القانون وبهذا بالشرع ، وواجب الكبار أن يسامحوه إذا سرق ، وأن يغضوا الطرف عن مساويه ، ويرنوه مما الصن به ، ويعيدوا إليه نسمة أهله ، وإن كان هو السبب في تزييقها ، والظاهر أن هذا المعمر الكبير كان لكترة مارأى من هذه النماذج القبيحة من المستخدمين وطهد نفسه على الأنس بهم ، وأوحى إليه غرامه بسلامة الخلق ، والاحسان لارباب البيوتات أن يقرهم كلهم على مام فيه .

كانت الامية غالبة إلى عهد قريب على المجال ، وكانت بعض القضاة والحكام ورجال الجنديمة أميين ، ولطالما قلت حتى في الرسميات من الخبر أغلق مدرسة معلمها أمي ، وسدّ حكمـة قاضيها أمي وأن لا يوسـد التدريس والقضاء لامثالهم . وقد رأيت من هذه التلة المخجولة في الأقاليم والحواضـر نموذجـات كنت إذا شهدت تلاعـبها أناجيـي المولـي في سرى عن سر خلقـه لها وهو لـمـالـي لا يـصـدر عنه المـبـث .

كانت الامور أبداً على المد الركي الى المزل ادى منها الى الجد  
قال أحد الظرفه من أصدقاء ييتنا وكان أمياً عامياً لصديق له من الظرفه  
أيضاً . أراك لأنقرني التوفير الواجب مع إني صاحب سبعة كراسي في  
دار الحكومة ( أي عضو في سبعة مجالس ) فأجابه : مالي ولات ان شاء الله  
تكون صاحب مئة كرسي ، فصرخ فيه صاحب الكراسي : ياخبيت إذا كنت  
صاحب مئة كرسي فانا إذاً صاحب ممئى لاعضو من أعضاء الحكومة ..  
ومن الغريب أن يكون من جملة كراسي هذا ( العم المخترم ) كرسي  
في مجلس العارف .

### الثالث

إذاً هذا كان على جانب من الحزم والروبة ومن المداورين أيضاً ، ومن  
الحرص على حماية أبناء أسرته وأبناء البيوت القدية هـ وسباسته ان  
يستكثر أبداً من الراضين عنه ، يرضيهم في نطاق القانون أو بالخروج عليه  
وعلى شدة تقانيه بارضاء الناس عزًّا من يحبه منهم ، وتشجي عقريته ،  
وتشل للأعين عفته إذا جاءه من يطمع في حياته من أهله ، فإنه يصرف عندئذ  
كل مائبه من حيلة ليلفه ما يشاء بمخالفه القانون جحرة . وحماية الأهل  
والاقارب مائة في أكثر من اصطلاحنا على اطلاق اسم الكبارء عليهم .  
وابتلاء الله بقربين ، ما اظن ان الله خلق أحط من اخلاقها ، ولا أوجل  
منها في الفساد على انواعه ، وكلها جمع مالاً عظيماً من التوظف ،  
وكلامها فقد ثروته برمتها ، أضاعها الاول في حياته ، والثاني لستين من  
وقاته . وكان لأشأن لنسيتها هذا الا معاوتها على اجرامها ، بمجهد كل  
جهده ليبرتها مت انكشفت سبئاتها في جريمة جديدة ، وهكذا حال بعض  
رجال هذا الزمان يتعلمون ما يستحقون به على تقلد الحكم ، وتبقى اخلاق  
بيوتهم راسخة في نفوسهم ، وإذا قلت لهم في ذلك أجابوك وما خجلوا .

هي السياسة ومن لا يرضيه ان يسير بسيرتنا فليقدم في داره . فانظر إلى هذا الذكاء كيف يت弟兄 عندما يعرض الحظ النفسي ، ومن الدليل على تجسس هذا الخلق في هذا المترجم له انه يمين كل جاهل ساقط اذا كانوا من يختلفون اليه ويصانونه ، ويرجو منهم خيراً ساعة الشيق ، يرشح للوظائف أسقط صناؤه وأسقط أقربائه وهو ولا شك عارف بتجزؤه من المزايا ، وماذا يهمه اذا كانوا جهلة أو متجمسين أو مرتدين اذا سدّ هو نهمهم وأوصلهم الى رغائبهم بالحاق الفرار بمخزنة الامة وادخال الحال على مصالحتها . وهذا ما رأيته من أكثر السياسيين وأرباب الأحزاب يعمون عن كل عيب في جماعتهم ، ولذلك كان من اللازم عزل السياسة عن الادارة ، فـ يتولى امراً ادارياً يجب الا يكون له دخل في السياسة .

ورحم الله طلعت باشا وزير الداخلية في آخر أيام المئانيين ، وأحد الخلصين الصادقين من الاتحاديين ، فقد عرض عليه أحد معارفه أن يوظف أحد ذيئن الشقيين ، مدعوى أنه سبق له أن خدم في الادارة ويحمل شهادة عالية ، فقال له ما زبنته : مادمت جالساً على هذا الكرسي يستحبيل أن يلي هذا خدمة في الحكومة لأن الحكم عرض ، ومن لا عرض له لا يؤمن على أعراض الامة . وقد ثبت عليه أنه بعث بزوجته إلى أحد كبراء الدولة لغشه وترقص له ، وزوجها مقتطع بأنها حظيت بالقبول منه . أظن بعض ساستنا يحتاجون إلى تغيير تركيب أدمغتهم حتى تكون لهم مثانة أخلاق الوزير التركي طلعت .

المدارس تعلم قشوراً من المعارف ، لا تلقن عقولاً ، ولا تتزعزع خلقاً متأصلاً .

#### الرابع

«وهذا سياسي آخر ساد باستخدام ما لديه من قوة مورونة ، مضافة إلى ما أوتيه من قوة «كسوبة» لم يدرس الدروس المصرية ، ولا كلام لغة شرقية ولا غربية ، ولا دخل مدرسة مدنية ولا دينية ، ولم يتخرج

بأحد ، ولا عمل نحت اشراف أحد ، وبرز للعالم كبيراً بمعظمه وهذا لا يستغرب في الشرق موطن الخوارق والمجائب .

هناك ذكاء وقوه حجه وحركة لا تفتر ، وهناك تجد وجوه أحياناً ، وآناة وطيش أحياناً ، ومطامع عظيمة يبذل في تحقيقها آخر درم ، ومتاجرة إلى أقصى حدود المفاجرة ، ونبات في الشدائـد ، واستهانة بكل عزيز اذا كان من درء ذلك ما يؤدي الى التفوق على منافس . ولو بذل بعض هذه النتابة في تحصيل العلم لعدة من العلماء الممتازين .

يحب من الاعمال ما يكون ذريعة الى التمجـد به ، ويحلو له أن ينـاصر المشاريع النافـمة ولو كان القائمون عليها من جامـروه بالـعداوة . ظاهرـة غير باطنـه وسريرـته غير سيرـته ، ودهـاؤه يفـوق اخـلاصـه ، واسـع الحـيلة ، صـبورـ على الأـذى ، يـحسن استـهـلة القـلـوب ، وـيـحسن تـفـيرـها . وـسيـاستـه اخـتـرـعـها لنـفـسـه لمـيـقـرـأـها فـي كـتـابـه ، وـلا روـاهـا فـي المـعاـصـرينـ والـغـارـبـينـ ، يـستـخـدمـ كلـ ماـيـجـبـزـ وـماـلـيـجـبـزـ فـي سـبـيلـ أـغـرـاضـهـ ، وـهـوـ بـارـعـ فـي الدـسـ عـلـى خـصـومـهـ ، وـمـنـ أـكـثـرـ النـاسـ وـعـودـاـ ، وـيـسـقـدـ أـنـهـ بـالـأـكـثـارـ مـنـ الـوـعـودـ يـرضـيـ الطـالـبـينـ وـلـوـ مـوـقـنـاـ ، وـقـدـ يـلـبـسـ وـعـودـهـ حـلـةـ يـسـتـلـطـفـهـ لـأـولـ وـهـلـةـ مـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـ عـهـدـ بـطـرـيقـتـهـ ، وـاـذاـ اـنـكـشـفـ أـمـرـهـ يـمـوـدـ فـيـهـ قـولاـ آـخـرـ يـقـولـهـ ، وـاـذاـ اـشـيـرـ إـلـيـهـ بـالـإـقـلـالـ مـنـ هـذـهـ الـوـعـودـ هـزـأـ بـالـقـائـلـ هـزـأـ بـأـرـبـابـ الـقـولـ ، وـقـدـ يـقـعـ لـهـ أـنـ يـعـدـ عـشـرـةـ أـشـخـاصـ بـعـقـمـ وـاحـدـ ثـمـ يـدـفعـهـ لـآـخـرـ غـيرـمـ مـاـكـانـ دـاخـلـاـ فـي زـمـرـةـ مـنـ أـقـمـ لـهـمـ أـنـ يـخـصـهـمـ بـالـنـفـعـ ، وـمـنـ قـلـةـ عـقـلـ الـمـوـعـودـيـنـ أـنـ يـعـودـوـاـ بـعـدـ حـيـنـ يـصـدـقـوـنـ مـاـيـوـعـدـوـنـ بـهـ .

ربـماـ غالـيـ منـافـسـهـ فـيـ الطـمـنـ عـلـيـهـ ، لـاـنـهـ يـتـبـرـونـ أـنـقـهمـ أـعـلمـ مـنـهـ ، وـهـوـ الـذـيـ جـاءـمـ بـاسـالـيـبـ فـيـ التـأـمـرـ يـكـادـ لـاـ يـظـهـرـ لـهـ سـرـهـ إـلـاـ بـعـدـ وـقـوعـهـ ، وـلـوـ كـانـ عـقـلـهـ عـلـىـ مـقـدـارـ بـلـاجـتـهـ عـنـدـ حـاجـتـهـ لـجـاءـ مـنـهـ الرـجـلـ الـذـيـ يـنـشـلـ الـدـوـلـ مـنـ سـقطـهـ .

من سياسة أن يرعى العامة أكثر من الخاصة ، لاعتقاده الخير في العوام وانه لا ينفعه غيرهم في مواطن ليس للا خاصة استعداد لها ، ولهذا كان معظم من يصطنعهم من صنف قليل البقاء من المعرفة ومن الأخلاق ، ويرى أنه لا يضره سوء اختياره ما داما يخلصون له ، وفيهم من المزاي ما يعرفه هو فيهم ، وهو الى هذا يعيشهم ويقرب من ذهناتهم .

يخلص لكل من يوليه قته من الدول ؛ وبمعنى فيمن يعتقد أنهم وخدمهم يقدمون وبؤخرهن في حاضره ومستقبله . خدم دولًا ثلاثة كان في كل واحدة منها الأمين المخلص ، يرضي رجالها بكل مأبدياته فربحته من ضروب الارضاء ، ويرون عليه كل أمر اذا كان من ورائه ذلك جلوسه يوماً واحداً في الحكم . ولهذه تنتهي الى من بأيديهم التأثير فيه وفي منصبه ، يأخذها من أي مال وصلت اليه يده ، وغرامه باكتساب المال يوازي غرامه في الاسراف فيه ، نراه عصرياً بحداً الى أقصى حد ، وربما لسامح بأمور لها مساس بالدين اذا صلحت له الدنيا كما يحب وي يريد .

واذ كان هواه السياسة يرعاها أبداً لا يصعب عليه أن يدوس الحق برجله اذا تعارض مع سياساته ، وكثيراً ما يطف على المفضول وترك الفاضل ، وهو على مضض اذا استخدم بعض الكفالة ، لأنه في باطنه لا يحترمهم وهم لا يحترمونه ويدلون عليه أيضاً بما امتازوا به من صفات وخصائص . وقال بعضهم فيه إنه يحسن اختيار عماله ولا يحسن الاحتفاظ بهم الى النهاية . وفي الازمات يلجأ الى اشياء يخيل اليك معها انه يرجع بالبلاد القبرى ثلاثة سنة ، وهذا ينافي دعوه التجدد والتمدن ،

لو قيدت هذه الشخصية بالشخصيات التي تكلمنا عليها قبل هذا الرأينا صاحبها بذلك الدارسين المجريين الذين صعدوا سلم المعالي درجة درجة ، وانجروا بخدمهم خطأ خطأ ، فقد شهدناه خدم نفسه وخدم المصلحة العامة بالمعنى على اسلوبه الخاص وأضر نفسه ونفع من اجهزه . أما الثلاثة الآخرون

فَا أَنْوَ بِيْ يَذَّكُرُ فِي سِيَاسَتِهِمْ وَادْارَتِهِمْ اللَّهُمَّ إِلَّا أَشْيَاء مَاطِبُقُوهَا وَأَمْرًا  
مُوْهُومَة مَافَتَ مِنْ رَعْوَهُمْ ، وَهَذَا لَمْ يَحْصُرْ ذَكَارَهُ فِي دَائِرَة وَاحِدَة بل

أَرْسَلَ بِهِ إِلَى سَاحَاتِ وَاسْمَة يَجْوِلُ وَيَصُولُ وَيَخْطُى وَيَصِيبُ وَيَعْنَعُ وَيَنْقَعُ .

فَبَدَتْ هَذَا السَّكَلَمْ لَمَّا فِيهِ مِنْ عَظَة وَعَسَى أَنْ يَدْرِكَ الْفَطْنَ مِنْ مَفَازَاهُ

أَنَّ الْكَبَارَ مَادَامَتْ هَذِهِ مَنَازِعُهُمْ لَا يَرْجِي الْآنَ قِيَامَ حُكْمَةِ رَشِيدَةِ بَالْيَدِينَا .

تَقُولُهُ هَذَا وَالْأَسْفُ أَخْذَنَا بَعْدَ أَنْ رَأَيْنَا كَيْفَ يَسِيرُ أَرْبَابُ الطَّبَقَةِ الْأُولَى

مِنْ رِجَالَنَا تَحْتَ الْأَبْدَى الْفَرِيقَةِ . وَنَسَأَلُ أَيْكُونُ عَمَلَهُمْ أَحْسَنُ يَا تَرَى لَوْ

كَانُوا فِي حُكْمَةِ مُسْتَقْلَةٍ تَجْلِي فِيهَا أَخْلَاقَهُمْ وَقَرَائِبَهُمْ فِي قِيمَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ ،

بَدَوْنَ أَنْ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ يَرْقَعَهَا وَيَحْيِيْنَهَا .



## في مصر ومن أجمل مصر

دخلت الفندق بباريز ، و كنت على أن أقضى فيها بضعة أيام في طريقني إلى أكسفورد ، لحضور مؤتمر المستشرقين ( ١٩٢٨ ) ، وما كنت أعلم أن سموّ خديوي مصر عباس حلمي ينزل هذا الفندق ، وله فيه جناح خاص . واتفق أن كان واقفاً على رأس السلالم ، فأهل بي كثيراً ، و كنت شرفت بمعرفةه من قبل ، فتحدثنا ملياً ، ثم تفضل ودعاني إلى تناول الطعام معه من التد في غابة بولونيا من ضواحي باريز ، ولم يكن مثلك غير صديقه وصديقه حافظ عوض بك الكاتب السياسي المصري ، ووكيله بباريز وهو مصري إسرائيلي ( خليفة بك بوبي ) . فذهب الحديث بما كل مذهب ، - ولحظت أنه كان غاضباً على الأمير شبيب أرسلان ، فحاولت عيناً أن يجعل الرضا محل الفضب . ثم ذكر له حافظ كتابي ( خطط الشام ) فقال الخديوي انه لم يره ، فقلت : أقدم نسخة منه ، فقدتها لدن عودتي . فكتب إلي جواباً بشكرني ويقول في آخره : ( وهنالك على هذا العمل الصالح الذي كان ضرورياً لرقي سوريا التي نجها ونمزّها ، ولا ينبع مفكرين في خيرها ، افتقاء لأنثر جدنا ساكن الجنان محمد علي ) .

وربما كان الخديوي يود لو كان ملكاً على الشام ، وكانت سوريا في بدء خروجهما من حكم الترك تؤمل لو كان لها ملك من آل محمد علي ، خصوصاً بعد أن خرج منها الملك فيصل . وبلنفي أن فرنسا فاوضت الأمير يوسف كمال ، خلال الثورة السورية ليتولى ملكيها ، فاشترط لذلك أن يكون الفوضي السامي الفرنسي في سوريا سفيراً كائناً السفراء ، وهو يتهدى أن يقيم من أعمال العمران ما يشغل السوريين عن كل ثورة ، فلم يقبل بالطبع اقتراحه ، ولا يقل " الطالبون ملك سوريا إلى اليوم عن عشرة

أشخاص ، ومن الناس هنا من يفضل الحكم الجمهوري ، ومنهم من يحب الحكم الملكي المفبد .

نديع الجمع العلمي العربي وحكومة سوريا لتهليلها في حفلة تكريم أحمد شوقي شاعر مصر . دعيرت خطابي على مراقب الخطب ، فمحذف منه جلة ، كان في حذفها على صواب ، لأن الكلام يتم بالاستثناء عنها ، وهي تورنه تطويلاً . وأرادني أحدم أن أحذف تحية رأس الأسرة المالكة محمد علي الكبير وما يتبعها من تحية الملك ومن تقدمه من آله في حكم مصر ، فأيّت وقلت : لا أحب أن أخرج على حدود الأدب ، وأننا متذبذب عن دولة وعن بجمع علمي هو الوحيد في الشرق الأدنى ، ومن كان له ما يقال مع ساحب مصر فهو شأنه . وعلى هذه الصورة قرأت خطابي في الأوبرا الملكية بالقاهرة ، فكان له وقع عظيم في النفوس ، قوبلت فيه بما صفت شديدة من التصفيق مرات . وتعرفت بعد ذلك إلى بعض رؤساء الأسرة المالكة ، واستحكت بيننا الصداقة .

ودعاني شوقي ، وأظن باشارة من القصر إلى زيارة جلالة الملك فؤاد الأول ، فقابلني جلالته مقابلة عطف عظيم ، وطلب إليَّ أن أعود إلى سكنى مصر ليوسد إلى عملاً علمياً في قصره العالى ، وزادت رغبته في ذلك لما ذكرت له الصحف والمجلات المصرية التي آزرت فيها ، فقال إنك بمساهمتك بخدمة السياسة والأدب في مصر تتم مصر ياً . وذهب الفكر بي مذاهب لما ذكر الملوك المحبوب مفترجه ، فتوسطت صديقي شوقي لاعفاني من تقلد المنصب الجديد . فقال شوقي لكبير الأمانة إن صاحبى عزف نفسه عن سياسة قطره ، فيصعب عليه أن يعالج سياسة غيره ، وأنا أجد لكم شاباً مصر ياً كفؤاً للعمل الذي تمحبون توسيده اليه ، فأجابه : نحن نعرف شباب مصر ونعرف أن نختار منهم متى أردنا ، وإنما نود أن نستخدم شخصية صاحبك . وهكذا تفضل ملك مصر العظيم فأغضى في بحسب ما زراعى لي وشكرت تلك العواطف الجميلة . وكنت أخجل كلاماً تشرف بلقائه بما كان يفiste على من

سَكَارِمُ أَخْلَاقِهِ ، وَاسْتَخْلِفَتِهِ مَرَةً لَا قُدْمٌ شَكْرِي بِجَلَالِهِ عَلَى مَا أَوْلَانِي مِنْ  
فَضْلِهِ بِصَنْيِ الْأَعْنَاءِ بِجَمِيعِ الْلِّغَةِ الْمَرِيَّةِ الْمَلْكِيِّ ( جَمِيعُ فَوَادِ الْأَوَّلِ لِلْلِّغَةِ  
الْمَرِيَّةِ ) فَتَفَضَّلَ وَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يَخْشَى أَلَا أَقْبَلَ بِهِنْدَهُ الْمَسْوِيَّةُ أَمَا وَقَدْ  
فَبَلْتَ فَهُوَ يَشْكُرُنِي ، .

وَكَنْتُ عِلْمَ اللَّهِ أَوْدَ امْتَالَ أَمْرِهِ الْكَرِيمِ فِي سَكْنَى مَصْرُ لَوْلَا أَنْ  
هُوَاهَا لَا يَلْأَمُنِي كَمَا يَلْأَمُنِي هُوَاهَا دَمْشَقُ مَسْطَقُ رَأْسِي ، وَفِي أَرْضِهَا دُفْنَ  
أَبِي وَجَادِي ، وَلَوْلَا أَنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ أُشْرِعَ بِأَمْرٍ جَدِيدٍ قَدْ يَخْالِفُ مِنْ  
بَعْضِ نَوَاحِيهِ مَا نَهَجْتَهُ حَتَّى الْيَوْمِ ، فَيَظْهَرُ التَّنَاقْضُ بَيْنَ يَوْمِي وَأَمْرِي .  
وَلَا عَدْتُ إِلَى مَصْرَ بَعْدَ تَنِيبِ سَبْعِ سَنِينَ عَادَ الْمَلِكُ فَوَادُ الْأَوَّلَ أَحْسَنَ  
اللَّهُ إِلَيْهِ يَكْرَرُ اقْتِرَاحَهِ الْأَوَّلِ فِي ارْادَتِي عَلَى سَكْنَى مَصْرُ ، فَأَجْبَتَهُ فِي  
قَصْرِ الْقَبْةِ الْعَاصِرِ إِنِّي رَهَنَ أَمْرِهِ فِي كُلِّ مَا يَلْوُحُ خَاطِرَهُ الْكَرِيمُ ، سَوَاءَ  
كَنْتُ فِي الشَّامِ أَوْ فِي مَصْرَ ، لَا أَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى اشْتَارَتِهِ الْعَالِيَّةِ لِأَسْدِعَ  
بِأَمْرِهِ . وَارْسَلْتُ مِنْ جَهَةِ ثَانِيَّةِ صَدِيقِ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ الْبَلَادِيِّ إِلَى قَصْرِ  
عَابِدِينَ ، وَقَدْ سَمِّتُ أَنَّ الْأَمْرَ كَادَ بِمِنْ بَوْسِيدِ عَمَلَ إِلَيْهِ فِي الْقَصْرِ ، حَتَّى  
لَا يَأْدُرُوا إِلَى تَبْلِيفِي ارْادَةً مَلُوكِيَّةً ، لَا أَسْتَطِعُ قِبْلَهَا وَأَكْرَهُ رَدَهَا .  
وَكَانَ جَلَالَةُ الْمَلِكِ يَحْرُسُ عَلَى جَلْبِ الْمُلَمَّاهِ إِلَى بَلَدِهِ ، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِي  
مَعْهُ أَوْلَى شَرِيفِي بِمُقَابِلَتِهِ فَقَالَ : ( إِنِّي أَوْدَ أَنْ أَجْلِبَ إِلَى مَصْرَ كُلَّ اِخْصَائِي  
فِي فَنِهِ وَأَدْبِرِهِ ، حَتَّى لَاتَّبِعَى دُونَ غَيْرِهَا فِي مَضَبَّرِ التَّقْدِيمِ ، وَلَطَّالِمًا أَرْدَتُ  
بَعْضَ الْمُشْتَغلِينَ بِالْعِلْمِ فِي الْفَرْبِ أَنْ يَنْزَلُوا عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّمَّةِ دِيَارَنَا لِيَفِيدُوهَا  
بِعِوْلَمِهِمْ وَقِرَائِحِهِمْ ، وَقَدْ أَزُورُ بِعِصْبِهِمْ فِي بَيْوَتِهِمْ أَحْلِلُهُمْ عَلَى هَذَا الْفَرْضِ  
وَلَكِنْ بَعْضَ عَلَمَاهُوَهُ الْفَرْبُ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَنْفَكُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَيَصْبِعُ  
عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْحُلُوا طَوِيلًا إِلَى الشَّرْقِ ) .

وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ يَشَارِكُ مُشَارِكَةً عَظِيمَةً فِي الْمَلَوِمِ الْمُخْلَفَةِ ،  
حَتَّى لَتَحْسَ وَأَنْتَ فِي حَضُورِهِ إِنْكَ فِي حَضُورِهِ عَالِمٌ لَافِي حَضُورِهِ مَلِكٌ . قَالَ

لي في احدى مقابلاته ان السير دنن رُس مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن قال له إنه ينوي الذهاب الى فارس ليقنع رجال سياسها بالصالون عن الخط الفارسي واستعمال الحروف اللاتينية كما فعل الكاليون ، قائم الملوك لهذا المسعى وقال المستشرق الانكليزي : اذا فعلت فأنا أنفخ يدي من صداقتك ، وأقاومك بكل مافي وحي ، وذكر له جمال الخط الفارسي وجمال الخط العربي وكان ( طيب الله زاه ) فتح مدرسة في القاهرة وحشر اليها أعظم الخطاطين من الآراك مما بارت صنفهم في تركيا ، وكان من أثر ارشاده أن يقول المستشرق الموما اليه بعد حين : ان اللغة العربية والحرروف العربية والقرآن والاسلام كلها قواعد بناء واحد إن هدمت واحدة منها تداعى البناء كلها .

أبيت سكت مصر مع أبي أجد بين ظهراني أخوانني فيها من السلوى  
ما لا ينير لي أن أنم بمنه في بلدي . وتفتنني مغريات الحضارة على ما لا أجد  
له شبيها في الشام ، وعلى يصدق بعض الشيء قول أبي تمام :  
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقيتين وبالفسطاط أخوانني

تماحدت أنا وصديقي الشيخ أسعد الشقيري إلا نشتغل بشيء اسمه سياسة  
بعد الحرب العالمية لكثره ما لفينا من آلامها ، فانقطعت بالفضل الى الاعمال  
الملمية الصرفة . وإذا اشتراك في الوزارة مرتين ، فالوزارات في سوريا  
على عهد الانتداب كانت وزارات ليس من المتدين لا دخل لها في السياسة ،  
ولما هي وزارات جديرة بأن يطلق عليها اسم وزارات ادارة ، والسياسة  
يد الدولة المتدينة . وبهذا بررت بتعصي وخلصت من غواائل كثيرة ،  
وما كنت في الوزارتين شهد الله ، أفك في غير اصلاح المدارس ولعميم  
التعليم الابتدائي . وكنت لهذا السبب أبتعد ما أمكن عن عظامه السياسة

للا يهدوا إلٰى بسائل لا أحب الدخول فيها ، وتحدث الخطة التي رسمتها لتفادي بدء الحرب ، وصعب علىَّ أن أدخل آخر الأمر ما تباعدت عنه في الأول ، والسائل العلمية لا تترك لمانها وقتاً للتفكير في غيرها .

وحاول مفتى القدس أن تكون الحلقة الأولى من أسبوع شوفي برياسته وكانت اللجنة جملتها برياستي بدون علمي . لأنني مندوب عن جمع علمي وعن دولة سورية ، والمفتى مندوب نفسه فقط . فرفقت اللجنة اسمياً في اليوم الأول وحملتني في اليوم الثاني ، وسرته بهذا التقدم ، واستكتب في الصحف أنه رئيس الجمع العلمي في فلسطين ، وما عدنا لفلسطين بحثاً عليهما إلى اليوم !!

ودعينا إلى الجامعة الاميركية في القاهرة لتناول الشاي أنا وصديقي الاستاذ محمد اسعاف النشاشبي ، وكان جاء إلى مصر ليكرم شوفي أيضاً ، فانقينا في محطة اللد على سبيل المصادفة ، ونزلنا مما في فندق كوتيننتال . فقلت لاسماف أنا لا أحب إجابة هذه الدعوى ، والوقت ضيق وعندنا اجتماعات أخرى لابد من حضورها ، وببدأت الحلقة تصاغ فيها الاماديع لمفتى فلسطين ، وكما رجونا انهاء الاحتفال زاده شمراء الطلبة وخطباؤهم تقديساً وتعجيداً ، وزدنا من جراء ذلك تبرماً ومضايقه ، ولما رأيت الامر يطول استذلت وانصرفت على شدة حرص مدير المدرسة على بقائي ، وقلت لاسماف : إن التفاق رائج عند الفربين رواجه عند اشرقين ، وعند المدنيين كما هو عند الدينيين ، وأسفت على مخالفة قاعدي في الا أحضر حلقة لا أعرف الفرض منها ، ولا اشتراك في مائدة لا أئمين الاشخاص المؤلفة منهم . وحدث بعد سنتين أن دعوني هذه الجامعة أيضاً إلى حلقة شاي لتكريم الاستاذ فنسنك أحد علماء الشرقيات المولامدين فاعتذررت لأنني لا أعرف من يحضر فيها . وقلت لمن آخذني قبل سنة لامتناعي عن إجابة دعوة الجامعة الاميركية أيضاً : إن معرفة الاشخاص في الدعوات الخاصة

من التواعد الأميركي ، وكان على الخامسة التي تحمل اسم أميركا أن تجري على هذه الخطة ، وإذا عد امتناعي عن الحضور شذوذًا ، فأن أحب هذا الشذوذ إذا كان فيه ما يجني وربح الناس .

وتجربت في الدعوات التي اقتفاها في المهد الأخير على كتابة اسماء المدعىين في رقمة مطبوعة ، فكان بعضهم يعتذر لتخلفه عن الحضور لانه سقط في قائمة الاسماء على اسم من لا يحب الاجتماع به ، فارتفع بذلك حرج عن أصحابي واستحسنوا ذلك ونسج بعضهم على منواله .



## سياسة

قال لي رئيس الوزراء الشيخ ناج الدين الحسيني إن دارعة افرنسية رست في قصر بيروت فيحسن أن تذهب لتجة قائدتها باسم حكومة سوريا ، فقلت له : جرت عادتك أن تبعث في مهاتك غيري ، فارسل أحد رصافيين نائباً عن الحكومة ، واعفني من هذه الرسالة ، وأننا لا أحب التشرفات ولا أحشرها . فأصر عليَّ بالذهاب ، وأرفقني بكاتب مؤمن عنده ، ليكون شهيداً على ما أقول ، وما علمت ان كان انتدابي لهذه التجة هو من عندياته ، أم كان بيعاز من مقام أسمى .

ولما وصلت الدارعة كان وكيل المفوض السامي المسو ترو هناك ، وقد أخذت منه الخمرة فقال : إنكم في دمشق تلعنون وتهزلون ، والرئيس لا يحضر إلى مكتبه كل يوم ، وسياستكم تتجه نحو سياسة الوطبيين المنظرفين . فأجبته أن ما بلغه غير صحيح ، وإن الرئيس مواطن على عمله أكثر من اللازم ، حتى أنه قضى أمس الجمدة وهو يوم عطلة في دار الحكومة ، من الصباح إلى الغروب ، وجشته في المساء وسألته إذا كان لغذائي ، فقال : لا . فقلت له : إذا أحببت أن تطول خدمتك ، يجب عليك أن تأكل في أوقات مبنية ونام ولستريح ، وإن كان لا بد من الإقامة في قصر الحكومة ، حتى أيام التعطيل ، فات من بيتك بسرير ، وأوصهم على طعام يحمل إليك . وذكرت له أن اتجاهانا السياسي ليست مع المنظرفين ولا مع غيرهم ، وايس من دليل حسي على صحة هذا التقول على الحكومة ، وأقفته بان حكومتنا لا تساهل بواجها . ذكرت للشيخ حدبني مع ترو ، وقلت له ان القوم على مارأيت يتربصون به وبحكومته الدواز ، فاما أن يكتبوا الى المفوض السامي المتقبب في باريز فيتفق مع وزارة الخارجية على إقالة حكومتك ، وإما ان ينتظروا

مجيئه لافتتاحه ، فتدارك أمرك والا تداعت وزارتك . فشرع في الحال يتخذ الوسائل فتجع وبيت وزارة في الحكم بعد ذلك نحو سنتين . كان المسو بروبير مندوب المفوض السامي يكرهني ويحب مستشار المعارف المسو راجي ، وكان هذا خصمي منذ توليت الوزارة ، فقد كان يتدخل فيما ليس من شأنه ، وانا اقف في طريقه بالقليل من الوسائل التي كانت لدى . وقد دعيت مرة لتفاوض في منهاج التعليم الثانوي برئاسة كاتم السر العام المسو ترو في بيروت ، وكان معي مستشاري ، ولحق به المنصب المسو بروبير فحضر الجلسة ، وليس من حقه ان يحضرها ، فلما نكلم مستشار المفوضية وتكلمت أنا ، اراد مستشاري ان يتكلم لها فهم الحاضرون ماقال ، وبنسموا ما اورده من البيانات ، وانقضت الجلسة .

ونختلفت عن الجماعة وبقيت مع المسو ترو وقلت له جاداً : اما بذلك انه كادت تقوم فتنة امس في دمشق ، فقال : لا ، وكيف كان ذلك ؟ فقلت له : انت تعلم ان الفقراء والاغنياء سواء امام الله ، وفي الجامع عندنا لا فرق بين السلطان والشحاذ . وقد شاهد مندوبيكم المسو بروبير ان يحضر صلاة العيد في الجامع الاموي ، فتأخر عن الميعاد ، ولا حضر كان المصلون اقاموا الصلاة ؟ فغضب وشم خصوصاً لما رأى انهم لم ينخسوه في السدة بكرسي عظيم ، احسن من كراسي الجالسين من غير المسلمين ، فالحمد لله على انتفاء هذه الفتنة . فضحك وضحكت معه . وكان كلامي ساذف هو في قلبه ، ولم يربد ان يقول انظر بالله عليك أليس الحق مع المفوض السامي في عدم رضاه عن هذا الرجل ؟ وكان عين في هذا المنصب على غير ارادته .

وكان هذا المنصب بروبير يرسل سيارته في ساعة متأخرة من الليل الى ترجان المستشار ليستشيره في بعض ما يعن له من المسائل ، ذلك لأن الترجان كان موضع ثقة المستشار ، والمستشار موضع ثقة المنصب ، وقد بلغ من دلال الترجان الاخرق ، أنه كان كل سنة يبيع أسلحة البكلوريا

من الطلاب ، فانكشف تلاعبه بعد عزل المستشار ، وكان نصيبه الطرد من عمله . وكان هذا الترجمان من يعتقد عليهم أحد أعضاء الكتلة الوطنية ليكون وسيطه إلى المستشار فالمندوب ، فيتمكن من قلب الحكومة التاجية ، واستلام زمام الوزارة . وقبل لي إن التقارير الالزمة في هذا الباب كانت تكتب في قلم مستشار المعارف ، فما نجح يومئذ ذاك في سعيه للاوزير ، ولا وفق المندوب ولا مستشاره ولا ترجمانه . وكان هذا الوطني دأب على تقصي أخبار كل وزير بمفرده ، يسأل حتى شرطيه عن حركاته وسكناته ، ويعده بالترقية متى استلم زمام الحكم ، إذا هو أطلقه على أحوال وزرمه . وضائقفي هذا المندوب ، وضائق رصيفي في الوزارة السيد صبحي النبال

وزير العدل ، والسيد عبد القادر حسفي الكيلاني وزير الزراعة ، وقد عرضت على مجلس الوزراء مسألة الدخان ، فكان يريدنا على أن نقول باحتكاره ، ونحن نرى المصلحة في استثمار الحكومة له ، وأن يطلق الحرية للأهليين في زراعته وصنعه ، وكان يتراومنا إلينا أن الشركة طالبة الاحتياط وضمت مبالغ عظيمة للوزارة إذا أجابتها على طلبيها ، ومنحتها الامتياز بالاحتياط . ولما أصررنا على رأينا نحن الوزراء الثلاثة ، شكانا المندوب إلى المفوض السامي ، لامتناعنا من إعطاء الدخان للشركة ، مدعياً أن واردات الدولة تتضمن إن لم يكن الاحتياط ، وهكذا كان رأي وزير المالية . فسأل المفوض السامي عما إذا كان الوزراء الثلاثة المصردون على إطلاق الحرية للدخان هم من يفهم بالرشوة فقال : لم يسمع عنهم شيء من هذا القبيل ، فعندئذ قال له على ما أصل بي : ليس الوزير موظفاً حتى نرسم له خطة ، ونطلب منه انتهاجها ، الوزير صاحب مهمة ، وصاحب فكر ورأي ، ولا يليق أن نوعز إليه باعطائنا الرأي الذي تؤثره . هؤلاء الوزراء أعرف بمصلحة بلادهم ، فإذا كانوا يفضلون إعطاء الدخان إلى شركة فأقرهم على طلبيهم ، وإذا أحبو جعله حرام فامض ما يحبون . فرجع المندوب بخفي حنين ، وخاب أمل من يقولون معه بالاحتياط من الوزراء . م (٢٠)

وفي وزارة الشيخ ناج الدين الثانية تقرر احتكار الدخان في سوريا ولبنان بفضل المفوض السامي المسيو دي مارتييل ، خدئت من ذلك ضجة كبرى في لبنان ، وتدخل بالأمر بطريرك الموارنة ، وما أمنى المسيو دي مارتييل إلا ما أراد ، وانتفع بذلك فيما قيل بعض العظاء في الجمودتين السورية واللبنانية ، من وافقوا على الاحتكار لتربيح الشركة الفرنسية من مال سوريا الفقيرة مئات الألف من الليرات كل عام .

وكان هذا المفوض السامي يغضفي ، وهو وحده من بين المفوضين الساميين في سوريا الذي تحبهم لي ، ولم يجتمع إليه سوى مرتين في بعض سنين قضاها في أرضنا ، أولاهما لما دعا عظاء الدولة لأنخذ آرائهم في الحالة السياسية ، توسلت به في نقد السياسة المتبعه توسعاً أخنق صدره عليه ، والثانية لما دعاني إلى الشاي ، وأراد المندوب صديقي المسيو لا فاستر تقديم لي له : وتعريفني به التعرف الذي يليق ، فقال له : إنني أعرفه ، بل بهجة قاسية . فكان يدعوني بعدها إلى الحفلات فلا أحضر ، والغالب أنه كان يتراخي إلى مسامعه اعتراضي على سياساته وكان يأتي أموراً تتنافى مع وقار منصبه العالى ، والحق إن السياسة الاقتصادية التي هاج بها كثيراً وانتهت بري ألوان من الفدادين من أرض حمص كانت عمله الوحيد الذي يفتخرون به .

# كيف وضعت تأليفي

سألني الاستاذ منير الشريف إذا كنت أشرت في مذكراتي إلى الأسباب التي دعنتي إلى وضع تأليفي ، فقلت له : إنك لفت نظري إلى أمر ماجد في بالي ، فقال : أكتبه فيه فائدة وتعليم . فكتبت هذا :

كان أول ما نشرته ترجمة رواية قبعة اليهودي ليفمان سميتها ( بتبيعة الزمان في قبعة ليفمان ) ( ١٣١٢ھ ) وكانت يومئذ آخر الأدب عن استاذي السيد محمد المبارك ، فترجمت الرواية كما يترجم المترجمون بعبارة سهلة مع المحافظة على الأصل ، وعرضتها على استاذي ينظر فيها فرارقه ، وفضل أن تكون مسجوعة على طريقته ، فنشرت بمضمارها ونشر هو أكثرها فجاءت قطعة منسوجة كلها بالسجع . هكذا كان الاستاذ يرى الانشاء ، وعلى هذه الطريقة تخرجت به أولاً ، وأدرك هو ضعف طريقته بعد أعوام . وقال لي وأنا قد نزعت قيود السجع زعاً : ما أسعده تحليت عن السجع ، وعمدت إلى الكتابة المرسلة ، بدون تكافف الإسجاع والازدواج ، وأما ما زلت محافظاً على الطريقة القديمة ، ما قدرت أن أنخل عن الملكة العقبة التي غلبت عليَّ ، ولما أردت اليوم أن أكتب كتاباً خاصاً في غرضٍ من الأغراض بتصاصي علىٰ لسيطره ، ذلك لأنني أريده مسجوعاً وقريحتي لا توافقني ، والسجع مستحكم فيٰ رضيت أم كرهت ، وهو لا يحسن في كل موضوع وفي كل موضع .

وكتبت بعد ذلك كتاباً كانت لي بثانية نجرين على التأليف ، ولم أطبعها منها « ترجمة الانماء التركية » لرضا باشا نقلتها إلى العربية والفرنسية ( ١٨٩٣ ) ، ومنها لمزيد بعض فصول من ثلاثة كتب في الحرية ، وهي حرية الوجдан والحرية المدنية والحرية السياسية لجول سيمون ، ولما رجمت إلى ما نقلت لم يرقني ، وقلت

إن القراء من باب أولى لا يستسيغونه . ونشرت بعض فصول في جريدة المؤيد من كتاب الحرية السياسية .

وُكِنَتْ أَحَبْ أَضْعَمْ تَأْلِيفًا فِي حُرْيَةِ الْعَرَبِ فَكَتَبْتُ فِيهَا دَفَازَ لِمَ أَسْتَحْسَنَهَا بَعْدَ سَنَينَ ، وَرَأَيْتُنِي لَمْ أَحْكِمْ الْمَوْضِعَ ، وَكَانَ مَعْلُومًا تِنْيَةً تَارِيخِيَّةً فِيهِ ضَيْلَةً لَمْ تَكُفْ لِتَصْوِيرِ الْبَحْثِ ، وَلَمْ اعْطُهُ كَلْبِيَّ وَمَا درسته على ما يجب كما درست أكثر الموضوعات التي عالجتها بعد . ولما أعدت النظر فيها كتبت لم أَرْ أَحْسَنَ لَهُ مِنْ طَرْحِهِ فِي سَلَةِ الْمَهَلَاتِ وَلَيْتَنِي أَيْضًا بَذَتْ « رِوَايَةً يَقِيمَةً لِلزَّمَانِ » فِي زَبَيلِ سَقْطِ الْمَتَاعِ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ الشَّابَ وَحْبَ الظَّبُورِ يَوْمَئِذٍ حَفَزَنِي إِلَى طَبَاهَا ، عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ لِي بِعِنْدِهِ الْخَطُوةُ الْأُولَى نَحْوَ التَّأْلِيفِ ، مَا خَلَتْ مِنْ فَائِدَةٍ وَتَدْرِيبٍ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ بِعْلَمَةٍ لِي ، عَلَى ضَفْرِ حَجْمِهَا ، أَلَا أَعَاوِدْ طَرِيقَةَ الْاسْجَاعِ الَّتِي بَطَلَ زِيَادَاهَا فِي هَذَا الْمَصْرِ .

وَلَمَّا نَشَرَتْ مَجَلَّةُ الْمَقْبِسِ حَوَلَتْ أَنْ أَضْعَمْ بَعْضَ التَّأْلِيفِ الَّتِي كَنْتُ أَرِي فِيهَا نَفْعًا ، فَاسْتَفَرَتِ الْجَرَائِدُ السِّيَاسِيَّةُ وَمَجَلَّةُ الْمَقْبِسِ الْعَلْمِيَّةُ كُلُّ وَقْتٍ وَجْهِي ، وَصَرَفَتْ فِي ذَلِكَ بَضْعَ سَنَينَ ( ١٩٠٦ - ١٩١٤ ) مِنْهَا ثَلَاثَ سَنَينَ فِي مَصْرَ أَخْرَجَتْ خَلَالَهَا مِنَ الْمَقْبِسِ الْعَلْمِيِّ ثَلَاثَةَ مَجَلَّدَاتٍ ، وَأَخْرَجَتْ فِي دَمْشَقَ خَمْسَةَ مَجَلَّدَاتٍ وَعَدَدِينَ اثْنَيْنَ مِنَ السَّنَةِ النَّاسِعَةِ . وَمَا وَقَتَ خَلَالَ هَذِهِ الْمَدَةِ إِلَّا لَطَبَعَ جَزْءٌ مِنْ تَرْجِمَةَ « تَارِيخِ الْحُضَارَةِ » لِشارِلْ سِنِيُوبُوسْ ، نَشَرَتْهُ فِي الْمَجَلَّةِ أَوْلًَا كَمَا نَشَرَتْ « رِسَالَاتِ الْبَلْغَاءِ » وَطَبَعَتْهَا تَبَاعًا فِي أَجْزَاءٍ الْمَجَلَّةِ وَجَعَلَتْهَا بَعْدَ كِتَابَهُ بِرَأْسِهِ طَبْعَتْهُ مَرَّتَيْنِ . ثُمَّ طَبَعَ طَبِيعَةً ثَالِثَةً وَقَدْ نَقَحَهُ وَزَدَتْهُ زِيَادَاتٍ كَثِيرَةً ، وَأَصْبَحَتْ هَذِهِ الرِّسَالَاتُ النَّادِرَةُ مَرْجِعًا لِلْمُتَأْدِينِ وَالْبَاحِثِينِ ، لَمَّا حَوَتْ مِنْ نَصوصٍ لَا أَثْرَ لَهَا فِي الْكِتَابِ الْمُطَبَّوعِ ، وَكَانَتْ مَا أَهَانَ بَعْضَ نَاشِرِي الْمُخْطُوطَاتِ فِي الْإِدْبَ وَالتَّارِيخِ فَعَارَضُوا عَلَيْهَا بَعْضَ نَصوصِهِمْ ، وَأَجْمَلُ مَا فِيهَا رِسَالَاتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَقْفعِ وَعَبْدِ الْجَمِيدِ بْنِ بَحْرِي الْكَاتِبُ ، وَاسْتَفَادَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْإِبَادَةِ الَّذِينَ عَزَفُوهُمْ فِي مَصْرَ وَالشَّامِ وَنَادَبُوا بِأَدْبِ هَذِينِ الْكَاتِبِينِ الْمُظَيَّبِينِ ، وَمِنْهُمْ الْيَوْمَ أَسَانِدَةُ وَرُؤْسَاءُ فِي

الجامعتين المصريتين ودار المعلوم والازهر والمجمع العلمي العربي .  
وطبع لي صاحب مجلة مسامرات الشعب روايتين عربتها عن الفرنسيه وما  
« الفضيله والرزيلة » ، و « المجرم العربي » ، نقلتها بسرعة وطبعتها بسرعة ،  
ولم أنظر في المسودات ولا في التجارب نظرة ثانية ، فقللت اليها هفوات  
طبعية وغيرها ، مصنفة إلى رداءة الترجمة ، على أن القراء يومئذ فرأوها  
وربما استحسنوها ، وما ها في الواقع غير كتابين لم يدخل موضوعها قابلي  
وكتبتهم لغيري ، وكانت الغاية من نشرها مادية صرفه ، والمادة شيء  
والادب شيء آخر .

استخرجت ( ١٣٤٣ھ ) بعض ما نشرت من المقالات في مجلة المقتبس  
ومجلة المقتطف وجريدة المؤيد والظاهر وغيرها وسميتها « القديم والحديث »  
وطبعته في مصر ، ولم أرض عن طبعته لاتتها حملت أغلاطاً فاحنة ، ولم  
ينظر أحد في تجاري . وكان صديقي الاستاذ محمد لطفي جمة كثيراً ما يحيثني  
على جمع هذه المقالات خافة أن تصيب في الصحف اليومية والمجلات العلمية  
وهذه المقالات أو أكثرها لأتربص في اليوم ، وكانت شيئاً في عهد  
كتابتها وفي ذلك دليل على ضعف ابن آدم يستحق اليوم ما كان  
استحسنته بالأمس ،

وشعرت بالحاجة إلى وضع تأليف صورت في نفسي موضوعاتها ،  
وبحثت قليلاً عن مراجع للاستعانة بها ، فلم يساعدني الوقت على البداية  
بها ، وتبعدت بما كان يضع من وقت في تحرير المجلة وفي أشغالى الأخرى  
فعزاني أستاذى الشيخ طاهر الجزائري بقوله : « إن المجلة تأليف وزيادة » ،  
وكان لا يرى تكبير حجم مجلة المقتبس ، وبؤثر تجريد المقالات ويوصي  
بكتابه مختصرة ، وعنه ان بعض ورقات جيدة التأليف أفضل من منه  
صفحة ملوءة حشوًّا وكتويلاً . ولذلك كنت أصرف جهوداً في تأليف  
المجلة أستقصي أبحاثها وانقل آراء العلماء المحدثين والقدماء . وتأليف مجلد  
كل سنة من مجلة مختلفة الموضوعات أصعب في الحقيقة من وضع كتاب

ذى موضوع معين ، خصوصاً إذا كان منشأها يكتب أو كثراً صفحاتها ، وينظر في مقالات مؤازرية نظراً بليناً ، ويتوخى أن تكون موضوعاتها من الطريف المفيد . ومن أين لصاحب المجلة أن يضع كتاباً ويحود فيه يومئذ والأبحاث تعرض له بالشرات ، وهو مضطر إلى قراءة أكثر من ثلاثة آلاف صفحة بالمرية والفرنسية والتركية كل شهر عدا الجرائد السيارة ويكتب كل يوم بضعة أعمدة في موضوعات شتى ، ويصحح مقالات وأخباراً لا يقع عليها العد .

كان صديقي الاستاذ رفيق بك الظهم كثيراً ما يحيطني على وضع التأليف المختصر ، وقد كتب لي مرة من القاهرة (١٣٢٢ هـ) يقول : « وبودي إلا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء متشربة وفصول مبتورة ، وأن توجه نفسك إلى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللامة نافعاً ، وأفضل ما يحتاجه قومك الآن التاريخ .. اقترح عليك هذا حرضاً مني على ملكتك العلمية أن تعفو في مستقبل الايام آثارها بين متفرق الجرائد وفي ثالياً المجالات والله موافقك وهاديك » .

كنت منذ القديم أفكراً في موضوع مشتت المادة متتنوع الأبحاث ، وهو وضع تاريخ سياسي ومدنى مطول للديار الشامية ، فان ما كتب في هذا الباب لم يحتم أصحابه حول الموضوع كثيراً ، وأخذت أبحث عن الكتب وأزور المعلم والمجاهل في هذا القطر ، واستكثرت من اقتناه الاسفار النادرة باللغات الثلاث المرية والفرنسية والتركية ولا سيما الاسفار العربية القديمة التي أحياها علماء المشرقيات من الغربيين . وكنت أطالع كل ذلك مطالعة تدبر والتقط جواهرها وما استوفيت البحث في خزانة مصر والشام وبعض خزانة الاستانة تعلقت همتي أن أرحل إلى أوربا ليتسع مي مجالي النظر في خزانة كتبها العربية والأفرنجية ، فمررت فكرتي على السيد مارتن هارغان من علماء المشرقيات الالمان وكان جاء دمشق وقت له إبني مزمع الرجل إلى باريز ولندن وأكسفورد وكمبريدج وليدن وبرلين ومونيخ

وأيسيك وغونا وفيينا ورومية والاسكوريا وجريط ، للبحث في خزانها  
عن خطوطات العرب في التاريخ ، فقال : إن الفكرة حسنة ولكنها غير  
عملية ، وتنفيذها يستغرق من وقتكم حولين على الأقل ، نحتاج فيها إلى  
نفقات طائلة ، فلابد أن تذهب إلى رومية ، وفي خزانة الامير كاباني  
صاحب كتاب تاريخ الاسلام صور صورها بالتصوير الشمسي من خزائن  
العالم ، فيها ما خلفه الثقات من مؤرخى العرب في تاريخ الاسلام ،  
ما لم يطبع حتى الآن ، فإذا زرت خزانته في التاريخ فكانك رأيت جميع تواريخ  
العرب المحفوظة إلى اليوم في خزائن الغرب . فقدت مصر وزodyn سديني  
أحمد زكي باشا بوصاة منه إلى صديقه الامير ليوني كاباني في رومية فقدمت  
عليه فرحب بي وسهل علي مهمتي ، فكنت كل يوم ابحث ثلاثة ساعات  
في الصباح في خزانته مدة شهر .

ولما نشب الحرب العالمية كانت بعض فصول الكتاب قد نجت . وأنا  
حاز في وضع التاريخ السياسي ، أجمله على الدول أم على السنين ؟ وحاز  
أيضاً في الكلام على كل اقليم باقليمه على النحو الذي عرفه العرب ،  
ويدخل الكلام على جغرافيته وطوبوغرافيته وتاريخه السياسي والمدنى ،  
ثم عدلت عن الطريقة التي اتبعتها في تأليفه بعد أن ألفت جانباً منه على  
الاقاليم ، واطلع أصدقاؤى عمان مردم وخليل مردم وبدر الداغستانى على  
مسودات « خطط الشام » وما جمعت له من المواد وأعدت له من المصور  
والابواب ، فلحوها على بانجاهه وطبعه ، وأرجأنا الأمر إلى ما بعد  
الحرب . ولا وضعت أوزارها أخذ السيد الداغستانى يحتفى كثيراً على طبع  
الكتاب ، وكان هو مثلى ومثل رفاقتى الذين كاشفتهم بالموضوع يخشون  
ضياع التعاليف التي علقها ، والمواد التي جمعتها بطول السهر والدؤوب  
وكنا كلنا نقول إن شيئاً يطالب باستقلاله حرى أن يكون له تاريخ  
يرجع إليه ، ويقول للأمم . هذا ما كنت عليه ، وهذا ما صرت به .

استطراد : أراد عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الكبرى أن  
أولئك له كتابا في سوريا الداخلية كما ألف له مجلدان في سوريا الساحلية  
( الأولى اللاذقية وطرابلس ونابلس وعكا ) فطلبت لاقيام بهذا التأليف ألف  
ليرة عثمانية ذهبية فاستظمم ما طلبت ، وقال إن تأليف الجزءين الخاسرين  
بولاية بيروت لم يكلف الواحد منها ملائمة ليرة عثمانية ورقية ، وكان  
من وضوحا وترجموها من الشبان المبتدئين أخذوا من المواد التي وقعت  
لهم من الكتب المتداولة ، وما عنّ لهم الخوض فيه من المباحث باديء  
الرأي . فقلت له إني في صدد تأليف تاريخ مطول في الديار الشامية  
وقد جمعت له مواد وقعت على غالبية جداً ، فقد انفقت على سياحتين لي  
الى اوروبا للبحث في الخزائن ، وعلى ابتعاث ما اضطررت الى ابتعاثه من  
كتب علماء الشرقيات في التاريخ والجغرافيا والرحلات والادب وغيرها  
مبلغاً لا يقل عن الف وخمسين ليرة عثمانية ذهباً ، صرفتها بجزءة على أعوام  
فإذا نزلت عن هذه المواد ، وكتبت كتاب سوريا الرسمي لا يقي للمواد  
التي جمعتها وانفقت عليها هذا الانفاق طلاوة ولا جدة ، فلم يقع  
انفاق يتننا .

واجتمعت بعزمي بك في الاستانة بعد أن تناهى عن ولايته - وكان من أذكياء الاتحاديين يغلب عليه الجدّ ويحرص على انهاض المسلمين - فقال لي إنه آسف لأنني لم أجرب طلبه إلى تأليف كتاب عن سوريا الداخلية ، فأجبته وأنا كذلك آسف لعدم اتفاذه أمرك . أنت استكثرت المبلغ الذي طلبته مع أنه دون ما صرفت ، وما كنت أتوقع من ذلك تجارة أترفع بها ، وربما لم تنس كيف وصلت إلى تلك المواد التي جنحتها بالجهود العظيم ، ثم خاطبته متهكماً : هل ألفت يا سيدى كتاباً فقط ؟ قال : لا ، قلت فإذاً هذه صناعتي ، وأنت أسمح لي أن أقول لك إنك لا تميز بين المؤلفين وما يؤلفون . قلت لي إنك أنفقت على ما ألف لك لولاية بيروت مبلغاً زهيداً على التأليف والترجمة ، وتقترح أن أجري على ما جرى عليه غيري ، وربما كان بعضهم يكتب

لك هذا بدون أجر ، لأنّه لم ينفق قرشاً على موضوعه من قبل ، ولا استمد له وهو منه خالي الدهن ، ويتطلّب في هذه الحرب الزبون أن يصون نفسه عن الدخول في الجنديّة ، ويتحمّل من اقطاعه إلى التأليف حجة لاعفائه منها ، والأزوج نفسه إن يكتب كتاباً ، وما كتب حياته كتاباً ولا رسالة ، وهو جالس في حجرته يأكل الأكل الجيد ، ويلبس اللباس الجيد ، وبينما النوم المادي ، على فراش وثير ، بعيداً عن الخطر في ساحات الوعي .

وقلت له إن من طبيعة الا اهين العلم ، وما سبق لي ان اسقطت قيمته ، بل رفعت من شأنه ما استطعت ، ولقد اتفقت في سبيل التعليم او لا نعم التعليم ثانية ثم نشر ما علمت ثالثاً ، نفقات لم ينفقها فيها احسب انسان من عرف من ابناء وطني ، وارجو الا لعد ذلك تبعحاً ، وان توقن ان هذا هو الحق . وبذلك لا أواخذ على رفض طلبك ، وطلبك ما كنت أعده تقضلاً علىَّ ، بل سخرة من سخرات الحرب المقوته ، حمدت الله على أن نجوت منها .

وكان عزّمي بك يمحاذري ويتقدّم أنني من جاءه جمال باشا ! وأذكر أنني كتبت مقالات في الحملة على المحتكرين البيروتيين في جريدة الشرق فما وسمه إلا أن شكرني عليها واستزادني منها ، وإن كانت ضمناً موجة إليه ، وكثير من طرف خفي إلى أنه ضعيف الادارة ، يتلاعب المحتكرون بالسوق ، وهو ساكت لا يدعي ولا يبعد .

وإذا صحَّ ان يكون لي تأليف زمن الحرب الكبرى فكتابان من كتب الدعاية أحدهما رحلة الوفد الشامي إلى الاستانة وجناق قلمة ، والثاني رحلة أنور باشا إلى المدينة ، وهما كتابان كتبتهما وطبعتها على نفقة الجيش ، وأنا غير راض عن أكثر ما فيها ، وما كتابان لغيري لا لي ، وفيها صورة من سياسة تلك الأيام ، وما كتبه الكاتبون والشعراء في معاونة الدولة المنامية وهي في أخرج أوقاتها . وبمحنت في الحرب في عدة خزائن عن الكتب النادرة ولا سبا خزائن دار السلطنة فالنقطة منها فوائد عظيمة .

وبعد الحرب عاد السيدان خليل مردم بدر الداغستانى ، وقد فجعنا بجيئنا عنوان بلك يحيان على شر ( خطط الشام ) وإهلان على أمر طبمه ، وأنا أحجم خافة أن أنكب بطبعه إذا طبته على نفقي كما نكتب بتأليفه . فاستقر الرأي على تأليف لجنة من أصدقائى خليل مردم ، بدر الداغستانى فوزي النزى ، فخرى البارودى ، لطفى الحفار ، سامي المظام . جمعت نفقات طبع الكتاب بالاشتراك فورد عليها من اشتراكات الشام ومصر وغيرهما ماطبمت به الاجزاء الستة اي نحو الف ليرة عثمانية ذهبية . وصدر طبع كتاب في الشام على هذه الصورة ، ودل طبمه على روح التساند بين أبناء الوطن الواحد ، وكان من النادر أن يشق القوم بانجاز كتب تطبع بالاكتتاب وايقنوا لتفتهم بهذه اللجنة أن الكتاب يطبع لاحالة ، فدفعوا الاشتراكات عن طيب خاطر . طبع من الكتاب ألفان وما بي من نسخه بعد الاشتراكات وهي نحو ألف نسخة أهديت منها للمجتمع العلمية والمخازن العامة وال محلات والاصحاب والفقراء نحو ملائمة نسخة ، وبيع الباقى ولم يرد على من دفع الكتاب مائتا ليرة اي نحو ثمن ما أنفق على تأليفه ، وعلى ثلاث رحلات رحلتها الى أوربا ، وعلى شراء الكتاب النادرة ، وانتقلت خمساً وعشرين سنة مقتبطة بوضع كتاب كبير في تاريخ بلادى وحضارتها قراؤه قومي وتعلموا فيه تاريخهم ، وأصبح مرجحاً للباحثين من العرب والافرنج كان صديق الاستاذ عارف النكدي يستبعد وضع تاريخ الديار الشامية ويقول إنه ضائع في تصاعيف التواریخ العامة مندرج فيها ، فلن الصعب استخراجها ، ولما انتشر الكتاب ورأى توفيقى في وضعه اعجب بما وفدت اليه فطلبت منه ان يكتب نقده في التأليف الجديد في مجلة المجتمع العلمي العربي ، فكان ينتقد كل جزء عند صدوره وانتفت بعض نقاداته ونشرتها في آخر الكتاب اسوة ماجاءني من نقد الباحثين والماء . ولم انشر تقريراً مع ان القاريظ الذى كتبت في الكتاب غير قليلة . ومن طبعى ان يتدرّب الناس على حب النقد للفائدۃ المتوقمة منه المؤلف وللناس وللعلم . ولذلك

لم اثر في كني قط ولا في المجالس والجرائد التي كتبتها تقريراً او شيئاً يشبه المدح في عملي بل كنت اثر النقد فقط . وهذا ما كان صدقي العلامة الاب انتاس ماري الكرملي يستغربه مني ، ولطالما قال لي إنه مارأى مؤلفاً في الشرق يتطلب النقد لطبعه ونشره .

نشرت (خطط الشام) في دمشق وكانت افضل طبعها في مصر لعلني بأن الكتاب الصادر عن القطر المصري بلقى قبولاً في العام العربي لا يكون مثله لكتاب يطبع في الاقطار العربية الاخرى ، وعاقت عن طبعه في وادي النيل مسألة التصحيح ، ومن الصعب ان اقضي فيه اشهرآ للنظر في تجذب الطبع . وطبعت في القاهرة كتابي ( غرائب الغرب ) وكانت الطبعة الاولى منه في دمشق ، وزادت هذه الغرائب ضعفين في الطبعة الثانية ، وهو في مجلدين فيما ما كتبته في المقتبس من مقالات في وصف المدينة الاوربية ومنها مقالات ايطالية وسويسرا كتبتها في لوزان في أيام قليلة ، وكانت أكتب ملائتا أو اربعاء منها في الحلسة الواحدة ، وتدخل كل مقالة في نحو خمسة أعمدة في الجريدة ، وكانت بنشاط غريب ، وقما كنت اعاده النظر فيها ثانية . وقع لي مثل هذه السرعة في الكتابة في مصر وقد قضيت فيها مرة سنته أشهر ، والحكومة تنظر في قضية سياسية على المقتبس بدمشق وصدرت الجريدة خلال تلك المدة ، وكان لزاماً على آن أكتب على الاقل مقالاتها الافتتاحية ، فكنت أجمع في ذهفي الموضوعات التي أريد معالجتها ، وأجلس يوم البريد صباحاً إلى مكتبي فأكتب حتى الظهر ست مقالات افتتاحية دفعة واحدة ، وارسلها لتنشر في جريدة على أسبوع .

وكثيراً ما كنت أقضي أشهرآ لتنشط نفسي لكتابه شيء ، وقد أكتب في شهر واحد ما لا يخرج من قلمي في سنة . وقما كتبت غير كتابة المواة ، وما اضطررت الى الكتابة التجارية إلا في الصحف السياسية على الاغلب . ولهذا النشاط والفتور عوامل نفسية كثيرة يعرفها من يكتب ويؤلف . وقد لاحظ بعض المارفين آن كتابي « غرائب الغرب » ( الطبعة الاولى منه )

كان في أوله رائفاً وفي نصفه الآخر جافاً . والسبب في ذلك أن الجزء الأول من هذا الكتاب كتب في بيته حافلة بالسرات ، كتب في باريز في غفلة الدهر ، والقسم الثاني كتب في داري القديمة في دمشق ، وكانت إذا أحببت أن أسرح نظري لا أجد أمامي غير جدار من الطين لا جمال فيه ولا شيء ينشئ الروح والصدر .

دعيت إلى مؤتمر المستشرقين في ليدن من بلاد القاع في صيف سنة ١٩٣١ وسألت رصافي أعضاء المجمع العلمي العربي عن الموضوع الذي يرون أن أخوض فيه هناك ، وقلت لهم إن كل عضو لا يسمح له الكلام أكثر من عشرين دقيقة ، على ما رأيت في مؤتمر المستشرقين في أكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وقد تكلمت فيه على نهضة العربية الأخيرة ، ولماون العرب والمستشرقين على التهوض بها ، وعلى نشر دفائهما المخطوط . فقال أحد الأعضاء صديقي الدكتور أسعد الحكيم : قل لهم إن الإسلام أصبح معروفاً عند الأمم بما نقل إلى لغاتهم من كتبه ، فليس من الائق بعد الآن بعض المؤلفين أن يطلقوا الشتم فيه بما لا يليق ، ولا أن يطعن بال المسلمين والعرب الطمن الذي لم ينشأ إلا عن أحقاد قديمة وتعصبات رديئة . فقال الأعضاء : هذا هو الموضوع . وقلت لهم : لبني كنت قيدت أشياء عرضت لي ولها صلة بما نريد فقالوا : تكلم بقدر ما عندك من المادة ولا يطلب منك الزيادة . فأخذت بدرس الموضوع درساً خفيفاً لا كتب فيه سبع صفحات . وما أزمت الرحيل حددت الحكومة لي مدة الرحلة أربعين يوماً فاستلمتها ، وعدات من تلقاء نفسي عن السفر ، وفرح رئيس الوزراء لأنه كان يود أن يذهب إلى باريز وكذلك وزير المالية ، فأبانت المفروضية أن نجحها إلى رغبتها إذ لا غاية ترجى من سياحتها . ولما عدلت عن الذهاب إلى ليدن انصرفت إلى درس الموضوع الذي اقترح عليَّ أن أعرض له في جلسات المؤتمر ، واتفق أن تركت الوزارة بعد حين فسيطرت على وقتي كما أشتوي ، وما زال الأفق يتسع ويمتد ، وأنا نحمدني نفسي أنني سأخذ مما كتبت محاضرات للمجمع العلمي حتى كتبت

أكثر من خمسة صفحات ، كان منها « كتاب الاسلام والحضارة العربية » طبع في مجلدين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، على نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد سلخت في تأليفه ثلاثة سنين لم أنقطع فيها يوماً واحداً عن التأليف ، ومرة اشتغل كل يوم ثمان ساعات فما كثرا . وشاهدت بسيراً في التقاط مادته ما وقع لي في تأليف كتاب غيره . فكنت أذكر ما تلوه من ثلاثة أو أربعين سنة في هذا البحث أو المباحث فاستط في الحال على ما أتخى ، وقرأت ورجحت إلى أكثر من خمسة مصنف باللغات الثلاث وقال بعض العارفين إنه أجود كتب تأليفاً ، وذلك لأن موضوعه عام جذاب يحتاج إلى الرجوع إليه الموافق والمخالف . والكبير والصغير ، والمغربي والأفريقي . وما كتب إلى الامير شبيب أرسلان فيه : « أنا معتقد أنك وقت فيه توفيقاً كبيراً وأنه خير ما كتبت بل من خير ما أخرج من الكتب في هذا مصر ، ولعمري إن هذا الموضوع كان يهوا زه كتاب جامع محيط بأطرافه كهذا الكتاب سدًّا هذا العوز ، وكفى الناس مساعدة نشان الأدلة من هنا ومن هناك ومن هناك . إلى أن قال : ولذلك مست الحاجة إلى وضع كتاب يضيق معه مجال المغالطة في فضل العرب ، ويأخذ على المكارين أو المتجاهلين أفواه الطرق ، فكان هذا الكتاب الذي أرجو أن ينقل إلى لغة مشهورة من اللغات الأوربية فانا نحن في حاجة إلى أن يعلموا هم عنا أكثر مما نحن في حاجة إلى أن نعلم نحن عن أنفسنا ». س

وكتاب « الاسلام والحضارة العربية » صورة من حالة العرب قبل الاسلام وحالتهم بعده ، فيه اشارات إلى تأثيرات الاسلام ولقته في الاقطار المغلوبة ، ومناقشة من نالوا من الاسلام والعرب وكتبوا فيها بالمرى ، والاستدلال على نقض آفواهم بكلام علماء منهم تكلموا نازعين ربقة التعصب الديني . وقد ردت فيه أمهات الشبه التي أوردتها الشعوبيون أعداء العرب والاسلام ، وعرضت لما أثر الاسلام في اوربا من طريق الاندلس وصقلية ، وما كان من الخير لهاتين الجزرتين وما والاها من حضارة

العرب ، وعرضت ما كان من تخريب التاريخ من الشرق والغرب والصلبيين من الغرب في كيان العرب والإسلام ، وما كان من غارات المستعمرات على ديار الإسلام والشرق عامة ، وما أخذه الأفرنج من علوم العرب ، وما أخذه هؤلا عن الأمم الحديثة لما حاولوا النهوض في العصر الماضي ، وذكرت مائتي به الإسلام من علوم خاصة به ، وما عبته به المابشون في هذا الشأن في المصور التالي مما كان فيه تدللي أهله . وأفضت في سياسة الأمة العربية والأمم التي خلفتها كالترك والبربر والشراكسة والاكبراد والفرس والهنود . وتوسعت في إدارة الحكومات التي تولت على أرض المسلمين من عهد صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام إلى يوم الناس هذا . فكان من هذين الفصلين الآخرين موجز من تاريخنا فيه زبدة ما يحب حفظه من تاريخ الإسلام والعرب .

وحضرت بعض فصول هذا الكتاب في الادارة الاسلامية في دار الجمعية الجغرافية الملكية بمصر فتصدىت السيدة قوت القلوب هانم الدرداشية في مصر لطبعها فطبعتها باسم « الادارة الاسلامية في عز العرب » وهذه المحاضرات دخلت منقحة في الكتاب وهي مقطعة منه عندما كان تحت الطبع . كما فصل طابع كتابي « غرائب الغرب » اقتطع منه مقالات « غار الاندلس وحاضرها » ونشرها على حدة بعد نشرها في « غرائب الغرب » وكذلك رسالة « الحكومة المصرية في الشام » فإنها حاضرة دخلت في كتابي « خطط الشام » .

وقضيت عاماً وبعض عام في وضع كتاب (أمهات البيان) وكتبت كتب بعض فصول منه حضرت بها في ردهة الجمع العلمي ونشرتها في مجلته ، ثم رجعت إليها وحذفت منها وزدت . وهذا الكتاب من الكتب التي جمعت مادة في نحو عشرين سنة أي منذ تجنبت موضوعه . وجاء في مجلدين أيضاً وطبعه كصنوه لجنة التأليف في مطبعتها بالقاهرة وكان الداعي الأكبر إلى تأليفه بيان فضل المنشئين على البلاغة وعلى الأفكار وذلك على الطريقة

الغربية الحديثة في التحليل والنقد. هذا بعد أن رأيت المؤلفين من القدم  
يمتنون بالشعر والشعراء فقط ، ولم يمتنوا النسنية المطلوبة بالكتابة والكتاب  
وهم الذين خلقو لنا مؤلفاتهم ورسائلهم وعلمونا أكثر من الشعراء .  
والشعراء على الأغلب ما عرقو غير المدح والمجاهد والزهاد والاجداد ،  
وزادوا الناس من بضاعة الكذب ، وعلموهم المبالغات والافلو . وهذا الكتاب  
تقرر في دراسة السنة الخامسة التوجيهية في المدارس المصرية العالية وكان  
 بذلك أول كتاب عربي لمؤلف غير مصري الجنسية بدروس في وادي النيل  
 على مالظن وكذلك درس في كلية الآداب كتاب الإسلام والحضارة العربية .  
 وفي خلال هذه الفترة نظرت نظرة نابية في ترجمة ( تاريخ الحضارة )  
 وكانت نشرته تباعاً في الجلة وأخرجت منه الجزء الأول ( ١٩٠٨ ) واعتمت  
 ترجمة الجزءين الآخرين منه ولم يطبعا كما لم يطبع كتاب محاضراتي الأخيرة  
 في مصر والشام وهي تبلغ نحو مائتين محاضرة . وكانت جانباً من  
 ( كنوز الاجداد ) ولم أتعه . واحتسبت بالطبع كتاب سيرة أحد بن طولون  
 للبلوي من أهل القرن الرابع ، وعلقت عليه شروحاً وتفايداً وطبعته في دمشق .  
 وبهذا الكتاب تجلت لنا نواحٌ كانت غامضة من سيرة هذا الرجل العظيم ،  
 ومن تاريخ مصر والشام في القرن الثالث وما إليها ، ومن علاقة مصر  
 ببغداد والخلافة العباسية يومئذ ، وفيه قصص جميلة يتمثل بها ابن طولون  
 للأعين بادارته وسياساته ، وذكائه ودهائه ، ولينه وشدته . وقال صديقي  
 الملامة كرنوكو : « إن هذا الكتاب فتح باباً جديداً لمعرفة ذاك الدور  
 الطولوني العظيم الذي تقلُّ الأخبار الأكيدة عنه ، لأنَّ الطبرى على  
 جلالته قدره في التاريخ كان على ما يظهر مقللاً من حوادث مصر والشام  
 في عهده » .

ومن التأليف التي وضعتها زمن الحرب الأخيرة ولا تزال في المخطوطة  
كتاب المذكرات وكتاب سمته أقوانا وأفعالنا ( طبع في مصر ) وهو في  
بعض مشاكلنا الاجتماعية والسياسية . وكتاب المذكرات اشبه بمجموعة يومية

وكتاب الأقوال والأفعال يشبه مقالات الجلات الملمعة وفيه ما طرأ على منذ وعيت إلى الآن . كان الفضل في تأليفه لصديقي عام تونس سيدى حسن حسني عبد الوهاب ، ولطالما حتى على تدوين ما كنت أقص عليه مما وقع لي ويقول أن في تدوينها كل فائدة لقراء العربية . وعندت بتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي علقت عليه وخدمته ( طبع ) ومن التأليف التي وضعت بعض أقسامها وهيأت لها موادها « معجم القرى الشامية » ثم ملت منه ولم أمه بعد أن اضفت فيه وقتاً وهو كتاب مفید لكنني أصبحت أحب أن أكتب ماقبلي فكر أكثر من الكتب التي لا يتطلب فيها غير ل الصحيح النقل وقد مزقت الجزازات التي أنهيتها منه حتى لا أعود إلى البحث فيه واقتراح علي في خريف سنة ١٩٤٣ أن أكتب لسلسلة أقرأ مختصرًا في وصف مدينة دمشق وتاريخها واقتصادياتها وغوطتها فكتبه في ١٥٠ صفحة صغيرة . ونشرت كتاب المستجاد في فعارات الأجواد للقاضي التنوخي وأنا أعد للطبع كتاب البيرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي . وطبعت كتاب الأشربة لابن قتيبة وعلقت عليه . وعندت بوضع تاريخ غوطـة دمشق منجزت فيه الزراعة والإدارة والأدب وهو يطبع الآن في جملة ما يطبعه المجمع العلمي العربي من مطبوعاته . هذه تآلبي والداعي إلى وضعاها ، ولو كنت خصصت أو قاني كلها للتأليف ، ولم أصرف أعوااما في السياسة ، وكانت مجموعة ما كتبت أكثر ولو كنت أحسن الدعاية لتألبي لصادفت رواجاً أكثر مما سادفت ، ومع هذا انتشرت في اقطار بعيدة ما كان يحول في الخاطر أنها وصلت إليها . والعزاء الوحيد في الكتاب أن لها قراء في الأمصار تتناولها السنة بعد السنة إذا كانت مفيدة وصالحة للبقاء ، وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها أكثر من شهرتها في حياته . وبعد ذهاب المؤلف من الأرض يقدر بقيمة الحقيقة . ورجائي أن يكون ما كتبت خالصاً لخدمة الأمة العربية ، وألا يكون ما خطته يعني مما يسود الوجه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

# فهرس الجزء الأول من المذكرات

ص		ص
	روح المذكرة	٤
	لقب أسرنا	٥
١٢٥	ذكريات الطفولة	١٠
١٢٧	عوامل التطبع	٢١
١٣٠	العادون عن العمل	٢٧
١٣٧	أخلاق بعض القضاة	٢٩
١٤٠	العلماء يخترقون	٣٢
١٤٤	أدب (الرسائل والرسائل)	٣٤
١٤٨	امي ماحب أخلاق	٣٦
١٥٢	اجتماعات مفيدة	٣٨
١٥٨	شراؤنا - شر أمس خيراً	٤٠
١٦٦	فقد اليسة الغالي	٤١
١٦٩	ما يغلب على مدن الشام	٤٢
١٧٤	أنصار آلهة	٤٣
١٨٤	التطويب في المقالات - الرافي مؤرخ مصر	٤٤
١٩٤	شمال تمور	٤٥
٢٠١	الثاميون في مصر	٤٦
٢٠٩	الاشتغال بالصحافة	٤٧
٢١٥	الصحافة أيضاً	٤٨
٢١٩	ناظم بانا والمقتبس	٤٩
٢٢٦	الأخلاق الطيبة	٥٠
٢٣١	لنان	٥١
٢٣٦	جمعية الاتحاد والترقى	٥٢
٢٤٢	سلطان الأعيان	٥٣
٢٤٦	نجوت من الداروبي وجل الدروز	٥٤
٢٥١	في المزيتين	٥٥
٢٥٨	شبك نجوت منه ونجوت به	٥٦
٢٦٦	والى سوريا خلوصي بك	٥٧
٢٦٩	جال بانا والمقتبس	٥٨
٢٧٣	الجاسوس الساق	٥٩
٢٧٠	المطوعون بالجاسوسية	٦٠
٢٨٧	السياسيون والصحافيون	٦١
٢٩٦	عنول الاخاذين والانكىز	٦٢
٣٠٣		
٣٠٧		

